جامعة دمشق
كلية الآداب
قسم التاريخ

دمشق بين سقوط الفاطميين وظهور الأيوبيين
٤٦٨- ٥٦٩هـ \ ١٠٧٥- ١١٧٣م
دراسة اقتصادية اجتماعية

رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في الآداب
قسم التاريخ - تاريخ العرب والإسلام

إعداد: عبد المعين محمد طاهر الشواف

إشراف: أ. د. إبراهيم محمود زعرور

العام الدراسي
٢٠٠٧- ٢٠٠٨م

فهرس المحتويات	الصفحة

الإهداء

إلى أولادي : فراس وفخر وناصر و شوّاف
الذين صبروا عليّ في حلّي وترحالي

وإلى أحفادي الغوالي

وأرجو منهم جميعاً أن يكون هذا البحث رسالة من والدهم وجدهم
ليتابعوا النهج العلمي النبيل في هذه الحياة

بطاقة شكر

إلى أستاذي الأستاذ الفاضل الدكتور إبراهيم زعرور

الذي تابعني منذ بداية عملي علمياً ومعنوياً

وذلل الصعوبات التي واجهتني

وزرع في نفسي الأمل مع الإرادة

ـ الـمقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين

ما يزال تاريخ دمشق عاصمة الأمويين وأقدم مدينة في التاريخ محاطاً بـالغموض فـي جوانب كثيرة منه .

ذلك أنه بعد سقوط الدولة الأموية ، التي كانت بمثابة العصر الذهبي للعروبـة والإسـلام والحضارة ، دخلت دمشق في عصور مظلمة وصارت هدفاً لسهام الجميع .

فالعباسيون ، ومن ورائهم الفرس ، جعلوها هدفاً لهم ومارسوا فيها مـن أعمـال الهـدم والتقتيل ونبش القبور وطمس الآثار ما هور مشهور ومتواتر في كتب التاريخ ، وذلـك لأن العروبة والإسلام اكتسحا المشرق إلى الصين ، وأزالا من طريقهما حكومات وأجناس حاقدة على العروبة ، متظاهرة بالإسلام ، كانت تتربص بالدولة الأموية وتنضم إلى كل مارق وثائر ومعارض في سبيل الانتقام من دمشق العدو التقليدي للشعوبيين ، تحت شعارات ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب .

وأوربا بدورها ، لم تنس أن جيوش دمشق وصلت إلى قلب فرنسا وكانت تنـوي نـشر حضارتها في أوربا لو قدّر الله لها ذلك ، وعلى الرغم من هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء ، فإن دمشق أصبحت العدوّ اللدود للغرب ، وقد انعكس ذلك عليها إبان الحـروب الـصليبية القديمة والحديثة ، ودمَّرتها فرنسا بقنابلها في سنة ١٩٢٥م ، في محاولة واضـحة لتـصفية الحسابات المتراكمة مع دمشق منذ أيام بني أمية وحتى أيام نور الدين وصلاح الدين .

والشُّعوبيّون الذين انتشروا في الشام على مدى عدّة قرون ، كانوا يعدّون دمشق عـدوهم الأوّل لأنها كانت عقبة أمام مخططاتهم وأهدافهم التي لا تمت إلى العروبة والإسلام بسبب .

وهناك الأمراء الطامعون في الجلوس على الكرسي الذي جلس عليه خلفـاء بنـي أميـة الفاتحين في دمشق ، فدمَّروا دمشق في سبيل أهدافهم .

وباختصار كان أعداء دمشق ، ولا يزالون ، أكثر من أصدقائها ، وقد فعلـوا كـل مـا بوسعهم لإنهاء دمشق ، ولكنها كانت رغم ذلك كله ، تقف من جديد على أقدامها في الوقـت الذي كان يظن الجميع فيه أنها قد انهارت واندثرت .

والذي يقرأ تاريخ دمشق منذ سنة ١٣٢ هـ وحتى سنة ٤٦٨ هـ ، يستعجب مـن شـدة وهول الضربات التي كانت توجه لها ، ويزداد إعجابه عندما يراها انتقلت من الـدفاع إلـى الهجوم ، ثم واجهت أعداءها فرادى ومجتمعين وانتصرت عليهم ووقفت في وجـه أشـرس الحروب في العالم ، حروب أوربا الصليبية وهزمتها .

لقد كان الغرب يفكر بإعادة دمشق (البيزنطية) إلى الوجود وبثّ عملاءه في كل مكان ، وهم يتبجَّحون بمخططاتهم المكشوفة وازدرائهم وتحاملهم على كل ما هو عربي إسلامي ، ووقف هؤلاء جميعاً مع الغزاة القتلة الذين احتموا خلف الأوهام ، وقاومت دمشق وانتصرت دمشق وصمدت دمشق وما تزال .

ورغماً عن ذلك كله ، فإن أهلها ، فضلاً عن غيرهم لا يكادون يعرفون من تاريخها إلا بعضاً من خلفاء الأمويين ، ثم نور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس ، وفيما عدا ذلك لا يعرفون شيئاً لأنه لم يقيَّض لدمشق مؤرخ يخلّدها مثل ما فعله المقريزي بالقاهرة ، وكل ما كتب عن دمشق مؤلفات معدودة يعرف الناس أسماءها ولا يعرفون مضمونها ، ولا يكاد الإنسان يجد مؤلفاً شاملاً عنها منذ عصرها الذهبي وحتى اليوم .

وهذا ما دفع بنا إلى محاولة تغطية فترة خطيرة ومهمّة من تاريخ دمشق منذ سقوط الفاطميين سنة ٤٦٨هـ وحتى وفاة نور الدين الشهيد ، رحمه الله ، سنة ٥٦٩هـ .

وقد تحدَّثنا في هذه الدراسة التي استغرقت ستة فصول عن تاريخ دمشق السياسي والاقتصادي والاجتماعي حسبما هو آت .

الفصل الأول : وتناولنا فيه الأوضاع السياسية الداخلية والخارجية ، وأهم المواجهات بين دمشق والفرنجة ، وتوسعنا توسعة خاصة في عهد نور الدين الشهيد لما كان له من إنجازات عمرانية وحضارية وعسكرية في دمشق وبلاد الشام ، وذلك لأنه يصعب فصل الحياة السياسية عن الحياة الاقتصادية في أي بلد .

الفصل الثاني : وعنوانه قواعد الحياة الاقتصادية في دمشق ، وذكرنا ما فيها من القواعد الأساسية للاقتصاد وتشمل :

العوامل المنشطة للاقتصاد مثل مساعدات الحكام ووفرة الأراضي الزراعية ونشاط السكان والموقع الممتاز .

وتحدثنا فيه عن ملكية الأرض الزراعية ونشاط المدن الاقتصادي وأنواع الانتاج الزراعي وفوائده .

وتحدثنا في الفصل الثالث : عن الصناعة والتجارة والأوزان والمقاييس والعملات ودُور ضرب النقود وعن أسواق دمشق وما تحتويه من بضائع محلية ومستوردة وما كان يجري فيها من أمور النصب والاحتيال والغش والتدليس ، ودور المحتسب في قمع ذلك كله.

وكان الفصل الرابع: عن تاريخ دمشق الاجتماعي – الأصول والمذاهب – تحدثنا فيه عن المسلمين السنة من العرب والتركمان والأكراد والمغاربة ، ثم تحدثنا عن الشيعة والدروز والإسماعيلية .

وختمنا الفصل بدراسة موسعة لليهود في دمشق بفئاتهم الثلاثة : القرّائين ، والربانيين ، والسامرة ، وعن أعدادهم وأعيادهم ودورهم في مجتمع دمشق ، ثم ختمنا الفصل بالحديث عن فئات النصارى الخمس التي كانت في مرحلة الدراسة .

وتحدثنا في الفصل الخامس : عن فئة الحكام من أرباب السيف والقلم ، وعن العلماء والمذاهب الفقهية والمتصوفة ، وعن المحكومين من العامة والأحداث والجواري والأسرى ، وأخيراً تحدثنا مفصلاً عن وضع المرأة الحاكمة والمرأة العالمة والمرأة المجاهدة ، ونساء العامَّة ، والنساء في الجانب الغربي تحت حكم الفرنجة.

وختمنا البحث **بالفصل السادس:** الذي تحدثنا فيه عن حوادث دمشق اليومية ، وعن العادات والتقاليد والملابس والموسيقى والغناء والمتنزهات والحمامات والأعياد والمآتم ، وقافلة الحج والصحة والمرض والشطّار والجريمة والعقاب .

وكانت الخاتمة بعنوان : ملامح المجتمع الجديد ، شرحنا فيها صفات المجتمع الشرقي-الغربي الذي تكون في الشام بعد استقرار الفرنجة واختلاطهم بالسكان العرب واختلاط هؤلاء بهم.

ولقد كان منهجنا في هذه الدراسة يسير على النحو الآتي :

- الاعتماد على المصادر الأولية والمعاصرة ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً .
- الاستئناس بالمصادر الأخرى ولا سيّما إذا كانت قد اعتمدت على مخطوطات ومؤلفات مفقودة مثل صبح الأعشى وخطط القاهرة والسلوك ومسالك الأبصار وما إليها .
- الاستفادة من الرسائل الجامعية والمصادر الحديثة فيما يتعلَّق بالمصادر الموجودة فيها وطريقة معالجتها للموضوعات .
- الاستفادة من بعض الوثائق الموجودة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق والتي قدمت لنا معلومات مهمة أغنت البحث .
- معاينة ما أمكننا الوصول إليه من المواقع الأثرية ذات الصلة بالبحث وتصويرها ، مثل قبة طرخان في مرج الدحداح والمراسيم المنقوشة على أعمدة الجامع الأموي ، والمدرسة العمرية والحنبلية والنورية وغير ذلك مما ورد في البحث .

أما المصادر الأجنبية فإنه على الرغم من ندرتها فيما يتعلق ببحثنا فقد أفدنا مما وجدنا على قلته .

ولقد حاولنا جاهدين أن نسأل من نتوسم فيه العلم والخير عن مواقع المنشآت العمرانية التي ذكرناها ، وعن المصادر التي يمكن أن تساعدنا .

وقد وردت في الفصل الأول أسماء عديدة لعدد من الأماكن والشخصيات ، ورد التعريف بها في الفصول اللاحقة.

وأخيراً لابد من تقديم الشكر الجزيل لأستاذي الدكتور إبراهيم زعرور على ما قدّمه لـــي من توجيهات ونصائح كان لها الفضل في كثير مما ذكرته في هذا البحث والذي أتحمَّل وحدي ما فيه من أخطاء لا يخلو منها بحث ، والعصمة لله وحده وفوق كل ذي علم عليم ، والحمد لله في الأولى والآخرة .

التعريف بأهم مصادر البحث

أولاً : المصادر المطبوعة :

آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني : زكريا بن محمد – دار صادر – بيروت – ١٩٦٠م ، والكتاب موسوعة جغرافية اجتماعية شاملة للعالم الإسلامي وما يحيط به .

إحياء علوم الدين : للإمام محمَّد الغزالي – ٥٠٥ هـ – بتحقيق عبد الله الخالدي ، دار الأرقم – بيروت ١٩٩٨م ، وفي الكتاب معلومات عن الحياة الاجتماعية في عصر المؤلف ، وهو أشهر من أن يُعرَّف .

الإشارات إلى أماكن الزيارات : للهروي : أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي – ٦١١ هـ – نشر المعهد العلمي الفرنسي بدمشق سنة ١٩٥٣م ، وفي الكتاب وصف لبلاد الشام ومدنها وطرقها وزراعتها ونشاط سكانها في عصر المؤلف .

الإشارة إلى محاسن التجارة : لجعفر بن علي الدمشقي – دار صادر – بيروت ١٩٩٩م ، يتحدث مؤلفه عن التجارة والعملات والغش والتدليس عند التجار وعملائهم ، وهو مثل نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، جديد في بابه ، قلَّما يؤلف مثله وفي موضوعه .

الاعتبار : لأسامة بن منقذ ، تحقيق فيليب حتي – برنستون – أمريكا ، سنة ١٩٣٠م. والكتاب من أكثر المصادر أهمية فهو معاصر وفيه معلومات تاريخية وتجارية وأدبية وعسكرية واجتماعية طريفة ودقيقة للمرحلة التي ندرسها .

وفيه ميزة انفرد بها عن غيره ، وهو أن مؤلفه أمير فارس ، له علاقات حسنة مع العشرات من السلاطين والأمراء والملوك في بلاد الشام ومصر وفي الأرض المحتلَّة ، وقد وصف لنا الأحوال الاجتماعية للفرنجة ، واختلاف عاداتهم عن عادات المشارقة فهو من الكتب الشاملة الجامعة الممتعة ، وهو عموماً أشهر من أن يُعرَّف .

الأعلاق الخطيرة ، قسم دمشق : لابن شداد : محمد بن علي ٦٨٤ هـ .

تحقيق الدكتور سامي الدهان – ونشر المعهد الفرنسي للدراسات العربيَّة بدمشق ١٩٥٦م ، والكتاب مهم ويعتمد على ابن عساكر ، مع إضافات قيّمة .

ومن الكتاب جزء عن لبنان وفلسطين والأردن ، طبع سنة ١٩٦٢م ، بتحقيق الدكتور الدهان ونشر المعهد المذكور .

إمارة حلب : لسهيل زكار – دار الكتاب العربي ، دمشق ١٩٨٨م .

استفدنا منه في حديثه عن الأحداث ونشأتهم ودورهم الاجتماعي .

أمراء دمشق في الإسلام : للصلاح الصفدي : خليل بن أيبك ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٥م .

البداية والنهاية : لابن كثير : إسماعيل بن عمر ٧٤٤ هـ ، وهو من تحقيق الدكتور عبد الله التركي ، دار عالم الكتب بالرياض ط٢ – ٢٠٠٣ م– في عشرين مجلداً ما عدا الفهارس

التي خصص لها الجزء الحادي والعشرين ، وهذه هي أفضل طبعة لهذا الكتاب من حيث الدقة والوضوح في الفهارس .

بيمارستان نور الدين : لصلاح الدين المنجّد – دمشق ١٩٤٦م – وقد نقلنا منـه بعـض النقوش المدوّنة في البيمارستان ، وتطوّر البيمارستان حتى إلغاء دوره تماماً .

تاريخ الإسلام : للحافظ الذهبي : محمد بن أحمد ٧٤٨ هـ ، ونشر دار الكتاب العربـي في بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م ، وهو في أربعين مجلداً لكنها غيـر مرقّمـة ، ولـذلك يصعب الحصول على المعلومات أو إحالتها على الكتاب المذكور .

تاريخ الأنطاكي : ليحيى بن سعيد الأنطاكي – ٤٥٨ هـ – تحقيق عمر بن عبد السـلام تدمري ، طرابلس لبنان ١٩٩٠م ، والكتاب من أهم المصادر عن الفترة التي تسبق مرحلتنـا الدراسية مباشرة وفيه معلومات قيمة ودقيقة ولا سيما عن أوضاع الفئات غير الإسلامية فـي الشام في القرن الخامس .

تاريخ الحروب الصليبية : لستيفن رنسيمان – وترجمة السيد الباز العريني – دار الثقافة بيروت ١٩٨٠م – الطبعة الثانية – ٣ مجلدات .

والكتاب من أهم المصادر عن الحروب الصليبية التي تعكس وجهـة نظـر المـؤرخين الشرفاء – على قلتهم – في أوربا ، والذين تحدثوا عن مجازر الصليبيين باشمئزاز واستهجان واستنكار ، وهو أمر قل أن نشاهده في هذه الأيام .

التاريخ الباهر : لابن الأثير : علي بن محمد الشيباني – ٦٣٠ هـ – تحقيق عبد القـادر طليمات – القاهرة ١٩٦٣م ، ومؤلفه أدرك في شبابه عصر نور الدين وسجّله وهو عمدة لمن نقل عنه مثل أبي شامة ، لأن المؤلف كان يروي عن والده الذي اجتمع مع نور الدين.

تاريخ الحروب الصليبية : لسهيل زكار – دار الفكر دمشق ١٩٩٠م ، جـزءان ، وهـو ترجمة لكتاب مؤرخ الحروب الصليبية ((وليم الصوري)) أسقف صور الفرنجـي ، الـذي ترجمه الدكتور زكار وعلق عليه ، وهو يعكس وجهة نظر الصليبيين الحقيقية تجاه الإسـلام والعالم الإسلامي ويبيّن حقيقة الدوافع الكامنة وراء الحروب الصليبية ، ودور رجـال الـدين والأمراء في التحريض عليها وقيادتها ، وما ذكره وليم الصوري في هذا الكتاب يمثل وجهـة النظر الصليبية الحالية لأقطاب الاستعمار الأوربي الأمريكي الجديد .

تاريخ حلب : للعظيمي : محمد بن علي – ٥٥٦ هـ – وتحقيق الدكتور إبراهيم زعرور ، دمشق ١٩٨٤م .

تاريخ دمشق : لابن عساكر : علي بن الحسن ، وهو المصدر الأهم لدمشق .

وقد طبعت أجزاء منه في المجمع العلمي العربي ، ثم طبع طبعة كاملة سقيمة وكثيرة الأخطاء وسيئة الفهرسة ، بتحقيق علي شيري في دار الفكر بدءاً من سنة ١٩٩٥م وصدرت في سبعين جزءاً مليئة بالأخطاء ، ثم أعقبها بعشرة أجزاء أخرى للنواقص والفهارس .

وعلى الرغم من أهمية الكتاب إلا أن الفائدة منه محدودة بسبب ما ذكرنا ولا سيما لعدم وجود فهارس علمية دقيقة له ، وهو كما قلنا من المصادر الأساسية للبحث .

تاريخ الفارقي : لأحمد بن يوسف الفارقي – بعد ٥٧٧ هـ – تحقيق بدوي عبد اللطيف ، دار الكتاب اللبناني – بيروت ١٩٧٤م – والكتاب من المصادر المهمة عن تاريخ الشام ، مثل تاريخ الأنطاكي والعظيمي والقلانسي .

تاريخ مختصر الدول : لابن العبري : وهذا الكتاب يمثل وجهة النظر لسكان الشام النصارى ، وهو متعاطف تماماً مع حروب الفرنجة ، بينما يمثل كتاب وليم الصوري وجهة النظر للصليبيين الحقيقية بدون زيف أو تجميل .

تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء : للصلاح الصفدي : خليل بن أيبك ، وتحقيق السيدة إحسان خلوصي وزهير حميدان – وزارة الثقافة دمشق ١٩٩١م – جزءان ، وفي الكتاب أسماء حكام دمشق حتى عصر المؤلف .

تلبيس إبليس : لابن الجوزي – القاهرة – المطبعة المحمدية سنة ١٣٦٨هـ ، والكتاب فيه ذكر للعادات الاجتماعية للناس في مختلف البلدان .

الثغر البسام في قضاة الشام : محمد بن طولون – دمشق المجمع العلمي العربي ١٩٥٦م بتحقيق صلاح الدين المنجّد ، ومن الضروري التنويه هنا إلى أن المجمع المذكور صار اسمه بدءاً من سنة ١٩٦٠م مجمع اللغة العربية ، ولذلك ترد التسميات هنا ، بحسب تاريخ طبع الكتاب . وفي الكتاب ذكر لقضاة الشام حتى نهاية عصر المماليك .

الحياة الإجتماعية في العصر الأيوبي والمملوكي في بلاد الشام : لإبراهيم زعرور – دمشق – مطبعة الجمهورية ١٩٩٣م ، والكتاب رسالة دكتوراه بإشراف الدكتور سهيل زكار من جامعة دمشق سنة ١٩٩٠م ، وفيه معلومات متنوعة عن الحياة الاجتماعية في بلاد الشام ، وفيه مصادر عديدة تفيد الباحث .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عهد البوريين : لسمر الزاهد ، رسالة ماجستير من جامعة دمشق قسم التاريخ سنة ١٩٩٠م بإشراف أمينة البيطار .

الرسالة حافلة بالمصادر والحواشي حتى إنها تجاوزت العشرين حاشية في الصفحة الواحدة ، وليست جميع المصادر مختصَّة بعصر البوريين ، بل إن فيها مصادر كثيرة قبل عصرهم وبعده بزمن طويل ، وهي رسالة عُنيت بالهوامش على حساب المادة العلمية سبكاً وانسجاماً ووضوحاً .

خريدة القصر : للعماد الأصفهاني بتحقيق الدكتور شكري فيصل قسم شعراء الشام وقـد صدر في تواريخ مختلفة في أربعة أجزاء عن شعراء دمشق والشام والشعراء من بني أيـوب بين سنة ١٩٥٥ و ١٩٦٨م ، بدون ذكر رقم الجزء ، ولا يميّز هذه الطبعات إلا تاريخها ، وقد دوّناه في الهوامش وللجريدة أجزاء أخرى في شعراء مصر والمغرب والعراق .

خطط دمشق : لأكرم حسن العلبي ، دار الطبـاع دمـشق - ١٩٨٩م ، وفـي الكتـاب معلومات دقيقة عن أحوال المدارس والمنشآت العمرانية في دمشق في المرحلة التي ندرسها .

خطط القاهرة : للمقريزي : تقي أحمد بن علي المقريزي - ٨٤٥هـ ، تحقيق الـدكتور أحمد فؤاد السيد - لندن ٢٠٠٢-٢٠٠٤ ، ٦ مجلدت . والكتاب غني بمعلوماته أصلاً ، وقـد تضاعفت قيمته العلميَّة كثيراً بالتحقيق العلمي النموذجي الذي لم يسبق له مثيل ، فيما نعلـم ، وبالفهارس العلمية الدقيقة التي استغرقت مجلداً بحاله .

الدارس في تاريخ المدارس : للنعيمي عبد القادر بن محمد النعيمي - تحقيق أبـو هيـثم شمس الدين - بيروت - دارالكتب العلميَّة ١٩٩٠م - مجلدان والكتاب مشهور وغنـي عـن التعريف .

دمشق والمملكة اللاتينية : لوفاء جوني : رسالة دكتوراه من جامعـة دمـشق ١٩٩١م ، بإشراف الدكتور سهيل زكار ، والرسالة غنية بمصادرها ومعلوماتها .

ديوان ابن حيّوس الدمشقي : لمحمد بن مصطفى بن حيّوس - ٤٧٣هـ ، تحقيق الدكتور خليل مردم بيك - المجمع العلميُّ العربيُّ بدمشق ١٩٥١م ، وفي الديوان لمحات من الحيـاة الاجتماعية في دمشق ، شأنه في ذلك شأن الدواوين التالية :

ديوان ابن عُنين : لابن عنين : محمد بن نصر الله ٦٣٠ هـ ، تحقيق خليل مردم بيك ، المجمعُ العلمي العربي ، دمشق ١٩٤٦م .

ديوان عرقلة الكلبي :لعرقلة الكلبي : حسان بن نمير ، تحقيق أحمد الجندي ، بيـروت ، دار صادر ، ١٩٩٢م .

ديوان فتيان الشاغوري : لفتيان الشاغوري بن علي - ٦١٥ هـ ، تحقيق أحمد الجندي - ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٦م .

ديوان القيسراني : لمحمد بن نصر القيسراني ٥٤٨ هـ ، جمع وتحقيق عادل جابر صالح - الاردن - ١٩٩١م ، وهذا الديوان هو صورة حيَّة عن الحياة في دمشق من جوانبها جميعاً في النصف الأول من القرن السادس .

تاريخ دمشق : لابن القلانسي : حمزة بن أسد التميمي - ٥٥٥ هـ - دار حسان دمـشق ١٩٨٣م ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، وهذا الكتاب هو المصدر الأول لرسالتنا ، وقد نقلنـا منه الكثير لأنه مؤرخ ثبت دقيق عاصر معظم الأحداث التي ذكرها .

وقد أغناه الدكتور سُهيل زكار بمعلوماته العلمية الدقيقة في المقدمة وتعليقاته وشـــروحاته واقتباساته المفيدة في الهوامش .

ونظراً لكثرة تعاملنا مع هذا الكتاب فقد أحببنا خدمة للحقيقة والعلـــم أن نـــسجل بعــض الملحوظات التي نضعها أمام الباحثين وأمام المحقق في حالة إعادة طبـــع الكتـــاب ، وذلـــك لإغنائه وتجاوز بعض الهنات التي لا يخلو كتاب منها .

(عقبة شحورا) : عقبة شحورا أو شحوره هي الطريق الصاعد الذي يشرف على قرية الكسوة من دمشق ، انظر : إعلام الورى ، محمد أحمد دهمان ص٨٧ ، وقد ذكر لمحقق أنـــه لم يهتد إليها ، انظر صفحة ٣٣٩ من القلانسي .

في القلانسي ص (٣٦٥) أن السلطان بوري تعرَّض لمحاولة اغتيال يوم الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة ٥٢٥ هـــ .

وفي الصفحة (٣٦٨) أنه أوصى لابنه بالحكم ، بعد تفاقم الجروح عليه يـــوم الخمـــيس لثلاث خلون من جُمادى الآخرة ٥٢٥ هـــ .

وفي أحد التاريخين خطأ مؤكّد ، أشرنا إليه في الفصل الأول ، ولم ينتبه المحقق لذلك.

وذكر المحقق في صفحة ٤٥١ أنه لم يهتد للتعريف بـــ ((عين شواقة)) ، وهذه العين لا تزال جارية شمال صحنايا ، وتنبع من أراضي جديدة عرطوز وتستفيد منها عدة قرى ، وأهل المنطقة يعرفونها .

وقد ذكرها أيضاً المرحوم أحمد وصفي زكريا في كتابه عن الريف السوري ج٢ صفحة ١٧٧ .

وفي صفحة ٥٤٧ ، ذكر المؤلف القلانسي أن الشمس في (كح درجة وكح دقيقة) ، ولم يشرح المحقق معنى الكح ، وهي من الأرقام التي كانت تكتب بالأحرف على عادة العرب في حروف الجمل ، والكاف تساوي ٢٠ والحاء تساوي ٨ والمجموع ٢٨ وتتضح الصورة بوضع ٢٨ مكان كح ، وفوق كل ذي علم عليم .

وأخيراً فإن أسوأ ما في كتاب تاريخ دمشق هو الفهارس ، التي لم تُغطّ إلا أقل من عـــشر المادة العلمية في الكتاب ، الأمر الذي أذهب بأهمية الكتاب للدارسين والباحثين ، فالفهـــارس العلمية الدقيقة والمفصلة ، كتلك التي رأيناها في خطط القاهرة ، تضاعف من القيمة العلميـــة للكتاب .

وهناك طبعة قديمة لهذا الكتاب بعناية المستشرق أمدروز سنة ١٩٠٨م ، وطبعته مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت ، وميزة هذه الطبعة على علّاتها التي ذكرها الدكتور زكار ، هي أن فهارسها جيدة شاملة .

ذيل مرآة الزمان : لليونيني : قطب الدين موسى بن محمد ٧٢٦ هـ ، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة ١٩٩٢م طبعة مصوَّرة عن طبعة حيدر أباد بالهند ، وهي طبعة ناقصة أصلاً في أربعة مجلدات .

رحلةُ ابن جُبير : لمحمد بن أحمد بن جبير الكتاني الأندلسي ٦١٤ هـ ، وهي من الرحلات ذات الأهمية البالغة ، فالمؤلف زار فيها الشام في عهد صلاح الدين ، وتحدَّث عن مدنها وعادات أهلها وعمرانها والفرنجة وعلاقاتهم بالمسلمين ووضع المسلمين تحت حكمهم ، واختصّ المغاربة وتحدَّث عن أوضاعهم في الشام ، فهو لذلك شديد الأهمية وهو من المصادر التي نقلنا عنها الكثير لهذه الأسباب .

رحلة بنيامين التطيلي : للرابي بنيامين التطيلي الأندلسي ، وترجمة عزرا حدَّاد وتحقيق عبد الرحمن الشيخ وطبع المجمع الثقافي بالإمارات العربية سنة ٢٠٠٢م . وفي الكتاب معلومات غاية في الأهمية عن وضع اليهود في العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، وعن أقطابهم وعلمائهم وطريقة معاشهم وأعدادهم وزاد من قيمة الكتاب تعليقات المترجم والمحقق القيمة .

رحلة ناصر خسرو القبادياني ٤٨١ هـ : ونشر جامعة الملك سعود بالرياض ١٤٠٣ هـ ، وأهمية الرحلة أنها تمَّت عشية المرحلة الزمنية التي ندرسها .

رقعة عن مساجد دمشق : للوهراني : محمَّد بن محرز الوهراني ٥٧٥ هـ ، خطيب داريّا ، وفي كتابه وصف للأحوال السيئة للمساجد في دمشق ولا سيما الجامع الأموي ، والرقعة مرفوعة إلى السلطان نور الدين الذي بادر إلى إصلاح المساجد في دمشق والكتاب مطبوع في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٥م بتحقيق صلاح الدين المنجّد.

كتاب الروضتين : لأبي شامة : عبد الرحمن بن إسماعيل ٦٦٥ هـ تحقيق إبراهيم الزيبق ، مؤسَّسة الرسالة – بيروت ١٩٩٧م – خمسة مجلدات .

والكتاب معروف ومشهور وهو من مصادر البحث الرئيسية ، وزاد من قيمته التحقيق العلمي الممتاز والفهارس الدقيقة .

زبدة الحلب من تاريخ حلب : لابن العديم : عمر بن أحمد ، وتحقيق الدكتور سامي الدهان ، الطبعة الثانية ، حلب ٢٠٠٦م ، ٣ مجلدات ، والتحقيق ضاعف من قيمة الكتاب ولا سيّما فهارسه التي ألحقها بكل جزء .

والكتاب من المصادر الممتازة عن بلاد الشام في فترة الحروب الصليبيّة .

السلوك : للمقريزي : أحمد بن علي ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ط٢ القاهرة ١٩٥٧م ، والكتاب غني عن التعريف لكن صدوره وطريقة طباعته في أجزاء وأقسام ، أضرّ به كثيراً وجعل الانتفاع به صعباً ، مع أهمية الكتاب .

سنا البرق الشامي : للبنداري : الفتح بن علي البنداري – دار الكتاب الجديد – بيروت ١٩٧١م ، وهو مختصر لكتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني ، ومعلوماته في غاية الدقة عن نور الدين وصلاح الدين والعاملين معهما من الكتاب والوزراء .

صبح الأعشى في صناعة الإنشا : للقلقشندي : أحمد بن علي – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٧ ، تحقيق محمد حسين شمس الدين .

والكتاب موسوعة حضارية شاملة عن مصر وبلاد الشام وما يتبعهما من البلدان ، وتحقيقه جيد وفهارسه وافية ، الأمر الذي جعل نفعه عميماً للباحثين .

الطباعة العربيَّة : لقاسم السامرائي : دبي ١٩٩٦م – مركز جمعة الماجد، والكتاب مفيد ، نقلنا منه عن طباعة القراطيس الورقية ، وفيه معلومات لا توجد في غيره وصدر ضمن ((ندوة تاريخ الطباعة العربية)) في دبي .

طبقات الأطباء : لابن أبي أصيبعة : أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة – ٦٦٨ هـ – منشورات مكتبة دار الحياة – بيروت – لا تاريخ . والكتاب موسوعة اجتماعية عن دمشق والعالم الإسلامي ، تحدث فيها المؤلف عن حياة الأطباء والمرضى وقَدَّم تراجم كثيرة لأطباء مسلمين ونصارى ويهود خدموا الناس مجاناً ، رعاية لنبل رسالتهم .

طبقات الحنابلة : لأبي يعلى : أحمد بن أبي يعلى – ٥٢٦ هـ – تحقيق الدكتور عبد الرحمن العثيمين – مكتبة العبيكان – الرياض ١٤٢٥ هـ ، ٣ مجلدات .

والكتاب من مصادر البحث الأولى ، وهو موسوعة عن أخبار الحنابلة في دمشق منذ قدومهم إليها ، وزاد من قيمته التحقيق العلمي الدقيق والإخراج الممتاز .

عجائب المخلوقات : للقزويني : زكريا بن محمد ، دار الألباب – بيروت – لا تاريخ ، وهو من الكتب التي تبحث في الطبيعة والنباتات والحيوانات ، وقد أخذنا منه في بحث الأعشاب والنباتات الطبية في الشام .

العلاقات الاجتماعية والثقافية من خلال الحروب الصليبية : لزكي النقاش – بيروت ١٩٥٨م – فيه معلومات مهمة عن أثر المسلمين في الفرنجة إبان الحروب الصَّليبية .

العملة الإسلامية : لمحمد باقر الحسني ، مطبعة دار الجاحظ : بغداد ١٩٦٦م ، ويذكر هذا الكتاب تطور العملات الإسلامية مع أماكن وجودها .

عيون الروضتين : لأبي شامة : عبد الرحمن بن إسماعيل – ٦٦٥ هـ – تحقيق أحمد البيومي ، وزارة الثقافة بدمشق ١٩٩٢م ، جزءان .

فضائل الشام ودمشق : لعلي الربعي – ٤٤٤ هـ – تحقيق صلاح الدين المنجد ، نشر المجمع العربي بدمشق ١٩٥٠م ، وأهمية الكتاب أنه من المصادر التي اعتمد عليها ابن عساكر والآخرون ممن كتب عن دمشق والمؤلف من رجال القرن الخامس .

قاموس الكتاب المقدَّس : تأليف عدد من الأساتذة – نشر مكتبة المشعل في بيروت – ط٦ سنة ١٩٨١م .

القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية : لابن طولون : محمد بن طولون – تحقيق محمد دهمان – مجمع اللغة العربية بدمشق ط٢ ، ١٩٨٠م وفي الكتاب معلومات مهمة عن تأسيس ضاحية الصالحية في عصر نور الدين وعن المدرسة العمرية فيها ، وفيه مصور ممتاز للصالحية .

قوانين الدواوين : لابن مماتي : الوزير أبو المكارم بن أبي سعيد بن مماتي – ٦٠٦ هـ – وهو مؤرخ معاصر للحقبة التي سندرسها ، اعتمد عليه المقريزي في الخطط ، والقلقشندي في صبح الأعشى ، والعمري في مسالك الأبصار .

والمؤلف عاصر نور الدين وصلاح الدين ومارس الأعمال الحكومية في الدواوين ، لذلك كانت معلوماته دقيقة وهامة وأصيلة .

والكتاب مطبوع في القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ في مطبعة إدارة الوطن .

الكامل في التاريخ : لابن الأثير : محمد بن محمد – ٦٣٠ هـ – وتحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري – دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٩٧٠ – ١١ مجلداً ، وهو من أفضل كتب التاريخ العربي الإسلامي عن القرون الستة الأولى ، ولا سيّما عن القرن السادس وأوائل السابع ، ويمتاز عن البداية والنهاية بالمعلومات الغزيرة والدقيقة التي سجلها المؤلف عن نور الدين وصلاح الدين وأحداث العصر .

الكواكب الدرّية في السّيرة النوريّة : تحقيق الدكتور محمد زايد – دار الكتاب الجديد – بيروت ١٩٧١م وفي الكتاب – رغم تأخر عصر مؤلفه – معلومات عن السلطان نور الدين الشهيد ، لم نجدها في مصادر أخرى لضياعها ، وكان اعتمادنا عليه في أضيق الحدود ، فيما لم نجد له ذكراً في جهة أخرى .

المجتمعُ الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية : لأحمد رمضان محمد – القاهرة ١٩٧٧م – مصدر جيد فيه مصادر متنوعة وكثيرة ، وقد استفدنا منه في بحث الأعياد والحياة الاجتماعية .

المختار من كشف الأسرار : لعبد الرحيم الجوبري ، دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٩٣م ، والكتاب مفيد وطريف وفيه صور من الحياة الاجتماعية في دمشق وأخبار اليهود وحيلهم وحيل أهل الكيمياء والسحرة والمشعوذين والمنجمين ، وأسرار النساء واللصوص والعيَّارين ، وفيه ما لا يوجد في مؤلفات ضخمة عن الحياة اليوميَّة في دمشق .

مدينة صور : لنادية الغزولي : رسالة ماجستير من جامعة دمشق بإشراف الدكتور سهيل زكار سنة ٢٠٠٣م ، وفي الرسالة معلومات ومصادر مهمة عن علاقات الفرنجة العسكرية والمدنية ببلاد الشام خلال الحروب الصليبية .

مرآة الزمان : لسبط ابن الجوزي : والمطبوع من هذا الكتاب : قطعة من سنة ٤٨١ هـ حتى ٥١٧ هـ ، بتحقيق سفر الغامدي في جامعة أم القرى سنة ١٤٠٧ هـ .

ونشر الدكتور سهيل زكار قسماً آخر من المرآة في كتابه تاريخ الحروب الصليبية المذكور ج٢ صفحة ٧٣٩ حتى ٧٨٧ .

مسالك الأبصَار في ممالك الأمصار : لابن فضل الله العمري – ٧٤٩ هـ – وطبع المجمَّع الثقافي في الإمارات – أبو ظبي ٢٠٠٣م وصدر حتى الآن ٢٧ جزءاً منه وحقق كل جزء منه محقق خاص ، والكتاب موسوعة اجتماعية سياسية اعتمد عليها القلقشندي في صبح الأعشى .

المسالك والممالك : لأبي عبد البكري : تحقيق أدريان فان ليوفن وأندريه فيري ، ونشر بيت الحكمة في تونس ١٩٩٢م ، وميزة الكتاب أن البكري كان من رجال القرن الخامس ، أي أنه كان معاصراً للأحداث والأوضاع التي ندرسها .

المشرق في نظر المغاربة : لصلاح الدين المنجد : دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٦٣م ، وفيه معلومات عن رحلة أبي بكر بن العربي إلى دمشق سنة ٤٩١ هـ وشذرات مما ذكره بنيامين التطيلي عنها ، وما ذكره الرحالة الآخرون .

معجم السماعات الدمشقيَّة : للمستشرق ستيفن ريدر والأستاذ ياسين السوَّاس ، وطبع المعهد العلمي الفرنسي بدمشق ١٩٩٦ و ٢٠٠٠م في جزأين ، والكتاب من المصادر المهمة والمجهولة عن تاريخ الحركة العلمية والإجازات العلمية وطرق التدريس والسماع في دمشق خلال عدة قرون ، وفي الجزء الثاني صور هذه السماعات المدونة على حواشي المخطوطات ، ممّا لا نجد له مثيلاً في المصادر الأخرى .

مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب : لابن واصل : محمد بن سالم بن واصل – ٦٩٧ هـ – تحقيق حسنين محمد ربيع ، طبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٧م ، ٥ مجلدات وهو من أوسع ما كُتب عن الأسرة الأيوبية وأخبارها في مصر والشام .

المنقذ من الضلال : لمحمد الغزالي – القاهرة ١٣٧١ هـ – وفي الكتاب شذرات عن الحياة الاجتماعية في عصر المؤلف .

المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد : لعبد الرحمن بن محمد المقدسي – ٩٢٨ هـ – وتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط وولده محمُود ، دار صادر بيروت ١٩٩٧م ، ٦

مجلدات ، وأهميته في المعلومات التي أوردها عن أصحاب الإمام أحمد في الشام ، وما كـــان منهم .

المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية : لميخائيل جميعان ، لا مكان ولا تاريخ للطبع وهو يتحدث عن أثر العرب على الغرب من واقع المصادر الغربيّة .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : لابن تغري بروي : يوسف بن تغري بروي – ٨٧٤ هـــ – وهو مثل السلوك للمقريزي من الموسوعات التي حفظت تاريخ مصر والشام وقد طبع في دار الكتب العلمية ، في بيروت سنة ١٩٩٢م في ١٦ مجلداً .

نزهة الأنام في محاسن الشام : للبدري : عبد الله البدري – دار الرائد العربي – بيروت ١٩٨٠م ، الطبعة الأولى ، وهو كتاب جامع عن تـــاريخ دمـــشق العمرانـــي والاجتمـــاعي والزراعي والتجاري ، وهو يتمم ما جاء عند ابن جبير .

نزهة الرفاق عن حالة الأسواق : لابن المبرد : يوسف بن عبد الهادي – دمشق ١٩٨٨م – تحقيق صلاح الخيمي ، والكتاب يتحدث عن أسواق دمشق بصورة موجزة شأن مؤلفات ابن عبد الهادي الأخرى .

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق : للشريف الإدريسي : محمد بن محمد – ط بيـــروت – عالم الكتب ١٩٨٩م مجلدان ، والكتاب من المؤلفات الجغرافية الأصيلة في التاريخ العربي .

نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب : للمقَّري : أحمد بن محمد المقَّري – ١٠٤١ هـــ – تحقيق مريم الطويل ، د. يوسف الطويل ، دار الكتب العلميـــة – بيـــروت ١٩٩٥م – ١٠ مجلدات .

نهاية الأرب : للنويري : أحمد بن عبد الوهاب – دار الكتب بالقاهرة ١٩٢٩م ، ١٩٣٢م – وقد صدر في ٣١ مجلداً ، والكتاب موسوعة تاريخية وأدبية وسياسية عن القُرون الـــسَّبعة الهجريَّة الأولى .

نهايةُ الرتبة في طلب الحِسْبة : للشيزري : عبد الرحمن بن نصر الشيزري – ٥٨٩ هــ – تحقيق السيد الباز العريني ومصطفى زيادة – القاهرة – لا تاريخ ، والكتاب قـــيم وممتـــع وجديد في بابه ، فهو يدخل ضمن التاريخ الاجتماعي ، الذي أهمله المؤرخـــون ، ويتنـــاول وظيفة الحِسْبة وشروط المحتسب ، ويتحدث عن الأسواق وما يجري فيها من غش وتدليس ، ويتحدث بالتفصيل عن طرق الغش في كل صنعة ، ثم يتحدث عن طريقة قمع الغش ، وهـــو عمدة لمن جاء بعده مثل ابن بسام وغيره ، وقد أفادنا كثيراً في رسم صورة حيَّـــةٍ لأســـواق دمشق وما يجري فيها .

ثانياً : المصادر المخطوطة:

لا توجد – فيما نعلم – مخطوطات تاريخية أو غيرها عن دمشق في المرحلة التي ندرسها ، باستثناء تلك التي نشرت ، مثل ذيل تاريخ دمشق وتاريخ الأنطاكي وابن عساكر وغير ذلك .

والمصادر المخطوطة الوحيدة التي أفدنا منها هي وثائق المحاكم الشرعية بدمشق ، والتي تضم زهاء (٢٠٠٠) مجلد عن دمشق وحدها ، وقد أفدنا منها عند الحديث عن حنطة داريا للسلطان نور الدين الشهيد وعن يهود السامرة بدمشق ، وعن بعض الخانات القديمة ، وهـذه الوثائق بالغة الأهميَّة لتاريخ دمشق في العصر المملوكي الأخير والعصر العثماني .

ويُمكن أن نلحق بهذه الوثائق ، وقفية القاضي أسعد بن المنجا الحنبلي ، المتـوفى سـنة ٦٠٦ هـ ، والتي تضم الأوقاف التي وقفها لصالح الحنابلة في دمشق ، والقاضي المـذكور كان قاضياً لحرَّان في عهد نور الدين الشهيد ، ومن أجله بنيت المدرسة المسمارية الحنبليـة بدمشق.

وفائدة هذه الوقفية أنها تُبين أنواع الأراضي في دمشق وتذكر مواقع تاريخية في دمـشق وغوطتها ، وتلقي ضوءاً على طبيعة الأوقاف فيها [1] .

ثالثاً : المصادر الأجنبيَّة

تمت ترجمة عدد كبير من المصادر الأجنبية إلى العربية مثل تاريخ الحروب الـصليبية لوليم الصوري ورحلة ناصر خسرو ، ورحلة بنيامين التطيلي ، وتاريخ الحروب الـصليبية لرنسيمان وغيرها .

وبصورة عامة فإن المصادر الأجنبية الأصيلة عن المرحلة التي ندرسها تعتمد أساساً على المصادر العربية والإسلامية ، مثل كتاب المستشرق ((إيليسف)) ، علاوة عـن المـصادر المدونة أعلاه .

ومن هذه الكتب الآثار الإسلامية في مدينة دمشق: لكارل واتزينجـر ، وترجمـة قاسـم الطوير ، ونشرته مديرية الآثار العامة في دمشق سنة ١٩٨٤م .

وفي الكتاب ذكر للمنشآت العمرانية في دمشق ، ولا سيما أن بعضها قـد هُـدم وزالـت معالمه اليوم ، وفيه وصفٌ لدمشق إبَّان الحرب العالمية الأولى ١٩١٧م .

---

[1] – نشر الدكتور صلاح المنجد ، هذه الوقفية في بيروت ١٩٤٩م ، عن نسخة مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق .

الفصل الأول

مدخل في الحياة السياسية

– المقدمـــة :

امتاز تاريخ دمشق في مرحلة الدراسة بين ســنة ٤٦٨هـــ – ١٠٧٦م – ٥٦٩هـــ – ١١٧٤م بظهور عدد من العوامل المهمّة والحاسمة، كان لها أكبر الأثــر علــى أوضــاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وكان من أهم هذه العوامل وأبعدها تأثيراً اجتياح الصليبيين لشمالي البلاد وغربها وإقامة دويلات وإمارات في أراضي الشام ، كانت غريبة عنها ثقافة وديناً وسلوكاً ، وللمرة الأولــى منذ الفتح العربي وجدت على أرض الشام حكومات أجنبيّة لا حدود لمطامعها ، كانت ترمــي إلى القضاء التام على الوجود العربي والإسلامي فيها.

وقد ضم هؤلاء الصليبيون إليهم مدناً وأراضي واسعة كانت أصلاً جزءاً من حدود أتابكية دمشق[1] ، الأمر الذي أصابها بهزّات اقتصادية واجتماعية فرضــت نفــسها علــى الجميــع واستمرّت حتى نهاية الحروب الصليبية .

فالأراضي الشاسعة التي كانت تابعة لدمشق تاريخياً ، تقلّصت وانحسرت وطُبــق علــى الكثير منها نظام المثالثات والمناصفات حتى إن الصليبيين وصلوا في غاراتهم إلــى غوطــة دمشق نفسها شريان دمشق الرئيسي ، وحاصروا دمشق أكثر من مرة.

وقد أدى العامل الأوّل إلى أن أصبح اقتصاد دمشق وحياتها كلها في مرحلــة الدراســة ، اقتصاد حرب ، إن صحت التسمية .

فكانت تفرض الرسُوم والضرائب والأتاوات على كل شيء تقريباً ، في سبيل (المجهود الحربي) ، وكان عدد غير قليل من هذه الضرائب والرسوم جائرة ، بدليل أن بعض الحكــام كان يتقرب إلى الناس في بداية عهده أو قرب موته بإلغائها ، فيكثر الدعاء له من عامّة الناس .

كما أن جوَّ الحرب والقتال الذي صبغ دمشق بطابعه أدى إلى ظهور أو نموّ فئة جديدة في دمشق ، وفي كل مدن الشام ، عُرفت بالأحداث ، وهم فتيان مراهقون كان لهــم دورٌ بــارز ووجود فعلي في حياة دمشق في تلك المرحلة حتى إن الحكام كانوا يتقرّبون إليهم ويحــسبون لهم ألف حساب ، ولا سيما عندما تصدّوا معهم للدفاع عن دمشق ضد الهجمــات الــصليبيّة المتكررة ، بدون أن تكون لهم رتب أو رواتب أو دوافع غير الشرف و الحرّية .

ومن الأمور التي أثرت على دمشق بسبب الغزو الصليبي اتساع المدينة في مختلف الاتجاهات وزيادة عدد سكانها ، بسبب الهجرات المتوالية إليها من المدن والقرى التي اجتاحها الصليبيون

---

[1] - **الأتابكيّة : نسبة إلى أتابك وتعني الأب الطيب أو الأمير الأب،وهو لفظ أطلقه سلاطين السلاجقة على كبار القادة العسكريين ، وممن لقب بذلك الأمير طغتكين والأمير أق سنقر جدّ نور الدين الشهيد . انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ، ١٩٦٨ ، ج ١ ، ص ٣٦٥ .**

، وهذا ما سنراه بوضوح عند سقوط صُور وطرابلس وبيروت وغيرها من المدن، و لاشك أن هجرة المقادسة الحنابلة إلى دمشق وتأسيس ضاحية الصالحية في جبل قاسيون أوضح دليل على ذلك .

ولم يقتصر الأمر على هذه الهجرة الداخلية ، بل إنه ظهرت هجرات خارجيّة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي إلى دمشق التي أصبحت (عاصمة الصمود والتصدّي) ضد الصليبيين ، وكان من أبرز هؤلاء المهاجرين الذين لا يزالون حتى اليوم المغاربة الذين كانوا يهاجرون إلى دمشق لإحراز شرف الجهاد ، وسوف نرى ذلك بوضوح في حصار الصليبيين لدمشق سنة ٥٤٣ هـ – ١١٤٨م.

وقد أدَّت هذه الهجرات إلى تنوع المجتمع الدمشقي الذي أصبح يشكل جامعة إسلامية حقَّةً سكانه من المشرق و من المغرب ، من التركمان والأتراك والأكراد والمغاربة بالإضافة إلى سكانه العرب الأصليين .

ومن السمات البارزة لدمشق في مرحلة الدراسة وما قبلها وما بعدها ، أن جميع حكام دمشق كانوا من غير العرب بالمعنى الضيق لهذه الكلمة .

فلقد تلاشى حكامها العرب بالتدريج ، وحل محلهم حكام من جنسيات شتى لا يكاد المرء يُحسن نطق أسمائهم أو يعرف أصلهم ، وقد بدا ذلك بوضوح تام مع بداية حكم أحمد بن طولون لمصر والشام واستمرّ بعد ذلك قروناً عديدة حتى نهاية الحكم العثماني وقيام الحكم العربي في دمشق .

ولم يكن هذا الأمر مختصّاً بدمشق ، بل شمل معظم العالم الإسلامي بما في ذلك عاصمة الخلافة العباسية بغداد نفسها .

ولو ألقينا نظرة سريعة على أسماء ولاة دمشق وحكامها في عصر الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والفترة التي ندرسها ، وعصر المماليك والعثمانيين لرأينا أموراً عجيبة وأسماء لا يكاد يتفق اثنان على معناها أو طريقة لفظها[١] .

وفي الوقت نفسه ، وهو ما كان يبدو غريباً للمستشرقين ، أن هذا الأمر لم يكن محلّ استهجان أو استنكار من أهل دمشق الأصليين ، من الأئمة والعلماء والفقهاء والشعراء والعامَّة، وذلك لأن الخطر الصليبي الرهيب ، واستهداف المسلمين والعرب على حدّ سواء ، قد وحّد بين فئات السكان في أتابكية دمشق وغيرها واستمرّ حتى سقوط الدولة العثمانية وكان المبدأ الذي آمن به الجميع أنه طالما أن المسلمين مستهدفون على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ، فإن عليهم جميعاً بالمقابل أن يعتصموا بالرابطة الإسلامية وحدها ، وبعبارة أخرى طالما أن

---

[١]ـ انظر : صلاح الدين الصفدي : أمراء دمشق في الإسلام ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، وطبع المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٥ م ، ص ٢٠٦ وما بعدها .

الصليبيين كانوا يستهدفون المسلمين فعلى المسلمين كافة أن يتعاونوا لدفع الصليبيين ، وهذا ما كان .

وهذه الظاهرة كانت مطبقة في السلم والحرب على حدّ سواء ، بمعنى أن كل قـادم إلـى دمشق من العلماء والمحدّثين والفقهاء ومن إليهم ، كان يلقى الحفاوة الكبيرة والاهتمام التـام ، بغضّ النظر تماماً عن أصله وفصله ، وهو ما يبدو بوضوح تام في تـاريخ دمـشق لابـن عساكر.

ومن الأمور اللافتة للنظر والتي تُميّز المرحلة التاريخية التي نعالجها ، هو أنـه للمـرَّة الأولى منذ سُقوط دمشق بيد العباسيين سنة ١٣٢ هـ – ٧٤٩م ، يعـود لدمـشق اسـتقلالها النسبي إن صحت التسمية ، ويصبح قرارها ومصيرها نابعاً من داخلها: من أهلها وحكامها .

وتكمن أهمية ذلك في أن دمشق صارت تعتمد على قدراتها في إدارة شؤونها والدفاع عن نفسها وتثبيت استقلالها ، وصارت فيها باستمرار ، قوات قادرة على الدفاع عنهـا وتعقُّـب الطامعين فيها ، بعد أن كانت في العصور السابقة مدينة تابعة لبغداد أو القاهرة تنعكس عليها عوامل ضعف الخلافة وتحكم العناصر الغريبة بها .

وسوف نرى عند سقوط القدس بيد الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ – ١٠٩٩م ، أن بغـداد لـم تستطع أن تفعل شيئاً لنجدة المسلمين فيها أو في غيرها واقتصرت مساعداتها علـى تمنيـات الخليفة وحكومته لشعبها بالنصر ، وصدور الأوامر بالدعاء لهم على المنابر ، وأن الله تعالى يؤيدهم بنصره ويُدمر أعداءهم ، بل إنه عندما سقطت دمشق بيد الفاطميين ، الأعداء التقليديين للخليفة العباسي ، لم يستطع أن يفعل شيئاً لإنقاذها .

ومن الأمور التي تركت آثاراً واضحة على تاريخ دمشق في هذه المرحلة ظهـور قـوّةٍ غامضة وغريبة أخذت على عاتقها تنفيذ الاغتيالات السياسية على نحو واسع ونعني بها فرقة الحشاشين أو الباطنية ، ولم يقتصر خطر هؤلاء على دمشق بل تعدّاه إلى معظم أنحاء العـالم الإسلامي .

فلقد اغتالوا الوزير نظام الملك ، ثم اغتالوا ابنه ثم اغتالوا السلطان مودوداً في حرم جامع دمشق في رابعة النهار ، وجرحوا الأتابك بوري في دمشق جروحاً أدت إلى موته بعد فترة .

وقتلوا الأمير الأفضل أمير الجيوش بمصر ، والأمير آق سنقر في حلب ، وحاولوا قتـل نور الدين نفسه ومن بعده صلاح الدين .

ولقد تعاظم أمرهم في عهد الدولة البوريّة في دمشق في عهد كبيرهم (بهـرام) الأمـر الذي جعل الأتابك طغتكين ، على قوّته وجهاده ، يقدم لهم حصن بانياس في الجولان ليـأمن شرّهم ، حتّى إن الصليبيين جعلوا اسمهم وهو : (ASSasins) أي الحشاشين ، يعني القتلة [١] .

وأخيراً فإن توحيد مصر والشام في عهد نور الدين أدّى إلى انقطاع صلة دمشق ببغداد ، واتجاهها نحو القاهرة ، ولا سيما أنّ الصليبيين كانوا يستهدفون الشام ومصر لقناعتهم بأنهما

[١] ـ **الموسوعة الإسلامية المعرّبة ، دار المعرفة ، بيروت ، لا تاريخ ، ج٣ ، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .**

معقل الإسلام ، وخط الدفاع الأساسي عن المسلمين ، ولذلك حاولوا أكثر من مـرة احـتلال دمشق و القاهرة ، ولكن صمودهما في وجه الصليبيين أنقذ المسلمين منهم قروناً طويلة .

وكان اتحاد مصر والشام هو العامل الحاسم الذي أدى إلى هزيمة الصَّليبيين وطردهم من البلاد ، لذلك استطاعت دولة المماليك الصمود في وجه الأخطار الخارجية .

وعندما سقطت هذه الدولة بيد العثمانيين وفُصلت دمشق عن القاهرة واحتل الانكليز مصر أمكن للفرنسيين بعد ذلك بسهولة أن يحتلوا دمشق وسورية كلها ، وهو ما كان أصل المصائب والهزائم والنكبات التي تصاب بها الأمة العربيّة في هذه الأيام .

أولاً – دمشق في عهد أتسز الخوارزمي : ٤٦٨هـ – ٤٧٢م – ١٠٧٦م – ١٠٨٠م .

كانت الفوضى التي عمّت الشام في النصف الثاني من القـرن الخـامس ، دافعـاً قويّـاً للمغامرين الذين كانوا يطمعون في حكمها ، أو يحلمون بالجلوس على عرش الأمـويين فـي قصر الخضراء ، أو يُخطب لهم على منبر جامع دمشق حيث خطب معاويـة وعبـد الملـك والوليد وهشام وغيرهم .

وكان من هؤلاء المغامرين أمير خوارزمي يقال له : (أتسز بن أوق[1]) احتل الرملـة سنة ٤٣٦هـ – ١٠٧٠م ، ثم حاصر دمشق ثلاث مرات كان آخرها في شهر رمضان سـنة ٤٦٨ هـ – ١٠٧٦ م ، حتى دخلها يوم الاثنين في ٢١ ذي القعدة من السنة المذكورة ، ولقب نفسه بالملك المعظم أتسز ، فأقام في دار الإمارة بقصر الخضراء[2] ، ثم بنى لنفـسه قلعـة دمشق وأقام فيها وأصبحت القلعة بعد ذلك مقرّاً لحكام دمشق حتى قيام حكم المماليك .

وفي يوم الجمعة في ٢٥ ذي القعدة سنة ٤٦٨هـ – ١٠٧٦م خُطب على منبـر جـامع دمشق للخليفة المقتدي بأمر الله العباسي وقطعت خطبة المستنصر الفاطمي ، وكان آخر مـا دعي له يوم الجمعة في ١٨ ذي القعدة من السنة المذكورة[3] .

وكما اختلف في اسم أتسز ، فقد اختلف المؤرخون أيضاً في الحكم عليه .

فقد ذكر بعضهم أنه أنزل جنده في دور أهل دمشق واعتقـل جماعـة مـن وجـوههم ، وشمَّسهم في مرج راهط ، وكان خبيث النية والسَّريرة ، وتواصلت عليـه وعلـى أصـحابه الدعوات من سائر الناس[4] .

---

[1] - اختُلف في اسمه فابن الأثير في الكامل ، ج٨ ، ص٢٥٦ ، يسمّيه أقسيس ، وفي طبعة المجمع العلمي العربي لتاريخ دمشق : لابن عساكر، ج٢ ، ص ٣٣١ ، ورد اسمه : أتسز بن آق ، واسمه على وجه الصحّة أتسز : (At - siz) وهو اسم تركي مكون من كلمتين AT = اللحم ، و siz = بدون ، أي بدون لحم ، أي النحيف .

انظر : الصفدي : أمراء دمشق ، ص ١٩٤ ، وذكر في مصادر أخرى بكسر الهمزة : إتسز .

[2] - بناه الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان ، بجوار الجامع الأموي من الجنوب الشرقي ، انظر : ابن عساكر : تاريخ دمشق ، تحقيق علي شيري – دارُ الفكر – بيروت ، ١٩٩٥ م – ٨٠ مجلداً ، ج٢ ، ص ٣٥٩ .

[3] - ابن عساكر : المصدر المتقدّم ، ج٧ ، ص٣٤٨- ٣٤٩ .

[4] - ابن القلانسي حمزة بن علي التميمي : ذيل تاريخ دمشق، بتحقيق الدكتور سهيل زكار – دار حسان – دمشق ١٩٨٣ م ، ص ١٧٤ ، وعن أتسز انظر : صلاح الدين الصفدي : تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنوّاب ، تحقيق إحسان خلوصي – وزهير حمدان ، منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٩٢ م – جزءان ، ج٢ ، ص ٥٦ ، وانظر ابن الأثير : علي بن محمد – الكامل في التاريخ بتحقيق الدكتور عمر عبد السلام التدمري – دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٩٧ م – ١١ جزءاً ، انظر الجزء ٨ ، ص ٢٥٦ .

ثم عاد ابن القلانسي نفسه فقال عنه :

((إن أهل دمشق فرحوا فرحاً عظيماً بعودة الخطبة للخليفة العبّاسي ، وإن (أتسز) نظر في أمور دمشق وأحوالها بما يعود بصلاح أعمالها ووفور استغلالها ، وأطلق لفلاّحي المــرج والغوطة الغلاّت الزراعية ... فصلحت الحال وطابت نفوس الرعية))[1] .

وهذا يدل على أن القلانسي ينقل تاريخه من عدة مصادر دون أن يحاول التوفيق بينها.

وقال ابن كثير عن أتسز :

((كان من خيار الملوك وأجوَدهم سيرةً وأصحّهم سريرة ، فرحمهُ الله وبلَّ ثراه ، وجعل جنَّة الفردوس مأواه أزال الرفص عن أهل الشام ، وأبطل الأذان بحي على خير العمل، وأمر بالترضّي عن الصحابة أجمعين وعمّر بدمشق القلعة التي هي معقل الإسلام بالشام المحروس ...))[2] .

وعلى ذلك فإن أتسز أعاد دمشق إلى وضعها الطبيعي ، وهو ما فعله صلاح الدين فـــي مصر فيما بعد كما سنرى ، ومن هنا كان ثناء ابن كثير عليه .

كان أتسز يفكر في إقامة دولة تحت حكمه تضم الشام ومصر ، وتضاهي دولة الطولونيين والفاطميين .

ولذلك أمضى معظم وقته في محاولات يائسة لتحقيق هذا الحلم ، وكان أول ما فعله بعــد توطيد حكمه في دمشق هو بناء قلعة دمشق في الزاوية الشمالية الغربيّة . وقد بناها عند أحــد أبواب السور المسمّى بباب الحديد تجاه دار رضوان وكان ذلك سنة ٤٦٩هــ – ١٠٧٦م، ثم أتمّها بعده الملك المظفر تُتُش[3] .

وفي العاشر من رجب التقى الأمير أتسز على أبواب القاهرة مع جيوش الفاطميين بقيادة أمير الجيوش بدر الجمالي فهزم أتسز هزيمة نكراء ، وعاد إلى دمشق في خمسة عشر فارساً فقط[4] .

وكانت عاقبة هذه المغامرة من أتسز أن قرر المصريون اســترجاع دمــشق ، فأرســلوا الحملات المتكررة بقيادة ناصر الدولة الجيوشي ، الذي استولى على جنوب بلاد الشام ، ثــم حاصر دمشق أكثر من مرة ، لكنه لم يُفلح في دخولها ، فعاد من حيث أتى[5] .

---

[1] - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ١٧٥ ، ونظراً لكثرة رجوعنا إلى هذا الكتاب فسنرمز للمؤلف بـ : القلانسي، ولكتابه باسم تاريخ دمشق .

[2] - ابن كثير : إسماعيل بن عمر – البداية والنهاية – تحقيق الدكتور عبد الله التركي ، دار عالم الكتب ، الرياض ٢٠٠٣ م ، الطبعة الثانية – انظر، ج ١٦ ، ص ٧١ ، وابن كثير هو أول من صرّح بأن أتسز بنى قلعة دمشق ، وهو أمر لم يذكره مؤرخ دمشق ابن عساكر ، ولا القلانسي .

[3] - ابن كثير : المصدر المتقدم ، ج١٦ ، ص ٥٤ .

[4] - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص١٧٦ .

[5] - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ١٨٢.

وأخيراً قرر أتسز الاستعانة بالسلطان ملكشاه السلجوقي فأرسل له أخاه تاج الدولة تُتُش ، فتلقاه أتسز في مرج عذراء ، ووضع نفسه تحت تصرّفه وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٤٧٢هـ تشرين الأول ١٠٧٩م وبعد أيام غدر به فاعتقله واعتقل أخاه وخنقهما معاً في قلعة دمشق يوم الحادي عشر من ربيع الآخر سنة ٤٧٢ هـ - ١٠٧٩م[1] .

ثانياً – دمشق في عهد تاج الدولة تُتُش وولده دُقاق: ٤٧٢هـ - ٤٩٧هـ - ١٠٨٠م - ١١٠٤م .

حكم تتش دمشق وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وكانت همته منصرفة إلى أن يصبح ملكاً على الشرق بكامله مثلما فعل أبوه ألب أرسلان ، لذلك أمضى وقته في إعداد الحملة العسكرية تلو الحملة وخاض بها مغامرات عسكرية في حلب ومصر والعراق وفارس وأطراف الشام .

وعندما مات أخوه ملكشاه ظن أن القدر قد ابتسم له فتقدم بجيوشه الجرارة نحو العراق لمقابلة ابن أخيه بركياروق وكان اللقاء يوم ١٧ صفر سنة ٤٨٨هـ - ١٠٩٥م في مدينة عانة على الفرات ، فقتل تتش ، وتلاشى جيشه ، ولاذ ولداه دُقاق ورضوان بقلعة حلب[2] .

ولم يكن له في دمشق ما يُذكر به إلا إتمام بناء القلعة، وكان تُتُش قد أوصى لولده رضوان بالملك من بعده إلا أنّ نائب تُتُش في دمشق وحاكم قلعتها مملوكه : ساوتكين اتصل بولده الآخر دُقاق بن تتش من حلب فجاء على وجه السرعة وجلس على عرش أبيه ولقب نفسه بأبي النصر شمس الملوك دقاق ، وكان في مثل عمر أبيه يوم ملك دمشق أي في الرابعة عشرة[3] .

---

[1] - اختلف المؤرخون حول تاريخ دخول تتش دمشق بين عام ٤٧١ هـ وعام ٤٧٤ هـ ، فالقلانسي ذكر أن ذلك كان سنة ٤٧١ هـ ، انظر ، ص ١٨٣ ، وابن عساكر في ترجمته لأتسز من تاريخ دمشق ذكر أن ذلك كان سنة ٤٧١ هـ أيضاً ، ج ٧ ، ص٣٤٨ ، ثم عاد وذكر في ترجمة تتش أن ذلك كان سنة ٤٧٢ هـ ، ج١١ ، ص ٣٥ ، وذكر الصفدي أن ذلك كان سنة ٤٧١ أو ٤٧٢ – تحفة المحبين ، ج٢ ، ص٥٧ ، وذكر ابن الأثير أن ذلك كان سنة ٤٧١ هـ أو ٤٧٢ هـ ، ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص٢٦٩ ، وأخيراً ذكر الصابي في تاريخه أن ذلك كان سنة ٤٧٢ هـ ، وأن مدَّة حكم أتسز لدمشق كانت ثلاث سنوات وستة شهور وبضعة أيام ، وهذا ما نرجّحه ونعتقد بصحته لقرب عهد الصابي بالحادثة ولأنه حدد المدَّة باليوم في موضعين من تاريخه ، انظر : الصابي : غرس النعمة محمد بن هلال الصابي : عيون التواريخ رواية سبط ابن الجوزي – رسالة ماجستير – تحقيق سميحة أبو الفضل ، بإشراف الدكتور سهيل زكار – جامعة دمشق – كلية الآداب سنة ١٩٨٧م ، صفحة ٣٥٨ و ٣٥٩ .

[2] - تراجمه كثيرة : - انظر : ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص٢٦٢ و ٢٩٠ ، ومصادره ، الصفدي : تحفة ذوي الألباب ، ج٢ ، ص٥ ، القلانسي : تاريخ دمشق ١٨٢ وما بعد ، ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي : المنتظم – تحقيق محمد عطا ومصطفى عطا – دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٢ ، ج ١٦ ، ص ١١٩ .
- الفارقي أحمد بن يوسف : تاريخ الفارقي – تحقيق بدوي عبد اللطيف – دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٧م – ص ٢٤٤.

[3] - ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١٧، ص٣٠٤ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج٨ ، ص٣٩٠ ، القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٢١٢ – ٢١٤ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة – دار الكتب العلمية ،

وفي بداية عهده ، وصل إل دمشق مملوك أبيه الأتابك طُغْتكين بن عبد الله ، الذي كان في الأسر بعد هزيمة تُتُش المذكورة في عانه .

وكان الأتابك المذكور بمثابة الوالد للأمير دقاق لأنه نشأ على يديه وتلقى تربيتـــه منـــه ، ولذلك رحّب بعودته إلى دمشق وفوَّض إليه أمورها ثم زوّجه مـــن والدتـــه صـــفوة الملـــك واستقرّت الأمور في دمشق على ذلك النحو .

وكما هو مألوف في التاريخ ، فإن شمس الملوك دُقاق اتفق مع الأتابك طغتكين على الفَتك بالأمير ، ساوتكين تماماً مثلما فعل والده مع أتسز ومن شابه أباه فما ظلم ، وبذلك اســـتقرت الأمور بدمشق للرجلين .

وقد حاول رضوان بن تتُش نزع دمشق من أخيه منذ السنة الأولى لحكمه ، وألقى عليهـــا الحصار ، وقذفها بأحجار المنجنيقيات ، فتهدمت منطقة قصر حجاج والسوُيقة ظاهر البلـــد ، وتصدّى لهُ أحداث البلد ((يقودهم الوزير محمد بن أبي القاسم ، وبلغ المهاجمون في زحفهـــم إلى سوق الغنم واقتربوا من السور عند الباب الصغير ، ولكنهم مالبثوا أن انسحبوا مدحورين بعد المقاومة العنيفة لأهل دمشق وطلائعهم المسلحة : الأحداث وهذا أوّل ظهور لهذه الفئة في تاريخ دمشق .

وعندما عاد دقاق إلى دمشق قرّر مهاجمة أخيه في عُقر داره في حلب ، والتقى الأخوان في قنسرين[١] ، فدارت الدائرة على دقاق : فعفا عنه أخوه واتفق معه على أن يكون نائباً عنه في دمشق ويخطب له على المنابر ، ولم يعد رضوان يفكر بدمشق بعد ذلك[٢] .

وبينما كان الإخوة يقتتلون ، والصراعات والفوضى على أشدهما في المشرق الإســـلامي ظهر زلزال هائل مدمّر دام قرابة مائتي عام ، كان مخططاً له أن يُزيل الإسلام من الوجود ، وهذا الزلزال هو الهجوم الصليبي العاتي والشرس على الشام ومصر ، والـــذي وقـــع علـــى دمشق بالدرجة الأولى إنقاذ المسلمين من خطره المدمّر.

ولقد تحدّث الكثيرون في الشرق والغرب عن الحروب الصليبيّة ، ونحن هنـــا لا نريـــد التأريخ لها إلا بالقدر الذي له علاقة مباشرة بدمشق ووضعها الاقتصادي والاجتماعي .

بيروت ١٩٩٢ م ، ١٦ج ، انظر ج٥ ، ص١٨٦ ، وقد انفرد ابن تغري بردي عن جميع المؤرخين بالقول إن الاسم الحقيقي لدقاق هو دقماق وليس دقاق ، لأنه لم يسمع بهذا الاسم من قبل ، كما أن جده الأعلى يسمى : دقماق.

[١] ـ قنسرين : موقع أثري في منطقة جبل سمعان في محافظة حلب ، وكانت ذات ماض عريق ، فلم يبق اليوم منها سوى الأطلال ، وقنسرين اسم سرياني معناه : عشّ النور .
انظر : المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ـ مركز الدراسات العسكرية ـ الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٩٢ م . ج٤ ، ص٦٠٩ .

[٢] ـ ابن الأثير: الكامل ، ج٨ ، ص٤١٢ .

لقد كان مما أذكى الحقد الصليبي على المسلمين استغلال أولي الشأن منهم ، ولاسيما البابوات لحوادث فرديّة جرت في المشرق ، كان منها ما فعله الخليفة الفاطمي الحاكم من هدم كنيسة القيامة في القدس ، ثم هدم معظم الكنائس والأديرة في بلاد الشام ومصر ، وإلزامه أهل الذمة بطقوس وشعارات لم يعرفها المسلمون من قبل ، أضرّت بأهل الذمة ولم يأمر بها الإسلام ولا نفعت أهله .

وعلى الرغم من سرعة عودة الحاكم عن قراراته تلك وإعادة بناء الكنائس المذكورة، على الرغم من أنه نال المسلمين منه أكثر مما نال النصارى ، وبالرغم من تقادم العهد على تلك الحوادث ، فإن ذلك لم يغفر للمسلمين في نظر الغرب ، بل إن هذه الأحداث تناولها القصّاص والأدباء في الغرب ، فحوّلوها إلى أساطير مرعبة استقرّت في أذهان الناس هناك، فاستغلّها رجال الدين أسوأ استغلال واستطاعوا على مرّ السنين أن يحركوا أوربا بكاملها نحو المشرق ، وأقنعوهم بأن ذلك هو أقصر الطرق لدخول الجنة[١] .

وقد كان لدمشق دور بارز في هذه الحروب على الرغم من إمكاناتها المتواضعة ومشكلاتها الداخليّة .

فقد وقع عليها عبء الدفاع عن نفسها ضد الصليبيين الذين حاصروها عدّة مرات.

وكما كان عليها إيواء عشرات الآلاف من المهاجرين النازحين أو اللاجئين أو المهجّرين ، كلما سقطت مدينة أو قرية بيد الصليبيين بالرغم من إمكاناتها المحدودة.

وكان عليها واجب قومي كبير هو استنهاض همم العرب والمسلمين ضد الغزو الصليبي ، ولا سيما في عاصمة الخلافة بغداد.

وكان عليها التعامُل بحذر مع الفاطميين في القاهرة، الذين كانت سياستهم تجاه الصليبيين تتصف بالذبذبة والغموض وعدم الوضوح، حتى إنهم عجزوا تماماً عن إحراز أي نصر حاسم ضدهم، في الوقت الذي استطاعت فيه دمشق تحرير مناطق واسعة من حكم الصليبيين .

لقد بدأت دمشق بالصمُود ، ولم الشمل ، ثم بادرت إلى مهاجمة الصليبيين في المناطق التي يحتلوها قبل انقضاء عام واحد على تأسيس مملكة القدس الصليبية في القدس .

وسنقدم فيما يلي لمحة عن أهم الأحداث السياسية في دمشق حتى سنة ٤٩٧هـ – ١١٠٤م ، وهو تاريخ نهاية حكم السلاجقة فيها، وبطبيعة الحال ، فإن الحدث السياسي الأوّل في هذه الفترة اللاحقة كان هو الوجود الصليبي الجديد في بلاد الشام وأتابكية دمشق ، وموقف دمشق منه.

---

[١] ـ **عن الحاكم وما فعله انظر : الأنطاكي يحيى بن سعيد : تاريخ الأنطاكي – تحقيق عمر عبد السلام تدمري – طرابلس – لبنان ١٩٩٠ م ، الصفحات : ٢٥٠ حتى ٢٥٣ .**

ففي سنة ٤٩٠هـ – ١٠٩٧م وصلت طلائع الصليبيين إلى حدود الشام ، وكان أول أعمالهم فيها إلقاء الحصار على أنطاكية تسعة شهور ، ومات منهم في هذا الحصار خلق كثير، وكما قال ابن الأثير :

((إنهم لو بقوا على كثرتهم التي كانوا عليها لطبّقوا بلاد الإسلام[١])).

ووصف أحدُهم جيوش الحملة الصّليبية الأولى بأنها :

((كانت عبارة عن شعب كاملٍ يسير)).

وقالت ابنة الإمبراطور كومين وهي ترى جيوش الحملة :

((يُخيل إليّ أن أوربا قد اقتُلعت من أصولها[٢])).

وأخيراً ، دخل الصليبيّون أنطاكية في شهر جمادى الأولى ٤٩١هـ حزيران ١٠٩٨م، وقتلوا كل من كان فيها من المسلمين.

وذكر (رنسيمان) أن اليونانيين والأرمن الذين كانوا في أنطاكية ، انحازوا إلى الصليبيين في قتل كل من وقع عليه نظرهم من الترك ، من الرجال والنساء ، ولم تأت ليلة الثالث من حزيران وفي أنطاكية أحد من الترك على قيد الحياة ، وعادت المدينة مسيحّية مرة أخرى[٣] .

وقال وليم الصُّوري ، المؤرخ الصليبي للحملة :

((لقد فسح المجال لجيشنا بأسره لدخول المدينة ... فانتشر الكرب وعويل النسوة ، ودمّر المسيحيون محتويات المنازل وكانت تملكتهم شهوة القتل الجنونية والجشع والنهب ، لذلك لم يستثنوا أحداً من القتل فوضعوا السيوف في أمهات النبلاء وأبنائهم ، ويروى أنه قتل في ذلك اليوم أكثر من عشرة آلاف من أهل أنطاكية وانتشرت جثث الموتى على طول الطرقات ...[٤])) .

وفي ١٤ المحرّم سنة ٤٩٢ هـ – ١٠٩٨م سقطت مدينة المعرّة بعد حصار مرير ، وغدر الصليبيّون – كعادتهم– بأهلها بعدما بذلوا الأمان ، وأباحوها ثلاثة أيام ، ونفذوا فيها خطتهم التي ساروا عليها فيما بعد وهي المجازر الجماعية والأرض المحروقة .

---

١ - **ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٤١٧ .**

٢ - **محمد العروسي : الحروب الصليبية – دار الغرب الاسلامي في بيروت ، ١٩٩٢ م ، ص٤٩ .**

٣ - **ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية – تعريب السيد الباز العريني – بيروت ، دار الثقافة ط٢ – ١٩٨٠ – ٣ مجلدات ، انظر ، ج ١ ، ص ٣٥١ .**

٤ - **سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية . الأعمال المنجزة فيما وراء البحار – صنّفه باللاتينية وليم ، رئيس أساقفة صور ، ١١٣٠ م – ١١٨٥م ، ونقله إلى العربية وقدم له الدكتور سهيل زكار دار الفكر – الطبعة الأولى – ج ١ ، ص ٣٣٠ ، وسنرمز له تحت عنوان : سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية ، تجاوزاً بدون ذكر وليم الصوري .**

ثم تقدموا نحو كفر طاب وقلعة الحصن وطرطوس وطرابلس : فأخذوا بعضها وحاصروا بعضها حتى وصلوا إلى أملهم المنشود : بيت المقدس[١] .

ــ سقوط القدس:

من المفارقات الغريبة ، أنه في الوقت الذي كانت جحافل الصليبيين تجتاح مدن الشام الشمالية والغربيّة استعداداً لاحتلال القدس ، هدفهم الأسمى ، قام الفاطميون بمهاجمة القدس في شعبان سنة ٤٩١هـ – ١٠٩٨م وأخرجوا منها أولاد أرتق واحتلّوا المدينة – بدل دعمها والمرابطة فيها– وقذفوها بالمنجنيقات وهدموا جزءاً من السور ، وكانت حجتهم أنهم أقدر من حكامها التركمان على الدفاع عنها ، وبعد سنة واحدة من ذلك التاريخ وفي شعبان سنة ٤٩٢هـ – ١٠٩٩م سقطت المدينة بيد الصليبيين بعد انسحاب حكامها الفاطميين .

وقد ارتكب الصليبيّون في القدس مجازر ، يمكن أن نعدّها من أكثر مجازر التاريخ همجيّة وهولاً.

يقول رنسيمان :

((إنه لم ينجُ من المسلمين بحياتهم إلا الوالي الفاطمي ومن معه ، ذلك أن الصليبيين عمدوا إلى الدور والمساجد يقتلون كل من يُصادفونه من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز ، واستمرت المذبحة أياماً ، والتجأ من بقي من المسلمين على قيد الحياة إلى المسجد الأقصى ، فاقتحمه الصليبيون في اليوم التالي وقتلوا كل من فيه ، حتى أنه عندما توجّه ريموند آجيل لزيارة ساحة المعبد ، يعني المسجد الأقصى ، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه ...[٢])) .

وفرّ يهود القدس إلى معبدهم وأغلقوا الأبواب فألقى الصليبيون النار عليهم فاحترقوا جميعاً ، ثم توجّهوا نحو الحي المسيحي بالقدس ليؤدوا صلاة الشكر لله تعالى على هذه المذابح التي قاموا بها إرضاءً لله !!!

وذكر رئيس أساقفة صور (وليم) مؤرخ الحملة الصليبية المذكورة ، ما يغني عن كل بيان ، فقال :

((لقد كانت المجزرة التي اقترفت في كل مكان من المدينة مخيفة جداً وكان سفك الدماء رهيباً جداً لدرجة عانى فيها حتى المنتصرون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز ، واندفع الدوق وجنوده خلال شوارع المدينة مستلّين سيوفهم وقتلوا جميع من صادفوا من (الأعداء) – يعني المسلمين – ، وقد انتشرت المذابح المخيفة في كل مكان ، وتكدست الرؤوس المقطوعة في

---

[١] ـ زكار : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٧٩ وانظر : ابن الأثير: المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص٤٢٠ ، القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢٢٢.

[٢] ـ رنسيمان : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٤٢٦ .

كل ناحية بحيث تعذّر الانتقال إلا على جثث القتلى والتجأ (الأعداء) إلى المعبد فتبعهم (تانكرد) على الفور وشق طريقه إلى الهيكل بعد أن مارس فيه مذبحة مخيفة هلك فيها أكثر من ١٠,٠٠٠ إنسان)) .

وأخيراً يعبّر هذا الأسقف عن رأي الصليبيين الحقيقي وهو الرأي الذي يدين به الصليبيون حتى اليوم ، وإن لم يصرحوا به علناً : ((لقد كان حكم الله القويم الذي قضى على الذين دنّسوا حرم المسيح بطقوسهم الخرافيّة ، وجعلوه مكاناً غريباً بالنسبة لأهله المؤمنين أن يُكفّروا عن خطاياهم بالموت وأن يطهّروا الأروقة المقدسة بسفك دمائهم[1])) .

هذا ما ذكره مؤرخو الغرب ، أما المؤرخون المسلمون فقد قدروا عدد القتلى في القدس بنحو ٧٠,٠٠٠ من المسلمين واليهود ، وكما يقول ابن الأثير :

((إنه قتل في المسجد الأقصى جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعُبّادهم وزهّادهم ، ممن كان يجاور في تلك الأماكن من علماء المسلمين[2])) .

وذكر ابن العبري أنه قتل في المسجد وحده ٧٠,٠٠٠ إنسان ، وغنم الصليبيّون كل ما فيه من زينة وحلي وآثار لا تقدّر بثمن[3] .

ووصل إلى بغداد عدد من الناجين صحبة القاضي أبي سعيد الهروي ، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العُيون وأوجع القلوب ، وقاموا بالجامع يوم الجمعة ، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا ما دهم المسلمين بالقدس ، ولشدة ما أصابهم أفطروا ، فأمر الخليفة عدداً من رجاله بالإعداد للحرب ، ولكن شيئاً من ذلك لم يتم ، فعاد المستصرخون إلى الشام بخفي حنين بعدما أعرب المسؤولون في بغداد عن (قلقهم البالغ) لما حدث وعادت الأمور كما كانت، وكأن شيئاً لم يكن[4] .

فقال الشاعر أبو المظفر الأبيوردي :

مزجنا دماءً بالدموع السّواجم   فلم يبق فينا عرضة للمراحم

وشرّ سلاح المرء دمعٌ يفيضهُ   إذا الحرب شبّت نارها بالصوارم[5]

وكان سقوط القدس نهاية الاندفاع للحملة الصليبية الأولى والتي أسفرت عن قيام دويلات وإمارات صليبية في الرها وانطاكية وطرابلس والقدس وتمّ عزل دمشق عن الساحل ، والتجأ إليها الهاربون من بطش الصليبيين ومجازرهم .

---

1 - زكار : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٤٣٦ .
2 - ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٤٢٥ .
3 - غريغوريوس العبري : تاريخ مختصر الدول – بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٨ م ، ص١٩٧.
4 - ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص٤٢٥ .
5 - ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٧ ، ص ٤٧ .

ولقد أراد الصليبيون بمجازرهم الرهيبة التي أصبحت من اختصاصهم عبر العصور ، أن يوجدوا حالة من الهلع والرعب بين المسلمين تدفعهم إما إلى الرحيل إلى جزيرة العــرب أو الارتداد عن دينهم ، أو الخضوع للغزاة الجدد ، لكن أياً من ذلك لم يحصل .

لقد كان للمذابح الرهيبة ردّة فعل عالية عند المسلمين ، وكما يقول رنسيمان :

((إن كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث أما المسلمون الذين كان يمكنهم القبول بمبدأ التعايش مع الصليبيين حتى وقت قريب فإنهم وطدوا العزم على ضرورة طرد الصليبيين ، ولم يُثر التعصب الإسلامي إلا التعصب المسيحي الذي دل عليه ما لجأ إليه الصليبيون مــن سفك الدماء ، ولقد حالت ذكرى هذه المذابح دون قيام أي تفاهم من أي نوع مع الــصليبيين[1])) .

ولقد بدأت ردّة الفعل من دمشق سريعة وحاسمة ومؤثرة، ووقع على عاتقها أن تبني نفسها داخلياً وتحارب الأعداء خارجياً وسط ظروف كان الأمل بنجاحها قليلاً، لكنها نجحت في ذلك.

كانت خطة شمس الملوك دقاق ، وأتابكه طغتكين منذ البداية مقاومة الغزو الصليبي بشتى الوسائل .

وكان أول ما فعله الأتابك طُغتكين سنة ٤٩٢ هــ – ١٠٩٩م ، نقل المصحف العثمــاني من مدينة طبرية إلى دمشق . فقد ذكر القلانسي في حوادث سنة ٥٠٧ هـــ – ١١١٣م ، أن الأمير مودوداً صلى الجمعة مع الأتابك طُغتكين في مسجد دمشق ، وتبرّك بنظر المــصحف الكريم الذي كان حمله عثمان بن عفان رضي الله عنه من المدينة إلى طبرية وحملة الأتابــك من طبرية إلى جامع دمشق[2] .

وذكر الذهبي في حوادث سنة ٤٩٢هــ – ١٠٩٩م أن الأتابك طغتكين نقل من طبريـــة المصحف العثماني خوفاً عليه إلى دمشق ، وخرج الناس لتلقّيه ، فأقرّهُ بمقصورة الجامع[3] .

أما على المستوى الحربي فإنه في سنة ٤٩٤ هــ – ١١٠١م استنجد القاضي عبد الله ابن منصور حاكم مدينة جبلة بالأتابك طغتكين ليسلّمه جبلة خوفاً عليها من الصليبيين ، فأرســل ابنه بوري فتسلمها وضمّت إلى دمشق[4] .

وفي سنة ٤٩٦هــ – ١١٠٣م ، ضمت الرحبة إلى الأتابكية.

---

[1] ـ رنسيمان : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٤٢٧ .
[2] ـ القلانسي : تاريخ دمشق ، ٢٩٨ .
[3] ـ الذهبي : محمد بن أحمد : تاريخ الاسلام ـ حوادث ووفيات ، ٤٩١ ـ ٥٠٠هـ ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٩٤ م ، والكتاب على ضخامته لم يقسم إلى أجزاء ، وإنما قسم بحسب السنين ، انظر، ص٢١ من حوادث سنة ٤٩٢هـ .
[4] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٢٦ .

وفي العام نفسه طلب أهل حمص من شمس الملوك دُقاق أن يتسلم منهم المدينة فتسلمها[1] .

وفي العام ٤٩٧ هـ – ١١٠٤م سقطت عكا بيد الصليبيين بقيادة بلدوين ملك القدس ، والتجأ حاكمها الفاطمي إلى دمشق ، فأكرمه طغتكين وسيّره إلى القاهرة ، وكان سقوطها كارثة كبرى على دمشق لأنها كانت ميناءها الرئيسي كما سنرى[2] .

وفي العام نفسه ، توفي شمس الملوك دُقاق ، وقيل إن أمّه صفوة الملك قد سمّته في عنقود عنب . وكان القتل بأنواع السموم من الأمور الشائعة في تلك الفترة . وكان قد أوصى بالملك لابنه الصغير (تُتُش) وجعل الأتابك طغتكين وصيّاً عليه ، لكن الأتابك رأى استدعاء (أرتاش) أخا دُقاق من أبيه ، وكان يقيم في بعلبك ، ليوليه مكان أخيه ، وحاول أرتاش ممارسة سلطاته ، فتصدت له صفوة الملك – امرأة أبيه وأم تتش الثاني – فغادر دمشق حتى لا يموت في عنقود عنب ، مثل أخيه[3] .

وهنا ظهرت أسوأ ظاهرة في تاريخ دمشق والمنطقة وهي ظاهرة استمرّت طويلاً وهي الاستعانة بالصّليبيين ضد المسلمين ، مثلما كان يحدث في الأندلس وكان لتلك البدعة الخطيرة آثار سيئة على دمشق والمنطقة بأسرها .

ذلك أن (أرتاش) غادر دمشق سرّاً على حين غفلة من أهلها ، ولحق به الأمير أيتكين الحلبي ، صاحب بصرى ، وقصدا عدوّ المسلمين الأول بلدوين لمساعدتهما على طغتكين ، لكن أمل أرتاش خاب ، وأعرض عنه بلدوين .

فالتجأ مع زميله في الخيانة والضلال إلى الرحبة للتخطيط من جديد ضد طغتكين وصفوة الملك ، لكنه مات هناك في العام نفسه ، بعد ما خسر الدنيا والآخرة[4] .

ثالثاً ــ عصر طُغْتِكين وسلالته : ٤٩٧ – ٥٤٩هـ – ١١٠٤ – ١١٥٤م

يطلق المؤرخون على هذه الدولة اسم الدولة البورية نسبة إلى بوري بن بن طغتكين ، والأولى أن يقال عهد سلالة طغتكين ، ولكن ربما استثقلوا اسم الأب فعمدوا إلى الابن ، وقد

---

[1] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٣٠ .

[2] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٣٣ ، وقد دفن شمس الملوك هذا في الخانقاه الطواويسيّة ، مقابل جامع الطاووسية اليوم بدمشق ودُفنت أمه بجواره بعد ذلك وقد بقيت هذه الخانقاه قائمة حتى سنة ١٩٣٠ م ، ثم هُدمت بعد ذلك . انظر : أكرم حسن العلبي : خطط دمشق ـ دار الطباع ـ دمشق ١٩٨٩ م ، ص ٤٠٢ .

[3] ـ ابن الأثير : الكامل ج٨ ، ص٤٩٨ .

[4] ـ انظر ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٧ ، ص٤٦٧ ، وورد اسمه فيه : أرتاش أو ألتاش ، وابن الأثير : المصدر المتقدم : ج٨ ، ص٤٩٨ ، وورد اسمه فيه بكتاش .
وأما الرحبة فهي إلى الجنوب الشرقي من دير الزور ، على الفرات ، تنسب إلى مالك بن طوق ، وفيها قلعة أثرية ، وتقع بجوار الميادين ، المعجم الجغرافي ، ج٣ ، ص٤٦٤ .

تكرر هذا في عصر نور الدين بن زنكي ، الذي أطلقوا عليه اسم نور الدين الشهيد ، مع أن الشهيد هو والده زنكي ، وليس هو .

وطغتكين هذا هو أبو منصور أتابك ظهير الدين كان الحاكم الفعلي في دمشق منذ سنة ٤٨٨ هـ كما شاهدنا ، وكان قد تزوج بصفوة الملك أم دقاق إكراماً له ، على عادة السلاجقة بتزويج مطلقاتهم أو أمهات أولادهم من أمرائهم . ويلفظ اسمه بضم الطاء وسكون الغين وكسر التاء والكاف .

ويكتب اسمه عند الغربيين Doldequine و Tug – Tokin ومعنى طغتكين : الباز المقاتل[1] .

ولقد حكم طغتكين دمشق ربع قرن كامل بصورة رسمية ، وخمسة وثلاثين عاماً بصورة فعلية ، وهو أمر لم يتفق من قبله إلا لمعاوية بن أبي سفيان ، ومن بعده للأمير تنكز الناصري الذي حكم دمشق ثمانية وعشرين عاماً .

ولم نجد فيما بين أيدينا من المصادر المعاصرة لطغتكين من طعن في نبله وكرمه وشجاعته ومروءته ودينه ، علاوة على كفاءته وإخلاصه ، وكما قيل فإن الشام عمرت بجميل سياسته ورخصت الأسعار وظهرت الغلات ، وانتشر العدل في الرعية ، وازدهرت سوق العلم ، وعم الاستقرار ، على الرغم من الظروف السيئة التي كانت تعاني منها دمشق في ذلك الوقت .

وقد أمضى طغتكين معظم سنوات حكمه في مقارعة الصليبيين والطامعين في الحكم ، وفي محاولة إعادة إعمار الأتابكية.

وكانت باكورة أعماله في شعبان سنة ٤٩٨هـ –١١٠٥م مهاجمة بلدة رفنيّة التي كان الصليبيون قد احتلوها ، وساعده في ذلك سكان جبل بهرا ، عندما هجموا مع الأتابك على رفنيّة على حين غفلة من أهلها ، فاحتلوها ، وقتلوا من بها ومن في أعمالها . كما استولوا على الحصن الذي بناه الصليبيون فيها وعاد الأتابك إلى حمص مظفراً منصوراً[2] .

ويعد تحرير (رفنيّة) على صغر البلدة ، عملاً له أهمية بالغة ، لأنه كان بداية العدّ التنازلي في اندحار الصليبيين ، ومعناه أن الذين حرروها ، قادرون على تحرير غيرها ، وأن

---

[1] - الموسوعة الإسلامية المترجمة : ج١٥ ، ص١٩٦ ، وتراجمه كثيرة ، انظر : ابن عساكر : تاريخ دمشق – أول الجزء ٢٥ الصّفدي : تحفة ذوي الألباب ، ج٢ ، ص٦١ ، القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢٣٣ ، ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٤٩٨ ،الصفدي : أمراء دمشق في الاسلام ، ص١٩٧ ، وورد اسمه فيه **Tug - Tigin** .

[2] - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٣٩ ، العظيمي : محمد بن علي العظيمي الحلبي المتوفى سنة ٥٥٦ هـ : تاريخ حلب – تحقيق إبراهيم زعرور – دمشق ١٩٨٤ م ، ص٣٦٢ ، أما رفنيّة فيقول الدكتور سهيل زكار ، وهو عالم بها ، إن أطلالها قائمة قرب قرية بارين على طريق مصياف – حمص . وهذه البلدة تناوب على السيطرة عليها خلال فترة الدراسة الصليبيّون والمسلمون مراتٍ عديدة .

تفكير الصليبيين بالاستقرار النهائي في البلاد الإسلامية هو أمرٌ مستحيل ، وهذا ما أثبتت الأيام صحته .

ومما يلفت النظر في هذا الفتح أمران :

- الأوّل أن القلانسي ذكر أن خلقاً كثيراً من جبل بهرا وفدوا إلى جيش الأتابك طغتكين وتطوعوا معه في مهاجمتها ، وجبل بهرا هذا هو جبل العلويين[١] .
- والثاني أن القلانسي ذكر أن جميع من بها قُتلوا وهُدم الحصن وقتل من كان في أبراجها .

وهذا يعني أن طغتكين أراد أن يثأر لآلاف المسلمين الذين قتلوا في إنطاكية والمعرّة والقدس ، ويلقي الرعب في قلوبهم ، ثم تعدلت هذه السياسة إلى قتل البعض وأسر البعض كما سنرى في تحرير موقع العال فيما يلي .

ففي ربيع الآخر ٤٩٩هـ – ١١٠٥م بعد بضعة شهور من تحرير رفنيّة وجّه طغتكين ضربة أخرى للصليبيين في طبرية وفي قلب سلطتهم .

وكان الصليبيّون قد بنوا حصناً عند موقع (العال) في الجولان ، فباغتهم الأتابك قبل إتمام بناء الحصن وهم في غفلة من أمرهم ، ونشب قتال بين الفريقين ، وانهزم أميران من أمراء دمشق فتبعهما طغتكين وقتلهما ، واندفع في قتال ضارٍ مع الصليبيين فتراجعوا إلى حصنهم الذي بنوه ، فقال طغتكين :

((من جاءني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير ، ومن أحسن القتال أجبته إلى كل ما يطلبه مني))، فصعد الرجال إلى الحصن وخربوه وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي وأسروا من بالحصن ، فأمر بهم طغتكين فقتلوا كلهم ، واستبقى الفرسان أسرى وكانوا مئتي فارس .

وعاد إلى دمشق منصوراً فزينت المدينة أربعة أيام[٢] .

وبعد أربع سنوات تقريباً من هذا النصر ، سار جرفاس ابن أخت بلدوين ملك القدس إلى طبرية في ألفي رجل و ٤٠٠ فارس ، فالتقى مع الأتابك طغتكين في معركة طاحنة كاد المسلمون ينهزمون فيها ، ثم أنزل الله نصره عليهم وكسر الفرنج وأسر جرفاس ، فعرض عليه طغتكين الإسلام فأبى وبذل في فداء نفسه ٣٠,٠٠٠ ديناراً وإطلاق ٥٠٠ أسير من المسلمين ، ورغم هذا العرض المغري ، فقد آثر طغتكين قتله ، وقتله لإرهاب من خلفه ، وأرسل بالأسرى إلى بغداد[٣] ، وبعد ذلك وللمرة الأولى في تاريخ الحروب لصليبية ، لجأ

---

[١] ـ **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٣٩ .**
[٢] ـ **ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٥١٧ .**
[٣] ـ **ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص٥٧٠ .**

كبار ملوك الفرنج إلى طلب الهدنة من الأتابك طغتكين ، وهذا هو اعتراف ضمني منهم بقوة المسلمين ، وتأثيرهم في الفرنج .

ففي تلك السنة وهي سنة ٥٠٢هـ - ١١٠٩م تم توقيع أول هدنة بين أتابكية دمشق ومملكة القدس وملكها بلدوين وكان مضمونها :

- أن تضع الحرب بين الطرفين أوزارها لمدة أربع سنوات.

- توزع غلة جبل عوف والسهول المحيطة به أثلاثاً : للأتابك الثلث ، وللفرنج الثلث ، وللفلاحين الثلث[١]. وهذا ما يعرف بنظام المثالثات الذي سنتحدث عنه في الفصل الثاني .

وكانت هذه الهدنة نصراً كبيراً للمسلمين ، لأنهم تلقوا بعدها مباشرة هزيمتين متواليتين من الفرنج :

أولاهما الهزيمة عند حصن الأكمة قرب صافيتا[٢] ، ثم سقوط طرابلس في أواخر العام نفسه ٥٠٢ هـ - ١١٠٩م .

فأما حصن الأكمة فقد حرره طغتكين مع عدد آخر من الحصون ، فتوجّه (السّرداني) قائد الفرنج ، وكان محاصراً لطرابلس ، مع ثلاثمائة من فرسانه فقط إلى الحصن لمباغتة المسلمين وكانوا في ٤٠٠٠ فارس، وما كاد هؤلاء يرون جنود الفرنج حتى لاذوا بالفرار من غير قتال تاركين وراءهم أثقالهم ورحالهم ودوابهم، فغنمها الفرنج بدون أن يقتل واحد منهم أو من المسلمين، ودخل المنهزمون حمص على أسوأ حال ، ولولا الهدنة واحترام بلدوين لها لتم القضاء على دمشق عاصمة الأتابكية التي لم يكن فيها من يدافع عنها .

وقد كانت هذه الهزيمة في شهر شعبان ٥٠٢ هـ - آذار ١١٠٩م ، ولذلك فإنه عندما وصل طغتكين إلى دمشق أرسل إليه بلدوين يقول :

((لاتظن أني أنقض الهزيمة للذي تم عليك من الهزيمة ، فالملوك ينالهم أكثر مما نالك ثم تعود أمورهم إلى الانتظام[٣]..)) .

وقد أدت هزيمة الأكمة إلى ارتفاع معنويات الفرنج بعدما كانت قد تدنّت كثيراً بعد تحرير رفنيّة والانتصارات الإسلامية في العال وطبرية .

---

١ - ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص٥٧١ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٦٣ .

٢ - ذكر الدكتور زكار في حاشيته على تاريخ دمشق للقلانسي ص٢٦٠ ، أنه لم يعثر على تعريف بهذا الحصن في المراجع التي لديه ، وقد ذكر الدكتور عمر التدمري في حاشيته على الكامل ، ج٨ ، ص٥٧١ ، أن حصن الأكمة أو اللكمة قرب رفنيّة بينها وبين طرطوس ويسميه الافرنج Le Camel ، يؤيد ذلك ما ورد في المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، ج٢ ، ص١٢٤ ، أن قرية الأكمة هي على طريق صافيتا – دريكيش . وانظر ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٢٦٩ .

٣ - ابن الأثير : المصدر المتقدم ،ج٨ ، ص٥٧١ و ص٥٠٢ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٢٦٠ و ص٢٦١ ، والسرداني المذكور هو : وليم جوردان السّرديني .

وحدث أن وصل إلى طرابلس ريموند بن صنجيل في ستين مركباً فألقى الحصار عليها ، وكان السرديني يحاصر حصن عرقة وهو خط الدفاع الأول والأخير عن طرابلس ، فبادر أهلها إلى طلب الأمان فتسلّمه السّرديني ثم جدّ الفرنج في محاصرة طرابلس وكانت تحت حكم المصريين الفاطميين ، واستمر الحصار زهاء أربعة شهور ، من شعبان حتى الحادي عشر من ذي الحجة سنة ٥٠٢هـ – تموز ١١٠٩م .

وكانت المقاومة فيها شديدة ، وكان أهلها ينتظرون (الترياق من العراق) فقد علموا أن أسطولا ضخماً تحرك من مصر لنجدة طرابلس وغيرها ، وطال انتظارهم دون أن يظهر هذا الأسطول ، فسقطت المدينة يوم الاثنين ١١ ذي الحجة ٥٠٢هـ – ١١٠٩م ونهبها الفرنج وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وغنموا منها ما لم يكونوا يحلمون بمثله من الأمتعة والذخائر والكتب التي كانت في (دار العلم) فيها ، استسلم حكامها الفاطميون ووصلوا إلى دمشق ثم رحلوا إلى القاهرة ، وصار أهل طرابلس وجهاً لوجه مع الفرنج الذين أنزلوا بهم أشد أنواع العذاب والبلاء والقهر ، وأخيراً وصل الأسطول المصري إلى طرابلس في اليوم الثامن لسقوطها[١] ، تماماً مثلما حصل عند سقوط القدس ، فاستغاث به أهل صُور وصيدا وبيروت ، فلم يسعفهم بشيء وعاد من حيث أتى ، والغريب أنه عند سقوط القدس أمّن الفرنج حكامها الفاطميين ولم يؤمنوا سكانها ، ثم تكرر الأمر نفسه في طرابلس .

وقد علّل المؤرخ ابن تغري بردي ذلك عند ترجمته لحاكم مصر الآمر بأحكام الله فقال : ((إنه في أيامه أخذ الفرنج عكا منه ٤٩٧هـ – ١١٠٤م وأخذوا طرابلس سنة ٥٠٢هـ – ١١٠٨م ، وأخذوا عرقة ، ثم بيروت وصيدا وصور ، وتوجّهوا نحو مصر لاحتلالها)) . ثم يقول :

((ومن هذا يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه ، الأول : من تقاعسهم عن المسير في هذه المدة الطويلة . والثاني : لضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر ، ولم تكن له قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد . والثالث : أن وزير مصر وقائد جيوشها الأفضل بن بدر الجمالي لم يخرج مع الاسطول ، كما فعل أبوه من قبل[٢])) .

وقد أدى سقوط طرابلس والمدن الساحلية الأخرى إلى تعاظم خطر الفرنج العسكري والاقتصادي على دمشق ، كما سنرى .

---

[١] - عن سقوط طرابلس انظر : العظيمي : تاريخ حلب ، ص٣٦٤ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٦٢ ، ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص١٣٢ ، وانظر : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان – صفحات نشرها الدكتور سهيل زكار في كتابه عن الحروب الصليبية من صفحة ٧٣٩ حتى ص ٧٨٧ – انظر عن سُقوط طرابلس ص ٧٤٩ ، ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص٥٧٨ ، وفيه أنها سقطت سنة ٥٠٣ هـ ، وهو سهو منه لم يصححه المحقق، وفيه مصادر كثيرة عن طرابلس وحصارها .

[٢] - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٦٩ – ١٧٧ .

ويقول ابن العبري إنه على أثر سقوط طرابلس وماتلا ذلك من سقوط الحصون والقلاع الإسلامية اضطر حكام المسلمين في الشام إلى مسايرة الفرنج وإرضائهم بالمال .

فأرسل رضوان صاحب حلب إلى تنكريد صاحب إنطاكية :٣٢,٠٠٠ دينار ، و ٢٠ حصاناً عربياً ، و ٤٠ قطعة قماش فاخر .

وأرسل إليه صاحب صور ٧,٠٠٠ دينار ،وصاحب عسقلان ٤,٠٠٠ دينار ، وابن منقذ ، صاحب شزر ٤,٠٠٠ دينار ، وعلي الكردي صاحب حماه ٢,٠٠٠ دينار وعقدوا معهم هدنة إلى وقت الحصاد على أن يأخذ منهم الغلّة[١] .

ونظراً للظروف الصعبة التي توالت على دمشق ، فقد اضطر طغتكين إلى عقد معاهدة جديدة مع بلدوين ملك القدس ، وردت فيها شروط جديدة لم تعرف من قبل ، ثم صارت قاعدة عامة حتى نهاية عهد نور الدين .

وهذه بنود المعاهدة :

- توقف الحروب بين الفريقين .
- يكون للافرنج الثلث من واردات البقاع .
- وفي مقابل ذلك تعهّد الافرنج بالكف عن العبث في أراضي المسلمين ومزروعاتهم .
- يدخل في هذه الاتفاقية كل من : حصن مصيات وحصن الطوفان وحصن الأكراد .
- يحمل أهل هذه الحصون إلى الافرنج في كل عام مبلغاً معيناً من المال .

وكان توقيع هذه المعاهدة في أوائل سنة ٥٠٣ هـ – ١١٠٩م ، وكالعادة نقض الفرنج شروط المعاهدة بعد عدة شهور من توقيعها .

والذي يعنينا من ذلك تلك الشروط الجديدة التي تقضي على دمشق بأن تشارك الفرنج في إيرادات سهل البقاع ، المموّلُ الرئيسي لدمشق بالحبوب والمواد الأخرى.

والشرط الآخر ، الذي سيصبح بدوره قاعدة عامة ، هو أن يدفع المسلمون للفرنج مالاً مقابل هذه الهدنة ، وهو عكس الجزية ، وهو أمر لم يكن معروفاً من قبل[٢] .

وفي هذا العام ، وعلى الرغم من توقيع المعاهدة المذكورة فإن الفرنج هاجموا جبلة وبانياس واحتلوهما ، ثم قام بلدوين بمحاصرة بيروت براً وجاء الأسطول المصري لنجدتها ، وبعد معارك طاحنة سقطت بيد الفرنج يوم الجمعة ٢١ شوال ٥٠٣ هـ – ١١١٠م وقتل واليها وجماعته ، وسُبي أهلها ، وكانت تلك من أشد الضربات على دمشق[٣] .

---

[١] - **ابن العبريّ : تاريخ الزمان ، ص١٣٤ ، ويُمثّل ابن العبري في كتاباته وجهة النظر الصليبيّة البحتة .**

[٢] - **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢٦٤ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٧٥٠ . وسنعالج في الفصل التالي موضوع المثالثات والمناصفات .**

[٣] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٢٧٠ ، ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ – ص٥٧٩ .**

ثم توالت الضربات بسقوط صيدا يوم ٢١ جمادى الآخرة ٥٠٤هـ – ١١١١م بعد معارك طاحنة ، وكان أهلها قد اتفقوا مع بلدوين على الأمان على النفوس والأموال ، وخيّرهم بين البقاء تحت حكمه أو الرحيل إلى دمشق ، فغادرها معظم أهلها إلى دمشق ، وفرض على من بقي فيها غرامة سنوية قدرها ٢٠,٠٠٠ دينار[١] .

وفي وسط تلك الهزائم المتكررة ، ولتيقّن الناس أن الفاطميين الذين كانوا يتولون حماية مدن الساحل ، قد أصبحوا عاجزين عن الدفاع عنها ، أو غير راغبين في ذلك ، وأن تقاعسهم عن حماية القدس وطرابلس وبيروت وصيدا وغيرها قد أدى إلى سقوط هذه المدن بيد الفرنج ، وبالتالي فقد أصبح وضع دمشق غاية في الحرج والخطورة ، وهي حصن الإسلام الأوّل ، ولذلك بادر أهل صور إلى مراسلة الأتابك طُغتكين واستصرخوه وعرضوا عليه تسليم البلد له ، بعدما يئسوا من معونة الأفضل بن بدر الجمالي ، وزير مصر وحاكمها ، فبادر طغتكين إلى إرسال طلائع من الفرسان إلى صور وجبل عاملة ، وانضم إليها عدد وافر من المتطوعين الراغبين في الجهاد ، فبادر بلدوين إلى حصارها يوم ٢٥ جمادى الأولى سنة ٥٠٥هـ – ١١١٢ م ، وقطع الشجر والنخل وزحف إليها مرات عديدة وجرت معارك طاحنة حولها ، وبنى الافرنج أبراجاً عالية ، كما بنوا دوراً لهم حول صُور لتساعدهم على القتال .

وإزاء ذلك قام الأتابك طغتكين بمهاجمة حصون الفرنج في طبرية وبانياس ، ثم تقدم نحو صور وصيدا ، وكان يُرسل لأهل صور يحثهم على الثبات ، ويقوم بدوره بمهاجمة جيوش الفرنج المحاصرة لصور .

وقد شهدت هذه المدينة من ضروب المقاومة والشجاعة والبطولة ، مالا يمكن وصفه، واستمرت المعارك الضارية شهوراً طويلة ، وكان كل فريق مصمّماً على الانتصار ، وأصبح بلدوين ، بعد انتصاراته السابقة واثقاً من نفسه ومن جنده ، ولكنه اضطر في نهاية الأمر إلى الانسحاب وهو يجر أذيال الخيبة والعار بعد أن فقد من جيشه زهاء ٢٠٠٠ رجل مقابل ٤٠٠ مفقود من أهل صور ، وكان انسحاب الفرنج يوم ١٠ شوال ٥٠٥هـ – نيسان ١١١٢م ، وكانت مدة الحصار والمعارك أربعة شهور وخمسة عشر يوماً ، وكان لهذا النصر صدى واسع في كل بلاد الإسلام ، وأهم أسبابه برأينا أن طغتكين نفسه كان يقود المعارك ، وأنه لم يكن للفاطميين دور فيها بوجه من الوجوه[٢] .

وفي سنة ٥٠٦ هـ ١١١٢م ، تسلّم طغتكين حكم صور رسميّاً وأرسل إلى الأفضل في مصر بأنه سيسلّمها للحاكم الذي يرسله الأفضل ، إذا ثبتت كفاءته ، فوافق الأفضل على ذلك ، على مضض[٣] .

---

[1] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٢٧٤ .

[2] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ٢٨٤ حتى ٢٨٨ وفيه وصف رائع لصور البطولة التي أبداها أهل صور ، وللآلات الحربية الجديدة التي اخترعوها أثناء المعارك والتي قضت على أبراج العدو الجبارة ، وانظر : العظيمي : تاريخ حلب ص٣٦٥ ، ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص٥٨٩-٥٩٠ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٧٥٤ .

[3] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٩٠ .

وفي أواخر عام ٥٠٦هـ –١١١٣م ، اجتمع الأتابك بقادة الشام وأمرائه وهم : الأمير مودود صاحب الموصل ، والأمير : تميراك صاحب سنجار ، والأمير : إياز بن إيلغازي .

وكان الاجتماع في سلميّة ، وقد عرض عليهم الأتابك غدر بلدوين والفرنج رغم المواثيق والمعاهدات التي أمضاها ، كما عرض عليهم وصول الفرنج إلى أطراف دمشق وعبثهم فيها ، واتفقوا على ضرورة توجيه ضربة قاضية وحاسمة للفرنج ولكبيرهم وأشدهم أذى للمسلمين : بلدوين ، وكان اللقاء الحاسم على ضفاف بحيرة طبرية يوم السبت ١١ المحرم سنة ٥٠٧هـ – ١١١٣م ، وكان بلدوين قد قرر الهجوم قبل مجيء حلفائه ، ونشب القتال بين الفريقين وكان النصر فيه للمسلمين الذين قتلوا من الفرنج زهاء ٢٠٠٠ رجل من الأعيان والأبطال وغنموا خيامهم وكراعهم ، كما غنموا الكنيسة المتحركة المشهورة ، وكاد بلدوين أن يقع أسيراً ، واختلطت مياه البحيرة بدماء الفرنج ، حتى امتنع الناس عن الشّرب منها أياماً ، ثم أغار المسلمون على البلاد من عكا حتى القدس ولاحقوا فلول الفرنج حول طبرية ، وأسروا عدداً منهم أرسلوهم مع رؤوس القتلى وخيولهم ومضاربهم وأسلحتهم إلى السلطان محمّد بن ملكشاه في أصفهان ، وكانت هذه الموقعة من أشد المواقع العسكرية على الفرنج الذين وقع الخلاف بينهم بسببها للمرة الأولى وعنفوا بلدوين على غروره وحماقته[١] .

وفي ذلك العام ٥٠٧هـ – ١١١٣م ، أرسل بلدوين إلى مسعود صاحب صور من طريق الأتابك طغتكين يلتمس منه الهدنة ، فأجابه إلى ذلك ، وأمنت السابلة والتجار والمسافرون الواردون من جميع الأقطار .

وفي العام نفسه سقطت رفنيّة بيد الفرنج ، وكما قال القلانسي ((قويت شوكة الإفرنج في رفنيّة ، وبالغوا في تحصنها وشحنها بالرجال ، وشرعوا في الفساد والتناهي في العناد)) . ففاجأهم الأتابك طغتكين في فجر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة ٥٠٩هـ – ١١١٥م ، واحتل البلد وقتل كل من كان فيه أو أسروا ، ولم يفقد من المسلمين رجل واحد .

وعاد الأتابك إلى دمشق بالغنائم والأسرى ورؤوس القتلى ، وطيف بهم في البلد ، فانشرحت الصدور وقويت في نفس الجنود فريضة الجهاد والغزو ، ووصلت أخبار هذا الفتح إلى بغداد[٢] .

---

[١] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٢٩٥ ، ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص٥٩٥ ، ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ١٣٤ ، وفيه أن قتلى الفرنج ١٣٠٠ رجل وأنه وصلت إليهم نجدة من طرابلس وانطاكية ، وأما سبب الارسال إلى السلطان غياث الدين محمد بدل الخليفة ، فهو لأنه كان هو الحاكم على الخليفة، كما هو معلوم .

[٢] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص٦٠٩ ، وفيه أن الفرنج ملكوا رفنية سنة ٥٠٩ في جمادى الآخرة ولعلّه وهم منه .

وفي ذلك العام طرأ تحول سياسي مهم على دمشق وهو اعتـــراف الخليفـــة العباســـي ، والسلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه بسلطان الأتابك طغتكين على دمشق ، وتم ذلك فـــي الزيارة التاريخية للأتابك إلى بغداد في أواخر سنة ٥٠٩هــ – ١١١٦م ، وقيمة هذا الاعتراف تكمن في فشل المحاولات المتكررة لأعداء الأتابك ، في إقناع السلطان غياث الدين بإرســـال أحد أفراد أسرته لتولي دمشق التي كانت أصلاً في حكم تتش وأولاده ، إخوة السلطان غيـــاث الدين ، وقد عبر القلانسي عن ذلك فقال :

((... فحسده قوم من مقدّمي السلطان ، وراموا عزله والإساءة إليه ، وانتشر بعد ذلك في كل صوب .. فكتب إليه من يؤثر صلاحه بالقدوم إلى بغداد لإزالة ذلك بـــين أيـــدي الخليفـــة والسلطان فبادر إلى السفر يوم الأحد ٢٤ ذي القعدة ٥٠٩هــ – ١١١٦م .

وقابل الخليفة والسلطان فأعربا عن رضاهما عنه وتقديرهما لجهاده ، وخلعا عليه وكتب له السلطان غياث الدنيا منشوراً بولاية الشام حرباً وخراجاً ، وإطلاق يده في موارده)) . وقد أثبت القلانسي الكتاب بنصه الكامل ، وتاريخه شهر المحرّم سنة ٥١٠هــ– أيار ١١١٦م[١] .

وقد أعطى هذا الكتاب واعتراف الخليفة والسلطان بالأتابك قوة معنوية كبيـــرة لأتابكيـــة دمشق ولطغتكين تجاه الفرنج ، كما ثبت أقدامه أمام الحاسدين والطامعين والمتآمرين ولـــذلك استمرت سلالته تحكم دمشق أربعين سنة بعد ذلك .

وقد ظهرت آثار ذلك سريعاً على الأرض ، ففي ذلك العام ٥١٠هــ –١١١٦م ، وعلـــى الرغم من العهود والمواثيق التي كانت قائمة بين طغتكين والفرنج ، فقد قرر هؤلاء اخـــراب سهل البقاع ونهب ما فيه من الزروع والمواشي ، فتصدى لهم الأتابك مع حليفه سيف الـــدين سنقر البرسقي صاحب الموصل الذي كان قد وصل إلى دمشق لاغتنام فريضة الجهاد فاجأهم في هدأة الليل في البقاع وأعمل فيهم القتل وأسر وجوه فرسانهم ومقـــدّميهم واســـتولى علـــى أموالهم وأسلحتهم ، ونقل القلانسي عمن شاهد الواقعة ، أن عدد القتلى في صفوف الفرنج من الخيالة والرجّالة المسلّحين (السردندية) والنصارى الخيالة والرجّالة يزيد على ٣٠٠٠ نفس ، وعاد الأتابك مع حليفه الأمير سنقر إلى دمشق بالغنائم والأسرى ورؤوس القتلى كما جـــرت العادة[٢] .

وفي سنة ٥١٢ هــ – ١١١٨م أواخر سنة ٥١١هــ– ١١١٨م ، توفي زعـــيم الفرنجـــة الأول وعمدتهم في الاعتداء على المسلمين ومحاولة استئصال شأفتهم ، بلدوين ملك القـــدس ،

---

[١] ـ **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٣٠٨ حتى ٣١٣ ، زسننشر نص الكتاب في الملاحق ، بإذن الله تعالى . وانظر : الذهبي : تاريخ الاسلام حوادث ، ٥٠١ ـ ٥٢٠ ، ص٣٥ .**

[٢] ـ **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٣١٤ . الذهبي : تاريخ الاسلام ، حوادث سنة ٥١٠ ، ص ٣٨ وهو ينقل عن القلانسي . سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٧٦١ .**

فخلفه بلدوين الثاني صاحب الرها ، وأراد هذا جمع الفرنج من حوله ليثبت لهم أنه أشد على المسلمين من سلفه ، ووصلت الأخبار إلى دمشق بذلك .

فاستدعى الأتابك الأمير نجم الدين إيلغازي صاحب حلب إلى دمشق بجيشه لأداء فريضة الجهاد ، وأمره بحشد أكبر عدد من التركمان من ماردين وأعمالها ، فقام بمهمته خير قيام ووصل بالمقاتلين إلى دمشق في صفر سنة ٥١٣ هـ – أيار ١١١٩م .

وفي يوم السبت ٧ ربيع الأول سنة ٥١٣ هـ – حزيران ١١١٩م التقى جيش التحالف الإسلامي من حلب و دمشق ، و مجاهدو التركمان والأكراد ، بقوات التحالف الصليبي في تل عفرين ، وكان هذا التحالف بقيادة (روجار) صاحب إنطاكية ، الذي تحالف مع الأرمن وطوائف الفرنجة الأخرى ، ونزل (تل عفرين) في ٣٠٠٠ فارس و ٩٠٠٠ راجل في موضع تحميه الجبال من جميع الجهات وظن الفرنج أن أحداً لن يجرؤ على مهاجمتهم فيه ، وراسلوا نجم الدين وكان في ٢٠,٠٠٠ مقاتل من المسلمين يقولون له ، لا تتعب نفسك بالمسير إلينا فنحن واصلون إليك ، فسار إليهم ودخل بجيشه من شعاب الجبال ، فلم يشعروا إلا والمسلمون قد أطبقوا عليهم ، وجرت بين الطرفين حرب شديدة ، وأحاط المسلمون بالفرنج من جميع جهاتهم ، وقتل معظم الفرنج وأُسر الباقي .

ويقول العظيمي إنه لم يفلت من الفرنج سوى عشرة جرحى فلما وصلوا أنطاكية ماتوا، ولم يقتل من المسلمين إلا دون العشرة وكان الأسرى بضعاً وسبعين فارساً من كبار قادة الفرنج أما قائدهم (روجار) فقد هلك في المعركة فقطع رأسه ونقل إلى حلب .

وتعدّ هذه المعركة من المعارك الفاصلة مع الفرنجة نظراً لارتفاع عدد القتلى فيها منهم ممّا لم يسبق له مثيل ، ولذلك مدح المؤرخ العظيمي فيها الأمير إيلغازي فقال :

قل ما تشاء فقولك المقبول وعليك بعد الخالق التعويل[1]

ودخل طغتكين دمشق ظافراً يوم ٢٩ جمادى الأولى سنة ٥١٣ هـ – ١١١٩م ، فصادف زوجته صفوة الملك وهي على فراش الموت . ثم توفيت في الليلة التالية ودُفنت عند ابنها شمس الملوك بقبة الطواويس[2] ، وبوفاتها انقطعت آخر صلة للأتابك بسلالة تتش والسّلاجقة .

---

[1] - ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٦٤٢ – ٦٤٣ ، وفيه أن المعركة جرت في منتصف شهر ربيع الأول ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٣١٩ – حتى ص٣٢١ ، وفيه أنها جرت يوم السّبت ٧ ربيع الأول ، وهذا ما اعتمدناه . العظيمي : تاريخ حلب ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ولم يحدد تاريخ المعركة وفيه شعر يحرّض فيه إيلغازي على الجهاد ضد الفرنج ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٧٦٢ .

[2] - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٢٠ ، واتزينجر : كارل : الآثار الإسلامية في دمشق – تعريب قاسم طوير ، دمشق وزارة الثقافة ص ٩٢ وفيه وصف ورسم لقبة الطواويس المذكورة حوالي سنة ١٩١٧ م ، قبل هدمها .

وتتابعت الأحداث في دمشق بصورة طبيعية حتّى سنة ٥١٥ هـ – ١١٢١م . ففي شهر رمضان المبارك من ذلك العام وفي يوم ٢٣ منه ، قتل أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي في القاهرة وكان قتله بيد الإسماعيلية ، كما يقول ابن الأثير وذلك لأمورٍ نقموها عليه منها تضييقه على الخليفة الآمر بأحكام الله ، ومنها وهو الأهم تساهل الأفضل مع أهل السنّة ، وإذنه للناس في حريّة معتقدهم ، وحقهم في الدفاع عنه والمناظرة عليه .

والذي يعنينا هنا ، أن مقتله أدّى إلى توتر العلاقة بين دمشق والقاهرة ، ذلك أن الأسطول المصري وصل بعد ذلك إلى صور ، لا ليدعمها بالعتاد والسلاح ، بل ليقضى على واليها من قبل الأتابك طغتكين ، وهو الأمير مسعود ، وبعد أن تمّ للمصريين ذلك احتلوا صور، فقد سقطت هذه المدينة الباسلة بيد الصليبيين يوم ٢٣ جمادى الأولى سنة ٥١٨ هـ ، تموز ١١٢٤م .

وكما قال القلانسي : ((فإن الفرنج لما عرفوا انصراف مسعود عن صور تحرّك طمعهم فيها ، وحدّثوا نفوسهم بتملكها ، فكتب أهلها إلى الآمر بأحكام الله بذلك ، فأمر بردّها إلى طغتكين ، وبقي مسعود محتجزاً عندهم في مصر ، وهذا ما ساعد على تقوية طمع الفرنج فيها فحاصروها ثم تسلموها بالأمان . وبدأ أهلها يخرجون منها وهم يحملون ماخف وزنه وغلا ثمنه حتى إنه لم يبق فيها إلا العاجز والضعيف ، ووصل عدد من أهل صور إلى دمشق ، كالعادة ، وتفرّق الآخرون في البلاد وقد أدى سقوطها إلى إغلاق ساحل الشام تماماً في وجه أتابكية دمشق))[1] .

ولم تكد دمشق تستوعب هذه النكسة الكبرى ، حتى دهمها ما هو أدهى من ذلك وأمرّ، وكأن الهزائم تأتي عادة مجتمعة .

ففي العام التالي ٥١٩ هـ – ١١٢٥م ، أراد أتابك طغتكين أن يُزيل أثر هذه الهزيمة، فاستدعى التركمان من سائر الجهات فأتوه بأعداد كبيرة وأراد أحداث دمشق والشباب الأغرار المعروفين بالشهامة والبسالة من العقيبة وقصر حجّاج والشاغور أن ينالوا شرف الجهاد فالتحقوا بالجيش الإسلامي المعسكر في مرج الصفر[2] ، وكثرت جموع المسلمين من مختلف الأجناس ، فلمّا عاينهم الفرنج ركنوا إلى الفرار فغنم المسلمون دوابهم وأثقالهم وظفروا أيضاً بالكنيسة التي كانوا يحملونها في جميع معاركهم ، وتبعهم التركمان والأحداث والمتطوعة وقد طمعُوا فيهم ، وفجأة انقلب الفرنج عليهم ، وعادوا على العسكر الإسلامي فكسروه وهزموه

---

[1] ـ الذهبي : تاريخ الاسلام ـ حوادث سنة ٥١٨ هـ ـ ص ٣٠٣ ، القلانسي : المصدر المتقدم : حوادث ص٣٣٦ ـ ٣٣٧ ، العظيمي : المصدر المتقدم ، ص٣٧٤ ، ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص٦٩٣ .

[2] ـ مرج الصفر : واحد من ثلاثة مروج تحيط بدمشق وهي مرج عذراء ومرج راهط من الشمال ، ومرج الصفر هذا جنوب دمشق ، حدثت فيه معارك تاريخية فاصلة ، منها معركة شقحب سنة ٧٠٢ هـ ، وموقعه بجانب قرية ذي النون ، انظر المعجم الجغرافي ، ج٤ ، ص١٣١ .

هزيمة منكرة وتتبعوا المنهزمين حتى وصلوا إلى مشارف دمشق عند (عقبة شـــحورا)[١] ، وكان ذلك يوم الاثنين في ٢٧ ذي الحجة سنة ٥١٩ هــ– كانون الثاني ١١٢٦م .

وكانت آخر معارك طغتكين مع الفرنجة معركة شقحب في مرج الصُفّر في أواخـــر ذي الحجة سنة ٥٢٠ هــ – ١١٢٧م ، وهي التي انتصر فيها المسلمون بعد الهـــزائم الـــسابقة ، ويقول ابن الأثير إنهم غنموا من الفرنج كنيسة مرصّعة بالذهب والجواهر .

وفي ذلك العام أيضاً احتلّ الفرنج رفنيّة ، وهذه هي المرة الثانية التي يحتلونها[٢] .

وأخيراً ترجّل الفارس الذي ظلّ يحارب الفرنجة ثلاثين عاماً ، وأقام لنفسه ولذريته سلالة حاكمة في دمشق ، وكانت وفاته يوم الثامن من شهر صفر ٥٢٢ هــ – ١٣ شباط ١١٢٨م ، ثم لحقت به زوجته الأولى أم ولده بوري : الخاتون شرف النساء ودفنت بتربتها خارج بـــاب الفراديس . ودفن الأتابك في تربته جنوب دمشق بالميدان التحتاني قرب المصلّى .

وقد أجمع المؤرخون على الثناء عليه .

فقد ذكر القلانسي جهاده ودينه وعدله وأمانته وإصلاحاته ولا سيّما في مجال الأراضـــي الزراعية .

كما قال عنه الذهبي إنه كان شهماً عادلاً حزن عليه أهل دمشق وأقاموا المآتم له .

وقال معاصره الإمام ابن عساكر :

((كان شهماً مهيباً مؤثراً لعمارة البلاد ، شديداً على أهل العيب والفساد ، وامتدت أيامـــه إلى أن مات ودفن عند المسجد الجديد قبليّ المصلى))[٣] .

ــ تاج الملوك : بوري بن طغتكين : ٥٢٢هــ – ٥٢٦م – ١١٢٨م – ١١٣٢م

الابن الأكبر للأتابك طغتكين ، وكانت ولادته في دمشق في شهر رمضان سنة ٤٧٨هــ – ١٠٨٦م ، أي أنه كان في الرابعة والأربعين من عمره عندما تولى الحكم .

وكان أبوه يشركه في الحكم ، فأرسله سنة ٤٩٥هــ – ١١٠٢م لتسلّم مدينة جبلـــة مـــن القاضي ابن صليحه ، كما أرسله سنة ٥٠١هــ –١١٠٧م إلى بغداد لمقابلة الخليفة .

---

[١] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٣٩ـ٣٤٠ ، وذكر الدكتور زكار " عقبة سحورا " بالسين ، وقال إنه لم يهتد إليها ، وهذه العقبة ترد كثيراً في كتابات مؤرخي دمشق ، وهي اليوم عند آخر الطريق الصاعد الذي يشرف على قرية الكسوة من جهة دمشق ، انظر على سبيل المثال محمد بن طولون – إعلام الورى ، بتحقيق الشيخ محمد دهمان دمشق ،١٩٦٤ م ، ص٨٧ .

[٢] ـ ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ص ٧٠٨ ، والغريب أن القلانسي لم يأت على ذكر هذه المعركة . وعن سقوط رفنيّة : انظر القلانسي: المصدر المتقدم ، ص٣٤٤ .

[٣] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٤٧ و ٣٤٨ ، والذهبي : تاريخ الاسلام ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ ، ص ٧٤ ، وابن عساكر : تاريخ دمشق ، أول الجزء ٢٥ وعن زوجته شرف النساء انظر ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٣٥٦ .

وعندما توجه أبوه إلى بغداد سنة ٥٠٩هـ - ١١١٦م ، كان هو الحاكم في دمشق .

وبوري اسم تركي معناه الذئب ، وقد أطلق اسمه على دولة أبيه ودولته ودولة أولاده وأحفاده ، كما سنرى ، وكان يمتاز بالجرأة النادرة وأقدم على أعمال جليلة خلال فترة حكمه القصيرة ، فدفع حياته ثمناً لها ، وبقي لغزاً محيّراً في تاريخ دمشق[1] .

وقد شهدت دمشق في فترة حكمه القصيرة أحداثاً غاية في الأهمية ، أهمها إنزال الضربة القاضية بالإسماعيلية وحصار الفرنج للمرة الأولى في تاريخ الحروب الصليبيّة .

أما أمر الإسماعيلية الحشاشين في دمشق ، فكان أمراً عجباً .

ذلك أن طغتكين رأى قوّتهم وقدرتهم العالية على الاغتيال في جميع أنحاء العالم الإسلامي وكان آخر ضحاياهم الأمير آق سنقر البرسقي ، جدّ السلطان نور الدين الشهيد ، سنة ٥٢٠ هـ - ١١٢٦م .

وحصل أن حلّ بدمشق سنة ٥٢٠هـ - ١١٢٦م (بهرام) كبير الباطنية بعد استفحال خطره في حلب ، فأراد الأتابك طغتكين إرضاءة واستبعاد شرّه ، ولا سيما بعدما التف حوله وتبعه على حد قول القلانسي :

((جَهَلَة العوام ، وسفاسف الفلاحين الطغام ممّن لا عقل له ممن استغواهم بأباطيله ، واستمالهم بخدعه وأضاليله[2])) . فهداه تفكيره إلى منحه بلدةً يأوي إليها وأتباعه . فسلّمه ثغر بانياس في الجولان ، وهو بإزاء الفرنج وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ -١١٢٦م .

وقد عد هذا العمل من سقطات الأتابك ، ذلك أن هؤلاء الباطنية ، استغلوا وجودهم في بانياس فعمدوا إلى التخطيط للسيطرة على المنطقة بأسرها بمساعدة الفرنج ، أصدقاء الأقليات في كل زمان ومكان .

وكان بوري يدرك ذلك جيداً ، لكنه لم يكن يملك الاعتراض على قرارات والده ، ولذلك وضع نصب عينيه إبادة الباطنية في أول فرصة ممكنة ، وجاءت الفرصة بتوليه زمام الأمور في البلاد .

وكان (بهرام) كبير الباطنية قد استطاع بواسطة أتباعه احتلال عدد من الحصون منها حصن القدموس وفكّر بالسيطرة على وادي التيم في لبنان حيث كان يقيم الدروز والنصيرية ، فقتل الأمير ((برق بن جندل ، أحد مقدمي الوادي ، فاستاء الناس من فعله ، وقام أخوه (الضحاك بن جندل) بتجميع القوى لمقاومة بهرام وجماعته)) .

---

[1] ـ عن ترجمة بوري انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٩٢ ، وفيه أن معنى بوري : الذئب القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٢٢٦و ٢٥٧ ، ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١٠، ص٤٠٩ ، والعظيمي : تاريخ حلب ، ص٣٨٤ ، وابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٣٨ ، الصفدي : تحفة ذوي الألباب ، ج٢ ، ص٦٢ .

[2] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٤٢ .

وبرز بهرام من وادي التيم سنة ٥٢٢هـ – ١١٢٨م ، للقضاء على الضحاك وحزبه ، والتقى الفريقان ودارت الدائرة على بهرام وقتل وأرسل رأسه إلى مصر ، ففرح الجميع بهلاكه . فخلفه إسماعيل العجمي ، وحاول إعادة تجميع الباطنية وكان يساعده باطناً وزير دمشق طاهر بن سعد المزدقاني .

وفي يوم ١٧ رمضان ٥٢٣ هـ – ١١٠٣م ، بادر تاج الملوك بوري إلى قتل الوزير المزدقاني في قبة الورد من دار القلعة وألقى بجثته في القلعة ، ثم أحرقوها عند باب الحديد .

وكان تاج الملوك قد اتفق مع حاجب دمشق يوسف بن فيروز رئيس دمشق والمفرّح بن الصوفي على استئصال شأفة الباطنية من دمشق وأعمالها بمجرد قتل بهرام ، وبالفعل بادر تاج الملوك إلى مهاجمة مركز الباطنية الرئيسي في دمشق والمسمّى دار الدعوة وقتل كل من وجد فيه ، ثم قام عوام دمشق بتتبع الباطنية فقتلوهم شر قتلة ، وصُلب عدد منهم على سور دمشق وكان (أحداث دمشق) في طليعة من شارك في هذه العمليات ، وقدر عدد القتلى ببضعة آلاف من الباطنية .

ولما علم كبيرهم إسماعيل العجمي ببانياس بما حدث ، بادر بالارتماء في أحضان الفرنج وسلّم إليهم بانياس ، وغادرها الباطنية حيث تفرقوا في البلاد ، ولم ينعم كبيرهم إسماعيل بما كان يرجوه من الفرنج ومات في العام التالي ودُفن في بانياس[١] .

وذكر ابن الأثير أن الباطنية كانوا يعدّون لعملية كبرى ، تتلخص باعتقال تاج الملوك وحكومته في الجامع الأموي أثناء صلاة العيد في الوقت الذي يفتحون فيه أبواب البلد لحلفائهم الفرنج[٢] .

ولذلك فإنه ما ان علم هؤلاء بما حلّ بحلفائهم ، حتى سارعوا إلى محاصرة دمشق للمرة الأولى في تاريخ الحروب الصليبية .

ـ حصار الفرنج لدمشق ٥٢٣هـ ـ ١١٢٩م :

كانت بعض قوات الفرنج تصل أحياناً إلى غوطة دمشق ، فتنهب ثم تُولي على أعقابها ولكن لم يحدث أن فكّر الفرنج باحتلال دمشق قبل ذلك العام الحاسم عام ٥٢٣ هـ – ١١٢٩م .

وكان كبيرهم في ذلك الوقت (فولك) فاستدعى كتائبهم من الرها وأنطاكية وطرابلس والساحل ، ووصل إليهم في البحر خلق كثير ، وكان تجمّعهم واستعداداتهم في بانياس التي تُعد خط الدفاع الأول عن دمشق تجاه الفرنج .

---

١ ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٥١ـ حتى ص٣٥٥ ، ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٩ ، ص١٧ .
٢ ـ ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٩ ، ص١٧ .

وقد رأى هؤلاء ، وكانوا على حق ، أنه لن تقوم لهم قائمة ، ولن يقرّ لهم قرار في الشرق ، ولن ينعموا بالأمان ويستقروا إلى الأبد في الأراضي المقدّسة ، ما لم يتم القضاء على دمشق .

فالقاهرة كانت لا تشكل أدنى خطر عليهم ، والدولة الفاطمية على قوتها واتساعها انهزمت أمامهم في القدس وصيدا وصور وطرابلس ، ولم تعد تشكل خطراً عليهم .

وبغداد ، أثبتت أنها لا تملك من القوّة والإدارة والجدية ما يشكل أدنى خطر على الفرنج ، فلم يكن هناك إلا دمشق ، دمشق الصامدة أبداً ، ولم يَنّسىَ الفرنج أن الجيوش التي وصلت إلى قلب فرنسة من قبل ، كانت توجّه من دمشق ، ولذلك صمّموا على احتلالها ، وإعادة الجـامع الكبير فيها إلى كنيسة ليوحنا المعمدان ، كما فعلوا بالمسجد الأقصى .

وكان تاج الملوك متوقّعاً لذلك ، فبادر إلى استدعاء التركمان الذين وصلوا إلـى دمـشق على جناح السرعة وقبل وصول الفرنج ، كما وصل إليها الأمير مرّة بن ربيعة أمير العـرب في قواته ، والأمير سيف الدين سوار أمير حماة .

ووزع تاج الملوك قواته داخل دمشق وخارجها ، وقسّمها إلى كتائب ، لكل كتيبـة منهـا عمل مُحدّد اتفق عليه ، ونشر أعداداً كبيرة من الجواسيس ليوافوه بأخبار الفرنج وتحركـاتهم أولاً بأوّل .

ووصل الفرنج إلى ضواحي دمشق وهم يزيدون على ٦٠,٠٠٠ ما بين فارس وراجـل ، وأقاموا في داريّا ، وقرروا إرسال قسم من الجيش إلى حوران للحصُول على الغلال والميرة .

ولم يخرج الفرنج من داريّا لعدّة أيام لأنهم كانوا ينتظرون الميرة من حوران ، وعلم تاج الملوك بذلك وكانت تحرُكاتهم تُرصد ساعة بساعة .

ولم ينتظر أن تصل إليهم الإمدادات ، فبادر في إحدى ليالي الشتاء المطيرة من ذي الحجة سنة ٥٢٣ هـ – ١١٢٩م إلى إرسال كتائب التركمان وأهل دمشق وعرب مرة إلـى قريـة براق[١] حيث قدّر أن الفرنج سيبيتون فيها استعداداً لدخولهم دمشق ، وكان ظنه في محلّـه ، وأثبت بذلك أنه على درجة عالية من الكفاءة والمقدرة في السلم والحرب وأمرهم بالإسـراع إلى براق بحيث يصلونها قبل الفجر لمباغتة الفرنج وإبادتهم واسترداد ما نهبوه من حوران .

ووصل هؤلاء إلى براق قبل الفجر فوجدوا الفرنج نياماً وحولهم ما نهبـوه مـن حـوران ، فانقضوا عليهم ، وأعجلوهم عن ارتداء لباسهم الحربي ، وولّى كبيرهم (ويليام دو بور) في فريق من الخيالة منهزمين ، وحمل الأتراك والعرب حملة هائلة على الصليبيين وأحدقوا بهم ،

[١] ـ بُراق : قرية تبعد ٤٠ كيلو متر جنوب دمشق على طريق السويداء وقد زرتُها ، وفيها زاوية يقصدها أهل الشام في المواسم والأعياد وهي معروفة للجميع .

فلم يمض إلا بضع ساعات من النهار حتى هُزموا ، واستعاد المسلمون منهم ما نهبوه ، وكان شيئاً يفوق الخيال ، ولم ينج من الفرنج إلا أقل من أربعين رجلاً ممن لاذوا بالفرار ، وعاد المسلمون إلى دمشق آخر النهار ظافرين منصورين ، وقد نجحوا خلال أقل من أربع وعشرين ساعة في إحباط الهجوم الصليبي بالكامل .

وعمّ الفرح في دمشق بهذا النصر المبين ، وتقرر مهاجمة الفرنج في داريا ، ووصل المسلمون إلى معسكراتهم وخيامهم فوجدوهم قد رحلوا خلسة بعد وصول أخبار معارك براق إليهم ، وقد أحرقوا مالم يستطيعوا حمله ، فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى طبرية ، وغنموا منهم مالم تأكله النيران (وكفى الله المؤمنين القتال[1]) .

ولم يَنس الفرنج هذه الهزيمة النكراء ، فعاودوا الكرة بعد عشرين عاماً ، بعدما أحكموا خططهم وصمّموا على انهاء أسطورة دمشق ، ولكن دمشق أنهت وجودهم ، كما حدث .

ولم تكن تلك الضربات التي أنزلها تاج الملوك بالفرنج وحلفائهم الباطنية لتمرّ بسلام ، فهم لا ينسون ولا يصفحون ولا يرحمون ، بل يخططون ويعدّون ويقتلون في الظلام .

ولقد قرر الباطنية الانتقام من تاج الملوك بطريقتهم المعهودة وهي الاغتيال ، والحق أنهم أتقنوها إتقاناً عجيباً . وحققت لهم نتائج مذهلة بسبب دُقة التخطيط ، واستماتة القتلة ، والاعتماد على مبدأ المفاجأة .

ولذلك أرسلوا إلى دمشق اثنين من رجالهما ، ودخلا إليها باللباس التركي ، وبعد فترة وصلا إلى الفرقة الخراسانية ، وهي التي كانت تتولى حراسة تاج الملوك .

وحدث أن تاج الملوك دخل حمام القلعة ، ثم عاد إلى داره فيها بعد أن تفرق حراسه وخواصّه عنه ، ولم يبق معه إلا القاتلان فوثب عليه أحدهما وضربه بالسيف على رأسه ، بينما طعنه الآخر بسكين في خاصرته ، وقتل القاتلان في الحال ، وجرى ذلك كله يوم الخميس السادس من جمادى الآخرة سنة ٥٢٥ هـ أيار ١١٣١م[2] .

وقد عولج تاج الملوك فبرئ الجرح في رأسه ، وبقي الجرحُ في خاصرته ، مستعصياً على العلاج حتى أودى بحياته بعد تسعة شهور[3] .

وفي الشهر نفسه ، جمادى الآخرة ٥٢٥ هـ – ١١٣١م عهد تاج الملوك بوري لولده إسماعيل ، وتم ذلك في اجتماع ضم أركان دولته في القلعة وكان ذلك لثلاث ليال بقيت من جمادى الآخرة ٥٢٥ هـ أيار ١١٣١م[1] .

---

[1] - عن مصادر دمشق ومعركة براق انظر ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص١٨ ، وهو الذي انفرد بذكر تاريخ المعركة بالشهر ، وهو شهر ذي الحجة ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٥٧- ٣٦٠ ، العظيمي : تاريخ حلب ، ص ٣٨٢ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٧٦٨ .

[2] - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٣٦٥ .

[3] - ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١٠ ، ص٤٠٩ .

وأخيراً توفي يوم ٢١ رجب ٥٢٦ هـ - ١١٣٢م ، ورثاه الشعراء وحزن عليه الناس ، وكان في السابعة والأربعين ، وترك أربعة أولاد هم : إسماعيل ومحمود وسونِج ومحمد . وزوجةً تدعى زمرد خاتون ، كان لها دور بارز في سياسة دمشق على مدى ست سنين .

ـ شمسُ الملوك إسماعيل بن بوري : ٥٢٦ هـ - ٥٢٩هـ - ١١٣٢ م - ١١٣٥ م .

ولد سنة ٥٠٦ هـ - ١١١٢م ، وحكم سنة ٥٢٦ هـ وقتل سنة ٥٢٩ هـ[٢] .

و قد بدأ عهده بإقرار وزراء أبيه في دمشق : الوزير أحمد المزدقاني والحاجب يوسف بن فيروز .

ثم أصدر مرسوماً برعاية المتعيشين والرعية ، ورفع عنهم ما كان يُستخرج منهم بعض الضرائب ، وعوض أرباب المتضررين بجهات غيرها فكثر له الدعاء ، واتصل عليه الثناء ، وكان ذلك بعد أيامٍ يسيرة من حكمه .

يقول القلانسي : ((إنه ظهر من شهامته وشدة بأسه وشجاعته وإقدامه ، ما لم يخطر على بال أحد)) .

ومن جهة أخرى حاول تقوية علاقته بالقاهرة لتعينه على محاربة الفرنج ، فكتب بهذا المعنى إلى الخليفة الفاطمي الحافظ ، وجاءه الرد الجميل مع الأمير : وثّاب بن مسافر الغنوي الذي وصل إلى دمشق بالهدايا والأموال ، وقرئ الكتاب الوارد على يده في جامع دمشق[٣] .

وبعد ذلك أخذ يعدُ العدّة للجهاد ضد الفرنج ، ودلّت أعماله العسكرية على مقدرة عالية يوجهها تفكير شجاع وسليم .

ففي ذي القعدة ٥٢٦هـ - ١١٣٢م تحرّك بقوّاته شمالاً وتجاوز حمص بمراحل ولا أحد يدري ما وجهته ، ثم استدار فجأة نحو الجنوب الغربي حيث حصن اللبوّة في البقاع عند منابع العاصي . فانقض عليه وفتحه ، ثم فتح حصن الراس القريب منه ، وعاد إلى بعلبك حيث تفقّد أحوال أخيه محمود ، ثم عاد إلى دمشق[٤] .

---

[١] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٣٦٨ ، وفيه أنه عهد لولده إسماعيل يوم الخميس ٤ جمادى الآخرة سنة ٥٢٥ هـ ، مع أنه ذكر ص ٣٦٥ أن الاعتداء على تاج الملوك وقع يوم الخميس ٦ جُمادى الآخرة ٥٢٥ هـ ، ولم ينبّه المحقق إلى ذلك ، ولذلك رجحنا أن يكون التاريخ يوم ٢٧ جمادى الآخرة ٥٢٥ هـ ، أو أن يكون الاعتداء عليه وقع يوم ٤ جمادى الأولى ٥٢٥ هـ ، والله أعلم ، علماً بأن ابن عساكر ذكر أن الاعتداء وقع في جمادى الآخرة . انظر : ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١٠ ، ص٤٠٩ .

[٢] ـ عن تراجمه انظر : الصفدي : تحفة ذوي الألباب ، ج٢ ، ص٦٤ ، العظيمي : تاريخ حلب ، ص٣٨٤ ، ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٣٩ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٧٢ ، ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٨ ، ص٣٧٩ .

[٣] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٣٨١ .

[٤] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٧٢-٣٧٣ .

وفيها اشتكى له أحد التجار أن صاحب بيروت قد أخذ منه أحمالاً من الكتان ، فكتب إليه شمس الملوك بردّ ما أخذه فلم يلتفت إليه . فقرر توجيه ضربة قاضية للفرنج وذلك باحتلال بانياس .

ومع الساعات الأولى من فجر اليوم الأول من شهر صفر سنة ٥٢٧ هـ – ١١٣٢ م ، كان شمس الملوك يحيط ببانياس وسط الذهول الكامل للصليبيين .

وكان فيها جماعة وافرة من الخيّالة والرجّالة ، فارتاعوا لما شاهدوه واقترب شمس الملوك من السّور بأدوات النقب والهدم والحفر ، ونقب السور ودخل المسلمون البلدة وقتلوا كل من كان في طريقهم من المقاتلة . وأسروا النسوان والأولاد والتجأ من بقي من أهلها إلى القلعة فحاصرهم فيها ثم طلبوا الأمان فأمّنهم . وعاد إلى دمشق صباح السادس من صفر ومعه الأسرى ورؤوس القتلى وحريم حاكم بانياس وأولاده ، وخرج الناس في دمشق ليشاهدوا الأسرى في الحبال والرؤوس في القصب ، فرأوا ما أذهبوا به غيظ قلوبهم من غدر الفرنج ، وعجب هؤلاء من سرعة فتح البلدة وقلعتها مع ما كانت عليه من قوة وحصانة[١] .

وفي شوال سنة ٥٢٧هـ –١١٣٣م ، استعاد شمس الملوك مدينة حماة من عماد الدين زنكي الذي كان قد استولى عليها بالخديعة أيام تاج الملوك وأسر ابنه سوَنج ، والغريب في فتح حماة أنه وصل إليها في أول أيام عيد الفطر ، مخالفاً بذلك كل التوقعات الأمر الذي أُذهل أهلها ودفعهم إلى التسليم[٢] .

وفي المحرم سنة ٥٢٨هـ – ١١٣٣م ، حاصر شمس الملوك حصن شقيف تيرون في لبنان وكان بيد الضحاك ، صاحب وادي التيم واحتلّه وكان سقوطه نكسة كبرى للفرنج ، لأنهم كانوا آمنين من جهته تماماً[٣] .

وردّ الصليبيون بمهاجمة حوران فتصدّى لهم شمس الملوك ، ثم أرسل معظم جيشه سراً إلى طبرية والناصرة وعكا فنهب وخرّب وأحرق وسبى وعاد بالغنائم ، والصليبيون في حوران لا يعلمون بذلك ، فلمّا علموا أُسقِط في أيديهم و لاذوا بالفرار وعاد شمس الملوك بالغنائم إلى دمشق[٤] .

---

١ - ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٩ ، ص٤٢ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٣٧٥-٣٧٦ . ولمعلومات أوفى عن بانياس وتاريخها وجغرافيتها انظر : ابن شداد : الأعلاق الخطيرة – قسم لبنان وفلسطين ، بتحقيق سامي الدهان – ونشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، ص ١٣٩ ، وانظر : سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ، ص ٧٦٩ .

٢ - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٧٨ ، ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٩ ، ص٤٦ ، وبالنسبة لغدر الأتابك زنكي بتاج الملوك ، انظر الكامل ، ج٩ ، ص١٨ - ١٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب – تحقيق الدكتور جمال الدين الشياح – القاهرة ١٩٥٣ م ، ج١ ، ص ٥٣ .

٣ - ابن شداد : المصدر المتقدم ، ص ١٥٩ ويقع الحصن بين : صرفند وصور إلى الشرق ، ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٩ ، ص٥٠ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٨٢ .

٤ - ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٩ ، ص٥٠ ، القلانسي : المصدر المتقدم ن ص٣٨٤ .

وفي ربيع الآخر سنة ٥٢٨هـ - ١١٣٥ م تعرّض شمسُ الملوك إلى محاولة اغتيال وهو في رحلة صيد في منطقة صيدنايا ، قرب دمشق ، قام بها المدعو : (إيلبا) وهو من مماليك جدّه طغتكين ، لكنه فشل و ألقى القبض عليه فاعترف بتواطؤ عدد من الحراس معه ، كما اتهم سِونج أخا شمس الملوك ، فأعدم الجميع في الحال .

وكانت سنة ٥٢٩ هـ - ١١٣٤م من السنوات الفاصلة في تاريخ دمشق ذلك أن المتابع لأخبارها خلال السنوات الثلاث من حكم شمس الملوك لايسعه إلا الإعجاب به ، لما أنزله من الضربات بالصليبيين منذ الأيام الأولى لحكمه .

وكما ذكرنا ، فقد أنصف الفقراء والمتعيّشين ورفع عنهم الرسوم الجائرة ، وأن الدعاء كثر له لعدله في الرعيّة .

ولكن ، وفي مطلع تلك السنة نجد أن القلانسي ، وهو المؤرخ الأول لتلك الفترة ، يقول ما يناقض كلامه الأول بالكامل ، وكأنه كان يمهد لتبرير الحدث المأساوي الذي سيذكره ، وهو مصرع شمس الملوك على يدي أمه زمرد خاتون ، مما يجعلنا نشكك فيما ذكره آخراً ، وذلك لسكوته عنه طوال سنوات حكم شمس الملوك الثلاث ، حتى أن ما ذكره يكاد أن يجعله مؤرخ دولة ، يكتب حسب المناسبات إرضاءً للجالس على العرش أياً كان

يقول القلانسي :

((في هذه السنة ٥٢٩هـ - ١١٣٤م شاعت الأخبار في دمشق عن الأمير شمس الملوك في ارتكاب القبائح والمنكرات ، وشرع في المصادرات . . واستدعى زنكي ليسلمه دمشق ، وذكر بأنه إن لم يحضر فسيسلمها للصليبيين)) .

ثم نقل الخزائن إلى صرخد وشرع في القبض على أصحابه وكتّابه وعمّاله ، فخاف العسكر والرعية وأنهوا الحال ، وهنا بيت القصيد ، إلى والدته زمرد خاتون ، فحملها دينها القويم الرصين على تدبير اغتياله[1] ...)) .

وذكر في موضع آخر أنهم عندما أمسكوا من حاول قتله سأله شمس الملوك لم حاول اغتياله ؟ فقال : فعلت ذلك تقرباً إلى الله تعالى لإراحة الناس منك فقد ظلمت الضعفاء والمساكين والصنّاع والمتعيشين[2] .

وهذا الكلام يدفعنا إلى التساؤل : لماذا لم يذكر القلانسي هذه الانتهاكات الخطرة في حينها ؟ ولماذا لم يذكر الذين اعتقلهم من أعوانه ؟ أو محاولته تسليم دمشق للصليبيين وهو الذي أمضى أيامه في قتالهم وكيف سيسلم دمشق لزنكي وهو الذي استعاد منه مدينة حماة ؟ وهو يعلم تماماً أن أتسز لما سلم دمشق لتتش كان جزاؤه القتل !!! .

[1] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٨٧ .**
[2] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٨٣ .**

والمهم أن ما ذكره القلانسي هنا دوّنه بعد مقتل شمس الملوك لارضاء ((السيدة الأولى)) وهي صفوة الملك زمرّد خاتون ، التي أصبحت هي الحاكمة الفعلية : وكانت قدوتها فيما فعلته ، صفوة الملك الأولى التي قتلت ابنها دُقاق ، ولكن بطريقة أكثر لطفاً .

والمهم أن القلانسي أعطى لزمرد خاتون سلطات القاضي العادل الذي لا تهمّه الا مصلحة الرعية واعتبر قتلها لولدها منتهى الحكمة وكما قال :

((تأملت في الأمر تأمل الحازم الأريب والمرتأي المصيب ، فلم تجد لدائه دواءً ، ولا لنفسه شفاء إلاّ بالراحة منه ، فصرفت الهمَّة إلى مناجزته ، وارتقبت لفرصة في خلوته . .)) . والغريب أن حوادث مصرع شمس الملوك كلها دونت بالسّجع الكامل ، وهو ما يخالف أسلوب القلانسي ، ولعلّه نقله عن مؤرخ آخر .

والمهم أن شمس الملوك دخل على أمه ضحى يوم الأربعاء ١٤ ربيع الآخر سنة ٥٢٩هـ – ١١٣٥م ، كعادته وهو غافل عما دُبر له ، فأمرت غلمانها بقتله ، فأخذته السيوف من كل جانب ، بعيداً عن حماته وجنوده ، وهو يصيح : زنهار ، زنهار ، أي الرحمة ، الرحمة ، لكنها لم ترحمه حتى فاضت روحه فلفته في بساط وألقته في موضع من الدار ليشاهده غلمانه وأصحابه وأجلست في منصبه ابنها الآخر محموداً[١] .

وذكر ابن الأثير رواية أخرى بعد ذكره لرواية القلانسي فقال : إن شمس الملوك اكتشف وجود علاقة بعد وفاة أبيه ، بين الحاجب يوسف بن فيروز وأمه ، فهمّ بقتل يوسف فهرب منه إلى تدمر وتحصّن فيها ، فأراد قتل أمّه ، فبلغها الخبر ، فقتلته خوفاً منه ، والله أعلم[٢] .

وبمقتله ، انتهى عصر الحكام العظام لدمشق وهم طغتكين وبوري وإسماعيل ، وحلّ محلهم حكام لا حول لهم ولا قوة . وأصبحت القوة في أعوانهم ، تماماً مثلما كان وضع طغتكين مع دقاق بن تتش ، وأصبح الأمير معين الدين أُنر والخاتون صفوة الملك هما الحاكمان الفعليان لدمشق في السنوات التالية .

والمهم أنه بينما كان زنكي يحاصر دمشق ، جاءه رسول من الخليفة العباسي ، يدعى كريم بن بشر ، وأمره بالرحيل عن دمشق حالاً ، فرحل[٣] .

---

١ ـ انظر : القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٨٨ـ ٣٩٠ ، الصفدي : تحفة ذوي الألباب ، ج٢ ، ص٦٠ ، وابن واصل : مُفرج الكروب ، ج١ ، ص٥٧ ، وابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ٥٩ ـ ص١٦٧ .

٢ ـ ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٥٨ ، وذكر القلانسي ، ص ٣٨٦ خبر هرب الحاجب يوسف بن فيروز إلى تدمر أول سنة ٥٢٩ هـ ، وقال انه هرب خوفاً من شمس الملوك .

٣ ـ ابن واصل : مُفرج الكروب ، ج١ ، ص٥٧ ـ ٥٨ ، ابن الأثير : المصد المتقدم ، ج٩ ، ص٥٩ .

ودخل رسول الخليفة دمشق ، ومعه القاضي بهاء الدين الشهرزوري يوم الجمعة ٢٨ جمادى الأولى سنة ٥٢٩هـ – ١١٣٥ م ، وحضر الصلاة في الجامع الأموي وأوعز للخطيب أن يدعو للسلطان ألب أرسلان بعد الخليفة ، فامتثل ما أمر به[١] .

شهاب الدين محمود بن بوري : ٥٢٩ هـ – ٥٣٣ هـ / ١١٣٥ م – ١١٣٩ م[٢] .

أجلس على سرير الملك وهو في سن المراهقة تقريباً ، وكان الأتابك معين الدين أُنر هو رجل الدولة الأول في دمشق ، تساعده أو تشاركه من وراء ستار تارة ومن أمامه تارة أخرى الخاتون زمرّد جاولي ، ولم يلبث الفتور بينهما أن حل ، ثم تطور إلى خلاف فتنحّى معين الدين عن الحكم ، ورضي بالإقامة في حمص ، وحل محله في دمشق الحاجب يوسف بن فيروز الذي مالبث أن قُتل فاستدعى شهاب الدين الأمير معين الدين من حمص الذي أعيد اعتباره وعاد كما كان ، ثم تعاظمت قوته بعد مصرع السلطان شهاب الدين في ٢٣ شوال ٥٣٣ هـ – حزيران ١١٣٩م[٣] .

ويبدو أن حبل الوداد قد انقطع بين الخاتون زمرّد والأتابك معين الدين أنر ، فاتفقت مع عماد الدين زنكي على الزواج ، على أمل أن تستمد منه القوّة والعون وتبقى في الحكم ، ولو من خلف ستار ، وهو ما فعلته شجر الدر فيما بعد .

وتم العقد في حمص في شهر رمضان ٥٣٢ هـ – ١١٣٨م ، وتقرر أن تكون هذه المدينة هدية الزواج لزنكي ، وانتقلت الخاتون إلى زوجها الجديد ، لكن آمالها خابت ، فقد قتل ولدها الثاني شهاب الدين محمود ، ولم يكن عماد الدين زنكي بالرجل الذي ينحني أمام النساء ، إلا بالقدر الذي يريد ، وقد أغرته باحتلال دمشق والثأر لولدها سنة ٥٣٤ هـ – ١١٤٠م ، فحاصرها ، لكنه عاد عنها بخفي حنين ، ولم ينفعه هذا القِران بشيء ، وانطوى ذكر الخاتون ، وكانت نهايتها في مكة المكرمة سنة ٥٥٧ هـ – ١١٦٢م ، حيث ماتت غريبة فقيرة مُعدمة[٤] .

---

[١] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٩٢ .

[٢] ـ عن شهاب الدين محمود انظر : الصفدي : تحفة ذوي الألباب ، ج٢ ، ص٦٦ ، ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٩ ، ص٥٩ ، ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج ٥٧ ـ ص ١٠٣ .

[٣] ـ دفن الحاجب يوسف بن فيروز في مسجد أبيه فيروز في حي العقيبة بدمشق ، قرب مقابر الفراديس انظر : ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ـ قسم دمشق ، ص ١٤٢ ، ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٩ ، ص٧٤ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٣٩٨ و ٤٠١ .

[٤] ـ كمال الدين ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ٣ مجلدات ـ حلب ٢٠٠٦ م ، ج٢ ، ص٢٦٩ .
القلانسي : المصدر المتقدم : ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ ، ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج ٦٩ ـ ص ١٦٧ ، وسنتوسع في الحديث عنها في الفصل الخامس عند الحديث عن المرأة في دمشق ، ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٩ ، ص١٠١ ، العظيمي : تاريخ حلب ، ٣٩٥ .

محمد بن بوري وولده أبق : ٥٣٣هـ - ٥٤٩هـ / ١١٣٩م- ١١٥٤م .

بعد مصرع شهاب الدين محمود ، شهدت دمشق فراغاً سياسياً كبيراً كاد يُلقي بها في أنياب الصليبيين ويقضي على استقلالها وصمودها .

فمن جهة كان الأمير الجديد : جمال الدين محمد مريضاً وعاجزاً عن التصدي للأخطار المحدقة بدمشق .

من جهة ثانية : كانت جيوش عماد الدين زنكي تعيث فساداً في غوطة دمشق ، وتقتل وتحرق وتنهب ، مثلما كان يفعل الصليبيون .

ومن جهة ثالثة ، كان الفرنج ، العدو الأول للجميع قد أحكموا سيطرتهم على الساحل – كما فعل الجنرال غورو فيما بعد – وتوجّهوا نحو الداخل ينهبون ويقتلون ويأسرون وهدفهم الأول كان احتلال دمشق التي كانت بالنسبة لهم لغزاً محيّراً وخطراً كبيراً على مخططاتهم .

وأخيراً فإن حكام دمشق كانوا فئات وأحزاباً شتّى فهناك معين الدين أُنر الرجل الأول في دمشق ، وهناك أمين الدولة ، وهناك الحاجب والوزير والأمراء ، وهناك الأمير أسامة بن منقذ ، ومجاهد الدين بزان وغيرهم .

وكانت قوّة الحكام السابقين قد فرضت على البلد نوعاً من الاستقرار والطمأنينة والازدهار ، ولكن بعد رحيل الكبار من أمثال طغتكين وبوري وإسماعيل وغيرهم ، لم يعد ثمّة كبير يلم الشمل ، وصار كل أمير يشكل دولة ، وبدل أن يوجّهوا جهودهم نحو العدو المشترك كانت جهودهم تنحصر في كيفية الدفاع عن أنفسهم ضد الباطنية من جهة ، وضدّ المنافسين من الجهة الأخرى .

وفي السنوات الأولى من حكم جمال الدين وولده مُجير الدين أبق أعاد حكام دمشق السنة السيئة بين الحكام في دمشق ، وهي الاستعانة بالفرنج على المنافسين الآخرين كما سنرى .

وقد تولى جمال الدين محمّد بن بوري الحكم ، فلم يلبث أن مرض مرضاً حيّر الأطباء ومات في شعبان ٥٣٤هـ – ١١٤٠م ، ودفن في تربة جدته في الفراديس واستُدعى ولده آبق[1] وكان صغيراً ، فاستولى على أمره معين الدين أُنر والرئيس المسيّب بن علي الصوفي ، واغتنم عماد الدين الفرصة ، فاستنجد أنر بالصّليبيّن واتفق معهم على دفع مبلغ من المال كل سنة مقابل مساعدته على ترحيل عماد الدين ، ولم يكتف بذلك بل وعدهم بتسليم بانياس أيضاً ، ولم يرحل عماد الدين إلا عند وصول طلائع الفرنج إلى أطراف دمشق[2] .

---

[1] ـ رسم اسمه مرة بمدّ الهمزة آبق ، ومرة بدون مدّ : أبق وفي الكتابة اللاتينية ورد اسمه Abaqa : أباقا وهو اسم تركي ، انظر : الصفدي : أمراء دمشق ، ص ١٩٤ ، انظر : الصفدي : تحفة ذوي الألباب ، ج٢ ، ص٦٨ .

[2] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٧ ، ص٢٩٩ .

وعاد عماد الدين زنكي للمرة الثالثة إلى دمشق في أواخر سنة ٥٣٤هـ – ١١٤٠م ، واقترب من السور واشتبك مع عسكر دمشق ثم بثّ سراياه في الغوطة والمرج فاستاقوا الأنعام وكأنها ملك للفرنج ، وجمع عماد الدين قواته في مرج راهط ، ثم رحل عن دمشق ، ولم يعد إليها أبداً بعد ذلك ومات ، وفي نفسه ما فيها من دمشق[١] .

ومرّت الأحداث بدمشق والمنطقة ليس فيها ما يستحق الذكر حتى كانت سنة ٥٣٩هـ – ١١٤٤م .

ففي ذلك العام ، فعل الأتابك عماد الدين زنكي ، ما جعله يُصبح الرجل الأوّل في نظر المسلمين ، بعدما كان شبه متهم في سلوكه وأهدافه ، ونعني بذلك تحريره إمارة الرها من الفرنج يوم الجمعة ٦ جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ – ١١٤٤م ، وهي أول امارة صليبيّة تسقط بيد المسلمين ، يمحى اسمها من خارطة الشام بعد خمسين عاماً كاملة ، ذاق منها المسلمون صنوفاً شتى من العدوان والسطو والقتل والمصادرة ، وكان أخطر دور لها هو عرقلة اجتماع أقطاب المسلمين في الموصل وحلب ودمشق ، على محاربة الصليبيين[٢] .

وقتل عماد الدين وهو يحاصر قلعة جعبر سنة ٥٤١هـ – ١١٤٦م وأصبح ولده نور الدين ، وكان يومها في الثلاثين هو الرجل الأقوى في الشام ، ولم ينسَ هذا دمشق لحظة واحدة ، فقد كان يحاصرها بصورة دوريّة تقريباً كما سنرى ، واستسلمت له سنة ٥٤٩ هـ – ١١٥٤م .

وكما قدّمنا ، فقد كان الأتابك مُعين الدين أُنر هو الرجل الأوّل في دمشق ، فأراد نور الدين السير على خطا والده ، ومن شابه أباه فما ظلم ، فخطب إلى معين الدين أنر ابنته الخاتون عصمة الدين ، في محاولة منه للحصول على دمشق عن طريق المصاهرة بدل الحرب ، كما فعل أبوه بالخاتون زمرّد .

وقد عقد عليها نور الدين بدمشق ٢٣ شوال ٥٤١ هـ – ١١٤٧م ، وبقيت عنده حتى وفاته ، ولم تكن من طراز عصمة الدولة زمرّد خاتون تهوى السياسة والحكم بل كانت مسالمة وديعة تهتم بأورادها وأذكارها .

وبعد وفاته عقد عليها صلاح الدين وماتت عنده[٣] ، وكانت صالحة محبّة للخير ، وكانت خيراً وبركة على دمشق .

---

[١] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٢٧ ، أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين بتحقيق الأستاذ إبراهيم الزيبق ، ونشر مؤسسة الرسالة ١٩٩٧م ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

[٢] ـ انظر : ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٢٧٣ ، ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص١٣١ ، زكار : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص٥٠٤ ـ ٥١٠ ، وفيه وصف لشاهد عيان عن حصار الرها وسقوطها وهو وليم الصوري ؛ مؤرخ الصليبيين الأول .

[٣] ـ من أهم آثارها في دمشق الأذكار التي تتلى من مأذن الجامع الأموي بدمشق قبل أذان الفجر . ومن أثارها الأخرى المدرسة الخاتونية بدمشق وجامع الجديد في الشركسية بالصالحية بدمشق وهي مدفونة فيه اليوم .

فقد تحالف نور الدين مع والدها مُعين الدين على محاربة الفرنج ، وكانت ثمرة هذا التحالف إنزال هزيمة منكرة بالفرنج في بصرى مع بداية العام الجديد ٥٤٢ هـ – ١١٤٧م واستعادة مدينة صرخد الحصينة .

ودخل نور الدين مع معين الدين دمشق للمرة الأولى يوم ٢٧ محرم ٥٤٢ هـ – ١١٤٧م ، وكان دخوله خيراً عليها وذلك لتواتر الأخبار بتحرك حملة صليبيّة كبرى بقيادة ملك ألمانيا ، لاحتلال دمشق[١] .

ومن جهة أخرى وصل إلى دمشق في ٢١ صفر من العام نفسه ، رسول إلى حكومتها ومعه الهدايا والأموال التي جرت العادة بتقديمها لدمشق في كل عام ، لمساعدتها على محاربة الفرنج[٢] .

ودخلت سنة ٥٤٣هـ – ١١٤٨م ، فكانت من أخطر السنوات التي مرت على دمشق على الإطلاق ، وذلك بسبب محاولة الصليبيين احتلالها . فقد عقد قادة الصليبيين في العام كله ، اجتماعاً حربياً عاماً برئاسة إمبراطور ألمانيا كونراد ، وملك فرنسا لويس السابع ، وعشرات من القادة والأمراء والأساقفة والسياسيين والمفكرين[٣] ، وقرروا بعد أخذ وردّ أنه لا بدّ لهم من احتلال دمشق ، إذا أرادوا البقاء في المشرق ، وكانت دمشق بالنسبة لهم حجر عثرة في وجه مخططاتهم ، وكما قال وليم الصوري :

((إن دمشق تشكل خطراً علينا ...)) .

والغريب أنهم قرروا احتلالها على الرغم من الصداقة التي كانت تربط قادتهم ، والأتابك مُعين الدين أنر ، وهذا دأبهم أبداَ ، إنهم لا أيمان لهم .

وعندما تيقّن الأتابك مُعين الدين من غدر حلفاء الأمس به ، ونقضهم لجميع العُهود والمواثيق أرسل يستنجد بالسلطان نور الدين وبأخيه غازي وبقبائل التركمان والعرب ، كما حصّن المدينة ورمّم السّور وسدّ الثغرات وردم الآبار المحيطة بدمشق .

وفي شهر الله المحرم سنة ٥٤٣ هـ – ٢٥ أيّار ١١٤٨م ، تحركت جيوش الصليبيين نحو طبرية ثم بانياس يتقدمها (صليب الصلبوت) ، وهناك عقد المجلس الحربي الأخير وتقرر فيه محاصرة دمشق من جهة الغرب حيث مجرى بردى والبساتين لقطع المياه عن المدينة ، ولم يكن أحد من الطامعين بدمشق على كثرتهم قد فكر بمحاصرتها من الغرب

انظر : ـ أكرم حسن العلبي : خطط دمشق ١٨٦ ومصادره ، ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٥٧ ، ص١٢٠ .
وقد تحدثنا عنها مفصلاً في الفصل الخامس عند حديثنا عن المرأة .

[١] ـ عن عماد الدين زنكي انظر : أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ١٥٤ ، ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١٩ ، ص٨٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص١٤٢ ـ ١٤٣ ، القلانسي : المصدر المتقدم ص٤٤٤ ، وعن نور الدين انظر : ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٥٧ـ ص١١٨ .

[٢] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٥٩ .

[٣] ـ ذكر وليم الصوري أسماءهم كاملة ، انظر : زكار : الحروب الصليبية ، ج١ ، ص٤٢٩ .

لصعوبة المكان وكثرة المياه والأشجار ، ولكن الصليبيين أرادوا في هذه المرّة احتلال دمشق بعدما استفادوا من أخطائهم في الحصار الأول قبل عشرين عاماً ، وكان عددهم في هذه المرة يزيد على ٥٠,٠٠٠ مقاتل عدا الأتباع والخدم والسوقة[1] .

ونزل الصليبيون في داريّا ، وأرسلوا قوتهم نحو المزّة والربوة بقيادة ملك القدس .

وفي يوم السبت السادس من ربيع الأول ٥٤٣ هـ ٢٦ تموز – ١١٤٨م نشبت الحرب بين جند دمشق ، وجيوش الصليبيين ، وكان هؤلاء يتقدمون من جهة الربوة غربي دمشق ، وفي ذلك اليوم ، والأيام التالية تجلت الوحدة الإسلامية والعربية بأحلى معانيها ، وذلك عندما تقدم اثنان من شيوخ المغاربة المرابطين بدمشق هما الشيخ يوسف الفندلاوي المالكي والشيخ عبد الرحمن الحلحولي ، وانطلقا نحو الصليبيين في الربوة على الرغم من محاولة الأتابك معين الدين إقناعهما بعدم الخروج .

وقاتل الشيخ يوسف وهو في الثمانين فاستشهد في الحال واستشهد معه الشيخ عبد الرحمن الحلحولي[2] .

ونشبت معارك ضارية أيام السبت والأحد والاثنين شارك فيها كل من كان في البلد من الرجال والنساء من سن العاشرة وحتى سن الثمانين وأبلى فيها الأحداث والتركمان بلاءً حسناً ، وكانوا يفتحون الأبواب ويغيرون على الصليبيين في الربوة والمزة وداريا ، ثم يعودون إلى البلد ، وكان آخرون يقاتلون الصليبيين من خلف الأسوار ، حتى إنهم جعلوا تقدمهم نحو البلد مستحيلاً من كثرة السهام التي كانوا يطلقونها .

وفي يوم الثلاثاء وهو اليوم الرابع تحوّل الصليبيون نحو الشرق ، وقرروا احتلال دمشق من هناك .

وكان يتقدّمهم قسيس طويل اللحية قد ركب حماره وعلّق في عنقه وعنق الحمار الصلبان ، وجعل في يديه صليبين ، وجمع بين يديه الأناجيل والصلبان وهو يقول بصوت عال : قد وعدني المسيح أني أفتح اليوم .

---

[1] - زكار : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٤٣٤ - ٤٣٥ .

[2] - انظر ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٧٤ ، ص٢٣٤ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٦٤ ، ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص١٥٩ ، وقد دفن الشيخ يوسف الفندلاوي في مقابر الباب الصغير ، أما الشيخ عبد الرحمن ، فدفن في قاسيون عند جسر النحّاس اليوم ، انظر : ابن طولون : القلائد الجوهرية – تحقيق الشيخ محمّد دهمان ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق – ط ٢ سنة ١٩٨٠ م المصدر الملحق وفيه تحديد مكان القبر اليوم ويقول الشيخ محمد دهمان في تهذيب ابن عساكر ، ج١ ، ص٢٢٨ ، إن قبر الحلحولي موجود في جسر النحاس على يسار الذاهب إلى حارة الأكراد وعليه كتابة تحدد تاريخ وفاته . وكانت المنطقة تسمى سابقاً : بستان الشعباني .

وذكر أبو شامة في الروضتين أن قبر الشيخ يوسف الفندلاوي على عهده ، كان يزار ، وكانت عليه لوحة تبين حاله في مقابر الباب الصغير عند حائط المصلى ، أبو شامة : كتاب الروضتين تحقيق إبراهيم الزيبق- مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٧م ، ج١ ، ص١٩١ .

وفي الطرف الآخر ، اجتمع أهل دمشق في الجامع نساءً ورجالاً ونشروا مصحف عثمان ، وبكوا وتضرعوا ، وقرروا الخروج للصليبيين .

وفتحت الأبواب وحمل المسلمون حملة رجل واحد وقاتلوا قتالاً عنيفاً ، قتلوا فيه أعداداً كبيرة من الصليبيين وحدث في ذلك اليوم أن وصل المقاتلون من البقاع ومن العرب وصاروا ينقضُّون على مؤخرة الصليبيين ويكمنون لهم خلف الأشجار وجدران البساتين وينزلون بهم أشدّ أنواع العذاب حتى حالوا بينهم وبين الهجوم الشامل الذي كانوا يخططون له .

وكان من أول القتلى في صفوف الصليبيين القسّيس وحماره .

وفي يوم الأربعاء انسحب الصليبيون منهزمون ، بعد أن أحرقوا الربوة وقينية والمزة وداريا ، وما تركوه من أثقالهم ، وتبعهم الأحداث والمقاتلون يأسرون ويقتلون .

ولم يعودوا يفكّرون بدخول دمشق بعد ذلك ولم يدخلوها إلا في أيام فرنسا على يد الجنرال غورو ، ليثأروا لملكهم لويس السابع وقساوستهم من المدينة التي هزمتهم مرتين .

وذكر وليم الصوري أن سبب الهزيمة كانت الخيانة في صفوف الصليبيين عندما انتقلوا من غرب المدينة إلى شرقها ، وهو أمر لم يذكره أحدٌ سواه ، ولم يذكر أنهم هُزموا لأن الله تعالى خذلهم وغضب عليهم لأنهم قتلة محترفون[١] .

وفي العام التالي ٥٤٤هـ – ١١٤٩م ، كانت وفاة صاحب دمشق الأتابك مُعين الدين أنر فقويت آمال نور الدين بتملك دمشق وقام بخطوات عديدة لتحقيق هذا الأمل يُمكن تلخيصها فيما يلي :

في ٢٦ ذي الحجة ٥٤٤ هـ– ١١٥٠م وصل إلى داريّا ووجّه منها رسالة إلى مجير الدين وحكومته داعياً إياهم إلى مساعدته في الجهاد ، لكنهم لم يلتفتوا إلى ذلك ، وكان جوابهم هو : ليس بيننا وبينك إلا السيف[٢] .

وفي المحرم ٥٤٥هـ – ١١٥٠م ، أي بعد المفاوضات ، تراجعوا عن هذا الموقف ورضوا بأن يُدعى لحاكم دمشق على منابر دمشق بعد الخليفة والسلطان ، وتضرب السكة باسمه[٣] .

وفي أوائل العام ٥٤٦هـ – ١١٥١م ، نزل نور الدين شمالي دمشق في مرج عذراء وجدّد (معاهدته) مع حكومة دمشق[٤] .

وفي العام التالي وتنفيذاً لبنود المعاهدة خرجت قوات من دمشق مع قوات نور الدين وفتحوا بانياس ثم عاد كل فريق إلى بلاده[١] .

---

[١] ـ عن حصار دمشق الثاني انظر : القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٦٦ ـ الحاشية : زكار : الحروب الصليبية ، ج١ ، ص٤٣٩ و٤٣٥ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ص٧٨٥ .

[٢] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ـ ص٤٧٩ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٢٣٩ .

[٣] ـ أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٢٤٠ .

[٤] ـ أبو شامة : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٢٦٤ .

وفي العام ٥٤٨هـ – ١١٥٣ م ، اشتدت رغبة نور الدين في تملك دمشق ، فقرر فرض (حصار اقتصادي) عليها ومنع التجار من نقل الحبوب والميرة إليها ، وجاع الناس ، وبدؤوا يغادرونها من جديد ، ومات بعضهم في الطرقات[٢] .

وكان نور الدين يريد أن تكون دمشق سدّا في وجه الصليبيين . وأخيراً وفي مستهل شهر صفر ٥٤٩هـ – ١١٥٤م ، وصل إلى دمشق أسد الدين شيركوه في ألف من العساكر وخيّم ظاهر البلد . وبعد شهر جاء نور الدين بعساكره وخيّم شرقي البلد .

وبعد أسبوع من المناوشات فتحت له الأبواب ودخل المدينة من الباب الشرقي وباب توما ، واستسلم مجير الدين وغادر دمشق إلى حمص ومنها إلى بغداد حيث مات فيها كهلاً . واجتمع نور الدين بأعيان البلد وعلمائها وتجّارها . وفي اليوم التالي أصدر مجموعة من المراسيم بإبطال الرسوم الجائرة . ثم بدأ ينظم المدينة فكان أول ما فكر فيه هو بناء البيمارستان ثم المدرسة العمرية ودار الحديث النورية وهي أول دار للحديث في الإسلام .

ودخلت دمشق في عهده مرحلة جديدة ، وطويت منها صفحة الفاطميين والسلاجقة والبوريين بما لها وما عليها ، وعادت دمشق من جديد لتسترد بعضاً من دورها الكبير يوم كانت عاصمة لبني أميّة[٣] .

رابعاً ــ عصر نور الدين محمود بن زنكي : ٥٤٩ هـ – ٥٦٩ – ١١٥٤ م – ١١٧٤م

يعد عصر نور الدين الشهيد محمود بن زنكي من أفضل العهود التي شهدتها دمشق منذ سقوطها بيد العباسيين سنة ١٣٢هـ – ٧٥٠ م ، ويمكن إيجاز ملامح ذلك العهد بما يلي :

كان عصر نور الدين وأعماله الحربية ضد الفرنج هي الأساس المتين الذي أدى فيما بعد إلى نصر حطين العظيم الذي ارتبط باسم السلطان صلاح الدين .

تضاعفت مساحة أتابكية دمشق في عصر نور الدين حتى أصبحت دمشق في أواخر عصره وبعد سقوط الفاطميين المدينة الأولى في المشرق العربي التي تقود الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين .

شهدت دمشق في عهد نور الدين نهضة علمية وعمرانية وعلميّة واقتصادية وحضارية عامّة ، وبنيت فيها المدارس والمساجد ودور الحديث والبيمارستان النوري وأوقفت فيها الأوقاف الواسعة على وجوه الخير ، وذلك في الوقت الذي كانت تتعرّض البلاد فيه إلى الغزو الصليبي من الداخل والخارج .

---

[١] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٩٦ .
[٢] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٠٢ .
[٣] ـ عن نور الدين ودخوله دمشق انظر : ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٩ ، ص٢١٧ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٠٣ـ ٥٠٦ ، أبو شامة : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٠١ ـ ٣٠٧ ، وعن مجير الدين آبق انظر : ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٧ ، ص٢٩٩ .

كان عصر نور الدين هو الأساس لقيام دولة الأيوبيين ومن ثمّ المماليك بعد انضمام مصر إلى الشام .

وبصورة عامة امتاز عهد نور الدين بوجود ثلاثة معالم رئيسية هي :

– توالي حدوث الزلازل المدمرة على مايزيد عن اثني عشر عاماً في جميع بلاد الشام .

– وقيام علاقات متميزة مع مصر الفاطمية في عهودهما الأخيرة .

– والعلاقات والمواجهات المستمرة مع الفرنجة والتي لم تكن تهدأ حتى تبدأ من جديد على الرغم من المعاهدات والمواثيق التي كان يبرمها مع قادة الفرنجة .

فأما عن الزلازل فقد بدأت في أواسط ٥٥١ هـ – ٢٨ أيلول ١١٥٦م ، ثم توالت الهزّات المزعجة تطول وتقصر ، وتقوى وتضعف ، وتغيب وتحضر ، مما لم تشهد له البلاد مثيلاً من قبل ، واستمرت هذه الزلازل حتى شهر شوال ، وزاد عددها عن أربعين هزة أوقعت الهلع في النفوس وألجأتهم إلى سُكنى المقابر والبراري والقفار[١] .

وعادت الزلازل من جديد في صفر ٥٥٢هـ – ١١٥٧م وتواترت الأخبار عن آثارها المدمرة في حلب وحماة وشيزر وكفر طاب وأفاميا ، بالإضافة إلى حصون الصليبيين وقلاعهم .

وفي شهر ربيع الأول تجددت الزلازل في البلاد ، ثم هدأت لتعود بشكل عنيف في شهر رجب ، حيث داهمت دمشق والبلاد زلزلة هائلة دامت أياماً ، ثم تجددت في شهر رمضان وذي القعدة ، وكان تأثيرها في دمشق طفيفاً بعكس البلاد الشمالية .

وفي ربيع الأول ٥٥٣ هـ – ١١٥٨م ، عادت من جديد ، ثم مضت شهور نسي فيها الناس أمر الزلازل التي ما لبثت أن داهمتهم من جديد مع مطلع عام ٥٥٤ هـ[٢] .

وفي شوال ٥٦٥ هـ – ١١٧٠م حدثت زلزلة عامة هائلة شملت بلاد الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق ، فخربت بعلبك وحمص وحماة وشيزر وبارين وحلب ، وسقطت الدور على أهلها وشمل الدمار المسلمين والفرنج على حد سواء ، واستطاع نور الدين إعادة بناء ما تهدم من القلاع والأسوار في كل تلك البلاد قبل أن يتمكن الفرنج من دخولها .[٣]

---

[١] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥١٤ ـ ٥١٥ ، وقد تحدث القلانسي عنها يوماً بيوم وبيّن قوتها ، بما يغني عن إعادتها هنا .

[٢] ـ عن هذه الزلازل وآثارها انظر : القلانسي : المصدر المتقدم : الصفحات : ٥١٨ـ ٥٢٥ـ ٥٢٦ـ ٥٢٧ ـ ٥٢٩ ـ ٥٣٧ ـ ٥٤١ .

[٣] ـ ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٥ ، العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ـ تحقيق رمضان ششن ـ بيروت ١٩٧١ م ـ ص ٩١ .

يقول ابن العبري : ((إنه في يوم ١٢ شوال ٥٦٥ هـ – ١١٦٩م ، حدثت زلزلة شديدة واهتزت الأرض اهتزاز سفينة في البحر ، مما لم يُسمع بمثله في العصور الغابرة . . . وقد استمرت الزلزلة متناوبة على مدى ٢٥ يوماً))[١] .

وقال وليم الصوري عن هذه الهزّة :

((إنه في شهر حزيران ١١٧٠ هـ – شوال ٥٦٥ هـ –١١٦٩م ، دمّرت إنطاكية وقتل معظم سكانها ، ودمرت الأسوار الضخمة والأبراج العملاقة ، وهدمت الكنائس والمباني ، ودمرت جبلة واللاذقية ، وأصبحت طرابلس يوم ٢٩ حزيران أكواماً من الحجارة وصارت قبراً للسكان ، وفي صور دمّرت الهزة جميع الأبراج[٢] .

وأما عن مصر فقد شهد عهد نور الدين زيادة التقارب مع القاهرة ، ذلك أن الرسل بين دمشق والقاهرة والاتصالات كانت قائمة منذ أيام الأتابك طغتكين .

وفي أوائل سنة ٥٥٢ هـ – ١١٥٧م وصل دمشق رسول من القاهرة ، أقام فيها حتى ربيع الأول ، ثم عاد مع رسول من دمشق ، يحمل المطالعات والكتب إلى حكامها .

وفي رمضان سنة ٥٥٣ هـ – ١١٥٨م وصل الحاجب محمود المسترشدي من مصر بجواب من الملك الصالح متولي أمرها ، ومعه رسول آخر ، وهما يحملان المال المخصص لخزانة نور الدين والهدايا من الخيول العربية والألبسة المصرية ، وقد حاول الفرنج الاستيلاء على هذه الأموال ، لكنها وصلت سالمة إلى دمشق[٣] .

وقد عاد المسترشدي إلى مصر في صفر ٥٥٤ هـ – ١١٥٩م ومعه مكاتبات من السلطان نور الدين إلى الخليفة العاضد[٤] .

وقد استمر هذا التقارب حتى وفاة الخليفة العاضد وتم ضم مصر إلى الشام .

وأما عن الناحية الأهم لنور الدين وهي العلاقات والمواجهات مع الفرنجة فقد واجه نور الدين عدداً من الإمارات والإقطاعيات الفرنجية هي : مملكة بيت المقدس ، إمارة إنطاكية ، كونتيّة طرابلس ، إقطاعيّة جبيل ، إمارة الجليل وهي إقطاعية طبرية ، إقطاعية بيروت ، إقطاعية صيدا ، إقطاعية تبنين ، إقطاعية قيسارية ، إقطاعية الرملة ويُبنى ، كونتيّة يافا ، إقطاعية الكرك والشوبك .

وكانت مملكته تضم القسم الداخلي من الشام من حلب حتى الجولان ، ومن البادية حتى الإمارات الصليبية ، وكان معزولا تماماً عن البحر الذي كانت السيادة فيه للفرنجة والفاطميين وحدهم[٥] .

---

[١] ـ **ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ١٨٣ .**
[٢] ـ **زكار : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص ٩٤٧ .**
[٣] ـ **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٥١٩ ـ ٥٣٩ .**
[٤] ـ **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٥٥٤ .**
[٥] ـ **رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٨٤١ .**

وكانت دمشق وحلب عاصمتين لدولته يتنقل بينهما بحسب المصلحة العامة ، وقد أقام فيهما قواعد دولة قويّة ومنظمة وعامرة ، وهذا سرّ عظمته ومقدرته .

وقد اعتمد في دولته على رجال أكفاء فقد استوزر الأمير نجم الدين أيوب كبير البيت الأيوبي ، وأخاه أسد الدين شيركوه ، واعتمد عليهما اعتماداً تاماً في تصريف أمور الدولة الواسعة ، وكان لاختياره هذا نتائج لم تكن في الحسبان وهي قيام الدولة الأيوبية وتلاشي ذرّية نور الدين المؤسس الحقيقي لتلك الدولة .

وقد كان نجم الدين نائبه في دمشق ، وأسد الدين نائبه في حلب ، ثم في دمشق .

ثم عُيّن توران شاه بن نجم الدين شحنة دمشق ، أي مدير الأمن العام فيها ، وقد حلّ محله أخوه يوسف سنة ٥٥٠هـ – ١١٥٥م وهو صلاح الدين الأيوبي ، وهذا أول ظهور له على مسرح الأحداث[١] .

وقد ربط هذه الدولة شبكة من الاتصالات السريعة ، بحسب مقاييس ذلك العصر ، وهي أبراج الحمام الزاجل التي أقامها في جميع مدن المملكة والتي سهّلت له إلى حد كبير سرعة الحركة على مختلف الجبهات ، وسرعة الانقضاض على الصليبيين كما سنرى . وبعد ذلك التفت إلى الفرنجة فحاول عقد هدنة معهم مقابل ٨ . ٠٠٠ دينار يدفعها لهم في السنة ، وقد استمرت هذه الهدنة سنة واحدة هي سنة ٥٥٠ هـ – ١١٥٥م ، وبضع سنة ، ونقضها الفرنجة في العام التالي بعد ما جاءهم المدد العسكري في البحر[٢] .

واستقرّ السلطان نور الدين في دمشق في شهر رمضان ٥٥١ هـ – ١١٥٦م وحاول تمديد الهدنة مع الفرنج ، لكنهم نقضوا عهودهم وهاجموا محيط بانياس في الجولان ، ولذلك قرر السلطان أن يكون عام ٥٥٢ هـ – ١١٥٧م ، هو عام الثأر من الفرنج وهذا ما كان ، ولذلك استدعى أخاه نصرة الدين لمشاركته في جهاد الفرنج ، وكانت باكورة ذلك إنزال هزيمة نكراء بالفرنج حول بانياس يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول ٥٥٣ هـ – ١١٥٣م وكانوا في نحو ٧٠٠ فارس وأضعافهم من الرجّالة مع من انضم إليهم من سكان جبل عاملة ، وقد قتل منهم مقتلة عظيمة وأسر أعداداً كبيرة ضربت رقابهم جميعاً مع حلفائهم في الجبل المذكور[٣] .

ثم جاء أسد الدين شيركوه بعد إنزاله ضربة قوية بالفرنج في جهات حارم في الشمال ، جاء إلى دمشق بقواته وانضم إلى نور الدين واستعد الجميع لفتح بانياس ، وانضم إليهم أحداث

---

[١] ـ أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٣١٩ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٠٩ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية . تحقيق محمود الزايد ـ دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١ م ، ص ١٤٧ .

[٢] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٠٩ ـ ٥١٦ ـ ٥١٧ .

[٣] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٢٠ .

دمشق والمجاهدون والمتطوعون المرابطون ، فهزموا الفرنج هزيمة ساحقة على أبواب بانياس ، ثم ملكوها بالقوة وكان ذلك في شهر ربيع الآخر ٥٥٢ هـ[١] ، أيار ١١٥٨م .

وفي جمادى الأولى ٥٥٢ هـ – ١١٥٨م هُزم الفرنج الهزيمة الثالثة عند طبرية وقتل عدد كبير من أعيانهم واستولى المسلمون على كنيستهم التي كانوا يحملونها معهم أينما توجّهوا[٢] .

وقد وصف القلانسي دخول الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق وفرح الناس بما شاهدوا من خذلان الفرنج وحلفائهم .

وبعد هذه الانتصارات توجّه نور الدين إلى حلب لتمهيد أمورها ثم عاد إلى دمشق في ربيع الأول ٥٥٣ هـ – ١١٥٨م ، بعدما عاد الفرنج إلى العبث بالجولان والبقاع ورفض السلطان نور الدين عرض ملك الفرنج عقد هدنة جديدة معه[٣] .

وفي آخر السنة تواترت الأخبار بتحرك ملك القسطنطينية بجيوشه لدعم حلفائه الفرنج بعد الهزائم التي نزلت بهم ، وقد بادر إلى إرسال الهدايا إلى السلطان نور الدين ، وعبّر عن رغبته في مسالمته ، ثم غدر به ، فتصدّى له نور الدين بقوّاته ومن انضم إليه ، الأمر الذي دعاه إلى تجديد الصداقة مع نور الدين إذا أطلق من عنده من أسرى الروم إلى بلاده بدون قتال أو إراقة دماء وأرسل لنور الدين هدايا فاخرة ، واستقرّت الموادعة على تلك الصورة وتفرّغ نور الدين لمحاربة الفرنج[٤] .

وفي سنة ٥٥٧ هـ – ١١٦٢م ، جمع نور الدين العساكر وسار بها لفتح حارم ، ورافقه في هذه الحملة الأمير أسامة بن منقذ فلم يتيسّر له فتحها لتدخل الفرنج ، فعاد إلى دمشق .

وفي رمضان ٥٥٩ هـ – ١١٦٤م ، جمع قواته مع قوات أخيه قطب الدين في الموصل وحلفائهما من العرب والتركمان والمتطوعين وتوجه نحو حارم حيث التقى بالفرنج في معركة رهيبة أسفرت عن هزيمة ساحقة للفرنج زاد فيها عدد قتلاهم عن ١٠ . ٠٠٠ قتيل ،

وآلاف الأسرى الذين كان فيهم : ريموند صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس والدوق كبير الروم وابن جوسلين ، وتم بعدها فتح حارم .

وتعد هذه الموقعة من أكبر الانتصارات التي حققها نور الدين على الفرنج ، وقال ابن العبري إن بطريرك الفرنج أقام مناحة عامة وحطّم النواقيس وأبطل الصلوات[٥] .

---

١ ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٥٢ .
٢ ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٢٣ .
٣ ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٢٤ـ ٥٣٧ ـ ٥٤٠ .
٤ ـ أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ـ ص٣٨٥ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٤٦ ، أما ملك الروم المذكور فهو عما نوئيل الأول انظر : أسد رستم : الروم – بيروت ١٩٥٦ م ، ج٢ ، ص ١٤٤ .
٥ ـ العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ، ص٦١ ، ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص١٧٦ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص١٢٣ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٤١٥ .

وفي سنة ٥٦٠ هـ – ١١٦٥م فتح نور الدين قلعة بانياس وكان معه بحسب رواية ابن الأثير ولد معين الدين أنر الذي كان قد سلم القلعة للصليبيين ، فقال له نور الدين :

((للناس فرحة واحدة بهذا الفتح ، ولك فرحتان لأنه في هذا اليوم برّد الله جلد والدك من نار جهنّم)) .

وفي العام التالي فتح حصن المنيطرة قرب طرابلس[1] .

وفي سنة ٥٦٥ هـ – ١١٧٠م في شهر شوال ، هزم الفرنج عند قرية اللبؤة قرب بعلبك ، وقتل منهم عدد كبير وكان من بين القتلى مقدم الإسبتار صاحب حصن الأكراد ، وكان من أشد الناس عداءً للمسلمين ونكاية فيهم ، وقتل معه عدد كبير من قادة الفرنج ، وعرضت رؤوس القتلى في دمشق ، وفرح الناس بذلك[2] .

وفي سنة ٥٦٧ هـ – ١١٧٢م ، خرجت مراكب من مصر إلى الشام فأخذ الفرنج منها مركبين للتجار وغدروا بالمسلمين ، بالرغم من الهدنة التي أمضاها نور الدين معهم .

فراسلهم في إعادة المركبين فرفضوا ، فسار إليهم بجيشه واحتل صافيتا وحصن العريمة بجواره ، وأرسل فرقة إلى إنطاكية فنهبت كل ما صادفته من أموال الفرنج ، فراسلوه على أن يجدد الهدنة ويعيدوا المركبين ، فوافقوا وكما يقول ابن الأثير :

((كانوا كاليهودي ، لا يُعطي الجزية حتى يلطم)) ، فأجابهم إلى ذلك ، واستمرت الهدنة قائمة حتى وفاة نور الدين[3] .

ولكن أهم إنجاز تاريخي وسياسي لنور الدين كان ضم مصر إلى الشام والقضاء على الفاطميين فيها ، ومن ثم الدعاء للخليفة العباسي ، ولو أن مصر والشام كانتا في دولة واحدة قويّة ، ما سيطر الصليبيون على ما سيطروا عليه .

ذلك أنه في سنة ٥٦٤هـ – ١١٦٩م حدث تحوّل جذري شامل في تاريخ الشام ومصر والعالم الإسلامي ، كانت له أثار خالدة في التاريخ الإسلامي حتى اليوم ونعني به دخول قوّات الشام بقيادة أسد الدين شيركوه إلى مصر وقتل وزيره شاور وتملكه باسم نور الدين ، وهذه الخطوة الحاسمة كانت المرحلة قبل الأخيرة في إسقاط الحكم الفاطمي من مصر بعد ما يقرب من قرنين كاملين .

وسبقت هذا الحدث العظيم محاولة تمت سنة ٥٥٩ هـ – ١١٦٤م ، وأخرى سنة ٥٦٢ هـ – ١١٦٧م بقيادة أسد الدين نفسه ، وهو الذي استطاع بشجاعته وخبرته بمصر أن يحقق

---

[1] ـ **ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٤٦ و ١٤٨ .**
[2] ـ **ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ص١٤٥ .**
[3] ـ **ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ص١٥٤ ، أبو شامة : المصدر المتقدم ، ص ٢٢٤ .**

– ومن بعده ولد أخيه صلاح الدين – وحدة مصر والشام وقيام دولة تمتد من بلاد النوبة جنوباً حتى جبال طوروس ، وهو الأمر الذي يعدّ بمثابة المعجزات في ذلك الوقت .

وعلى أثر ذلك حاول الفرنج احتلال مصر قبل أن يتمكن منها نور الدين ووزيره صلاح الدين وحاصروا دمياط سنة ٥٦٥ هـ – ١١٧٠م ، لكنهم هزموا شرّ هزيمة .

وفي المحرم ٥٦٧ هـ – ١١٧١م قطعت خطبة العاضد صاحب مصر ، وخطب فيها للإمام المستضيء العباسي ، وبعد أسبوع من ذلك مات العاضد وصارت مصر بصورة رسمية واحدة من ولايات الدولة النورية ، وأزيلت منها جميع آثار الفاطميين[١] .

وفي سنة ٥٦٨ هـ – ١١٧٢م ، وجّه نور الدين إلى الخليفة المستضيء العباسي مجموعة من أسرى الروم مع القاضي كمال الدين الشهرزوري ، ووجه معه كتاباً ، وكان مما جاء فيه :

((وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة ، وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهم على انتظار صباح المؤانسة ، والله بكرمه يُدني قطاف الفتحين لأهل الإسلام ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإمام[٢])) .

وكان واضحاً أن نور الدين يعدّ العدة لتحرير القدس وفتح القسطنطينية أيضاً .

وفي شعبان ٥٦٨ هـ – ١١٧٤م ، وجّه نور الدين آخر رسالة إلى الخليفة على يد الطبيب علي بن عيسى النقّاش يعلمه منها بقرب الاستيلاء على اليمن وبكسرة الروم مرة ثانية على يديه .

ثم أمر بزيادة الأوقاف وتكثير الصدقات ، وإزالة آثار الآثام ، وكما يقول العماد والأصفهاني :

((أمرني بكتب مناشير لجميع البلاد بإسقاط الرسوم الجائرة ، ولم يبق إلا على رسم الجزية والخراج[٣])) .

وأخيراً وفي شوال ٥٦٨ هـ – ١١٧٤م ، ابتدأ به المرض وانقطع عن الناس في القلعة وتوفي يوم الأربعاء ١١ شوال ٥٦٩ هـ – ١٦ أيار ١١٧٤م ، ودفن في البيت الخشبي الذي بناه في القلعة ، بعد كثرة الزلازل ، ثم نقل جثمانه بعد ذلك إلى مدرسته في الخوّاصين – الخياطين اليوم – وكانت داراً لسليمان بن عبد الملك .

ويقول ابن قاضي شهبة :

((إن قبره يُزار ويُخلق شبّاكه ويُطيب ، ويتبرك به كل مار)) .

---

[١] ـ انظر : العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي الصفحات ، ٥٩ ـ ٦٠ ـ ٦٢ ، ابن الأثير : المصدر المتقدم الصفحات ، ١١٩ـ ١٣٢ ـ ١٣٧ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج٢ ، ص١٨٩ حتى ، ص٢٢٤ وفيه خلاصة تاريخ الفاطميين .

[٢] ـ العماد الأصفهاني : المصدر المتقدم ، ص١٣٦ .

[٣] ـ العماد الأصفهاني : المصدر المتقدم ، ص١٤٦ .

ويقول إن الناس أطلقوا عليه لقب الشهيد لوفاته بمرض الخوانيق ، ويقول آخرون ، وهو الأرجح ، إنه لقب انتقل إليه من والده الشهيد زنكي .

وكان عمره لما توفي ٥٨ سنة قمرية أمضى منها في الحكم ٢٨ سنة .

- منها ثماني سنين في حلب وما حولها .
- و١٥ سنة كان فيها ملكاً على حلب ودمشق .
- و ٥ سنوات كان فيها ملكاً على البلاد الممتدة من النوبة حتى حلب بما فيها اليمن وبرقة .

وانتقلت راية الجهاد بعده إلى وزيره صلاح الدين الذي سار على طريقه ، ثم سار الأيوبيون والمماليك على الطريق نفسه ، طريق الجهاد حتى تحرير الشام ومصر منهم نهائياً سنة ٧٠٢ هـ[1] – ١٣٠٢م .

---

[1] - تراجم نور الدين كثيرة ، لكن أقربها إليه هي : العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ، ص١٥٣ ، ابن الأثير : الباهر ، ص١٦١ وما بعد ، ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص٢٢٨ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج٢ ، ص٣٠٥ ، ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٥٧ ، ص١١٨ وما بعد .

الفصـــل الثانـي

قـــواعـــد الحيـــاة

الاقتصادية في أتابكية دمشق

تمهيد :

تميزت دمشق بموقعها الجغرافي الهام ، فبين البحر والصحراء وبين الشمال والجنـــوب كانت ولم تزل مساحة فاعلة في تمازج الحضارات ولقاء الثقافات ، فأينع الماضي لتنضج ثمار الحاضر ويبشر بمستقبل مشرق .

فدمشق أقدم مدينة في العالم ظلت عامرة ومأهولة باستمرار لم ينقطع عنها نبض الحيـــاة رغم توالي العصور وتعاقب العهود وتغير السكان والأحقاب ، فالقباب الأيوبية ورثت الأقواس الرومانية ، وتمخضت الدولة الزنكية عن الدولة السلجوقية ، وطور العثمـــانيون مـــا تركـــه المماليك .

دمشق التي كانت دائماً مطمع الغزاة وطريق الطامحين ، دمشق التاريخ الذي يجيء مـــن الماضي ويصيب في الحاضر بكل ما يحمله زخم ثقافتها العربية كعاصمة لأقوى دولـــة فـــي العالم في عصرها الذهبي الأموي .

حيث أن دمشق تتمتع بموقع جغرافي متوسط الموقع والمنـــاخ جعلهـــا مطمعـــاً للغـــزاة والفاتحين ، فهي تعطي قوة مؤثرة لمن يسيطر عليها مستفيداً من مناخها ومياههـــا وموقعهـــا البعيد عن المناطق القطبية الباردة والاستوائية الحارة ، لذلك قامت فيها حضارات كبرى لأن الناس يختارون المناطق المناسبة لسكناهم حيث لم تكن هنـــاك ســـندات تمليـــك للأراضـــي وتأشيرات دخول رسمية . وتربة دمشق صالحة لإنتاج العديد من المحاصيل ، واعتدال مناخها يزيد من ثروتها الزراعية ، كما أن الينابيع ووفرة المياه وسقوط الأمطار يوفر الحياة المناسبة للزرع والضرع ، مما جعل دمشق قادرة على استيعاب أكبر عدد من السكان ، وهذا يعطيهـــا قوة اقتصادية تشكل قوة عسكرية لمن يسيطر عليها .

وقد لعب موقعها الجغرافي بين نهر بردى وجبل قاسيون وبساتين الغوطة دوراً كبيراً في تطورها وطمع الكثيرين في السيطرة عليها .

ووقوعها بين الرمل والطين جعل منها نقطة تواصل بين البدو والحضر وموقعـــاً بـــين الزراعة والماشية ، وكونها شامة على خد الصحراء السورية جعل منها ثاني عاصة عربيـــة بعد المدينة المنورة ، وكانت بقاعدتها التجارية مقصداً لأول رحلة تجارية لرسول الله صـــلى الله عليه وسلم .

وهي المركز التجاري بين آسيا الصغرى والجزيرة العربية وهـــي بوابـــة بـــين البحـــر المتوسط وبغداد والمشرق ، ووقوعها على خط القوافل جعلت التجارة عنصراً أساســـياً فـــي ازدهارها ، فهي تتوسط قلب المعمورة مما جعل منها أقدم عاصمة معروفة في التاريخ .

إن أموال التجارة لا تقترن دائماً بالربح الأكيد فكما تتوالد الأموال تموت كذلك ، يتوافق ذلك حسب خبرة التاجر ووعيه ، فالتجارة ليست تبادل سلع وبضائع فقط فهي علاقات مع التجار الآخرين داخلياً والاستيراد خارجياً ، وموقع دمشق الجغرافي وفر لها الاتصال والتواصل مع موارد الشرق والغرب والإطلاع على طريقة تفكير الغرب ومعاملتهم وتياراتهم ، وهذا الموقع جعل من دمشق نافذة اقتصادية أطلت منه على الغرب .

أوّلاً – العوامل المؤثرة في اقتصاد دمشق

١ – عوامل الازدهار :

– إصلاحات الحكام الاقتصادية :

إن القوة الاقتصادية هي العنصر الأساسي في قوة الدولة وفرض سلطتها على أعدائها وهيبتها على سكانها ، فلا حرب دون سلاح ولا عتاد دون اقتصاد ولا كفاءة حربية وخبرة قتالية دون ثروة اقتصادية تطور وسائل الحرب وأدواتها ، وتستطيع السلطة في زمن الحرب استخدام اقتصادها عسكرياً لتحقيق مشاريع النصر . إن اللغة المشتركة من أهم العوامل لتجانس الأمة وقد كانت لغة سكان دمشق وأعراقها تتنازعها لغة حكامها وقادتها السلاجقة أو الفاطميين وغيرهم من المماليك والأتابكة وأصحاب القوة من بلاد ما وراء النهر ، كما أن اختلاف الأعراق والثقافات أدى إلى عدم التماسك بين السكان .

وكان لابد من مشروع نهضوي يسلح الأمة بالوعي ووحدة الانتماءات وتسامح الطوائف لرأب الصدع في جسمها ، وتعزيز الانتماء الوطني لدحر الصليبيين ، فمهما تفاوتت وجهات النظر بين السكان فإن الوحدة الوطنية تزيل التباعد والتنافر بين أبناء الوطن الواحد ، وتؤدي إلى المسؤولية المشتركة للدفاع عن النفس .

وتستطيع المصلحة العامة أن تستوعب الجميع ، فالصواب والحق يؤدي إلى الإقناع وإزالة الخلاف ، عندما تتجسد أخلاق النصر لدى الأمة وتتبنى الفكر الجماعي الصحيح تتحول الأمة إلى الإثراء الفكري وتبتعد عن أخلاق الهزيمة ، فثراء الأمة اقتصادياً وإثرائها فكرياً وثقتها بقادتها من أهم عوامل النصر العسكري .

ولأن الإسلام نبع لا ينضب بإنجاب المدافعين عن حياض الوطن فقد أنجب نور الدين الزنكي الذي تابع نهج والده عماد الدين في مشروعه الإصلاحي بتوحيد الجهود الإسلامية لإعادة الصليبيين إلى بلادهم وتحرير القدس والأراضي المغتصبة .

وقد علم نور الدين أثر الاقتصاد في السياسة وقوة الفكر السليم لتحقيق النصر وإعادة الحق إلى نصابه ، فدعم القوة العسكرية بعناصر العلم وعناصر السكان وكفاءة النظم وأجهزة الإدارة في المناطق التي خضعت لسيطرته ، ليتمكن من تحقيق مشروعه الوحدوي وتحقيق

الأهداف المرجوة ، وقد أدت جهود نور الدين إلى تفعيل القـوى الاقتـصادية والاجتماعيـة وأخرجها من مكامنها وبذلك عزز الوسائل التي ساعدته على النصر .

كان نور الدين الزنكي صاحب مشروع تحرير يعلم أن قوة الدولة في استقرارها واستتباب الأمن في ربوعها ، فلا نصر مع الفوضى ، ولا قوة مع الخوف ، ولا قـوة عـسكرية دون تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية ، وهذا يحتاج إلى وقت كاف لتتمكن السلطة من تنفيذ الخطط التنموية ، لذلك لم يتمكن نور الدين الزنكي من تحقيق أهدافه السامية خلال حياته نظـراً لأن مشروعه الكبير يحتاج إلى سنين طويلة من الجهود في جميع المجالات لتهيئة الأمة للمعارك الحاسمة التي يعد لها .

وعاجلته المنية بعد أن وضع الأسس لدولة قوية ، فتابع صلاح الدين الأيوبي المـشروع الذي سعى إليه سلفه ، واستطاع تحقيق النصر .

لقد بدأت هذه الإصلاحات مع الأيام الأولى لانفصال دمشق سياسياً واقتصادياً عن القاهرة في أواخر سنة ٤٦٨هـ – ١٠٧٦م عندما خُطب للإمام المقتدي على منابر دمشق وقُطعـت الخطبة المستنصرية .

فقد نظر الأمير أتسز بن أوق في مصالح دمشق ، وأطلـق لفلاحـي المـرج والغوطـة استغلال الزراعات ، وألزمهم الاشتغال بعمارة الأرض والفلاحـة ، فـصلحت الأحـوال ، وازدادت الغلاّت ورخصت الأسعار ، وفرح الناس بذلك[١] .

وفي رجب ٥٢٦هـ – ١١٣٢م افتتح الأمير شمس الملوك إسماعيل بن بـوري عهـده بالنظر في أمور الرعية والمتعيشين[٢] ، ودفع عنهم ما كان يستخرج منهم من ضرائب كـل سنة ولا سيما ضريبة (الفيئة) التي حظّر تناولها وأزال حكمها ، وعوّض المستفيدين منهـا بجهات غيرها فكثر له الدعاء[٣] .

ونظراً لأن (المتعيّشين) كانوا من الطبقات الفقيرة البائسة ، فهذا يعني أنهم كانوا يدفعون في أيام بوري ضريبة الفيئة هذه رغماً عن فقرهم .

وفي رجب من سنة ٥٤٤هـ – ١١٤٩هـ أمر مجير الدين أبق من منبر جامع دمشق بعد الصلاة بإبطال ضريبة الفيئة المذكورة وإبطال دار الضرب فكثر دعاء الناس له وسـرورهم بما أمر[٤] .

---

١ - **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٧٥ .**
٢ - **المتعيشون : هم الباعة الفقراء الذين يعملون يوماً بيوم ، ولا يزال هذا الاصطلاح دارجاً في دمشق .**
٣ - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٣٧٢ .**
٤ - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٧٦ .**

ومن خلال هذا البيان المقتضب نستطيع القول :

أولاً — إن ضريبة الفيئة هذه ، قد أعيدت بعد إلغائها سنة ٥٢٦هـ ١١٣٢م ، كما ذكرنا آنفاً .

ثانياً — إن دار الضرب بدمشق كانت تتلاعب بالعملات كما هو مذكور في بحث النقود ، وإن الناس كانوا يفضلون التعامل بالدراهم والدنانير والقراطيس التي كانت شائعة ، بدل التعامل بالدنانير المضروبة بدمشق في دار الضرب .

وعندما فتح نور الدين دمشق في صفر ٥٤٩هـ – ١١٥٤م قام بإجراءات هامة ، منها أنه أعلن :

- إلغاء حقوق دار البطيخ .
- وحقوق سوق البقل .
- وضمان الأنهار .

وهي رسوم جائرة كانت تدفع على ما يباع في أسواق الخضار والفواكه بدمشق وكعادتهم آنذاك ، قرئ المنشور على منبر دمشق بعد صلاة الجمعة[١] .

وعندما خرج نور الدين لاسترداد شيزر سنة ٥٥٢هـ – ١١٥٧م خرج صحبته أبو غانم بن المنذر رئيس الديوان ، فأمره نور الدين بكتابة مرسوم بإلغاء المظالم في حلب وحماه وحمص ودمشق وحرّان وسنجار والرحبة وعزاز وتل باشر وعداد العرب ومما جاء فيه :

((هذا ما أطلقه مُسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا لعجزهم عن عمارة ما أضر به الفرنجة ، أبادهم الله تعالى ، عند استيلائهم على البلاد ، رأفة بالمسلمين سكان الثغور ، وأعاد عليهم ما اغتُصب من أموالهم وأملاكهم التي أفاءها الله عليهم من الفتوح العمرية ، فأقرّها في البلاد الإسلامية الظلمة المتقدمون ، واسترجعه بسيفه ، فصفح لكافة المسلمين عن الضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه ومبلغها جميعاً ١٥٦,٠٠٠ دينار هذا بيانها :

٥٠,٠٠٠	دينار عن حلب .
١٠,٠٠٠	دينار عن مُكّسٍ أحدثه الفرنجة في عزاز .
٢١,٠٠٠	دينار عن تل باشر .
٣,٠٠٠	دينار عن المعرّة .
٢٠,٠٠٠	دينار عن دمشق مقابل رسم يسمّونه الفيئة .
٢٦,٠٠٠	دينار عن حمص .
٥,٠٠٠	دينار عن حرّان .

---

[١] - **هذه الوثيقة والتي قبلها وغيرها ، تبين بجلاء دور الجامع الأموي في حياة دمشق فهو جامعة علميّة ودار للندوة ومركز لتقرير الحرب والسلم وباختصار ، كان قلب دمشق ، ثم تراجعت أهميته وصار أشبه بالمتحف .**

١,٠٠٠ دينار عن سنجار .

١٠,٠٠٠ دينار عن الرحبة .

١٠,٠٠٠ دينار عن عداد العرب .

وما أنفقه في وجوه الخيرات يعادل ٢٠,٠٠٠ دينار من ذلك :

ما أوقفه على مدارس الفقه الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرسيها وفقهائها .

وما أوقفه على دور الصوفية والربط والجسور والبيمارستانات والأسوار والجوامع .

وما أوقفه على الأشراف العباسيين والعلويين .

وما ملّكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين .

وعلى الجميع أن يبرئوا ذمته عن الفترة السابقة ، لأنه لم يصرفه إلا في وجه برّ وتجهيز جيش))[١] .

وهذه إشارة واضحة من نور الدين إلى اعترافه بعدم شرعية هذه الرسوم ورجائه من الناس ألا يُؤاخذوه عما سلف لأنه فعله مضطراً .

وقال العماد الأصفهاني إن نور الدين أمره سنة ٥٦٩هـ – ١١٧٣م بزيادة الأوقاف ومضاعفة الصدقات وتوفير النفقات وإسقاط المشبوه ، وأنه أمره بكتابة مناشير إلى جميع البلاد بإطلاق الرسوم المستحدثة حتى لم يبق إلا الجزية والخراج ثم أمر بإسقاط ما يحصل من قسمة الغلات وعزل الذين يجمعون الضرائب ويسمون : الشحنة ، وجعل ثلث واردات المواريث الحشرية خاص بالقاضي كمال الدين الشهرزوري ينفق منه على نفسه وأعوانه حتى لا تمتد أيديهم إلى أموال الرعية[٢] .

وعلاوة على ذلك فقد قام بمجموعة من الأعمال المهمة في المجال الاقتصادي ، من ذلك :

إصلاح طرقات دمشق والأتابكية .

توسيع الأسواق .

ومنع ما يؤخذ منها من المغارم .

ورفع المكوس عن الحجاج .

وأقطع أمراء العرب الاقطاعات حتى لا يتعرّضوا للحجاج .

وبنى الجسور والطرقات والخانات وجدّد الأسوار[٣] .

---

[١] - **أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٦٩ وما بعد .**

[٢] - **البنداري : سنا البرق الشامي ، ص١٤٣ ، والمواريث الحشرية هي مايؤول إلى بيت المال من تركة من لا وارث له .**

[٣] - **ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٥٧ ، ص١٢١ .**

وفي جمادى الأولى من سنة ٥٦٤هـ – ١١٦٩م أسقط نور الدين ما يُعرف بضريبة الأخشاب المفروضة على أهل دمشق وغوطتها .

وحدث في العام نفسه أن وصل جيشه إلى مصر فمدحه المؤرخ ابن عساكر عن ذلك فقال :

لما سمحت لأهل الشام بالخشب عُوّضت مصر بما فيها من النشب[1]

وفي أواخر عهده ، في جمادى الأولى من سنة ٥٦٩هـ – ١١٧٣م أبطل نور الدين ضريبة الأتبان المفروضة على حارات دمشق وغوطتها وقراها .

ومما جاء في هذا المرسوم :

((إننا من سنننا العادلة إشاعة المعروف وإغاثة الملهوف وإنصاف المظلوم وإعفاء ما فرضه الظالمون ... وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسّطة على أعمال دمشق المحروسة وضياع الغوطة والمرج وجبل سئيز – القلمون – وقصر حجاج والشاغور والعقيبة ومزارعها وكذلك جميع ما يقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخاصّة والمقطعة في سائر الأعمال المذكورة . . . وعلى النواب تقفية أثاره وإبطال رسمه من الدواوين وما بعدها ، لاستقبال سنة ٥٦٩هـ – ١١٧٣م على تعاقب الأيام والسّنين[2])) .

وفي النص إشارة إلى ثلاثة أنواع من الأراضي هي الأراضي الخراجية والخاصة والمقطعة لقادة نور الدين .

ومن جهة أخرى قام بلدوين الثاني سنة ٥٢٠هـ – ١١٢٦م بإجراءات اقتصادية أنعشت التجارة في المدن التي يُسيطر عليها الفرنجة ويسكنها معهم العرب .

فقد أعفى القدس من دفع الضرائب التي كان يدفعها التجار على بضائعهم المستوردة والمصدّرة .

وبناءً على ذلك صار بإمكان اللاتين الذين يدخلون القدس محملين بالبضائع ، أو يغادرونها كذلك أن يمرّوا بسلام بتجارتهم بدون أن يدفعوا عليها شيئاً مهما كانت الأسباب والذرائع .

وصار بإمكان الناس أن يبيعوا ويشتروا بدون دفع أي رسم .

وعلاوة على ذلك ، منح السريان والإغريق والأرمن وكل الناس من أي أصل كانوا . حتى لو كانوا عرباً ، منحهم امتياز حرّية نقل القمح والشعير والحبوب إلى داخل المدينة

---

[1] **ـ العماد الأصفهاني : خريدة القصر ـ دمشق ١٩٥٥م ـ قسم الشام ـ تحقيق الدكتور شكري فيصل ـ طبع المجمع العلمي العربي ، ج١ ، ص٢٧٦ .**

[2] **ـ أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج٢ ، ص٢٧٠ .**

المقدسة بدون رسوم كما ألغى الضرائب التي كانت مفروضة على الأوزان والمكاييل ، مما جعل الناس يتوافدون على القدس بكثرة ، الأمر الذي أدى إلى زيادة سكانها وازدهار تجارتها[1] .

٢ – عوامل التأخر الاقتصادي :

١– الصراع بين الحكام :

تأثرت تجارة دمشق بالأحوال السياسية والعسكرية السائدة إلى حد كبير ، وكان سلاح الحرب الاقتصادية أو المقاطعة الاقتصادية من الأسلحة التي كانت معروفة تماماً في تلك العصور ، إلى جانب الحرب العسكرية .

من ذلك مثلاً ، أنه في شهر ذي القعدة من سنة ٥٤٨هـ – ١١٥٤م حدث ارتفاع كبير في الأسعار بدمشق ، بسبب انقطاع الواردات إليها من الشمال ، وذلك بعد أن أمر صاحب حلب السلطان نور الدين بمنع تصدير الحبوب والمواد الأخرى إلى دمشق لممانعة حاكمها وأهلها في إدخاله إليها ، وفشل جميع حملاته وحملات أبيه العسكرية من قبل في الاستيلاء على تلك المدينة العريقة ، وتهديد حاكمها بالاستنجاد بالفرنجة إذا حاول نور الدين إذلالها بالحصار العسكري أو العبث في غوطتها ونواحيها .

ويقول القلانسي إن قرارات نور الدين الاقتصادية أضرّت بأهل دمشق من المستورين والضعفاء والمساكين حتى إن سعر الغرارة من القمح بلغ ٢٥ ديناراً ، أي أن كل حوالي ثمانية كيلوات من القمح كانت تباع بدينار ولذلك غادر عدد كبير من سكان دمشق الفقراء المدينة ، وتعرّضوا للبؤس والشدّة والضعف أو مات بعضهم في الطرقات ، وانقطعت الميرة من كل الجهات ، لأن نور الدين كان يسيطر على جميع الطرق المؤدية إلى دمشق[2] .

وهذا لا يعني أن دمشق لم تكن مكتفية ذاتياً من الحبوب وغيرها ، الأمر الذي أدّى إلى تفاقم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية على النحو الذي ذكر .

٢– إعادة الضرائب الجائرة :

ففي سنة ٥٥٣هـ – ١١٥٩م تجمع قوم من سفهاء دمشق وعزموا على تحريض الملك العادل نور الدين على إعادة ما كان أبطله وسامح به أهل دمشق من :

- رسوم دار البطيخ .
- وعرصة البقول والأنهار .
- والضمان .

[1] ـ **سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، ص٥٨٨ .**
[2] ـ **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٤ .**

- وحوالة الأجناد .

وضمنوا له ١٠,٠٠٠ دينار إن أعادها ، فأجابهم إلى ذلك فشرعوا في توزيعها على أصحاب الأملاك من المتقدّمين والأعيان والرعايا ، فاستغاث الناس بالملك العادل ، فأمر بإبطالها في رمضان من العام نفسه ، وأضاف إلى ذلك إبطال ضريبة ضمان الهريسة والجبن واللبن ، وكتب بذلك منشوراً قرئ على كافة الناس فسُرّوا بذلك[١] .

ونحن بدراسة هذه الحادثة نخلص إلى الآتي :

- إن نور الدين سبق له عند دخول دمشق في صفر سنة ٥٤٩هـ - ١١٥٤م ، أن أمر بإبطال حقوق دار البطيخ وغيرها ، ثم عاد بعد مضي أربع سنين إلى فرضها من جديد على أمل أن تمرّ بسلام ، ولكن لما استغاث الناس أمر بإبطالها . وهذه قاعدة ثابتة عند معظم الحكام أي أن سكوت الناس عن الظلم وقبولهم به يُغري الحكام بمزيد من الظلم والجور .

وربما كان نور الدين هنا محتاجاً إلى هذا المبلغ لمحاربة الفرنجة فاضطر إلى التراجع والمحافظة على علاقته الحسنة بالناس .

ثم إن إلغاء الرسوم على الهريسة والجبن واللبن ، يعني أنها فرضت في وقت سابق ، وهذا يعطي فكرة واقعيّة عما يمكن تسميته بالمكوس ، وهي الضرائب الجائرة التي لا أساس لها في الشرع والتي سنتحدث عنها في بحث إيرادات الدولة العامة .

٣- حرب الفرنجة الاقتصادية :

شن الصليبيّون حرباً مدمّرة على المشرق الإسلامي تحدثنا عن القسم الأخطر منها وهو الحرب العسكرية في الفصل الأول .

وما إن استقرّوا في البلاد التي احتلوها حتى أخذوا يتطلعون بنهم شديد إلى ما كان خارجاً عن سيطرتهم مثل مصر وأتابكية دمشق ومدنها ، بالإضافة إلى حلب والموصل ، وعمدوا إلى احتلال المواقع الهامة لتقطيع أوصال البلاد الإسلامية وشلّ طرق المواصلات مع مصر والمشرق والساحل .

وكانوا يكثرون من الغارات على القوافل التجارية ، يساعدهم في ذلك ، كما سنرى ، بعض الأعراب ، أي البدو ، الذين كانوا في حالات كثيرة أكثر شراسة ودموية وحقداً على المسلمين من الفرنجة أنفسهم .

ففي سنة ٥٠٤هـ - ١١١٠م هاجم الفرنجة الجنويّون ألوفاً كثيرة من التجار القادمين من تنيس ودمياط بمصر ، واعتقلوا سبعين تاجراً عربياً وباعوهم بأثمان غالية وانتزعوا منهم ٤٠٠ صندوق محملة سكراً مصرياً ، وخمسين حملاً من الأقمشة الدمياطية وغير ذلك[٢] .

---

[١] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٥٣٩ .**
[٢] - **ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص١٣٢ .**

وأمسى عرب الشام في خطر عظيم وتعذّر عليهم مهادنة الفرنجة إلا بدفع الذهب ، وأرسل إليهم صاحب صور ٧,٠٠٠ دينار ، وصاحب عسقلان ، ٤,٠٠٠ دينار ، وابن منقذ صاحب شيزر ٤,٠٠٠ دينار ، وعلى الكردي صاحب حماة ٢,٠٠٠ دينار وعقدوا الهدنة إلى وقت الحصاد على أن يقدموا كامل الغلة للفرنجة[١] .

وذكر القلانسي أن هؤلاء التجار قد سافروا من دمشق ببضاعتهم ، وباعوها في مصر ، واشتروا بضاعة من مصر ومكثوا فيها بانتظار الفرج .

وكان سير الأساطيل في البحر متعذراً ، والسفر فيه أشد خطراً من السفر براً ، فغامر هؤلاء التجار بأنفسهم وركبوا البحر ، فصادفتهم مراكب الإفرنج فأخذت منهم ما تزيد قيمته على ١٠٠,٠٠٠ دينار وأسروهم ، فاشتروا أنفسهم بما بقي لهم من الذخائر في دمشق وغيرها[٢] .

وذكر ابن العبري أنه لم يكن بالإمكان السفر خارج دمشق إلا من طريق البادية بعد أن استولى الفرنج على كل الطرق والبلاد حتى العريش[٣] .

وفي سنة ٥٠٦هـ – ١١١٢م ذكر القلانسي أنه في ذلك العام لم يبق مسلم في بلاد الإفرنج إلا وأنفذ إلى طغتكين يلتمس منه الأمان ، وأن يرفع الحرب عن الفرنجة وأرسلوا إليه قسماً من واردات نابلس ، ونهبت بيسان ولم يبق بين عكا ونابلس ضيعة عامرة ، فرفع الأتابك طغتكين الحرب وعاد إلى دمشق[٤] .

وفي العام نفسه وصل إلى الملك بلدوين في عكا رجل من العرب الزريقيين من عسقلان ، يعلمه أن القافلة الدمشقية قد رحلت من بصرى إلى ديار مصر ، و فيها المال العظيم ، وتعهد الأعرابي أن يدل بلدوين على القافلة بشرط أن يطلق له من أسر من أهله عند الفرنجة .

فنهض بلدوين من وقته عن عكا في طلب القافلة التي كانت قد وصلت إلى مضارب بني ربيعة ، فاحتجزها هؤلاء أياماً ، ثم أطلقوها ، فلما وصلت إلى صحراء النقب هاجمها الفرنج ، فهرب من كان فيها ، فالذي صعد الجبل سلم وأخذ ماله ، وأُسر من لم يستطع الهرب ، وأخذ الفرنج ما فيها من الأمتعة والبضائع وتتبعت الأعراب من أفلت منهم فأخذوه .

وحصل لبلدوين منها ما يزيد على ٥٠,٠٠٠ دينار و ٣٠٠ أسير وعاد بها إلى عكا . ولم يبق بلد من البلاد إلا وأصيبت بعض تجارته في هذه القافلة[٥] .

---

[١] - **ابن العبري : المصدر المتقدم ، ص١٣٢ .**
[٢] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٧٤ .**
[٣] - **ابن العبري : المصدر المتقدم ، ص١٤٣ .**
[٤] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٩٧ .**
[٥] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٩١ .**

ومن جهة أخرى ، يبدو أن هذه الأحوال السيئة كانت آخذة بالتراجع مع مـرور السنين وارتباط المسلمين والفرنجة باتفاقات ومصالح تجارية متبادلة ، الأمر الذي دفع الجميع إلى تغليب العقل والحكمة فيما بينهم ، وبدا ذلك واضحاً فيما ذكره ابن جبير سنة ٥٨٠هـ - ١١٨٤م ، فقد ذكر :

((أنّ الفتن تشتعل بين المسلمين والنصارى في الوقت الذي يختلف فيه تجار النصارى والمسلمين إلى جميع المدن دون أدنى اعتراض من أحد)) .

ثم يقول :

((وانتقال القوافل من مصر إلى دمشق عبر بلاد الفرنجة غير منقطع ، وكذلك إلى عكا ، ولا يمنع أحد من تجار النصارى ، ولكل فريق ضريبة على الآخر يؤدونها في مكانها ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب[١])) .

ويقول في موضع آخر :

((إن القرى التابعة لحكم المسلمين ، كان أهلها يتمنّون أن يعاملوا معاملة الفرنجة للسكان المسلمين الذين هم تحت حكمهم ، وان من الفجائع أن يشتكي المسلم من سوء معاملة المسلم له ويتمنى معاملة عدوّه[٢])) .

٤- المثالثات والمناصفات :

ظهرت في أيام الحروب الصليبية أحوال اقتصادية جديدة لم تكن مألوفة من قبل وهي نظام المقاسمات والمثالثات والمناصفات .

والمقاسمة هي اقتسام الأراضي الزراعية بين الفرنجة والمسلمين .

وعلى سبيل المثال ، ذكر ابن جبير ((أن الأراضي المحيطة بمدينة بانياس التي في الجولان بين الفرنجة والمسلمين ، ولهم بذلك حدّ يُعرف بحدّ المقاسمة ، فهُم يتشاطرون فيه الغلّة على استواء ، ومواشيهم مختلفة ولا حيف يجري بينهم .

وفي تبنين تدفع القوافل المكوس ، وصاحبته هي أم صاحب عكا ، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على أساس أن الدينار يساوي ٢٤ قيراطاً[٣])) .

وكانت المقاسمة تختلف باختلاف الزمان والمكان وقوّة هذا الفريق أو ضعفه ولكنها كانت تتراوح بين الثلث والنصف ولذلك أطلق عليها عبارة المثالثات والمناصفات .

وهذه المقاسمة كانت تجري أيضاً بين الفرنجة أنفسهم ، ذلك أنه عندما سقطت صور بأيديهم ، ونزح سكانها المسلمون قُسّمت بواقع الثلثين لبلدوين الثاني ، والثلث للبنادقة ، وأعيد لها اسمها التوراتي : تير (Tyre)[٤] .

وسنقدم فيما يلي نماذج واقعية من هذه المثالثات والمناصفات .

---

[١] - **ابن جبير : الرحلة - دار صادر - بيروت ١٩٥٩ ، ص ٢٦٠ .**
[٢] - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٧١ .**
[٣] - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٧٣ .**
[٤] - **سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص٦١٧ .**

ففي صفر سنة ٥٠٢هـ – ١١٠٨م تم الاتفاق بين طغتكين وبلدوين الأول ملك القدس على أن يكون جبل عوف في حوران والسواد أثلاثاً بين طغتكين والفرنجة والفلاحين .

وعندما فتح الفرنجة طرابلس سنة ٥٠٢هـ – ١١٠٩م وشعروا بقوتهم اتفقوا على أن يكون لهم الثلث من غلة البقاع ، ويسلّم إليهم حصن المنيطرة ويدخل في الاتفاق حصن ابن عكار وحصن مصياف وحصن الطوفان وحصن الأكراد ، ويحمل أهل هذه الحصون في كل عام إلى الفرنجة مالاً معلوماً[١] .

وفي العام التالي نقض بلدوين العهد كعادة الفرنجة وتقدم نحو حوران ، فاضطر طغتكين إلى الاتفاق معه من جديد على تثبيت مثالثة جبل عوف والسواد ، وأضيفت لهم الحيانية[٢] .

وفي سنة ٥٢٤هـ – ١١٣٠م كانت حلب تؤدي لجوسلين صاحب القدس ١٢,٠٠٠ ديناراً سنوياً ثم صاروا يقاسمونها على نصف غلاتها[٣] .

وعندما جاء نور الدين اضطر بدوره لإمضاء هذه المقاسمات فراسله الفرنجة سنة ٥٥١هـ –١١٥٦م على أن يعطوه حصة من أعمال حارم فأبى إلا أن يعطوه النصف فأجابوه إلى ذلك صاغرين فصالحهم وعاد .

وهذه المناصفة بعكس ما سبقها ، فرضت على الفرنجة رغماً عنهم ، بعد أن كانوا يفرضونها بالقهر على المسلمين في السنوات السابقة ، وذلك نظراً لتغّير موازين القوى بين الفريقين[٤] .

وفي ذي الحجة سنة ٥٥٩هـ – ١١٦٤م فتح نور الدين قلعة بانياس التي كان الفرنجة قد احتلوها سنة ٥٤٣هـ – ١١٤٨م وشاطر – أي قاسم بالنصف – الفرنجة على الأراضي التابعة لها في سهل طبرية وفرض على بعض الأراضي النائية مالاً يدفعونه في كل سنة .

وبصورة عامة حرص الطرفان في اتفاقيات المناصفة على حريّة تنقل الفلاحين بين شطري المناصفات وضمان سلامتهم مع الالتزام بخط الحدود الذي يتم الاتفاق عليه .

وكان الفرنجة يستخدمون في هذه الاتفاقيات التقويم الإسكندري اليوناني ، ويستخدم المسلمون التقويم الهجري ، ولم يكن أحد يعرف بعد التقويم الميلادي الذي فُرض فيما بعد في عصر الهيمنة البريطانية العظمى على العالم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين[٥] .

---

[١] - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٦٤ .
[٢] - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٧٨ .
[٣] - ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص١٤٣ .
[٤] - ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص١٠٩-١١٠ .
[٥] - انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، تحقيق محمد شمس الدين – بيروت ١٩٨٧ ، ج ١٤ ، ص١٣ وفيه الاتفاقيات مع الفرنجة ، وفيها تفصيلات وافيه جداً عن المناصفات وكيفية إدارتها .

ثانياً – موارد الدولة ونفقاتها :

تمهيد :

كانت واردات الأتابكيّة على نوعين رئيسيين :

١- الضرائب الشرعية الثابتة .

٢- والضرائب والرسوم العرفية التي لم يأمر بها الشرع .

وتشمل الضرائب الشرعية :

١- مال الخراج .

٢- ما يتحصّل من استخراج المعادن والكنوز المدفونة .

٣- الزكاة .

٤- الجوالي .

٥- الرسُوم المفروضة على تجّار الفرنجة .

٦- المواريث الحشرية .

٧- ما يحصّل من مال الضرب .

٨- الغنيمة والفيء .

٩- الهبات والمساعدات .

١٠- ما يتحصّل من الأراضي الأميرية من واردات .

١١- أموال الأوقاف المجهولة .

١٢- الحِراج .

١ـ الموارد الشرعية :

ـ **الزكاة :** وتجب على كل مسلم حرّ مالك بالغ ، في الأموال المنقولة كالذهب والفضة ، وفي عروض التجارة وفي الأنعام والنبات .

وقد فصّل الفقهاء أحوالها بما لا يزيد عليه ، ونكتفي هنا بعرض سريع لأحوال الزكاة وطرق صرفها ، بوصفها تشكل ركناً أساسياً في موارد الدولة الإسلامية ومصارفها ، فالأموال التي تجب فيها الزكاة هي :

الأموال المنقولة : وتجب فيها بنسبة ٥، ٢ % كل سنة .

عروض التجارة مثل البضائع والعقارات والأراضي للتجارة وليس للسكن ، فيجب فيها ما يجب في الأموال المنقولة بعد تقييمها .

والأنعام وأحوالها تحتاج إلى تفصيل لامكان له هنا .

وأما النباتات والزراعات سواء كانت نجميّة أو أشجاراً مثمرة فيجب فيها رسمٌ سنوي . مقداره ١٠% إذا كانت تسقى بماء المطر ، من غير جهدٍ أو كلفة من زارعها .

وأما إن كانت تروى بواسطة آلات الري مثل الدولاب والناعورة والشادوف وغيرها ففيها ٥% فقط كل سنة[١] .

وكان يقوم بجمع الزكاة والخراج والعشور وغيرها موظفون على درجة عالية من الخبرة والكفاءة[٢] .

وأما مصارفها فهي : في الفقراء والمساكين والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب وفي الغارمين الذين استغرقت الديون أموالهم وفي سبيل الله وأبناء السبيل وفي الموظفين الذين يقومون بجبايتها .

وقد ذكر ابن عساكر ، على سبيل المثال أن الشيخ الحسن الكلابي المتوفى ٥١٧هـ – ١١٢٣م ، وهو إمام مسجد اللؤلؤ بدمشق ، كان مؤدباً للأولاد وماسحاً – أي مسّاحاً عالماً بالحساب ومساحة الأراضي وكان عليه الاعتماد في القسمة[٣] .

ونشأ ابنه علي بن الحسن بارعاً في الفروض وعرف بابن الماسح ، وكان الاعتماد عليه في الفتوى وقسمة الأرضين[٤] .

– **الجوالي** : وهي الجزية التي كانت تؤخذ من اليهود والنصارى وتتراوح بين دينار واحد وأربعة دنانير في السنة ، ويعفى منها الرهبان والعجائز والنساء والأولاد والغارمون والعبيد والمجانين ، وكان يتولاها رئيس الديوان . وسوف نتحدث عنها بتفصيل أوفى في الفصل الرابع .

– **المواريث الحشريّة** : وموضوعها أن بيت المال وارث من لا وارث له .

فإذا مات أحد الغرباء أو العسكر ، ولم يكن له من يقوم بأموره ، يبادر متولي ديوان المواريث الحشرية إلى ضبط ماله بكتاب رسمي بشهادة الشهود و الانفاق منها على تجهيزه ودفنه ووفاء ديونه وحفظ ما تبقى في ديوان المواريث الحشرية .

فإذا ظهر بعد مدة أقرباء للمتوفى ، يكون ديوان المواريث الحشرية مسؤولاً عن إعطائهم نصيبهم الشرعي[٥] .

---

[1] **- أسعد بن مماتي : قوانين الدواوين ، طبع القاهرة سنة ١٢٩٩هـ ، ص ١١ ، والمؤلف معاصر للأحداث ، وكان موظفاً في الدواوين ويكتب عن خبرة كاملة .**

[2] **- ابن مماتي : المصدر المتقدم ، وفيه أسماء ووظائف العاملين في الزكاة والجباية عموماً وعددهم ثمانية عشر موظفاً هم : الناظر ومتولي الديوان والمستوفي والمعين والناسخ والمشارف والعامل والكاتب والجهبذ والشاهد والنائب والأمين والماسح – المسّاح – والدليل والحائز والخازن والحاشر والضامن .**

[3] **- ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١٣ ، ص٦ .**

[4] **- ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٤١ ، ص٣١٩ .**

[5] **- ابن مماتي : قوانين الدواوين ، ص١٤ .**

– **أموال الأوقاف :** كانت توجد في أتابكية دمشق أراض وعقارات وطواحين وحمامات وخانات وعرصات وساحات ، ضاعت كتب وقفها لتقادم العهد بها ، وكانت تصرف إيرادات تلك الأراضي على المدارس والمساجد وبناء الجسور والطرق وحفر السواقي وللمتصدرين لإقراء القرآن الكريم ومن إليهم .

ويضاف إلى هذا الوقف ، الأوقاف الذرّية التي انقرض مستحقّوها على مرّ الأزمان ، فهذه وتلك تحمل إيراداتها إلى بيت المال لتنفق في مصالح المسلمين .

– **أموال الفداء :** وهي الأموال التي كان يدفعها أسرى الفرنجة لافتداء أنفسهم من الأسر ، كما حدث سنة ٥٤٩هـ – ١١٥٤م عندما افتدى أحدهم نفسه بـ ٣٠٠,٠٠٠ دينار من نور الدين فبنى منها البيمارستان النوري وعدداً من المدارس والمصالح العامّة[١] .

وأما الفيء ، فهو ما يتم الاستيلاء عليه من أموال الفرنجة بدون حرب أو قتال ، وهذا شيء كثير .

– **الهبات والمساعدات :** وهذه كانت تشكل مورداً ثابتاً من موارد الأتابكية حيث كانت مصر تقدم مساعدات سنوية دائمة للأتابكيّة لمواجهة غزو الفرنجة .

فقد ذكر القلانسي أنه وصل إلى دمشق في ربيع الآخر سنة ٥٤٢هـ – ١١٤٧م رسول من مصر بما صحبه من تشريف ومال برسم معين الدين ، على جاري الرسم في مثل ذلك[٢] . وهذه العبارة تعني أن هذه المساعدات كانت ترسل إلى دمشق بصورة دورية ودائمة وسنوية .

وذكر أيضاً أنه في شهر رمضان سنة ٥٥٣هـ – ١١٥٩م ، وصل الحاجب محمود المسترشدي ، رسول نور الدين إلى مصر ، ثم عاد إلى دمشق حاملاً المراسلات من الملك الصالح الفاطمي متولي أمر مصر ، ومعه رسول من مقدمي أمرائها ، ومعه المال المنفذ برسم الخزانة الملكية النورية ، وأنواع الأثواب المصرية والجياد العربية ، وقد عاد الحاجب المسترشدي إلى مصر مع رسلها في صفر سنة ٥٥٤هـ – ١١٥٩م[٣] .

الحراج : وهي الأشجار الطبيعية التي كانت تغطي جبال الأتابكية ووديانها .

وكانت تعدّ ملكاً للدولة ، وكانت المصدر الأول للصناعات الحربية مثل المجانيق والعربات والسفن والحراب وما إليها .

وكان متولي الديوان يرسل من يكشف عليها بصورة دوريّة لمنع التعدّي عليها من السكان .

---

١ ـ **ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص ٣٧ .**
٢ ـ **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٥٩ .**
٣ ـ **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٣٩ و ٥٤٤ .**

– **الرسوم على تجّار الفرنجة** : وهي تتراوح بين الخمس والعشر بحسب الحال وبحسب الاتفاقات التجارية ، وتؤخذ منهم عند دخولهم أرض الأتابكية .

– **الغنائم** : الغنيمة ما يغنمه المسلمون في الحرب ، وكان يشكل مورداً كبيـراً للدولـة والمقاتلين ومن يلوذ بهم ، نظراً لكثرة الحروب التي امتدت على نحو سبعين سنة متواصلة ، ولم تكد تخلو سنة من معارك أو مناوشات تكون الغلبة فيها للمسلمين أو الفرنجة لأن أمـلاك الجميع كانت عرضة للاستيلاء عليها في أي وقت ولا سيّما مع تجاور الأراضي الزراعية و اختلاطها بين الأتابكية ودول الفرنجة المختلفة .

وقد ذكر القلانسي في مواضع عدّة ما غنمه المسلمون وحكامهم من الفرنجة بما يغني عن إعادته هنا[١] .

– **الخراج والعشر** : وهما المورد الرئيسي للخزينة الإسلامية في دمشق وكل العـالم الإسلامي .

وكان لكل نوع من المزروعات رسوم مقدّرة ومسجّلة سلفاً في الديوان منذ الفتح الإسلامي ، ونذكر فيما يلي ما كان يؤخذ من الرسوم على أشهر المزروعات في الشام .

فحتَّى آخر سنة ٥٦٧هـ – ١١٧٢م كان المقرر على كل فدان من الشعير والقمح ثلاثـة أرادب ، ثم أنقصها صلاح الدين إلى أردبين ونصف سـنة ٥٧٢هـ – ١١٧٦م ، والفـول والحمص والجلبان والعدس خراجه : ٣ أرادب ، الكتّان = ٣ دنانير في الفدان من أصل ٢٠ ديناراً هي إيراد الفدان ، القرط = دينار واحد عن الفدان ، البصل والثوم = ديناران عن الفدان ، الترمس = ٢٥، ١ ديناراً عن الفدان ، القصب الشامي = دينار واحد عن الفدان ، وهو غير قصب السكر ، القصب الفارسي = ثلاثة دنانير عن الفدان ، البطيخ بأنواعه واللوبيا = ثلاثـة دنانير عن الفدان ، السمسم والقطن = دينار واحد عن الفدان ، قصب السكر = بـين ٥ – ٢ دينار بحسب نوع الأرض عن الفدان ، القلقاس = ٤ دنانير للفدان ، الباذنجـان = ٣ دنـانير للفدان ، النيلة = ٣ دنانير للفدان ، الفجل واللفت = دينار واحد للفدان ، البصل والكزبـرة = ديناران للفدان[٢] .

أما الأشجار ، ففي السنة الأولى لزراعتها ربع دينار عن الشجرة ، وتصل فـي الـسنة الثالثة إلى ثلاثة دنانير ، وأما الكروم فعلى الفدان خمسة دنانير ، وعلى بعض الأشجار سبعة دنانير في الفدان .

---

[١] **ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، الصفحات : ٢٤١ ـ ٢٥٩ ـ ٣٠٦ ـ ٣١٤ـ ٣٥٩ ـ ٤٣٥ .**
[٢] **ـ ابن مماتي : قوانين الدواوين ، ص٢٩ـ ٣١ .**

وقد جرت العادة على إبدال مادة بمادة إذا أراد الفلاح ذلك ، فكان أردب القمح يستبدل به أردبان من الشعير أو ٥، ١ أردب فول أو أردب واحد من الحمّص أو ٥، ١ أردب من الجلبان وقد يستبدل بالفول قمحٌ أو بالجلبان شعيرٌ وهكذا[١] .

٢ـ الضرائب غير الشرعية :

وهي المكوس ، ومفردها مكس وهي دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في أسواق الجاهلية ، ويسمّى صاحبها الماكس والعشّار .

وهو ما كان المكس يفرضه جماعة من المتنفذين على ما يباع في الأسواق .

ثم انتقل ذلك إلى الحاكم نفسه ، فصار يفرض رسوماً لم يأمر بها الشرع بل حرّمها أصلاً ، وسميت تلك المكوس أو الرسوم بالضرائب العُرفية ، أي التي تم التعارف عليها بين الحكام والناس أو تلك التي فُرضت على الناس عرفاً لا شرعاً .

ومع مرور الزمن تكاثرت هذه المكوس حتى أربت على الرسوم الشرعيّة ، وكان يتبارى بعض الكتاب في تزيين هذه الرسوم للحاكم في سبيل التقرب منه ، كما سنرى .

وذكر القلقشندي أنه قد عمّت البلوى بهذه المكوس ، وخرجت في الزيادة عن الحد ، ودخلت الشبهةُ في أموال الكثير من الناس بسببها ، وقد كان السلطان الناصر صلاح الدين يوسف قد رفع هذه المكوس ومحا آثارها[٢] .

ومن أسوأ المكوس مما عمّت البلوى به ما كان يُعرف من مكوس المغاني ، أو مكوس الملاهي .

فقد ذكر المقريزي أن (ضمان المغاني) كان بلاءً عظيماً وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا .

فلو خرجت أجلُّ امرأة تريد البغاء وسجّلت اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزمها ، ما استطاع أكبر الناس منعها من عمل الفاحشة[٣] .

وكانت هذه المكوس تفرض من الحكام ، ومن الإقطاعي وبعض موظفي الديوان ، ثم تعدل ، ثم تلغى ، ثم تعاد ، بحسب الأحوال العامة .

وبفهم مما ذكر المقريزي والقلقشندي أن هذه المكوس تفرض على المطاحن والمعاصر ووسائل الري وما يباع في الأسواق ، وما يجلب من القرية إلى المدينة من المواد الغذائية الضرورية[٤] .

---

[١] ـ ابن مماتي : المصدر المتقدم ، ص٣٥ ، والفدان الشامي يساوي ٥٧١٣ م٢ ـ والأردب حوالي ٦٦ كيلو غرام .

[٢] ـ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٥٣٨ .

[٣] ـ المقريزي : الخطط ، ج١ ، ص٢٨٦ .

[٤] ـ المقريزي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٢٨٥ .

كما فرضت المكوس على الحيوانات والمصانع وأصحاب المصالح العامة وفرضت أيضاً في غوطة دمشق على الأتبان والحبوب ، كما فرضت على صناعة الورق والمدابغ والصابون وعلى العقارات المؤجرة من الطواحين والدور والحوانيت والحمامات والأفـران والأسـواق والفنادق وعلى تجارة المرور (الترانزيت) .

وذكر القلقشندي أنه ثمة ٧٢ جهة مختلفة تفرض عليها هذه المكوس ومن ذلـك الرسـوم التي كانت تؤخذ من التجار الواصلين من الشام وما وراءها إلى (بلدة وقطيـا) وهـي أكثـر الجهات متحصلاً وأشدها على التجار تضييقاً وعنتاً[١] .

ثالثاً – طبيعة الأرض وما طرأ عليها من أحوال :

ذكر الفقهاء أنه إذا فتح المسلمون بلداً صلحاً ، وبقي أهلها على دينهم ، فإن أرضهم تصبح أرضاً خراجيّة ، أي أن أصحابها الأولين يدفعون الخراج عليها وتبقى بأيديهم يعملون بهـا ، ولا يجوز لهم بحال من الأحوال بيع هذه الأراضي لأنها ملك دائم للمسلمين إلى آخر الدهر ، وهذا ما حصل في دمشق وما حولها .

ذلك أنه عندما فتحها المسلمون ، أمضى الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب صلحاً مع أهل دمشق وكورها .

وقد ذكر ابن عساكر ، أن الخليفة الفاروق كان قد قدم إلى الجابية ، وأراد قسمة الأرض بين المسلمين على أساس أنها فتحت عنوة فقال له معاذ بن جبل :

((إنك إن قسمتها اليوم صار الريعُ العظيم في أيدي القوم ، ثم يبيدون ، فتـصير الأرض إلى الرجل والمرأة والصبي ، ثم يأتي قوم من المسلمين لا يجدون شيئاً فانظر أمراً يسعُ أولهم وآخرهم))[٢] .

فأخذ عمر برأي معاذ ، ورأى أن يلحق الأراضي في الشام بدمشق وعدها فتحت صـلحاً جميعاً ، وفرض عليها الخراج ، وأبقى أهلها فيها ، وذلك لأن دمشق عاصمة الشام ، وكـان من الطبيعي أن يلحق بها حصونها وساحلها وسائر أراضيها ، لأنها الأصل[٣] .

والمهم في الأمر أن هذه الأراضي التي تركت بأيدي أهل الذمّة يعملون بها ، لـم يكـن يجوز بيعها بحال من الأحوال ، لأنها في الأصل ملك للمسلمين حتى آخر الزمان .

وحدث أن عمر بن عبد العزيز سأل عن حال الأراضي المذكورة فقيل له إن بعض أهلها يبيعونها للمسلمين ، ولم نعلم أحداً حرّم هذا البيع . فأمر عمر بن عبد العزيز في الحال بالنهي عن بيعها وقال إنها من أرض المسلمين ، دفعت إلى أهل الذمة على أن يأكلوا منها ويـدفعوا

---

[١] ـ القلقشندي : المصدر المتقدم ، ج٣ ، ص٥٣٨ .
[٢] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢ ، ص١٩٤ .
[٣] ـ ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص١٩٨ .

خراجها ، وليس لهم بيعها ، ومن اشترى بعد اليوم يعاقب البائع وتردّ الأرض – إلى النبطي– أي الفلاح الذمي .

ليس ذلك فحسب بل إن عمر أمر بأخذ الثمن الذي قبضه المسلم من المحصول ويُجعل في بيت المال لما ارتكبه من المعصية ، كما يؤخذ المال الذي أخذه النبطي ويوضع في بيت المال .

وكتب إسحاق بن مسلم ، عامل عمر بن عبد العزيز على الأردن ، في الخراج أنه وجد أرضاً من أرض أهل الذمة بأيدي ناس من المسلمين فكتب إليه عمر :

((إن تلك أراضٍ أوقفها أول المسلمين على آخرهم فامنع ذلك البيع))[1] .

وذكر له أن في الغوطة أرض من أرض أهل الذمة ، بأيدي المسلمين ، قد ابتاعوها منهم ، وهم يؤدون العشر مما يخرج منها ، أفضل مما كان عليها ، فأمر عمر بمنع ذلك البيع وإبقاء الأرض بأيدي أهلها[2] .

وفي عهد أبي جعفر المنصور ذُكر له أن بالشام أراض كثيرة تؤدي العشر مع أنها أراضٍ خراجّية ، وأن ذلك قد أضر بالخراج وكسره .

فأراد ردها إلى الأنباط ، فحال دون ذلك تعلّق حقوق كثير من الناس بهذه الأراضي من جرّاء المواريث واختلاط الأمور وتعقّدها .

فبعث إلى الشام معدّلين سنة ١٤٠هـ – ٧٥٧م ، فأبقوا الأرض التي بيد الأنباط يؤدون عنها الخراج ، وأمضوا ما كان اشتراه المسلمون لصعوبة رده إلى أصله واكتفي من ذلك بالعشر[3] .

وكان في الشام نوع ثالث من الأراضي لا ينطبق عليها ما تقدّم من أنواع وهي ما يعرف بأراضي القطائع .

وأصل هذه القطائع أن فريقاً من بطاركة الروم يوم كانوا يحتلون الشام كانوا يملكون القرى الكثيرة ويقوم بالزراعة فيها أنباط القرى ، وعندما هزم الروم هرب البطارقة معهم وتركوا القرى وراءهم فأخذها المسلمون وصاروا يتكفلونها وكأنها ملك خاص لهم ، ومن هذه القرى والمزارع أندركسان بدمشق وقبيس بالبلقاء ، وجبيعاتا في حمص وغيرها وبقيت هذه المزارع والقرى موقوفة يشرف عليها المسلمون ويدفعون العشر عنها .

وعندما كان معاوية والياً على دمشق والشام كتب إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه يسأله أن يهبه هذه المزارع والأراضي ليتقوّى بها فوهبها له عثمان .

[1] ـ ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص١٩٩ .
[2] ـ ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٠٠ .
[3] ـ ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٠٨ .

وعندما آلت الخلافة إلى معاوية جعل هذه المزارع من بعده وقفاً على فقراء أهل بيته وفقراء المسلمين .

ثم إن أناساً سألوا مُعاوية ، وهم من أشراف العرب ، أن يقطعهم من بقايا تلك المزارع التي لم يكن عثمان قد أقطعها له ففعل ، فصارت لهم أموالاً يبيعونها ويورثونها[١] .

وعندما حكم عبد الملك بن مروان كانت هذه المزارع قد استنفذت ولم يبق له شيء يقطعه من تلك (القطايع) فصار يقطعهم من أراضي الخراج التي باد أهلها ولم يتركوا عقباً ، وأسقط ما كان عليها من الخراج ، وجعلها من أراضي العشر ، ولم يزل عبد الملك يفعل ذلك حتى نفذت تلك الأراضي .

ثم سأل الناس عبد الملك وأولاده من بعده في شراء أراضي الخراج ، فأذنوا لهم على أن توضع أثمانها في بيت المال ، وصارت هذه الأراضي أراضي عشر وأسقطوا الخراج عمن باعها من أهل الذمة ، فصارت هذه الأراضي ملكاً كاملاً لمن اشتراها من المسلمين[٢] .

ولما جاء عمر بن عبد العزيز أبقى هذه الأراضي بأيدي أصحابها وأذاع في سنة ١٠٠هـ – ٧١٨م كتاباً قرئ على الناس ذكر فيه أن ما تم شراءه من أراضي الخراج هو صحيح فيما مضى من الزمن وهي أرض عشر لا جزية عليها .

وأما من اشترى شيئاً من ذلك بعد سنة مائة ، فإن بيعه مردود ، وسمّى سنة مائة (سنة المدّة) ، وقد أمضى يزيد وهشام ابنا عبد الملك ما أمر به عمر ولم يغيّروا فيه شيئاً ، والتزم الناس بعدم شراء أراضي الخراج .

وهكذا أصبح وضع الأراضي في الشام حتى منتصف القرن الثاني الهجري على النحو التالي :

– أراضي الخراج : وهي التي أبقيت بأيدي أهلها غير المسلمين عند الفتح ، وهذه تؤدي الجزية ولا تباع ولا تورث ولا تؤجر .

– الأراضي التي أسلم أهلها وبقيت بأيديهم يؤدون عنها العشر وتباع وتورث ، وهي أراضي الملك الشخصي البحت .

– الأراضي التي اشتراها المسلمون من أراضي الخراج وهي في حكم الملك الشخصي ، تباع وتورث وتدفع العشر .

– أراضي القطائع التي أقطعها الخلفاء والأمراء لقادتهم ومعارفهم وأقربائهم ، وهذه تباع وتورث وتدفع العشر .

---

[١] ـ ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٠٦ .
[٢] ـ ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٠٧ .

– أراضي الوقف ، وقد بدأت تنتشر في الأتابكية بهدوء ، وتعاظم أمرها في القرن الخامس والسادس والقرون التالية حتى صارت تشكل نسبة كبيرة من أراضي الغوطة وقرى دمشق البعيدة والقريبة .

ومن أمثلة ذلك قرية داريّا بظاهر دمشق التي وقفها السلطان نور الدين على الفقراء والمساكين ، واستمر هذا الوقف حتى القرن العشرين ، كما سنرى في فصل الحياة الاجتماعية .

ومع توالي الأيام ظهرت في أتابكية دمشق أراضٍ معطلة ومهجورة ، لا مالك لها ، وعندما زار الأتابك ظهير الدين طغتكين عاصمة الخلافة في أواخر سنة ٥٠٩ هـ– ١١١٦م عرض على الخليفة المسترشد والسلطان غياث الدين في بغداد أن في دمشق أراض متعطلة لا مالك لها ولا فائدة في بقائها على حالها لا ينتفع بها الخاص ولا العام .

وقد استأذن ظهير لدين الخليفة ببيعها ممن رغب فيها ويريد زراعتها للانتفاع بغلّتها وريعها ، وصرف ثمنها في العسكر الإسلامي المعدّ للجهاد فأذن له الخليفة في ذلك إذناً عاماً وأباح له ذلك ووقّع بذلك على ظهر الرقعة التي كتبها الأمير ظهير الدين .

فقام الأمير بتوكيل أناس من أهل الخبرة والأمانة لبيع هذه الأراضي وكتابة صكوك البيع الشرعية لأصحابها فعمرت عدة ضياع كانت خالية ، وأجريت مياهها ، وعادت إلى أجمل عاداتها . وظهرت فيها الخيرات واستمر الأمر على ذلك بعد عصر طغتكين ، فكان ذلك مما يذكر له بالخير[١] .

وأمر آخر ، وهو أن طغتكين أعاد أراض كثيرة في أطراف دمشق لأصحابها ، بعد ما كانت قد انتزعت منهم غصباً في أيام الملوك السابقة وقسّمت بين الأعوان ، فأعادها إلى حالتها الأولى وخراجها القديم المقرّر ، فتضاعفت بذلك الأراضي المزروعة في الأتابكية[٢] .

وفي عهد نور الدين أعيد توزيع الأراضي التي كانت جنوب دمشق والتي تعرف بالأراضي الشاغورية ، نسبة إلى حي الشاغور في دمشق ، أعيد توزيعها على مستحقين جدد ومن بينهم الأعراب ، بعد انقراض أهلها وكثرة العابثين بها ، وكان المعلم علي بن أحمد بن مقاتل هو الذي تولى ذلك كما يذكر ابن عساكر[٣] .

وتطبيقاً لما ذكرنا آنفاً ، نذكر فيما يلي نماذج واقعيّة من القرن السادس الهجري – الثاني عشر لميلادي .

ففي وقفية أسعد بن المنجا بركات وابنه القاضي عثمان نقرأ :

---

١ – **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٣٤٩ .**
٢ – **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٤٨ .**
٣ – **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٤١ ، ص٢٣٦ .**

البستان الخراجي في أراضي السهم الأعلى قرب النيرب ، والبستان الخراجي الملاصق له على نهر يزيد ، وجميع الجنينة الخراجية قرب البستان المذكور[1] .

كما نقرأ :

جميع البستان في عين ترما من إقليم بيت لهيا ، وجميع البستان الخراجي في باب شرقي من إقليم بيت الأبار ، والمزرعة الخراجيّة في أراضي بيت سابا ، قرب جرمانا ، وجميع قطع الأراضي المتلاصقات في قرية المليحة ، والجنينة الخراجية في قرية المليحة أيضاً ، والضيعة الخراجيّة المسمّاة شعر بانياس في الجولان[2] .

وهكذا نجد بوضوح ذكر نوعية الأرض عند ذكر الأرض ، ويعني بالبستان الخراجي والجنينة الخراجيّة الأرض التي بيعت وكان أصلها من أراضي الخراج ، في القرن الأول الهجري .

رابعاً – دمشق وغوطتها :

– دمشق :

في حدود سنة ٥٥٠هـ – ١١٥٥م ، زار الرحالة الإدريسي دمشق فقال ((إنها من أجل بلاد الشام وأحسنها مكاناً وأعدلها هواءً وأطيبها ثرى وأكثرها مياهاً وأغزرها فواكه وأعمها خصباً وأوفرها مالاً وأكثرها جنداً وأشمخها بناءً .

ويشقها نهر بردى وعليه قنطرة يجتاز عليها الناس ، وتجري مياهه إلى دور البلد وحماماتها ومساجدها وأسواقها وبساتينها .

ومدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة العديم المثال الذي يحمل منها إلى كل بلد .

ومصانعها في ذلك كلها عجيبة ، يُضاهي ديباجها بديع ديباج الروم ، ويقارن ثياب تستر ، وينافس ثياب أصبهان ويفضل على أعمال طرز نيسابور .....

ولدمشق على أوديتها أرجاء كثيرة ، والحنطة فيها كثيرة جداً ، وأنواع الفواكه كذلك .

أما الحلاوات فيها فممّا لا يوجد بغيرها ، ولا يوصف كثرة وطيباً وجودة وأهلها في خصب عيشٍ واتصال أمن .... وصناعاتها نافعة ، وتجاراتها رائجة .

وهي من أعزّ البلاد الشاميّة وأكملها حسناً .

---

[1] **ـ صلاح الدين المنجد : وقف القاضي أسعد بن المنجا الحنبلي – بيروت ١٩٤٩ م صفحة ١٨ .**

[2] **ـ صلاح الدين المنجد : المصدر المتقدم ، ص ٢٤ و ٢٥ .**

والعمران خارج باب الجابية فيها يمتد ستة أميال طولاً في عرض ثلاثة أميال ، كل ذلك أشجار وعمارات))[١] .

ويقول بنيامين التطيلي ((إن نهر أبانا (بردى) ينحدر نحو المدينة فتتوزع مياهه داخلها على بيوت الخاصة بقناطر تَمرُّ بالأسواق والأزقة[٢])) .

وأما عدد سكانها فلم يكن ثابتاً ، وإن كان ينمو سنة بعد أخرى ، حتى بلغ القمة في أواخر عصر نور الدين .

ففي أواخر العصر الفاطمي انخفض سكان دمشق انخفاضاً حاداً حتى إنه لم يتجاوز بضع عشرات من الآلاف .

وفي عهد نور الدين ارتفع إلى ما بين ١٥٠,٠٠٠ إلى ٢٠٠,٠٠٠ نسمة .

وعندما زارها بنيامين التطيلي سنة ٥٦٠هـ – ١١٦٥م قال إن فيها : ٣٠٠٠ يهودي ، وذكر غيره أن فيها ١٠,٠٠٠ يهودي ، وضعف هذا العدد من النصارى[٣] .

– غوطة دمشق :

اسم يطلق على الأراضي الخضراء التي تتخللها الأنهار والقصور والتي تمتد نحواً من ٢٥ كيلومتر حول دمشق .

يقول الإدريسي : ((إن الغوطة تبلغ مرحلتين طولاً أي من الشرق إلى الغرب ومرحلة واحدة عرضاً أي من الشمال إلى الجنوب . وفيها ضياع كثيرة في الواحدة منها ما بين ألف إلى ألفي إنسان ، وهي أشجار وأنهار تشق البساتين والديارات وفيها من أنواع الفواكه ما لا يمكن حصره كثرةً وطيباً .

وفي غربيها وادي البنفسج وطوله اثنا عشر ميلاً وعرضه ثلاثة أميال ، وكله مغروس بأنواع الأشجار .

ومياه الغوطة الجارية بها تخرج من (عين الفيجة) من أعلى جبل ، وينصب ماؤها من أعلاه كالنهر العظيم ، وله صوت هائل ودوي عظيم يُسمعُ على بعد ، ويُرى نزول الماء من أعلى الجبل على قرية آبل[٤])) .

والغوطة قسمان شرقية وغربية :

---

[١] ـ **الإدريسي : نزهة المشتاق ـ طبعة بيروت ١٩٨٩ م ـ ج١ ، ص٣٦٧ ـ ٣٦٩ .**

[٢] ـ **بنيامين التطيلي : الرحلة ، ترجمة عزرا حدّاد ، تحقيق عبد الرحمن الشيخ ، الامارات ـ أبو ظبي ـ المجمع الثقافي سنة ٢٠٠٢ م ، ص٢٧٠ .**

[٣] ـ **بنيامين التطيلي : المصدر المتقدم ، ص٢٧٣ .**

[٤] ـ **الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٦٧ .**

والغوطة الشرقية هي الأصل وتشمل القرى والمزارع والبساتين المنتشرة شرقي دمشق والتي تسقى بمياه نهر بردى وفروعه ، ومالا يسقى منها بمياه بردى لا يُعدّ من الغوطة ، وإنما يُعدّ من المرج .

أما الغوطة الغربية فهي التي تقع غربي دمشق على نهر بردى وفروعه وتُعدّ الغوطة بقسميها من أهم مميزات دمشق ومعالمها ، حتى إن الرحالة عدوها واحدة من أجمل بقاع العالم .

وكانت الغوطة الشرقية في فترة دراستنا تشمل :

- ١٣٦ قرية هي ملك لأصحابها .
- ٣٤ قرية سلطانية .
- و ١٦٠٠ مزرعة أو ضيعة ملك لأصحابها .
- و٤٠٠ ضيعة سلطانية .

وذكر ابن شداد أن في الغوطة :

- ٥٣٤٥ بستاناً موزّعة على القرى المذكورة .
- و ٥٥٠ كرماً .

ومع مرور الأيام تقلصت قرى الغوطة حتى صار عدد قراها في العصر العثماني ٧٠ قرية ، ودمجت القرى الأخرى في غيرها ، أو اندثرت أو تغيّرت أسماؤها وعلى ذلك فإن هنالك اليوم نحو من :

- ١٩ قرية في الغوطة ما تزال قائمة ومحتفظة بأسمائها .
- و٥١ قرية من النوع الثاني ، دخل بعضها في دمشق وضواحيها .

فأما القرى العامرة اليوم فهي :

بيت نايم وتل الكردي وحرستا القنطرة والجديدة والعبادة والمحمّدية والجربا ، والأبرشية وتل الشعير وتل الذهب وحزرما وحران العواميد والدوير ، والجدليّة والقيا والأشرفية والافتريس وجسرين وبالا وببيلا وبرزة وبلاس ، والبلاط والبويضة وبيت سحم وبيت سوى وبيت فوقا قرب جرمانا وحجيرة وحديثة الجرش وحرستا البصل وحزّة وحمورية وحوش الريحانية ، وجرمانا وجوبر ، والأخيرة كانت مركزاً لإقامة اليهود ، والخيارة وداريا ودوما ودير بحدل التي صارت جزءاً من قرية المليحة ، وزملكا وزبدين والسبينة وسقبا وصحنايا وعربيل وعقربا وعين ترما والقابون والقدم والمزة ، وقرية كفربطنا وكفرسوسة ومديرة ومسرابا والمليحة ويلدا[1] .

[1] - **محمد كرد علي : غوطة دمشق – دار الفكر بدمشق ، ١٩٨٤م ، ص ١٨- ٢٠ .**

وأما القرى الدائرة ، وهي التي وردت في كتابات الرحالة والمؤرخين وكانت قائمة في مرحلتنا الدراسية فسنذكرها مع تحديد موقعها وما آلت إليه .

- أرزونا : قرية كانت بين دمشق وعربيل وقد دخلت أراضيها في عربيل .
- أرزة : هي ما يعرف اليوم بمنطقة الشهداء ، في طريق الصالحية .
- برتايا : قرية قرب عربيل .
- بيت أبيات : غربي الصالحية عند طاحون الأشنان في طريق حي ركن الدين .
- بيت الآبار : شرقي جرمانا .
- بيت رانس : بين قرية ببيلا وعقربا .
- بيت لهيا : بين باب توما وساحة العباسيين اليوم .
- تلفياثا : قرية قرب راوية أي السيدة زينب .
- حُردان : قرية قرب قرية سقبا .
- الحمريّة : بين دمشق وكفرسوسة .
- حور تعلى : أصبحت اليوم ضمن دمشق في منطقة العدوي .
- داعية : دخلت أرضها في أراضي حمورية .
- الدويلعة : قرية خارج باب شرقي كانت وقفاً على المدرسة الدولعّية .
- الديوانية : قرية شمال دمشق ، دخلت فيها اليوم .
- الزعفرانية : شمالي برزة .
- زلّوبية : في مكان قرية راوية ، أي الست زينب .
- زينون : من أراضي عربيل .
- الدوير : بين دوما وحرستا في جهة الغرب .
- سطرا : شمالي بيت لهيا في منطقة ساحة العباسيين .
- سلطايا : ضمت إلى أراضي عربيل .
- السيلون : من أراضي قرية المزة .
- الصدّف : أراضٍ غربي مقبرة الفراديس .
- الصفوانية : خارج باب توما .
- صنعاء دمشق : في مكان كلية الهندسة اليوم بدمشق .
- طرميس : من أراضي جوبر اليوم .
- عالية وعُويليّة : عند مسجد القدم .
- العبادية : من قرى المرج .
- العنّابة : مجموعة بساتين في شارع حلب اليوم .

- العونية : في أراضي حرستا .
- فدايا : قرية كانت جنوب مقبرة اليهود بدمشق .
- قرية سيدي مدرك : بالقرب من قرية راوية .
- قلبين : قرية قرب جسرين .
- قينية : بجوار الحمرية ، مقابل مقابر الباب الصغير من الجنوب .
- اللؤلؤة : هي منطقة الحلبوني بدمشق اليوم .
- المامونية : دخلت في أراضي جوبر .
- مرج الأشعرين : شمالي قلعة دمشق اليوم حيث شارع الثورة .
- المصيصة : قرب بيت لهيا ، في ساحة العباسيين اليوم .
- مُقرى : غربي طاحون الأشنان في الصالحية .
- الميطور : في الصالحية تحت نهر يزيد شمالي حور تعلى .
- النيرب : قرية في سفح قاسيون وكانت مساكن الرؤساء ، ويقال لها أيضاً : النيربان .
- الهلالية : قرية دخلت في أراضي حمورية غربي حوش الأشعري .
- يعقوبا : غربي حزّة بينها وبين عين ترما .
- اليهودية من مزارع بيت سوى[1] .

وكان في الغوطة عدد من الأديرة تحوّل معظمها إلى قرى صغيرة ومن هذه الأديرة : دير ابن أبي أوفى : خارج باب الجابية ، دير بحدل : ذكرناه ضمن أراضي المنيحة ، دير بشر : شرقي السبينة ، دير بولس : ظاهر دمشق ، دير بطرس : ظاهر دمشق ، دير تادروس : في قاسيون في أراضي النيرب ، دير حرملة : في أراضي جوبر عند مزار حرملة ، دير الحميري : بين حمورية وعربيل ، دير الحنابلة : بسفح قاسيون حيث بنيت المدرسة العمرية ، دير حنينا : من أديرة الغوطة ، دير خالد : مقابل باب الفراديس ويسمّى دير صليبا ، دير خليل : في إقليم بيت الآبار ، دير سمعان : شرقي دير مران في قاسيون ، دير ابن عصرون : في قاسيون ، دير اللباد أو اللبان : في قاسيون ، دير الماطرون : قرب بيت لهيا ، دير مرّان : في سفح قاسيون من جهة الغرب ، دير متّى : في قاسيون ، دير هند : قرب بيت الآبار ، دير يونّا أو يُحنّا : في الغوطة .

أما قرى الغوطة الغربية فهي :

- الربوة ودمّر وقدسيّا وكانت تسمى دسيّا .

---

[1] ـ **كرد علي : المصدر المتقدم ، ص١٦٢ وما بعد .**

- والهامة وجمرايا والأشرفية وبسّيمة .
- وعين الفيجة وعين الخضرا ودير مقرّن وكفر الزيت وآبل .
- وكفر العواميد ودير قانون والحسينية وسوق وادي باب بردى .
- وإفرة وهريرة والبترونة ويبوس وجديدة يبوس ومعدر وعطيب .
- ومضايا وبقين والزبداني وعين حور وعين العرق وحاليّا وبلودان وسرغايا[1] .

خامساً – مُدن الأتابكية ونشاطها الاقتصادي :

كانت دمشق تضم إحدى عشرة كورةً ، أي إقليماً ، وهي :

– الغوطة ، والبقاع ، وإقليم لبنان ، وكورة الحولة ، وكورة البثنيّة في حوران ، وكـورة الجولان ، والبلقاء ، وجبرين ، وكفر مآب ، وعمّان ، والشراة .

وسنقدم فيما يلي صورة حيّة لواقع هذه المدن وأحوالها في المرحلة موضوع الدراسة كما ذكره الرحّالة ، مع بيان أوضاعها السياسية ، إذا كانت من المدن التـي ابتليـت بـالاحتلال الصليبي .

– **أيلة** : مدينة تاريخية على البحر الأحمر ، وذكر المقدسي ، أن أهل الـشام والحجـاز ومصر يتنازعون عليها ، ثم يقول :

((والحق أن تضاف إلى الشام ، لأن رسوم أهلها وأوزانهم شـامية[2])) وهـي مينـاء فلسطين .

– وقد احتلها الفرنجة سنة ٥٠٩هـ – ١١١٥م وضمّوها إلى مملكـة القـدس ، وكـان قصدهم من احتلالها قطع الاتصالات وطرق المسافرين والحجاج بين الشام ومصر والحجاز ، وتهديد الأراضي المقدسة ، وهو ما كان ضمن مخططاتهم الإرهابية .

– وقد استطاع نور الدين تحريرها سنة ٥٦٦هـ – ١١٧٠م على يد قائده الفذ يوسف بن أيوب[3] ، صلاح الدين الأيوبي .

– **بانياس** : من مدن الجولان المعروفة ، لها قلعة ، ويحيط بها تحت السور نهر ، ولـه مصب على طواحين البلد .

وكان طغتكين قد سلّمها إلى الباطنية ليأمن شرهم ، فسلّموها إلى الفرنجة سنة ٥٢٢هـ – ١١٢٨م وبقيت معهم حتى حررها نور الدين في ربيع الآخر ٥٥٢هـ – ١١٥٧م[4] .

---

[1] - **كرد علي : المصدر المتقدم ، ص١٩٧ وما بعد .**
[2] - **المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٥١ .**
[3] - **الإدريسي : نزهة المشتاق ، ج١ ، ص٣٦٧ .**
[4] - **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٣٥٥ و ٥٢٢ .**

ولها أراضٍ خصبة وزراعات منوّعة واسعة ، وقد بنى الفرنجة حصن هونين على مقربة منها للدفاع عنها يوم كانت بأيديهم[١] .

ويزعم بنيامين التطيلي أن بانياس هي مدينة (دان) المذكورة في التوراة ، وعندها كانت تنتهي حدود مملكة إسرائيل القديمة من جهة البحر المتوسط[٢] .

– **بعلبك** : مدينة حصينة على سفح جبل ، وعليها سور حصين ، والماء يجري وسطها ويدخل في ديارها وفيها مطاحن تدار بالمياه[٣] .

وهي كثيرة الغلاّت والفواكه والكروم والأشجار ، رخيصة المأكل والأسعار ، وفيها آثار عظيمة ، وقد حاول الفرنجة احتلالها أكثر من مرة وهي عاصمة البقاع[٤] .

بيت المقدس : المدينة الخالدة التي قامت من أجلها الحروب ، والتي ما تزال تشغل العالم حتى اليوم ، وهي المدينة المقدّسة التي يزعم اليوم اليهود أنهم أصحابها وأحق الناس بها ، وينسون المسلمين الذين بذلوا مئات الآلاف من الشهداء للدفاع عنها ، والذين لولاهم ولولا تضحياتهم ، ما كان يحلم يهودي واحد في العالم بدخول هذه المدينة المقدسة ، فضلاً عن أن تصبح عاصمة لليهود ، بدعم من الفرنجة الذين تصادقوا مع اليهود ، بعدما ذبحوهم في القدس مع المسلمين يوم ابتليت الشام بالحروب الصليبية .

وقد زار المدينة ، قبل سقوطها بيد الفرنجة ، الرحالة الفارسي ناصر خسرو المتوفى سنة ٤٨١هـ – ١٠٨٨م ، فقدم صورة غاية في الدقة والوضوح والتفصيل لهذه المدينة فكان مما قال :

((إن فيها ٢٠,٠٠٠ من الجنود ليقوموا على حمايتها وحراستها ونشر العدل والأمن في ربوعها ، وإن أسواقها عظيمة ، ومساكنها عالية ، وأرضها مبلطة بالحجارة ، وفيها صنّاع مهرة)) .

وقال إنه جرت العادة أنه إذا لم يتيسّر الحج من الشام إلى المسجد الحرام فإن حجاج الشام كانوا يحجون إلى بيت المقدس ويقدمون فيه الأضاحي ، وإنه يقصده في كل عام ما لايقل عن ٢٠,٠٠٠ حاج من المسلمين ، كما يحضر إلى المدينة المقدسة خلق كثير من البيزنطيين والروم والفرنجة واليهود[٥] .

---

[١] ـ البكري : المسالك والممالك – الدار العربية للكتاب ١٩٩٢ م جزءان انظر ، ج١ ، ص٤٦٦ – وانظر : ابن جبير : الرحلة ، ص٢٧٣ .
[٢] ـ بنيامين التطيلي : الرحلة ، ص٢٦٩ .
[٣] ـ الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٦٩ .
[٤] ـ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار – أبو ظبي ٢٠٠٣ م ، ج٣ ، ص٥٢٨ وانظر : بنيامين التطيلي : المصدر المتقدم ، ص٢٧٥ .
[٥] ـ ناصر خسرو : الرحلة ، ترجمة الدكتور أحمد خالد البدلي ، الرياض ١٩٨٣ م ، ص٥٣ .

وهذا القول دليل قاطع على أن النصارى كانوا يحجون إلى القدس بدون أدنى مضايقة أو تهديد من المسلمين ، أصحاب البلد ، خلافاً لما زعمه الفرنجة من أن المسلمين كانوا يدنسون الأراضي المقدسة ويقتلون الحجاج ويصادرونهم .

ويتابع خسرو القول :

((وأهل القدس يباشرون الزراعة بكل أنواعها ، وأشهر زراعاتهم الزيتون والتين ، والمدينة ذات نعم وافرة ورخيصة .

وفي المدينة عدد من التجار وكبار الملاّك ، يملك بعضهم ٥٠,٠٠٠ رطل من زيت الزيتون يخزنونه في الآبار والأحواض ويبيعونه إلى كل أطراف المعمورة .

ومدينة القدس تقع في أعلى الجبل ولا مصدر للماء في المدينة سوى ما يُختزن بعد هطول الأمطار ، وتوجد في بعض القرى التابعة لها عيون كثيرة .

ولبيت المقدس مستشفى كبير ، حُبست عليه كثير من الوقوف ، ويعالج فيه عدد كبير من المرضى وتصرف لهم الأدوية ، ويشرف الأطباء عليهم[١])) .

أما الإدريسي فقد وصف المدينة المقدسة سنة ٥٥٠هـ – ١١٥٥م عندما كانت بأيدي الفرنجة ، ومن الواضح أنه كان يُسمح للمسلمين بزيارة هذه المدينة كما يفهم من هذا الوصف .

يقول :

((وبيت المقدس مدينة جليلة تمتد من الشرق إلى الغرب ، وفي طرفها الغربي باب المحراب ، وفي الطرف الشرقي باب الرحمة وهو مُغلق لا يُفتح إلا من عيد الزيتون لمثله . والكنيسة العظمى في المدينة ، المعروفة بكنيسة القيامة هي من عجائب الدنيا . وإلى الشرق منها البيت المقدس الذي بناه سليمان عليه السلام ، ثم صار مسجداً للمسلمين ، وهو المسجد الأقصى . وبالقرب من الباب الشرقي من أبواب قبة الصخرة كنيسة : القدس ولما احتل الفرنجة القدس سنة ٤٩٢هـ – ١٠٩٩م بقيت بأيديهم إلى هذا الزمن ، فصيّروا القسم المسقوف من المسجد الأقصى بيوتاً يسكنها الدّاويّة أي : خدام الله))[٢] .

ووصفها واحد من أهلها على ذمة خسرو فقال :

((بنيان أهلها من الحجر ، وهو حسن ومتقن . لا ترى أعف من أهلها ولا أتقن من بنائها ، ولكن حماماتها قذرة ، وهي قليلة العلماء كثيرة النصارى ، وهم يفرضون ضرائب باهظة على ما يباع فيها ، ولا يمكنون أحداً أن يبيع ويشتري إلا منها . وقد غلب عليها اليهود النصارى ، وخلا المسجد من الجماعات والمجالس . ولها ثمانية أبواب من الحديد ، وفيها

---

[١] ـ ناصر خسرو : المصدر المتقدم ، ص٥٤ .

[٢] ـ الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٥٨ .

ثلاث برك عظيمة عليها حماماتهم ، ومساحة المسجد الأقصى ١٠٠٠ × ٧٠٠ ومن محلاتها : سلوان ووادي جهنم حيث البساتين والكروم والكنائس والمغارات والصوامع والمقابر))[١] .

وزارها بنيامين التطيلي اليهودي في حدود سنة ٥٦٤هـ - ١١٦٩ فذكر :

أنّ فيها عدداً كبيراً من اليعاقبة والسريان والأرمن و اليونان والكرج والإفرنج ، خليط من كل أمة ولسان ، وفيها نحو المائتين من اليهود ، ثم نقص عددهم بعد ذلك حتى لم يعد لهم وجود عندما زار القدس الرحالة اليهودي (فتاحية) بعد عشر سنين[٢] .

وقال إن في المدينة مستشفيان ، ويتوافد عليها النصارى من كل مكان ليقوموا بالخدمة فيها .

وللقدس أربعة أبواب ، ويحجُّ اليهود إلى باب الرحمة في الحائط الغربي قبالة المعبد المقدس ، ومن عادة حجاج اليهود أن يكتبوا هناك أسماءهم[٣] .

بيروت : مرفأ دمشق الأول ، احتلها الفرنجة يوم ٢١ شوال ٥٠٣هـ - ١١٠٩م يوم كانت تحت حكم الفاطميين .

ولبيروت سور من حجارة كبيرة ، وعلى مقربة منها جبل فيه معدن الحديد ، وهو جيد وطيب القطع ، ويُستخرج منه الكثير ويُحمل إلى بلاد الشام .

ولها غيضةٌ من أشجار الصنوبر مما يلي الجنوب تمتد ١٢ ميلاً في مثلها ، وشرب أهلها من الآبار[٤] .

بيسان : مدينة صغيرة جداً ، فيها نخل كثير ، وفيها نبات السّامان الذي تُعمل منه الحصر السّامانية ، ولا يوجد إلا بها .

ومنها يؤخذ الرز إلى فلسطين ، وهي غزيرة المياه إلا أن ماءها ثقيل ، وفيها جامع ينسب إلى عمر بن الخطاب .

وقد سقطت بيسان بيد الفرنجة سنة ٤٩٣هـ - ١٠٩٩م[٥] .

تبنين : مكان دفع الرسوم عن القوافل التجارية الداخلة إلى الأراضي المحتلة .

وتبنين من بناء بلدوين ملك القدس سنة ٤٩٨هـ - ١١٠٥م . وهو الذي شيد حصن العال قرب طبرية[٦] .

---

١ - **المقدسي : المصدر المتقدم ، ص١٤٣ حتى ص١٤٧ .**
٢ - **بنيامين التطيلي : المصدر المتقدم ، ص٢٤٧ ــ ٢٥١ .**
٣ - **العمري : مسالك الأبصار ، ج٣ ، ص٥٤٣ .**
٤ - **ناصر خسرو : المصدر المتقدم ، ص٤٤ ، الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٧١ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٦٨ .**
٥ - **الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٥٤ .**
٦ - **سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص١٥٥ .**

تدمر : عروس الصحراء ، كان يقيم فيها نحو من ألفي يهودي أشداء ذوي بـأس ، كما يصفهم بنيامين التطيلي الذي قال أيضاً :

((وهم يعاونون جيرانهم المسلمين والعرب في قتال الغزاة ومـن رؤسـائهم : إسـحاق اليوناني ، وناثان ، وعزئيال[1])) .

جُبيل : مدينة حسنة على البحر ، لها سور حصين من الحجر ، ولها قرى كثيرة ، وفيها زراعات وفيرة وأشجار متنوعة ، وليس فيها مياه جارية ، بل يشرب أهلها من الآبار ، وقـد احتلها الفرنجة سنة ٤٩٧هـ – ١١٠٤م[2] .

حصن الناعمة : والناعمة مدينة حسنة ، وأكثر نبات أرضها شجر الخرنـوب الـذي لا يعرف في العالم كله مثله قدراً ولا طيباً ، ومنها يتجهز إلى الشام ومـصر ، وإليهـا ينـسب الخرنوب الشامي ، وهي تبعد عن بيروت نحواً من ٤٠ كيلومتراً[3] .

حماة : وصفها من شاهدها : كأنها في خندق عميق ، وفيها قلعة لكنها دون قلعة حلـب ، وهي مدينتان سفلى وعليا ، والمدينة السفلى تحت القلعة متّصلة بالجانب الذي يـصبّ النهـر عليه ، ولها كما للمدينة العليا سور يحيط بها . وعلى النهر جسر كبيـر معقـود بالحجـارة يتوصل منه إلى المدينة السفلى .

وما حولها الخانات والديار والحوانيت . وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسـواق المدينة السفلى . وهي جامعة لجميع الصناعات والتجارات ، ولها جامع أكبـر مـن الجـامع الأسفل .

وفيها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر بإزاء الجامع الصغير .

وخارج هذه المدينة أرض واسعة مزروعة بالعنب ، والبساتين متصلة على شطي نهـر العاصي[4] .

حمص : وصفها المقدسي فقال :

– ((في حمص قلعة متعالية عن البلد ، وأكثر شربهم من ماء المطـر ، ولهـم أيـضاً نهر ... والبلد شديد الاختلال متداع إلى الخراب)) .

كان هذا حال حمص سنة ٣٧٥هـ

---

[1] - **بنيامين التطيلي : المصدر المتقدم ، ص٢٧٧ .**

[2] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٣١ ، ناصر خسرو : المصدر المتقدم ، ص٤٤ ، الإدريسي : المصدر المتقدم ، ١ج ، ص٣٧٢ .**

[3] - **الإدريسي المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٧١ .**

[4] - **العمري : مسالك الأبصار ، ج٣ ، ص٥٣٣ . ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٣٠ . بنيامين التطيلي : المصدر المتقدم ، ص٢٧٩ .**

وقال البكري إنه ليس للمدينة سور ، وأكثرها خراب ، وهذا حالها قبيل حروب الفرنجة[١]

.

أما في مرحلة الدراسة ، فقد ذكر الإدريسي أنها مدينة حسنة وهي عامرة بالناس ، والمسافرون يقصدونها بالبضائع من كل فن ، وأسواقها قائمة ، ومسرّات أهلها دائمة ، وخصبهم رغد ، ومعايشهم رفيقة ، وفي نسائهم جمال وحسن بشرة ، وشرب أهلها من ماء يأتيهم في قناة من قرية بقرب قرية جوسية .

وعلى نهر العاصي قرى متصلة وبساتين وأشجار ، ومنها تجلب الفواكه إلى المدينة ، وهواؤها أعدل هواء بمدن الشام .

وجميع طرقها وأزقتها مفروشة بالحجر الصلد ، زراعاتها مباركة كثيرة ، وزروعها تكتفي باليسير من السقي .

وبها مسجد جامع كبير من أكبر جوامع مدن الشام[٢] .

وذكر ابن جبير أنها ((فسيحة الساحة مستطيلة المساحة ، نزهة للعين من النظافة والملاحة ، وماؤها يجلب لها من نهر العاصي)) ، وهو هنا يختلف مع الإدريسي على قرب المسافة الزمنية بينهما .

وبقبلي المدينة قلعة حصينة منيعة ، وبشرقيّها مقبرة فيها قبر خالد بن الوليد وقبر ابنه عبد الرحمن وقبر عبيد الله بن عمر .

وأسوارها غاية في القوة والمنعة ، وهي من الحجارة السود . وأبوابها من الحديد ، وما ظنك ببلد حصن الأكراد على أميال منه وهو معقل الفرنجة ومنه تتراءى ناره .

وذكر ابن جبير على لسان أحد شيوخها أن بهذه البلدة مدرسة واحدة ، وهي تشبه اشبيلية[٣] .

وذكر بنيامين التطيلي في رحلته أنه كان فيها سنة ٥٦٤هـ - ١١٦٩م عشرون يهودياً[٤]

.

- **حيفا** : ثغر طبرية الأول أحتلّها الفرنجة سنة ٥٠٣هـ - ١١١٠م وأصبحت مع طبرية وبلاد الجليل تحت إمرة تنكريد ، وبقيت تحت حكم الفرنجة حتى حررها صلاح الدين . وتكثر أشجار النخيل فيها ، وأهلها يصنعون السفن المسمّاة : الجودي[٥] .

---

١ - **البكري : المسالك والممالك ، ج١ ، ص٤٦١ .**
٢ - **الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٤٧ .**
٣ - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٣٢ .**
٤ - **بنيامين التطيلي : المصدر المتقدم ، ص٢٧٨ .**
٥ - **ناصر خسرو : الرحلة ، ص٥٠ .**

– **الخليل :** مدينة إبراهيم الخليل ، وفيها قبره وقبر ذريته إسحاق ويعقوب وسارة ويوسف عليهم السلام .

وفيها غرف كثيرة معدة لنزول الضيوف فيها ، وعليها أوقاف واسعة ، وهم يقدمون للضيوف العدس بالزيت ، والخبز والزيتون والزبيب ، مع الإقامة المجانية ، وقد يصل عدد الزوار أحياناً إلى أكثر من ٥٠٠ زائر ومجاور .

وذكر الهروي أنه في سنة ٥١٣هـ – جددت أكفان رمزية لإبراهيم الخليل وذرّيته في زمن الملك بردويل ، ثم أغلقت المغارة التي كانوا فيها[١] .

وذكر بنيامين التطيلي أنه في سنة ٥٦٤هـ – ١١٦٩م ، كانت المدينة خراباً ، وإنه شيدت مدينة جديدة في بطن الوادي في حقل (مكفيلة) .

وفيها كنيسة للنصارى تدعى كنيسة إبراهيم ، كانت في أيام الحكم الإسلامي كنيساً لليهود ، ثم تحولت بعد التحرير إلى جامع الحرم الشريف .

ويحج اليهود إلى الخليل ، ولا سيما المغارة ، لدفن عظام موتاهم فيها ، مقابل رسم يدفعونه لحارس القبور ، كما يقول بنيامين[٢] .

الرملة : عاصمة فلسطين ، وهي حسنة البناء ، خفيفة الماء كثيرة الفواكه ، وفيها قرى جليلة ومشاهد فاضلة .

وتجارتها رائجة ، وليس في الإسلام أبهى من جامعها الذي يسمى الأبيض ولا أكبر من محرابه ، ولا أبرك من كورتها ، ولا ألذ من فواكهها .

وفيها فنادق جميلة وحمامات أنيقة ، وأطعمة نظيفة ، ومنازل فسيحة ، ومساجد حسنة ، وشوارع واسعة .

وقد جمعت التين والنخيل ، وتينها أطيب تين في البلاد .

ومياهها من الأمطار ، وفي كل بيت حوض تختزن فيه تلك المياه .

وفيها مرمر كثير منوع ، تزدان به أغلب دورها .

وأهلها يصنعون من الرمال الناعمة ألواحاً يزينونها بأشكال هندسية تحمل إلى أنحاء العالم[٣] .

وهي تسمى في الشام والمغرب : فلسطين .

---

[١] **- على الهروي : الإشارات إلى معرفة الزيارات – دمشق ١٩٥٣ م ، طبع المعهد العلمي الفرنسي بعناية جانين سورديل ، ص ٣٠ .**

[٢] **- بنيامين التطيلي : المصدر المتقدم ٢٥٨ وانظر : ناصر خسرو : المصدر المتقدم ، ص٧٤ العمري : المصدر المتقدم ، ج٣ ، ص٥٤٥ .**

[٣] **- ناصر خسرو : المصدر المتقدم ، ص٥١ ، الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٥٦ .**

وقد سقطت بيد الفرنجة سنة ٤٩٢هـ – ١٠٩٩م ، أي مع الأيام الأولى للحروب الصليبية ، واستردها المسلمون سنة ٤٩٦هـ – ١١٠٢م[١] . ثم استعادها الفرنجة وبقيت بأيديهم حتى حررها صلاح الدين .

ويسميها اليهود : رامة ، وعندما كانت تحت الاحتلال الصليبي ، عثر الفرنجة فيها على قبر النبي : صموئيل الراماتي ، بالقرب من كنيس اليهود ، ويقيم فيها ٣٠٠ يهودي ، وفيها مقبرة كبرى لليهود[٢] . وكل ذلك على ما ذكر بنيامين التطيلي .

ريحا : أو أريحا ، وهي مدينة الجبارين ، وبلاد النخيل وهي شديدة الحرّ ، وموطن الحيّات والعقارب ، وأهلها سُمر وسودان ، ومن إنتاجها المشهور مادة النيل أو النيلج والريحان والرطب[٣] .

صُغر : تقع على البحر الميت ، وذكر المقدسي أن مياهها قليلة ، وأهلها سود غلاظ ، إلا أنها كالبصرة ، تجارتها مزدهرة ، وهي من مدن بحيرة لوط واسمها الأصلي زُعر ، ويسميها جيرانها صقر أو سقر ، وقال فيها بعض من زارها : إنها رديئة الماء ، قاتلة للغرباء ، ومن أبطأ عليه ملك الموت فليرحل إليها[٤] .

صفد : مدينة مشرفة على بحيرة طبرية ، وبساتينها أسفل الوادي ، ولها قرى واسعة ، وهي مدينة متوسطة بين الكبر والصغر ، حماماتها سيئة لقلة المياه بها وسوء بناءها ، وهي في فواكهها صورة مصغّرة عن دمشق .

ولها قلعة حصينة ، وتحف بها الجبال والأودوية .

احتلها الفرنجة سنة ٥٣٦هـ – ١١٤٠م لإحكام سيطرتهم على منطقة طبرية ، وبقيت بأيديهم زمناً يسيراً حتى حررها الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٦هـ – ١١٩٠م وكانت معقلاً للداوية والاسبتار ولحق المسلمين منها ضرر عظيم[٥] ثم احتلها الصليبيون وبقيت بأيديهم حتى حررها الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤هـ – ١٢٦٦م[٦] .

صور : مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، وكانت حصن الإفرنج وملاذهم الآمن الحصين .

ويقول ابن جبير إنها أنظف من عكا ، وأهلها (ألين في الكفر) وأحوال المسلمين بها أهون .

---

[١] - **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٢٢٩ .**
[٢] - **بنيامين التطيلي : المصدر المتقدم ، ص٢٥٩ .**
[٣] - **الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٥٤ .**
[٤] - **المقدسي : المصدر المتقدم ، ص١٥١ .**
[٥] - **أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج٢ ، ص٤٩ .**
[٦] - **قطب الدين اليونيني : ذيل مرآة الزمان – حيدر آباد بالهند ، ١٩٦٠ ، ج٢ ، ص ٣٣٨ .**

ويحيط بها سور من ثلاثة جوانب ، ومن الجانب الرابع يحيط بها جدار ، وتدخل السفن إليها بعد اجتياز سلسلة عظيمة عليها حراس وأمناء .

ولها عند بابها البري عين ماء معين ينحدر إليها على أدراج والآبار بها كثيرة ، لا تخلو منها دار[1] .

وقد احتلها الفرنجة سنة ٥١٨هـ - ١١٢٤م . وقسمت بين بلدوين الثاني والبنادقة ، وأعيد لها اسمها الفينيقي المسيحي : تير : Tyre .

وزارها وليم الصوري فقال إن قصب السكر كان يزرع بها على نطاق واسع ، فيها وفي قراها ، وهذه المدينة تابعة لكنيسة القيامة[2] .

وكانت يوم سقوطها تحت سيطرة الفاطميين مع مشاركة حكومة دمشق ، وبعد سقوط مدن الساحل بيد الفرنجة التجأ إليها الأغنياء من تلك المدن مثل قيسارية وعكا وصيدا وجبيل وطرابلس ، واشتروا لهم منازل فيها لظنّهم أنهم سيكونون في مأمن فيها .

صيدا : مدينة كبيرة عامرة بالأسواق ، رخيصة الأسعار عليها سور من حجارة وتحيط بها البساتين والأشجار ، غزيرة المياه ، واسعة القرى .

ولها أربعة أقاليم هي : إقليم جزّين وإقليم السّربة وإقليم كفر قيلا وإقليم الرامي .

وفي هذه الأقاليم أكثر من ٦٠٠ ضيعة . وتكثر فيها زراعة القصب ، وأسواقها على درجة عالية من النظام والنظافة ، وحدائقها مثل حدائق الملوك في جمالها .

وقد احتلها الفرنجة سنة ٥٠٤هـ - ١١١٠ م[3] .

طبرية : هي مدينة الأردن الكبرى وهي مدينة جليلة ، وفي أسفلها من جهة الشرق بحيرة عذبة المياه طولها ١٢ ميلاً في عرض مثلها ، وبها مراكب سابحة تحمل فيها الغلاّت إلى المدينة ، وفي أسفل البحيرة جسر عظيم عليه طريق دمشق .

ولها سور حصين ، وتعمل بها من الحصر السامانية أشياء جميلة وفي هذه المدينة حمامات حارة بلا نار توقد لها ، وفيها حمام كبير يدعى حمام الدماقر .

وبها حمام اللؤلؤ ، وماؤه حار وعذب ، ويقصدها أهل البلاد من جميع النواحي وخصوصاً المرضى للتداوي بمياهها الحارة .

وتكثر فيها أشجار الزيتون والكروم ، وكذلك شجر السّدر البرّي وقصب السكر .

وفيها مسجد يقال له الياسمين وهو آية في النظافة وفي داخله قبر يوشع بن نون وإلى جانبه قبور سبعين من الأنبياء الذين قتلهم بنو إسرائيل . وتشتهر طبرية بنوع جميل من

---

[1] - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٧٧ ، ناصر خسرو : المصدر المتقدم ، ص٤٥ .**
[2] - **سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص٦١٥ و ٦٢٨ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٣٦ .**
[3] - **ناصر خسرو : المصدر المتقدم ص٤٥ ، الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٧٠ .**

الحصر ، تباع الواحدة بخمسة دنانير مغربيّة . وكان فيها نحو مائة يهودي وقبور عدد من أحبارهم[1] .

طرابلس : وهي مدينة كبيرة عليها سور من حجر منيع ، ولها قرى وضياع جليلة وبها من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه وضروب الغلاّت شيء كثير .

والوارد والصادر إليها كثير ، وهي معقل من معاقل الشام ، ويقصدها الناس بالأمتعة والأموال والتجارات ، ويتبعها قرى عديدة منها الشفيقيّة وحصن أبي العدس وأرطوسية والزيتونية والحدث وغيرها .

وفيها شجر الزيتون والفواكه ، وفي جنوبها حصن بناه ابن صنجيل الإفرنجي وكانت قد سقطت بيد الفرنجة يوم ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٢هـ – ١١٠٩م .

وزارها ناصر خسرو المتوفى سنة ٤٨١ هـ– ١٠٨٨م فقال ((تحيط بها أنواع شتى من المزارع والبساتين والأشجار ، ويكثر فيها قصب السكر والنارنج والأترنج والموز والليمون والنخيل ، وعندما زارها كانوا يجمعون عصارة قصب السكر .

وشوارع المدينة وأسواقها في غاية النظام والنظافة ورأيت فيها بيوتاً من أربعة أدوارٍ وخمسة وستة .

ويرى الغريب فيها كل أنواع الطعام والفواكه والمشروبات ، ورأيت فيها أجناس الطعام والمشمومات والمرطبات مالم أر مثله في أرض العجم ، بل تفوق ما في أرض العجم مائة مرة .

وقالوا إن في المدينة ٢٠,٠٠٠ مسلح يقومون على حمايتها ، وكان يتبعها العديد من القرى والمزارع ، ورأيت فيها نوعاً جديداً من الورق مثل الورق السمرقندي ، بل هو أجود .

وهي من ممتلكات سلطان مصر يأخذ خراجها ويدافع عنها والمدينة مركز هام من مراكز جمع الضرائب حيث تقصد ميناءها السفن من بلاد الروم والفرنجة والأندلس والمغرب ، وكلها تدفع العشر لسلطان مصر .

وقد سقطت بيد الفرنجة في ذي الحجة سنة ٥٠٢هـ – ١١٠٩م بعدما تقاعس الفاطميون عن إنجادها))[2] .

طرطوس : وتسمى أنطرطوس ، مدينة صغيرة على البحر ، لها سور حصين ، وعلى مقربة منها في البحر جزيرة أرواد ، فيها كنيسة كبيرة معمورة متقنة البناء ، شاهقة منيعة ، ذات أبواب حديد[3] .

---

[1] ـ **الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٦٢ ، بنيامين التطيلي : المصدر المتقدم ، ص٢٦٥ .**

[2] ـ **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٦٢ ، ناصر خسرو : المصدر المتقدم ، ص٤٢ ، الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٧٢ .**

[3] ـ **الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٧٥ .**

عرقة : مدينة عامرة حسنة في سفح جبل قليل العلو ، ولها في وسطها حصن على قلعة عالية ، ولها أسواق ودور واسعة . وتقع إلى الشرق من طرابلس .

وهي عامرة بالخلق ، كثيرة التجارة ، وأهلها أغنياء ، وشربهم من ماء يأتيهم في قناة مجلوبة من نهرها الملاصق لها[١] .

وفيها بساتين كثيرة وفواكه وقصب سكر ، وبها مطاحن على نهرها ، وبينها وبين البحر حوالي خمس كيلو مترات ، وحصنها كبير ، وعيش أهلها خصيب رغد ، وبناؤها بالجص والتراب ، والخير بها كثير .

وقد سقطت بيد الفرنجة سنة ٥٠٢هـ – ١١٠٨م[٢] .

عسقلان : مدينة حسنة ذات سورين ، وبها أسواق ، وليس من خارجها بساتين ، وليس فيها شيء من الشجر ، وقد احتلها الفرنجة سنة ٥٤٨هـ – ١١٥٣م .

وقزّها فائق وماؤها عذب ، إلا أن ميناءها رديء ، وجامعها مفروش بالرخام ، وذكر الهروي الذي زارها سنة ٥٧٠هـ – ١١٧٤م أنه كان بها رأس الحسين عليه السلام ، فلما سقطت المدينة بيد الفرنجة نقله المسلمون إلى القاهرة[٣] .

ويقول بنيامين التطيلي إنها قسمان القديم منها خراب ويبعد عن الجديد أربعة فراسخ .

أما عسقلان الجديدة فهي مدينة عامرة يكثر فيها التجّار وفيها نحو : ٢٠٠ يهودي رباني ، و ٣٠٠ سامري و٤٠ من اليهود القرّائين[٤] .

عكا : مدينة كبيرة ، واسعة الأرجاء ، كثيرة الضياع ، ولها مرسى حسن مأمون ، وناسها أخلاط .

وهي قاعدة مدن الافرنج بالشام ، وهي تشبه القسطنطينية في عظمتها ، كما يقول ابن جبير ، وهي ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق .

أزقتها مزدحمة ، صارت مساجدها كنائس ، وبقي من مسجدها الجامع بقعة صغيرة هي مسجد للمسلمين سنة ٥٨٠هـ – ١١٨٤م ، يجتمع فيه الغرباء لاقامة الصّلاة .

وفي شرقي البلد ، العين المعروفة بعين البقر .

ولا بساتين حول عكا ، وإنما تجلب إليها الفواكه من البساتين القريبة منها .

وفي الشرق من عكا واد يسيل ماء ، ولها شاطئ رملي لم يُر أجمل منه وفيه يجتمع العسكر كل يوم[٥] .

---

[١] - **الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٧٣ .**
[٢] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٦١ .**
[٣] - **الهروي : الاشارات ، ص٣٢ .**
[٤] - **بنيامين التطيلي : المصدر المتقدم ، ص٢٦٢ .**
[٥] - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٧٦ .**

وقال ناصر خسرو إن مساحتها كانت ٢٠٠٠ × ٥٠٠ ، ذراع وللسور في الجهة البحرية بوابة حديدية ضخمة تشدُّها سلاسل عملاقة[١] .

وقد سقطت بيد الفرنجة في شعبان سنة ٤٩٧هـ - ١١٠٤م وبقيت بأيديهم حتى حررها صلاح الدين[٢] .

عمان : على سيف البادية ، ذات قرى ومزارع ، ويتبعها مدينة البلقاء معدن الحبوب والأغنام

وبها عدة مجار للمياه ، وطواحين تديرها المياه ، ولها جامع حسن بطرف السوق ، وهي رخيصة الأسعار ، كثيرة الفواكه ، غير أن أهلها جهّال وطرقها صعبة .

ويقع قصر جالوت على جبل يطل عليها .

وبها قبر أوريّا وعليه مسجد ، وبها ملعب سُليمان[٣] .

قارة : نزل بها ابن جبير يوم ٢٢ ربيع الأول ٥٨٠هـ - تموز ١١٨٤م فقال : ((هي قرية كبيرة للنصارى من أهل البلد ، ليس فيها من المسلمين أحد ، وبها خان كبير كأنه حصن ، وفي وسطه صهريج كبير مملوء ماءً يأتيه من تحت الأرض من عين على البعد ، فهو لا يزال ملآن .

وعلى مقربة منها قرية النبك ، فيها ماء جار وزراعة واسعة[٤])) .

قدس : مدينة شمال صفد ، قامت في موقع مدينة قادش القديمة الكنعانية وهي بين لبنان وفلسطين .

تقع على سفح جبل ، وهي كثيرة الخير ، وهي مركز جبل عاملة ، وفيها حمام واحد ، وسوق فيه جامعها .

وفيها بحيرة هي الحولة ، يصب ماؤها في بحيرة طبرية ، وأكثر أهلها ينسجون الحصر ويفتلون الحبال .

وفي البحيرة أنواع من السمك[٥] .

قيسارية : بلد كبير فيه الفواكه و النارنج والأترنج وكل الحمضيات ، وفيه جامع حسن وشرب أهله من آبار وصهاريج[٦] .

وقد سقطت في يد الصليبيين في رجب ٤٩٤هـ - مايو ١١٠١م[٧] .

---

[١] - **ناصر خسرو : المصدر المتقدم ، ص٤٦ .**
[٢] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٣٢ .**
[٣] - **المقدسي : المصدر المتقدم ، ص١٤٩ .**
[٤] - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٣٣ .**
[٥] - **المقدسي : المصدر المتقدم ، ص١٤١ .**
[٦] - **ناصر خسرو : المصدر المتقدم ، ص٥١ .**
[٧] - **زكار : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص١٢٠ .**

الكرك : مدينة ذات قلعة تعرف بكرك الشوبك ، والشوبك أقدم منها .

والكرك مدينة محدثة البناء ، كانت ديراً للنصارى يقيم به الرهبان . ثم تكاثروا فوسعوا بناءه ، وأوى إليه الفرنجة وبنوا حصنه حتى حرره صلاح الدين[١] .

والكرك مكان صعب المرتقى ، وماؤه من مطر السماء ، وهو بلد خصيب .

اللدّ : ويقال لها لد بدون تعريف ، وصفها البكري المتوفى سنة ٤٨٧هـ – ١٠٩٤م أي قبل السيطرة الصليبية عليها فقال :

((هي منزل جميل ، وفيه ناس يعمرونه ، وفيه ينزل المسافرون من الشام إلى مصر والعائدون من مصر إلى الشام .

وفيها كنيسة عظيمة محكمة البناء واسعة الفناء ، عليها للنصارى أوقاف كثيرة ، وفي اللد عجائب وغرائب .

وهي على ميل من الرملة وفيها جامع يجتمع فيه الناس ، وقد احتلها الفرنجة في صيف سنة ٤٩٣هـ – ١٠٩٩م[٢] .

مؤاب : مدينة في الجبل ، كثيرة القرى ، واللوز والأعناب ، قريبة من البادية ، ومن قراها مؤتة .

نابلس : مدينة خصبة نزهة ، ذات مياه جارية وحمامات طيبة وجامع حسن ، وقد خصّها الله بالشجرة المباركة التي يحمل زيتها إلى الشام ومصر والحجاز والبوادي ، كما يحمل منه في كل عام ألف قنطار بالدمشقي إلى الجامع الأموي بدمشق[٣] .

وفيها يعمل الصابون الذي يحمل إلى سائر البلاد ، وفيها البطيخ الأصفر ، وإليها يحج السّامرة الذين لا يوجدون إلا في نابلس وسمرقند ، وعددهم فيها نحو من ٣٠٠٠ سامري .

ويسمونها دمشق الصغرى ، وهي مبلطة ونظيفة وفيها نهر جار وبناء أهلها من الحجر[٤] .

وقد سقطت بيد الفرنجة سنة ٤٩٣هـ – ١٠٩٩م .

يافا : على البحر ، وهي ميناء بيت المقدس ، عليها حصن منيع بأبواب حديد ، وميناؤها جيد ، وجامعها حسن ، يشرف على البحر وقد سقطت بيد الفرنجة سنة ٤٩٢هـ – ١٠٩٩م .

وتقع أرسوف بالقرب منها وهي مدينة حصينة عامرة ، وكذلك غزة وهي مدينة كبيرة على طريق مصر وطرف البادية ، وفيها جامع حسن[١] .

---

[١] – **العمري : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٥٤٧ .**
[٢] – **البكري : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٤٦٤ .**
[٣] – **البكري : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٧٢ .**
[٤] – **المقدسي : المصدر المتقدم ، ص١٤٩ .**

هذه هي أشهر مدن أتابكية دمشق وقد حاولنا أن تكون هذه الدراسة حيّة وبعيدة عن الجمود ، ومنطبقة تماماً على المرحلة التي ندرسها .

سادساً – الإنتاج الزراعي :

ـ تمهيد :

امتازت أتابكية دمشق ، بتنوع إنتاجها الزراعي نتيجة تنوع تضاريسها ، ففيها نباتات البلاد الحارة في الأغوار ، ونباتات البلاد المعتدلة في السهول والهضاب ، ونباتات البلاد الباردة في الجبال .

وقد تحدث عدد من المؤرخين والجغرافيين والعلماء عن هذه النباتات وفوائدها وأماكن وجودها . ومن هؤلاء : ابن الجوزي وابن البيطار والقزويني وشيخ الربوة والبكري والمقدسي والإدريسي وغيرهم .

وقد اتفقوا على إطلاق كلمة برّي على النباتات البرية حيثما وجدت ، وكلمة بستاني على النباتات المزروعة ، ونحن نجاريهم في هذه التسمية لتبسيط الموضوع وتسهيله .

وقد قسمنا هذه النباتات إلى ثلاثة أقسام : النباتات الطبية والعطرية ، والفواكه والخضروات ، والبقول والحبوب وما إلى ذلك .

ويعد القسم الأول أهم هذه الأقسام في الأتابكية لأنه كانت تقوم عليه تجارة وصناعة رائجة في دمشق ، وكانت لها شهرة عالمية نظراً لغنى الجبال بهذه النباتات والأعشاب .

وكان الطلب عليها شديداً من مصر والحجاز والعراق والمغرب وغيرها ، وكانت تشكل مصدر دخلٍ عالٍ لعدد كبير من سكان الأتابكية .

١ـ النباتات العطرية والطبية :

وسنعطي أمثلة عن أشهرها وجوداً في ذلك العصر ، ومنها :

– إيسقيفون : نبات زهري له ألوان ، ورقه يشبه ورق السفرجل[٢] .

– آذريون : زهرة بريّةٌ ، غاية في الحمرة ، تفيد في دفع السموم وهي من فصيلة الأقحوان ، وهي طاردة للذباب[٣] .

– آنيسون : وهو اليانسون ، وبالفارسية : رازيانج ، نبات مهدئ ومسكّن للآلام ، يفيد في علاج ضيق التنفس والسعال ، وهو نبات بستاني .

---

[١] ـ الإدريسي : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٥٧ .

[٢] ـ ابن البيطار : تحفة ابن البيطار – القاهرة ١٩٩٢ م – دار الفضيلة ، ص ١١٨ والمؤلف عاش بدمشق ومات بها وهو من الأندلس .

[٣] ـ القزويني : عجائب المخلوقات – جزءان – دار الألباب بيروت – لا تاريخ ، ج١ ، ص١٦١ .

- الآس : ويسمى ريحان الأرض ، وثمره أسود وأبيض ويدعى الحبلاس ، ومنه بــرّي ومنه بستاني ، وخواصه كثيرة وثمرته مفيدة في دفع السموم[1] .

- الأشتوان : من نباتات جبل لبنان[2] .

- الأشنان : نبات بري يستعمل للتنظيف ، وله استعمالات صناعية أخرى .

- الأفيون : هو عصارة الخشخاش ، وهو منوّم ومسكّن عام

- الأثل : وهو نبات الطرفا[3] .

- الأقحوان : زهره أبيض ، وهو مرّ المذاق ، وله صفات وفوائد البابونج ويُسمى أيضاً البهار ، ومنه نوع صغير جدايسمى في الشام عين الحجل .

- أم غيلان : هي شجرة من البادية ، كثيرة الشوك ، وهي تقطع الروائح الخبيثة .

- البان : شجر طويل مستقيم ، ثمرته تشبه قرون اللوبيا ، وفيها حبّ يُستخرج منه دهن طبي نافع . ويقال لثمرته : الشوع .

- البابونج : زهره أبيض وأصفر ، وهو نبات بري طيب الرائحة ومهضّم وينفــع فــي تفتيت الحصى والصداع[4] .

بذر الكتّان : نبات دقيق الأوراق أزرق الزهر وهو مقوّ مثل الحلبة

- البطم : هي الحبة الخضراء

- البنفسج : نبات بستاني طيب الرائحة ، وفوائده كثيرة وهو من محاسن الــشام ومــن أنواعه : العراقي والقليجي والأبيض ، ويُصنع منه المربى[5] .

- البلوط : شجر جبلي له ثمار تفيد في نواح متعددة ، وهو من خصائص بلاد الشام

- البيلسان : من أشهر النباتات العطرية في دمــشق ، وكــان الفرنجــة يقبلــون عليــه ويصدرونه إلى بلادهم ، وشجره منتشر في غوطة دمشق وفي فلسطين ولبنــان ، وفوائــده الطبيّة كثيرة[6] .

- الترمس : ويسمى البقل المصري ، وهو مفيد في أمراض الجلد والقوخ والأورام .

- تمرحنّة : نبات زهري ينبت في الأغوار والأراضي في بلاد الشام ويُعمل منه دهــنٌ نافع .

- جلّنار : هو زهر الرمان ، ينفع في وجع الأسنان وقطع الدم .

---

[1] **- البدري : نزهة الأنام في محاسن الشام – دار الرائد العربي – بيروت ١٩٨٠ ، ص ٩١ .**
[2] **- شيخ الربوة : محمد بن أبي طالب . نخبة الدهر – دار إحياء التراث العربي في بيروت ، ١٩٨٨ م ، ص ٢٦٦ .**
[3] **- القزويني : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٨٩ .**
[4] **- القزويني : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٤٧ و ١٦٢ .**
[5] **- ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص١٩٠- ١٩٣ .**
[6] **- القزويني : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٤٨ و ١٤٧ .**

– الحبة الخضراء : وتعرف بالبطم ، وتنفع في أمراض الجلد وتدفع السموم[١] .

– الحبة السوداء : من أشهر النباتات الطبية في الشام ، وتسمى الشونيز .

– حشائش الفار : نبات نجمي بري له زهر يفيد في الجراحات[٢] .

– الحرمل : نبات ورقه كورق الصفصاف ، له زهر أبيض وبذر أسود .

– الحلبة : استعمالاتها وفوائدها كثيرة ، وتفيد في الربو وأمراض الرئة .

– الحنظل : منه أنواع ، أجودها الأخضر وهو أفضل الأدوية لمقاومة لدغة العقرب .

– الخشخاش : أجوده الأبيض وهو مخدّر ومنوّم ومنه يؤخذ الأفيون ويزرع في دمشق بكثرة في مرج الشيخ رسلان ، خارج باب توما[٣] .

– خيار شمبر : شجر في حجم شجر الخرنوب ، ويسمّى القثاء الهندي .

– الخرنوب : هو شجر أعظم من شجر الجوز ، له زهر ذهبي[٤] .

– الخلاف : هو شجرة الصفصاف ، ولخشبها فوائد كثرة .

– الخردل : نبات طبي مشهور .

– الخروع : نبات يعظم شجره قرب المياه وعلى شطوط الأنهار وهو مليّن ومطهّر .

– الدردار : شجرة كبيرة عالية ، ولها فوائد في الأمراض الجلدية[٥] .

– الريباس : ويدعى شرش الريباس أو الريباص ، ينبت في جبال لبنان وهو مفيد لتفتيت الحصى[٦] .

– الريحان : نبات معروف مطهر ومعقم ويلحق بفصيلة الآس .

– الزعفران : من نباتات دمشق المعروفة ، يزرع في دفوف الزعفران في قاسيون .

– الزيزفون : شجيرة لها زهر أصفر ورائحة عطرية لاذعة ، وتنتشر بكثرة في الشام وتنفع في طرد الذباب والحشرات[٧] .

– الزعتر : وهو بستاني وبري ، وهو شديد الفائدة لمن لدغته العقارب والأفاعي .

– الزعرور : من نباتات الشام وهي شجيرة شوكية لها ثمار صغيرة[٨] .

– السّرو : لورقه فوائد في علاج الحروق والجروح .

– السّوس : وهو منتشر بكثرة في غوطة دمشق ، وهو نبات بري .

---

١ - ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص١٩٥-٢٠٢-٢٠٣ .
٢ - النبات النجمي هو النبات الذي ليس له ساق صلبة كالقمح والفول بعكس الشجر .
٣ - القزويني : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٦١- ١٦٦-١٦٨-١٤٩ .
٤ - ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٠٣-٢٠٨ .
٥ - القزويني : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٤٩-١٥٠-١٦٩ .
٦ - شيخ الربوة : المصدر المتقدم ، ص٢٦٦ ، ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٠٩-٢١٣ .
٧ - القزويني : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٧٠ ، ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢١٤-٢١٦ .
٨ - ابن الجوزي : مختصر لقط المنافع – دار المأمون – دمشق ١٩٨٧ ، ص٥٤ .

– السّماق : نبات بري شديد الحموضة ينبت في الجبال والهضاب وهو مشهور .

– شقائق النعمان : زهر بري وبستاني ، والبري أحمر وهو أكثر فائدة .

– الطرفا : شجرة تنبت في مصر والشام ، وتنفع أمراض العين ووجع الأسنان .

– العُبيران : نبات بري ينفع من الزكام[1] .

– العرعر : هو السرو الجبلي وثمرته تشبه الزعرور .

– عود الصليب : ويسمى : فاوانيا وينفع في تسكين الآلام[2] .

– العصفر : وهو القرطم ، ولزهره منافع جمّة في الأمراض الجلدية .

– العنّاب : شجرة مشهورة ، ينفع ورقها من وجع العين[3] .

– العوسج : وهو العليق ، وثمره كالتوت الشامي الأسود[4] .

– القيصوم : نبات طيب الرائحة ، تهرب الأفاعي منه .

– الكراوية : نبات بستاني ينفع في البرد والضعف العام[5] .

– الكمّون : نبات بستاني مهضم ومفيد ، ومنه الشامي والمصري والكرماني[6] .

– المنثور : زهره أصفر و أبيض وبنفسجي وأزرق ، ويسمى أيضاً : الخيري ، وله فوائد طبية[7] .

– النرجس : ومنه اليغموري والبري والمضعف ، وينفع شمّه من وجع الرأس .

– النسرين : مثل الياسمين في الفائدة وهو يقتل الديدان[8] .

– النيلوفر : وهو النيل ، وله ألوان منها الأصفر والأزرق والبنفسجي والأحمر ، وينبت في منطقة أريحا والأغوار ، وأنفعه الأصفر .

– النعناع : نبات مشهور ، وهو مطهّر ومقوّ عام ومنه بريّ وبستاني .

– النبق : وهو ثمر شجر السّدر ، وهو منتشر بكثرة في الشام[9] .

– الورد : من علامات الشام المميزة ، وأنواعه كثيرة ، ومركز زراعته الأول في قرية الزبداني وهو أساس صناعة الماورد ذي الشهرة العالمية في دمشق ، وهو يتحوّل إلى مربى

---

[1] - **شيخ الربوة : المصدر المتقدم ، ص٢٦٦ ، القزويني : المصدر المتقدم ص١٥٣-١٧٢ ، ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢١٩-٢٢٢ .**

[2] - **القزويني : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٥٤ .**

[3] - **ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٢٣ و ٢٢٤ .**

[4] - **شيخ الربوة : المصدر المتقدم ، ص٢٦٦ .**

[5] - **ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٣٢ ، القزويني : المصدر المتقدم ص١٥٥ و ١٧٥ .**

[6] - **شيخ الربوة : المصدر المتقدم ، ص٢٦٦ .**

[7] - **القزويني : المصدر المتقدم ، ص١٧٧ .**

[8] - **القزويني : المصدر المتقدم ، ص١٧٨ ، ابن الجوزي : المصدر المتقدم ، ص٣١ .**

[9] - **المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٥٤ ، ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٣١ .**

مفيد للمعدة ، ومن أنواعه النادرة في دمشق ، الورد النسريني الذي يحمل الغصن الواحد منه أكثر من مائة وردة وهناك الورد الجوري ذو الرائحة المميزة والورد النصيبي المشهور[١] .

٢- الفواكــه :

تعد الشام من أكثر بلاد العالم إنتاجاً للفواكه آنذاك من حيث الكمية والجودة والتنوع .

ويدل على وفرة إنتاجها وتنوعه ما ذكره ابن الصائغ الحنفي الذي نزل فـي دار الأميـر مجير الدين بن تميم الأيوبي في الجسر الأبيض بدمشق ، على نهر تورا ، فرأى فـي النهـر أصناف الفواكه فصار يأخذ منها مايريد ، فقال له ابن تميم إن هذه مما يلقيهـا النـسيم مـن الأشجار في النهر .

وأما أصحاب البساتين فإنهم يضعون الفواكه المنوّعة على أبواب البساتين ليأخذ منها من يشاء من الفقراء والأغنياء على حد سواء .

وهناك من كان يزرع الأشجار ويوقفها على الفقراء والمارّة يزرعونهـا علـى الطـرق المأهولة لسهولة تناولها .

وزار أحدهم الغوطة فوجد فيها شجرة تحمل أربعة أنواع مـن الفاكهـة هـي المـشمش والخوخ والتفاح والكمثرى ، كما وجد شجرة عنب تطرح العنب الأبيض والأسود والأحمر ، ووجد شجرة توت تحمل التوت الأبيض والتوت الأسود[٢] .

وقال بنيامين التطيلي اليهودي الرحالة : ((إنني لم أجد مثل فاكهة دمشق وأشجارها فـي العالم))[٣] .

وسنذكر فيما يلي أشهر الفواكه التي كانت منتشرة في مدن أتابكية دمشق وغوطتها وقراها ومزارعها مع ملاحظة أن قسماً غير قليلٍ منها قد انقرض الآن من دمشق تماماً .

العنب : له أكثر من خمسين نوعاً ، أشهرها البلدي والزيني والقشلميش والدربلي والقاري .

البطيخ : وهو البطيخ الأخضر المسمّى بالهندي ، وأنواعه بدمشق الداراني والمرجـي – نسبة إلى مرج دمشق – والدوماني والحبشي والقبلي والعواميدي وهو المسمّى بالنمس .

وهناك الشمام أو البطيخ الأصفر ويزرع في قرية الضمير قرب دمـشق وهـذا الـشمّام الضميري لا مثيل له في العالم وهو البطيخ المخطط المستدير والمشوب بالحمرة والـصفرة . ويسميه الناس اليبروح .

ومن أنواعه الأخرى بدمشق السمرقندي والسلطاني[٤] .

---

[١] - **ابن الجوزي : المصدر المتقدم ، ص٣٠ ، القزويني : المصدر المتقدم ، ص١٦٠ .**
[٢] - **البدري : نزهة الأنام ، ص١٩١ .**
[٣] - **بنيامين التطيلي : الرحلة ، ص٢٧٠ .**
[٤] - **ابن الجوزي : المصدر المتقدم ، ص٣٢ ، ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٢٥ .**

السفرجل : وهو الفاكهة الوحيدة التي يؤكل زهرها لحلاوته وطيبه ويسمون هذا الزهر بالنمورة .

وللسفرجل أنواع هي البرزي نسبة إلى قرية برزة ، والقصبي ، والسّالمي والرقي والعباسي والتفاحي .

التين من أشهر نباتات الشام ، وأفضله التين البري والمغربي والماسوفي والرومي والبعلبكي وكعب الغزال والملكي . . وإذا غلي ورق التين الأسود بماء المطر ، فإنه يسوّد الشعر[١] .

العنّاب : ينبت في منطقة العنابة بدمشق ، وهي محلة تشمل على دور وقصور وبساتين شمالي مقابر الفراديس ، وشراب العناب رطب وهو يطبخ مع السكر .

التوت : من أشهر الفواكه في دمشق وأفضله التوت الشامي ، وهو أسود ومن أنواعه المحسني والبندقي والعجمي والمخصب والقرشي وأجوده الأبيض .

وهناك نوع بري يقال له : توت السياج ، وهو توت أسود صغير لايجنيه أحد ، وهو يستعمل سياجاً للمزارع والبساتين ، مثل أشجار الورد الجوري[٢] .

القراصيا : وهي سبعة أنواع ، تحمل إلى مصر ، وأحسنها القراصيا البلدية التي تنبت بين الربوة والمزة .

وهي أنواع منها الحلو والحامض والمر .

الحمضيات : وتشتمل على الأترج والكباد والليمون والنارنج ، وتزرع هذه الأشجار في معظم دور دمشق .

والنارنج : من خصوصيات دمشق ولا يكاد يعرف خارجها .

الخوخ : وهو المسمى بالبرقوق عند المصريين ، ومنه أسود وأصفر وأحمر وأبيض[٣] .

المشمش : من أشهر فواكه الشام ، ولئن كان منه اليوم بضعة أنواع في دمشق فقد كان منه في مرحلة الدراسة ٢١ صنفاً هي :

الحموي والسندياني والأويسي والعربيلي والخراساني والكافوري والبعلبكي واللقيس واللوزي والدغمشي والزيري والكلابي والسلطاني والحازمي والأيدمري والسنيني والبردي والملّوح والفراط والبخاتي والجلاجل والقلوع ، وأفضل هذه الأنواع المشمش الحموي[٤] .

---

[١] - **القزويني : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٤٨ ، ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢١٧ ، ابن الجوزي : المصدر المتقدم ، ص ٣٢-٣٥ .**

[٢] - **ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص١٩٧ ، البدري : المصدر المتقدم ، ص١٦٢ .**

[٣] - **القزويني : المصدر المتقدم ، ص١٥٩ ، ابن الجوزي : المصدر المتقدم ، ص٣٦ .**

[٤] - **ابن الجوزي : المصدر المتقدم ، ص٣٥ ، ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٣٧- ٢٣٨ .**

الموز : يزرع في الساحل والجولان .

الكمثرى : وهي الأنجاص ، ولها ٢٤ صنفاً منها العثماني والملكي واليبرودي والـشتوي والعقرباني والبيطاري والحمدوني والصقلاني والذهبي .

التفاح : أصنافه كثيرة منها السكري والمسكي والبلدي واللبناني والحلـواني والبربـري والنبطي والهامي – نسبة إلى الهامة – والقب إلياسي نسبة إلى قب – إلياس .

الدراقن : ويسمى بمصر الخوخ ، ومن أنواعه بدمشق الزهـري والحمـصي واللـوزي والصوري[١] .

الجانرك : ومن أصنافه الصيفي والقرصي وخوخ الدب ، وهـو المـسمّى فـي مـصر بالبرقوق ، ولا يكاد يعرف خارج دمشق . والجانرك ، كلمة فارسية معناها برقوق الـروح ، وأفضل أنواعه العجمي .

الرمان : ويزرع في أراضي المزاز بدمشق وكذلك في منطقة الـشويكة ومـن أنواعـه الشويكي وهو أجودها والماوردي والكوفي والمصري والسلطاني والتدمري[٢] .

التمور : أفضلها ما يزرع في بيسان وأريحا وفلسطين وتدمر[٣] .

---

١ ـ ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٣٣ ، ابن الجوزي : المصدر المتقدم ، ص٣٤ .

٢ ـ ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٠٨ـ٢١٤ .

٣ ـ المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٥٤ .

٣– **الخضروات والبقول والحبوب :**

الخضروات كثيرة ومتنوعة في دمشق ، منها ما هو صيفي ومنها ما هو شتوي ومنها البري ومنها البستاني ومنها ما لايوجد الا بدمشق مثل الطرخون والكزبرة .

ومن هذه الخضروات :

القرع : ويسمى الدباء واليقطين ومنه مايتسلق على الأشجار ومنه المستدير الكبير الأرضي .

الكمأة : وهي نبات بري يكثر في السنوات التي تكثر فيها الأمطار والرعود ، وهو نبات كان متوفراً بكثرة في دمشق .

العدس : وهو أنواع أجودها الأبيض .

اللوبياء : نبات معروف .

الأرز : من الحبوب التي كانت منتشرة في نواحي دمشق في درعا وفي تلكلخ وجهاتها[١] .

الباذنجان : نبات فارسي بستاني منه الأحمر والأسود والأبيض .

الكرّاث والثوم والبصل : ثلاث نبتات تؤكل نيئة ومطبوخة ، وهي من الخضار التي وصفت بالخبيثة لرائحتها النتنة ، ويلحق بها الفجل أيضاً .

الهليون : من النباتات البرية ، ينبت في الأماكن الرطبة ، ثم نقل إلى البساتين فصار من النباتات البستانية[٢] .

الخس : نبات بستاني معروف .

الطرخون : نبات بستاني من خصوصيات دمشق .

الرجلة : وهي الباقلاء .

الهندباء : من النباتات البستانية ذات الفوائد الكثيرة .

الخيار والقثاء : منهما أنواع أفضلها القابوني وهو نبات بستاني رطب بارد[٣] .

القلقاس : نبات أرضي يزرع في الأغوار .

الجزر : يؤكل نيئاً ومطبوخاً وهو مُدرٌّ جيد .

الكرنب : ويطلقون اسمه على الملفوف وله ستعمالات وفوائد شتى[٤] .

الرشاد : نبات بري وبستاني معروف .

---

١ - **ابن الجوزي : المصدر المتقدم ، ص٥٢ ، ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٢٤-٢٣٠ .**
٢ - **ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص١٩٩- ٢٣٩ .**
٣ - **ابن الجوزي : المصدر المتقدم ، ص١٦٤ .**
٤ - **القزويني : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٦٢ ، ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٣٩ .**

الاسفاناخ : وهو السبانخ ، نبات بستاني شتوي[1] .

الكرفس : نبات بري وبستاني ينمو حول المياه العذبة .

الكسفرة : وهي الكزبرة ، مثل السلق يكاد ينحصر وجودها في دمشق ، بعكس البقدونس الذي يزرع في معظم البلاد[2] .

الخبازي : وتعرف بالعامية بالخبيزة وهي نبات بري وبستاني وله خصائص مطهّرة ومعقمة معروفة ، وكان يستخدمه الأطباء في المشافي .

القنبيط و الملفوف ، وهي من الزراعات الشتوية المعروفة .

البازلاء والفول : من الزراعات المعروفة .

الحمص : نبات بستاني يزرع في السهول والهضاب .

السّلجم : وهو اللفت[3] .

الجرجير : بستاني بري وفوائده كثيرة .

الخرشوف : نبات شوكي عظيم الفائدة[4] .

القمح والشعير : من أشهر وأقدم الزراعات في العالم .

السمسم : من المواد الغذائية المهمة ويستخرج منه زيت السيرج .

الشوندر : له نوعان أبيض وأحمر .

قصب السكر : من زراعات دمشق الهامة ، يزرع في الأغوار والساحل ، وتقوم عليه صناعة السكر .

الزيتون : علم على بلاد الشام ، وهو الزراعة الشعبية الأولى وأنواعه لا حصر لها وتقوم عليه صناعة الصابون .

اللوز : ينمو براً في الجبال والهضاب[5] .

الجوز : ويسمى في مصر ((عين الجمل)) وهو من نباتات دمشق المشهورة وله أنواع مثل المغربي والفريك والجبلي والمنيني .

الصنوبر : مثل الجوز ، ويستخدم في الأطعمة الفاخرة ، ويسمى الجلوز .

البندق : ينمو في الهضاب والجبال وقد تراجعت زراعته كثيراً .

الفستق الأخضر : مثل البندق ، وأجوده الحلبي شديد الخضرة .

---

[1] - **ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٠٠ ، المقدسي : المصدر المتقدم ، ص١٥٦ .**

[2] - **ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢١٨ ، القزويني : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٧١ .**

[3] - **القزويني : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٧٥ ، ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٠٠.**

[4] - **ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٠٠ ، القزويني : المصدر المتقدم ، ص١٧٥ .**

[5] - **ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٢٧ ، البدري : المصدر المتقدم ، ص١٤٠ .**

الكرسف أو القطن : تقوم عليه مع الصوف الحرير صناعة نسيجية رائجة ، ويزرع في الأغوار والجولان ولورقه فوائد طبية[1] .

الذرة الشامية : وهي الذرة البيضاء التي اختصت دمشق بزراعتها .

وهناك نباتات لم ترد في المصادر المذكورة لأنها لم تكن معروفة في تلك الحقبة كالبطاطا والبندورة والفراولة وما إليها .

وقد نقل الفرنجة إلى بلادهم عدداً كبيراً من هذه الزراعات مثل قصب السكر والليمون والبطيخ والمشمش الذي كان يعرف طويلاً في فرنسه باسم : ثمر دمشق ، والكمثرى والخوخ والذرة الشامية والسمسم والخرنوب والأرز والثوم وغيرها[2] .

وفي ختام هذا البحث لا بد من الحديث عن المراعي والثروة الحيوانية في أتابكية دمشق لأنها جزء مهم من اقتصاد البلد .

---

1 - ابن الجوزي : المصدر المتقدم ، ص٤٧ ، ابن البيطار : المصدر المتقدم ، ص٢٠٢ .

2 - ميخائيل جميعان : المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية – لا مكان ولا زمان للطبع . انظر صفحة ، ص١٧٦ .

٤ـ المراعي والثروة الحيوانية :

المراعي : كانت المراعي ، ولا تزال تشكل ركناً أساسياً من الحياة الاقتصادية في جميع أنحاء العالم .

وفي أتابكية دمشق كانت الجولان تشكل أوسع وأفضل المراعي نظراً لكثرة هطول الأمطار فيها ، لذلك كانوا يطلقون فيها ماكان يسمى بخيول الجشار ، أي خيول الرعي التي كانت الأساس الأقوى للجهاد ، وكما قال ابن جبير كانت خيول المسلمين والنصارى ترعى حول بانياس بدون حصول أي خصومة أو احتكاك بين الفريقين .

ومن المروج الأخرى حول دمشق مرج راهط ومرج عذراء ومرج عيون ابن عامر ، ومرج الصفر وغيرها ، وقد شهدت هذه المروج معارك تاريخية حاسمة[1] .

وهناك بادية الشام التي كانت تمتد حتى الفرات والتي كانت تشكل مورداً اقتصادياً واسعاً للأتابكية ، ولاسيما في السنوات التي تكثر أمطارها ، وكانت هذه البادية ، ولا تزال ، المصدر الأساسي لدمشق من اللحوم والأصواف والألبان والسمن والكماة والبابونج وكثير من الأعشاب العطرية والطبية .

أما الثروة الحيوانية فهي على نوعين : الثروة الحيوانية المألوفة التي يقوم السكان على تربيتها مثل الجمال والأبقار والبغال والحمير والخيل والأغنام والماعز وثروة أخرى هي الحيوانات البرية التي كانت تنتشر في المناطق السالفة الذكر . وذلك قبل أن يقضى عليها نهائياً فيما بعد .

فكان هناك الثعالب والغزلان والفهود والخنازير البرية والسنجاب والدببة والضباع والذئاب والأرانب وحمر الوحوش والأسود والنمور والمها – بقر الوحش – والأيل الأسمر والوعل واليربوع والنعام وغير ذلك .

ويفهم مما أورده الأمير أسامة بن منقذ ، الذي كان صياداً من الدرجة الأولى أنه كان يصطاد الغزلان والطيور والأرانب وحمر الوحش والبازي والباشق وأنه حضر قتال الأسود وقتل العديد منها وقال ((إنه كان يوماً بمدينة حيفا زمن الصليبين فعرض عليه أحدهم شراء فهد جيد قد رباه حتى صار بحجم الكلب ، وعندما ما تفحصه وجده نمراً ، لأن وجه الفهد مدور وعينيه سوداوان أما وجه النمر فهو مثل وجه الكلب وعيناه زرق[2])) .

ومما يلحق بالثروة الحيوانية الطيور ، وهي أليفة كالحمام والدجاج واليمام والحجل والسمان والبلبل وطيور الماء والدراج والكركي والقمري والقطا والكوهي ، والزرزور والوز والحباري .

---

[1] ـ عن هذه المروج انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص١١٨ .

[2] ـ أسامة بن منقذ : الاعتبار – تحقيق فيليب حتّي – جامعة برنستون سنة ١٩٣٠م ، ص ١٠٥ و ١١١ .

ومن الطيور الجوارح : الباز والصقور والشواهين والعقبان والسناقر ، ويذكر أسامة أن ثمن الباز الصغير يساوي ١٥ ديناراً .

وذكر القزويني أن في أرض جفار ، بين فلسطين ومصر نوعاً من الطير يأتيهم من بلاد الروم يسمّى المرغ ، يشبه طائر السلوى ، يأتي في وقت معين يصيدون منه ما يشاؤون ويملّحونه .

ويأتيهم أيضاً من بلاد الروم جوارح كثيرة كالشواهين والصقور والبواشق والبوازي[1] .

ومن الجوارح الأخرى السنقر ، وهو أشرف الجوارح ، والسناقر تجلب من البحر الشامي ، ويبلغ سعر الواحد ألف دينار[2] .

وكانت هذه الجوارح تعد من أجمل الهدايا التي تقدم إلى الأمراء والقادة والسلاطين ، ولذلك كانت أثمانها مرتفعة .

وذكر القلقشندي رسائل طويلة صادرة عن الأمراء والسلاطين شكراً لمن أهداهم مجموعة من الجوارح مثل السناقر والبزاة والكواهين – جمع كوهيّة – والعقعق في حجم الحمامة[3] .

ومما يلحق بالصيد ، صيد الأسماك والحيوانات البحرية والمائية الأخرى .

وفي الشام سواحل طويلة وبحيرات عدة مثل بحيرة العتيبة والهيجانة وبحيرة حمص وبحيرة طبرية وغيرها .

[1] ـ **القزويني : آثار البلاد ، ص١٨٠ .**
[2] ـ **القلقشندي : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٦٦ .**
[3] ـ **القلقشندي : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٨٠ و ج٩ ، ص١١١ .**

الفصــــل الثالث

الصناعة والتجارة

أولاً – الصناعـــة :

اعتمدت الصناعة في أتابكية دمشق على عوامل كثيرة ساعدت في نموّهـــا وازدهارهـــا وشهرتها وشدّة الطلب عليها ، ومن هذه العوامل :

– شهرة دمشق التاريخية نفسها وما لها من مركز ديني مرموق ، لاسيما وأنها قد كانـــت تتصدى لوحدها للعدوان الصليبي الغاشم على المسلمين ، وقد أدى ذلك إلى هجرة أجناس شتى من البشر إليها وإقامتهم فيها بصورة مؤقتة أو دائمة ، الأمر الذي جعلها محط آمال الكثيرين من التجار وأصحاب الصناعة والراغبين في الجهاد ، وهذا بدوره أدى إلى كثـــرة الوافـــدين عليها وبالتالي وجود مشترين لصناعتها وبضائعها .

– وقوع دمشق على طريق زوار القدس الشريف والمسجد الأقصى أو الأراضي المقدسة في الحجاز ، الأمر الذي أدى إلى نشوء صناعات خاصة فيها ، يمكن تسميتها بصناعات الحج والحجاج .

– تنوع الإنتاج الزراعي وغزارته .

– وجود المعادن المختلفة فيها .

– وجود خبرة صناعية متوارثة من أيام الفينيقيين .

وكانت الصناعة فيها بسيطة تعتمد على الإنتاج الزراعي والحيواني والمعدني ، وتتم في معظمها في مضارب البدو وبيوت الفلاحين سكان الريف وبيوت المدن نفسها مثـــل دمـــشق وصور وطرابلس وغيرها .

أما ما يمكن تسميته بالصناعات الثقيلة تجاوزاً ، مثل صناعة السكر والسفن فكانت تتم في ورشات ومعامل تشرف عليها الدولة .

ومن حسن الحظ أن كتب عن الحياة الاقتصادية في دمشق في مرحلتنا عدد من المؤرخين المختصين بالجانب الاجتماعي ، وهو أمر أهمله المؤرخون التقليديون ، فلا يذكر عنـــدهم إلا لماماً[1] .

وسنتحدث فيما يلي عن أهم الصناعات في الأتابكية مبتدئين بالصناعات الغذائية .

١ــ الصناعات الغذائية :

اشتهرت دمشق ولا تزال بصناعة الحلوى التي كانت تتم في الدور وفي المحلاّت ، وكان كل بيت في دمشق تقريباً يقوم بتصنيع مختلف أنواع الحلوى للاستهلاك المنزلي ، ولاسيّما في مواسم الأعياد والمناسبات ، ونادراً ما كانوا يشترون الحلوى الجاهزة ، بعكس ما نراه في هذه الأيام .

---

[1] ـ سترد في الصفحات التالية أسماء هذه المؤلفات وما فيها من معلومات مهمّة .

ومما ساعد على ازدهار هذه الصناعة وجود مقوّماتها الأساسية وهي السمن العربي واللوز والجوز والفستق والبندق والسكّر ، بالإضافة إلى العنصر الحاسم وهو مهارة السكان الفائقة في هذه الصناعة .

ومن هذه الحلوى المعمول بالفستق والجوز ، والناطف الذي لا يصح أكل المعمول بدونه .

والناطف مادة بيضاء شديدة الحلاوة تصنع من السكّر وكان لها سوق واسعة شمال الجامع الأموي يُعرف بالناطفانيين ولا تزال هذه الصناعة قائمة حتى اليوم ولكن على نطاق ضيق ولا يعرفها أو يطلبها إلا أهل دمشق .

ومن الحلوى الأخرى اللوزينج وهي حلاوة اللوز والكنافة والقطايف والزلابيّة – العوّامة – والسنبوسك والفالوذج .

ومما يلحق بها صناعة الدبس من العنب ، وإنتاج العسل الأسود والأبيض ، وصناعة المربيات من مختلف أنواع الفواكه ، وهذه الصناعة ما تزال حتى اليوم ، وكان مربى الورد ومربّى الحصرم ومربّى النارنج بالإضافة إلى شراب الورد والتّوت والجلاّب والعرقسوس من المواد التي يكثر عليها الطلب للتصدير لشهرتها الواسعة في محيط دمشق .

وكانت هناك رقابة شديدة على الحلوى التي تصنع في الأسواق من قبل المحتسب وأعوانه .

فقد ذكر على سبيل المثال وعاء قلي الزلابية يجب أن يكون من النحاس الأحمر الجيد ، وأنه يجب أن ينظف جيداً قبل استعماله ، ويكون ثلث الدقيق ناعماً وثلثاه من السميد الخش ، لأنه اذا كثر فيه السميد زادت الزلابية بياضاً وخفة في الوزن ونضجاً .

أما أفضل ما تقلى به الزلابية فهو السيرج – زيت السمسم – فإن لم يكن فزيت الزيتون ، واذا قليت بالزيت المعاد ، وهو الذي قلي به ، تسوّد ، ولذلك يقوم المحتسب بمراقبة الزيت ونسبة السميد في الزلابية(1) .

وقد ذكر الشيزري ضروب الغش في صناعة الحلوى فقال : إنهم يغشّون العسل بالدبس أو بالعسل الأسود والمستخرج من القصب .

---

1 - **الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، طبعة مصورة في دار الثقافة في بيروت سنة ١٩٨١م عن طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة التي حققها الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والسيد الباز العريني - ص ٢٦ .**

ومن الصناعات الغذائية في دمشق ، صناعة السكر[1] .

وتعد هذه الصناعة من أهم الصناعات في دمشق والأتابكية وفي المشرق الإسلامي عموماً ، لأن الفرنجة لم يكونوا قد سمعوا به من قبل إلا كدواء يجلب من الشرق ، حتى إن وليم الصوري قال عنه :

((إنه الإنتاج الثمين الضروري لفائدة الجنس البشري وصحته ، وكان يستخرج من القصب عسل السكر ، أو العسل الأسود ثم السكر ، وكانت صور من أشهر المدن السورية في إنتاج السكر ، ومعظم ما كان يستهلك من السكر في أوربا في القرن الثاني عشر كان يأتي من الشرق – الفرنجي[2])) .

واهتم به الفرنجة اهتماماً بالغاً وشجعوا زراعة قصب السكر ، ولم يفرضوا ضريبة على زراعته ، فامتدت زراعته على طول الساحل السوري والأغوار .

وتعلّم الفرنجة صناعة السُكّر ، وكان في عكا معصرة ضخمة للسكّر ، بالإضافة إلى مصانع عدة في السّاحل[3] .

ومن الصناعات الغذائية المشهورة بدمشق صناعة القمر الدين من عصير المشمش وصناعة تجفيف التين والزبيب والمشمش وصناعة المربيات من المشمش والجوز والتفاح والكمثرى وهي صناعة ما تزال مزدهرة حتى اليوم ، وكانت تصدّر إلى مصر والحجاز والعراق ، ومن الصناعات الغذائية الأساسية : صناعة الألبان ومشتقاتها من الجبن والسمن وغيرهما . وكان في دمشق سوق خاص للجبن[4] .

وهناك صناعة النشا من حبوب القمح ، بالإضافة إلى صناعة قد تبدو غريبة وهي صناعة طهي الطعام وبيعه للدور ولمن يرتادون المصايف والمنتزهات ، وهذا أمر أجمع عليه كل الرحالة الذين زاروا دمشق ، وربما انتشرت هذه الصناعة بسبب الفقر ، أو ارتفاع أسعار الوقود .

ومما يلحق بالصناعات الغذائية المطاحن والمعاصر ، فقد وجدت مطاحن كثيرة في مدن الأتابكية المختلفة ، وكانت تدار بواسطة البغال والثيران أو المياه بحسب توفر الأنهار في كل مدينة .

وعلى سبيل المثال ذكر ابن عساكر وجود العديد من المطاحن بدمشق وهي : طاحونة اليسار ، وطاحونة الثقفين بجوار القلعة ، وطاحونة السجن في سوق الصوف ، وكلها داخل السور . كما ذكر تسع مطاحن خارجه هي : رحا الإحدى عشرية ، خارج باب شرقي ،

---

[1] - **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص٤١ .**
[2] - **سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص ٦١٠ .**
[3] - **رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٦٠٢ .**
[4] - **ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢ ، ص٢٩٤ .**

ورحا الأشنان ، والرحا البرمكية ، ورحا ابن أبي الحديد ، وطاحونة الدباغة ، خـــارج بـــاب توما ، والرحا الزبيرية والسميرية ، ورحا المنشر غربي القلعة ، والرحا النورية عند ربـــاط أبي البيان ، وطاحونة الأشعرية .

كما ذكر معصرتين للزيت في دمشق ، ومعاصر في قراها ولا سيما برزة وكفرسوسة ، وهذه المعاصر تنتج الزيت والسكر والدبس وزيت السيرج وغير ذلك[١] .

٢ــ الصناعات النسيجية :

توفرت في الأتابكية جميع المواد الأولية للصناعات النسيجية وهي الصوف والقطن وشعر الماعز والكتان والحرير والأصبغة والخبرة اليدوية العالية ، وهذا ما دفع البدريّ إلى القول : ((إن من محاسن الشام ما يُصنع فيها من القماش والنسيج علـــى تعـــداد نقوشـــه وضـــروبه ورسومه))[٢] .

- ومن ذلك صناعة القماش الأصلي على اختلاف أنواعه .
- و صناعة القماش الهرمزي بأنواعه .
- والقماش القطني الأبيض .
- والقماش السابوري اللامع بجميع ألوانه .
- وفيها صناعة الحرير .
- وكانت المناطق الساحلية من أهم مراكز إنتاج دودة القز .
- وكان الكتان الجيد يزرع في غوطة دمشق وفلسطين ولا سيما نابلس .
- و صُنّع الحرير الشامي في عكا وبيروت[٣] .
- واشتهرت صور بالمنسوجات المعروفة باسم صندل وفي صناعة الصباغة .
- وفي دمشق صناعة الديباج والألاجا والديما وكان للأخيرة حي مشهور بدمشق في العصر العثماني يدعى حي الديماجيّة .
- وأنشئت في عكا مراكز لصناعة الحرير الطبيعي .
- وكان في دمشق ثلاثة أسواق متجاورة هي سوق القطن والـــصوف والغـــزل جنوبي سوق الفسقار ، حيث ما تزال إلى اليوم .
- ومن الصناعات النسيجيّة التي اشتهرت بهـــا دمـــشق ، ولا تـــزال صـــناعة العباءات في سوق العبي – مدحت باشا اليوم – والفراء الفاخرة للملـــوك والأمـــراء والبدو والعامة والفلاحين في سوق الفرايين خارج باب توما .

---

[١] ـ ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ـ الصفحات : ٢٩٠ ـ ٢٩٦ ، ٣٠٠ ــ ٣١١ .
[٢] ـ البدري : نزهة الأنام ، ص٢١٤ .
[٣] ـ محمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية ـ بيروت ، دار الفكر ١٩٩٣ ، ص ٢١٤ .

– ومن الصناعات الملحقة بالصناعات النسيجية صناعة الطواقي والأقباع في السوق الذي عرف فيما بعد بسوق (القلبقجية) في سوق الحرير ، وكانت الطواقي للرجال والنساء بينما كانت الأقباع للبدو والفلاحين . ومما يلحق بهذه الصناعة صناعة البسط والسّجاد والخيام ولا سيّما للحجاج[١] .

– وبجوار هذه الأسواق الثلاثة كان سوق الأبارين والخياطين والحبّالين ، بالإضافة إلى أسواق كثيرة أخرى ملحقة بهذه الأسواق ، عرضناها مفصّلة في بحث الأسواق في الصفحات التالية .

– وكانت رام الله تنتج أحسن أنواع الحجب النسائية في العالم الإسلامي .

– وكانت حمص تنتج كمية كبيرة من القماش بأسعار زهيدة .

– وامتازت بعلبك بألبسة الإحرام الفاخرة وملابسها المعروفة بالبعلبكي والثياب البلعيسية نسبة إلى البلعاس[٢] .

وكانت المنسوجات الحريرية السورية تحظى باهتمام الدولة البيزنطية وكان لها وللتجار السوريين قوانين خاصة .

فقد اشتُرط على تجار المنسوجات الحريرية السورية المقيمين في القسطنطينية أن يخضعوا لإشراف رئيسٍ يعينه والي المدينة ، وألا يشتروا من السلع إلا أصناف الملابس المستوردة من سورية ، ومن خالف ذلك طرد من نقابة تجار المنتوجات النسيجية .

ومن الشروط الأخرى أن ما يستورده تجار المنسوجات الحريرية السورية من السلع ، ينبغي إيداعها في أحد الخانات حتى يجتمع التجار لشرائها ويسري ذلك على ما يرد من سورية من السلع الإسلامية من الملابس الداخلية والعباءات المخططة أو السلع الملوّنة بألوان الطيف أو الأثواب ذوات الأكمام أو الأثواب البغدادية .

وكان ينبغي على التجار أن يجتمعوا في ذلك الخان وأن يتقاسموا السلع من التجار السوريين الذين بلغت إقامتهم بالعاصمة عشر سنوات متوالية ، وينبغي على التجار السوريين أن يقيموا معاً بالخان ولا يتفرقوا في أنحاء المدينة .

وعلى التجار السوريين المقيمين في القسطنطينية أن يشتروا معاً كل ما يرد من سورية من منتجات نسيجيّة حريرية أياً كانت صفتها وكميتها ما دامت تشتمل على الملابس ، أما إذا اشتملت على عطور أو أصبغة ، فعلى تجار العطور أن يشتروها[٣] .

---

[١] ـ البدري : المصدر المتقدم ، ص٢١٤ .
[٢] ـ المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٦٥ ـ ١٨٠ ـ ١٨١ .
[٣] ـ السيد الباز العريني : والي المدينة ، الذي نشر ملحقاً بكتاب الشيزري نهاية الرتبة ص ١٥٤ وما بعد حتى الآخر .

وعلى التجار السوريين ألا يقيموا في الخانات أكثر من ثلاثة شهور ويقومون خلال تلك المدة بتصريف بضائعهم وشراء ما يرغبون فيه من البضائع .

فإذا تبقى معهم فائض من تجارتهم وبضائعهم ، فعلى هؤلاء التجار أن يرفعوا أمرهم إلى والي المدينة حتى يقوم بتصريف هذا الفائض وكل من يجرؤ على تجاوز هذا الأمر يتعرّض للجلد وقص الشعر والمصادرة[١] .

ويُفهم من ذلك أنه كان في القسطنطينية تجار سوريون مقيمون ، لهم حقوق تجارية ، وآخرون غير مقيمين ، وأن الجميع كانوا تحت رقابة البيزنطيين .

وأن التجار الآخرين كانوا يبيعون تجاراتهم إلى إخوانهم السوريين المقيمين ، فإذا لم يتم بيعها في الوقت المحدّد ، كان الوالي يبيعها بأسعار أدنى ، ولا يلزمون التجار المقيمين بشرائها .

٣ـ الصناعات المعدنية والآلية :

وفي مقدمتها صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمرصوع ، وصناعة الحلي والمجوهرات من المعادن الثمينة ، وكان يشارك في هذه الصناعة اليهود والنصارى ، وكان سوقهم ولا يزال لصيق بالجامع الأموي .

ففيه صناعة السلاح ولا سيما السيوف بأنواعها ، وكان لدمشق شهرة خاصة بهذه الصناعة .

وكذلك صناعة النحاس من الضرب والتفصيل والنقش والزخرفة ، وكان معظم صنّاعه من اليهود ، وكان يصنع في سوق النحاسين ويباع في سوق الصفّارين .

وفيه تصنع الألواح المصقولة ، والجفان النحاسية للطعام .

وكانت كل صناعة من هذه الصناعات تمرّ على عشرة صنّاع حتى تكتمل .

ومن الصناعات الآلية ما كان يعرف بعلم الحيل ، ومنه صناعة البنكانات أو البنكامات وهي الساعات الكبيرة الجدارية التي كانت توضع على أبواب المساجد والمدارس والساحات العامّة[٢] . .

وكان على جدار الباب الشرقي للجامع الأموي ساعة دقاقة ضخمة ، وقف أمامها ابن جبير مذهولاً . وقد صنعت هذه الساعة في أيام نور الدين الأخيرة ، صنعها له الشيخ محمد ابن علي الخراساني .

وقال ابن جبير إن فيها طيقاناً من النحاس ، كلما مضت ساعة من النهار دقّت هذه الساعة دقة واحدة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً ، وفي الليل تضاء كل ساعة واحدة من الدوائر

---

١ ـ السيد الباز العريني : المصدر المتقدم ، ص١٥٥ .
٢ ـ انظر نهاية الرتبة للشيزري .

الاثني عشرة من مصباح يدور به الماء على ترتيب عجيب وذلك حتى تشرق الشمس وتقرع الطيقان النحاسية ، ولهذه الساعة قيم يتفقد أحوالها بصورة دائمة[1] .

ومن الصناعات المعدنية صناعة القناديل والسُّرُج وأدوات الطعام ، ومن النحاس والخشب والفخار ، بالإضافة إلى صناعة الآلات الزراعية من المحاريث والمساحي وما إليها .

وكذلك صناعة الأُبر والمسلات في سوق الأبارين بدمشق بين العمارة والمناخلية ، وصناعة المناخل والغرابيل والأقفال ، وهي الأقفال الخشبية التي كانت تقفل بها أبواب البساتين في غوطة دمشق .

ومن الصناعات الخشبية الأخرى صناعة كراسي المصاحف الشريفة المزخرفة والمحفورة ، وصناعة الصناديق الخشبية المحفورة والمزينة بالصدف والتي كان يوضع فيها (جهاز العروس) .

وحتى تكون لدينا فكرة واقعية عن هذه الصناعات ، نشير إلى الحاجز الخشبي الذي كان في جامع باب المصلى بدمشق والمحفوظ حالياً في متحف دمشق الوطني[2] .

والحاجز من خشب الجوز ، وفي القسم الأعلى منه لوحة مهمة مزينة بكتابة كوفية رصينة ، نفذت على مهد من الزخارف النباتية المخرّمة ويعود تاريخها إلى سنة ٤٩٧هـ – ١١٠٣م .

وفي القسم الأسفل لوحة مستطيلة مزينة بتأليف لطيف من الزخارف الهندسية الدقيقة والبارزة ، ولوحة مؤلفة من الخشب المخروط .

أما جسم هذا القسم فيتألف من عشر مشربيّات ضخمة زُين وجهها بزخارف نباتية دقيقة .

وقياس هذا الأثر ٢٩٢ سم × ٢٤٨ سم[3] .

ومن الآثار الخشبية النادرة منبر المسجد الأقصى المبارك الذي بناه نور الدين ، ووضعه في مكانه السلطان الناصر صلاح الدين ، وأحرقه اليهود سنة ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م[4] .

وفي مساجد دمشق ومدارسها التي عُمرت في مرحلة الدراسة ، مثل المدرسة النورية في الخياطين والخاتونية في كيوان ، والطاووسية وجامع التوبة وغيرها نماذج أخرى من فن الحفر على الخشب في دمشق .

---

[1] - ابن جبير : الرحلة ، ص٢٧٢ .

[2] - مجموعة مؤلفين : متحف دمشق الوطني - دمشق ١٩٦٩م ، ص٢٤٩ .

[3] - انظر صورته في اللوحة ذات الرقم ٨١ من المصدر المتقدم ، وفي الصفحة أ من أول الكتاب المذكور - المقدمة .

[4] - رائف نجم وآخرون : كنوز القدس - عمان ١٤٠٣هـ ، صفحة ٧٨ - ٧٩ .

ومن الصناعات الخشبية الأخرى صناعة الأبواب والنوافذ وهي صناعة على درجة عالية من الكمال ، يمكن مشاهدتها بوضوح في أبواب الجامع الأموي ونوافذه المزينة والمزخرفة ، وكذلك صناعة المفروشات المختلفة للدور والقصور والمساجد .

وصناعة العلب الخشبية التي كانت تستخدم لوضع اللبن الرائب أو الحلوى ، وكانت تصنع وتباع في سوق العلبية في مأذنة الشحم بدمشق ، الذي بقي هناك أمداً طويلاً ، ومن هذه العلب ما يدخل فيه الصدف والخيوط النحاسية والفضية وتوضع فيها المربيات والحلوى الدمشقية ، ولا تزال هذه الصناعة مزدهرة حتى اليوم .

وهناك صناعة (القباقيب) في سوق القباقبية الذي كان شمال الجامع الأموي في مرحلة الدراسة ، ثم نقل إلى جنوبه فيما بعد ، ويلحق بهذه الصناعة صناعة السيور الجلدية ، ومن هذه القباقيب أصناف كثيرة ، ولا سيما ما كان منها مخصّصاً للنساء ، حيث كانت تدهن بمختلف الألوان وتزخرف وتكون مرتفعة عن الأرض .

وهناك صناعة خراطة الخشب في سوق الخراطين ، وعمل الكراسي الخشبية المنجّدة بالقش ، والتي لا تزال حتى اليوم .

ومما يلحق بالصناعات الخشبية صناعة السلال والأخصاص من القصب ، والأخصاص حواجز توضع في الدور عادة لتحجب النسوان عن أعين المارّة والمتطفلين ، وكانت تصنع وتباع في سوق الأخصاصيين خارج باب النصر .

وكذلك صناعة النطع في سوق النطاعين بالعمارة ، والنطع هي الصحون والأطباق والصواني المصنوعة من القش الملوّن .

وهناك صناعات أخرى متفرقة مثل صناعة السُّروج ولوازم الدواب من اللباد والحبال والزينة ، وصناعة التطريز بالذهب في سوق المطرزين حول الأموي[١] .

٤ــ الصناعات الكيماوية والعطرية :

كان لأتابكية دمشق شهرة عالميّة في استخراج العطور من النباتات ، ولاسيّما الورد الذي كان يزرع في كل مكان في غوطة دمشق والزبداني وما يتبعها .

وكان لدمشق شهرة خاصة بتقطير ماء الورد ، وقد وصف شيخ الربوة بالتفصيل التام طريقة التقطير ورسم أدواته وكيفية عملها وكانت آلة التقطير تدعى بـ (الكركة) جمعها كركات[٢] .

وكان ماء الورد يحمل من المزّة إلى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز واليمن والعراق ومصر والهند والسند والصين .

---

[١] ـ **انظر فيما يلي : بحث أسواق دمشق .**
[٢] ـ **شيخ الربوة : نخبة الدهر ، ص٢٦١ .**

ويقول شيخ الربوة إنه بيع بدمشق في سنة ٦٦٥هـ -١٢٦٧م من الورد المزروع في أرض مساحتها ١١٠ × ٧٥ خطوة تسمى شور الزهر ، بيع عشرون قنطاراً من الورد بـ ٢٢,٠٠٠ درهم ، وهو ما لم يُسمع في أي مكان(١) .

ومما يلحق بهذه الصناعة ، صناعة تجفيف وحفظ زهر البيلسان الذي استهوى الفرنجة ، لأنهم كانوا يستخدمونه أساساً في طقوس الكنيسة ، ولذلك زرعت كمية هائلة من البيلسان حول بيت المقدس(٢) .

ومن الصناعات الكيماوية صناعة الصابون .

والتي تعد صناعة الصابون من أقدم الصناعات في بلاد الشام وذلك بسبب وجود زيت الزيتون الفاخر فيها ، بالإضافة إلى انتشار الحمامات على نطاق واسع .

وكانت مدن فلسطين ولاسيّما نابلس مشهورة بصابونها الممتاز ، وعلى الرغم من عدم معرفة الزمن الذي انتشرت فيه هذه الصناعة بالتحديد ، فإن من المؤكد أن الصليبيين لم يعرفوا صناعة الصابون قبل حملاتهم العسكرية على المشرق الإسلامي ، بعكس البيزنطيين الذين عرفوه وشددوا الرقابة على الذين يصنعونه دفعاً للغش(٣) .

وقد ذكر المقدسي أن من صادرات فلسطين الزيت والصابون ، لكنه ذكر قبل ذلك عند حديثه عن الرقّة أنّها معدن الصابون الجيد والزيتون . وهو مالا نراه اليوم فيها(٤) .

وذكر ابن حوقل أن بالس على الفرات ، أول مدن الشام في صناعة الصابون الكثير الغزير الجيد ، وقد انتقل منها إلى حلب التي صارت من أهم مراكز إنتاج الصابون في الشام ولا تزال كذلك .

وذلك أنّ ممّا اختصت به حلب الصابون الذي يُحمل إلى بلاد الروم والعراق وديار بكر وهو أفضل الصابون ، ويُباع فيها في اليوم الواحد منه ما لا يباع في غيرها في شهور .

ومن الصناعات الكيماوية التي اشتهرت بها دمشق منذ القدم صناعة الأصبغة التي كان يُستخرج قسم كبير منها من مادة (الفوّة) التي كانت منتشرة في بلاد الشام ، وكانت تجمّع في دمشق بخان يُعرف بخان الفوّة في البزورية(٥) .

والملاحظ أن معظم العاملين بصناعة الأصبغة كانوا من اليهود بدمشق ، بل إنهم كادوا يحتكرونها بالكامل .

---

١ - **شيخ الربوة : المصدر المتقدم ، ص٢٦٥ .**

٢ - **رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٦٠٤ .**

٣ - **الشيزري : نهاية الرتبة ، الملحق ، ص١٦٤ .**

٤ - **المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٢٥ - ١٥٥ .**

٥ - **وثائق المحاكم الشرعية بدمشق - السجل ٦٣ ، الصفحة ٢٤٠ الوثيقة ٦٤٣ ، وقد قام إسماعيل باشا العظم بهدم هذا الخان وبنى لنفسه مكانه خاناً يعرف بخان الرز ، بجوار خان والده أسعد باشا العظم من جهة الجنوب.**

وقد ذكر بنيامين التطيلي اليهودي في رحلته شذرات من ذلك فقال :

((وفي القدس معمل للصباغة ، يستأجره اليهود من ملك القدس الفرنجي سنوياً فتنحصر بهم هذه المهنة دون غيرهم ، وفي بيت لحم أحد عشر يهودياً يحترفون الصباغة ، ويقيم في قرية بيت النبي ، يهوديان يحترفان الصباغة ، وفي يافا يهودي واحد ، وهو يعمل بالصباغة ، وفي القريتين صباغ واحد يهودي[١])) .

ومما يلحق بهذه الصناعة الكيماوية ، صناعة الزجاج ، فقد ذكر (رنسيمان) أنه كان بأيدي اليهود معظم صناعة الزجاج ، وكان السامرة في نابلس يعتمدون على هذه الصناعة وكذلك صناعة الفخار الموشى والمدهون بأنواعه[٢] .

وتشمل هذه الصناعة ألواح الزجاج الملوّن الفاخر الذي نراه اليوم فوق محراب الجامع الأموي والصناعات الزجاجية المعدّة للاستعمالات اليومية أو لحفظ العطور والمواد الأخرى .

وفي المتحف الوطني بدمشق نماذج عديدة لأنواع الصناعات الزجاجية ذات الأشكال الاسطوانية والبيضوية المزينة باللون الأبيض والأزرق في انسجام بديع ، بالإضافة إلى اللون السماوي والأصفر والبني ، وهي من روائع الزجاج غير الشفاف .

وصُنعت الأقداح والأواني والكؤوس والقناديل من الزجاج واستعمل الجبس في تثبيت الزجاج ، وزينت هذه الأدوات بالرسوم المشجرة والكتابات العربية المحفورة فيها .

وقد كان الصليبيون يتباهون باقتناء نماذج من هذه الروائع الدمشقية في قصورهم وكنائسهم[٣] .

وشاركت حلب في صناعة الزجاج غير الشفاف المصنوع بطريقة النفخ في القوالب ، وفي متحف دمشق نماذج نادرة من هذا الزجاج الحلبي الملوّن .

وعلاوة على ذلك فقد انتشرت صناعة الزجاج المدهون ، والمرايا الزجاجية ، والتي لم يكن يعرفها الفرنجة عندما جاؤوا ، وكان مركز صناعتها الأول في صيدا ، وبلغ من شهرة الزجاج الدمشقي أن أطلق الأوروبيون اسمه على كل التحف الزجاجية الفنية الآتية من الشرق .

وكان اليهود يسيطرون على صناعة الزجاج في الشام في عصر الحروب الصليبية ، ولاسيّما في صور وإنطاكية .

---

[١] ـ **بنيامين التطيلي ، الرحلة : الصفحات ٢٤٧ ـ ٢٥٦ ـ ٢٦٠ ـ ٢٦١ ـ ٢٧٧ بالتسلسل .**

[٢] ـ **رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص٤٧٣ .**

[٣] ـ **متحف دمشق الوطني : المصدر المتقدم ، صفحة ٢٧٩ .**

وذكر وليم الصوري ((أن مدينة صور كانت أهم مدينة في الشام لصناعة الزجـاج ذي النوعية الممتازة جداً التي كانت تحمل إلى الأماكن البعيدة وتتفوق علـى جميـع الـصناعات الأخرى المنافسة ، ولاسيما المزهريات المشهورة بشفافيتها[1])) .

ومما يلحق بهذه الصناعة صناعة الخزف والفخار من الطين والتي تأثر فيها أهل الـشام بصناعة أهل الصين والفرس ، وقد تطورت هذه الصناعة كثيراً في الحقبـة التـي ندرسـها ووصلت إلى أرقى مستوى لها .

وكانت الرقة مركز هذه الصناعة وكان أهل دمشق ينقلونه إليها تمهيداً لتـصديره حتـى نافس مثيله في الريّ وقاشان ، أي في ايران .

وفي متحف دمشق نماذج عديدة لهذه الصناعات ، وفي دار الآثار العربية بالقاهرة قطـع خزفية كبيرة إحداها عبارة عن لوحة كبيرة من القاشاني المصنوع في دمشق .

وفي مساجد دمشق التاريخية ، ولاسيما جامع التيروزي نماذج رائعة من هـذا الخـزف الذي لايزال حتى اليوم على شكل بورسلان أقيم في الجدار القبلي ، إضافة إلى كتابات كوفية جميلة بالقاشاني الذي كان يصنع في دمشق .

ومن الصناعات الملحقة بالصناعات الكيماوية صناعة الشمع الذي كـان يـستخدم فـي الأغراض الطبية والإنارة ، وكان عصب الحياة اليومية في دمشق ، وكان يُصنع ويباع فـي سوق الشمّاعين جنوب مأذنة الشحم ويستخدم بكثرة في المساجد والكنائس والدور ، كما كـان ولا يزال يوضع على قبور الأولياء والصالحين[2] .

ومن أشهر الصناعات الكيماوية في دمشق صناعة الورق أو الكاغد ، ويـذكر الأسـتاذ السامرائي أن أول معمل للورق أسّس في فرنسة ، ذلك الذي أسسه المـدعو (جـان مونـت جولفية) في جنوب غرب فرنسة سنة ٥٤٢هـ – ١١٤٧م ، وكان المذكور قد شـارك فـي الحملة الصليبية الثالثة وأُسر في دمشق طويلاً ثم أقام فيها واطلع على صناعة الـورق فيهـا فنشرها في بلاده[3] .

وعلى الرغم من أن صناعة الورق نشأت في الصين قبل الميلاد ، فإن دمشق اشـتهرت بها وبدأت بصناعتها من الكتان والحرير والقطن منذ العصر الأموي ، ثـم تطـورت هـذه الصناعة حتى أصبحت دمشق تصدّر الورق ، وقد تحدثت المصادر عن حمولة ٢٨ جملاً من دمشق كانت محملة بالورق الذي يحمل علامة – ماركة – ابن الامام بدمشق ، وفي الوقـت نفسه أرسل هذا التاجر ٢٠ بالة من الورق الدمشقي إلى مصر عن طريق صور .

---

[1] **ـ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص٦٠٣ .**

[2] **ـ متحف دمشق الوطني : المصدر المتقدم ، صفحة ٢٧٩ وما بعد .**

[3] **ـ قاسم السامرائي : الطباعة العربية ، دبي ١٩٩٦ ، ص ٤٨ .**

وكان هذا الورق على أنواع شتى بحسب الاستعمالات فكان هناك ورق الطير الذي كان يستخدم في كتابة الرسائل عن طريق الحمام الزاجل ، وسبق أن ذكرنا أن نور الدين كان أول من استخدم هذه الطريقة في الشام .

وذكر القلقشندي أنه كان ثمة أنواع من الورق هي : الورق الأحمر الشامي ، والورق الشامي العادي الذي يأتي بعد البغدادي في الجودة ، والورق البغدادي ، والورق البلدي ، والورق الفرنجي ، والورق المصري ، و الورق الأزرق ، والورق الأصفر ، والورق الأحمر ، ولكل من هذه الأنواع استعمالات خاصة[١] .

وكان الورق في دمشق يصنع فيما يسمى بـ الورّاقات ، وكان فيها في عهد نور الدين وما بعده ثلاث وراقات ، ذكر ابن عساكر واحدة منها ، وذكرت الثانية في وقف المدرسة النورية بدمشق .

فقد ذكر ابن عساكر في معرض حديثه عن المساجد الواقعة شمالي البلد قوله : ((مسجدٌ عند عين كمشتكين والورّاقة القديمة))[٢] .

وهذا الموقع خارج باب السلامة – السلام– في زقاق يعرف بزقاق العين إلى الجنوب تماماً من جامع مسجد الأقصاب في السادات .

وذكر الدكتور صلاح الدين المنجد أنه زار المنطقة سنة ١٩٤٨م وهي أي العين تقع آخر زقاق ضيق متعرّج ينتهي بطاحون تسمى طاحون العين وبجانبها عين ينزل إليها بدرج ما تزال فائضة هي عين الورّاقة أو عين كمشتكين بجوار نهر العقرباني[٣] .

فهذه هي الورّاقة الأولى بدمشق ، وقد ورد ذكرها أيضاً في وقف المدرسة النورية بدمشق المدوّن على بابها ، وفيه :

((والحمامين المستجدّين بالوراقة خارج باب السلامة))[٤] .

وأما الوراقة الثانية ، فهي ورّاقة العوينة شمالي قلعة دمشق خارج السور حيث بنيت فيما بعد المدرسة الشامية الكبرى في حي سوق ساروجة .

وقد ورد ذكرها في النص المذكور آنفاً حيث جاء :

((والورّاقة بعُوينةٍ الحمى)) .

---

[١] ـ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٨ ، ص٥٦ و ١٥ ـ ٢٠٥ .
[٢] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢ ، ص٣١٣ .
[٣] ـ صلاح الدين المنجد : خطط دمشق ـ بيروت ، ١٩٤٩ ، ص ١١١ .

[٤] ـ أكرم العلبي : خطط دمشق ـ دمشق ١٩٨٩م ، ص٢٢٥ وقد نشرنا النص المدون فوق باب المدرسة النورية في ملحق البحث ، وقد زرت المدرسة وقرأت النص المذكور .

وهي شمالي دار البطيخ القديمة وفي تلك المنطقة عين كانت تعرف بعين علي لعلّها هي العُوينة .

وتاريخ الكتابتين المذكورتين هو سنة ٥٦٧هـ - ١١٧١م .

وثمة وراقة ثالثة بجوار التربة المعزّية بالشرف الشمالي غربي جامع الطاووسية ، وكان بجوارها عين تسمى عين الوراقة قرب نهر بردى[١] .

وقد حدد الشيخ محمد دهمان موقع عين الوراقة في ملحق كتاب القلائد الجوهرية . ويقع اليوم بالتحديد عند مكان حجز السيارات في أول شارع بيروت ، فهذه هي الورّاقات الثلاث بدمشق .

وذكر المقدسي أن حوانيت الورّاقين كانت على عهده في سوق الجامع الأموي الغربي – المسكية اليوم – .

ومما يلحق بصناعة الورق ، صناعة التجليد وفن الخط والزخرفة والتي نرى آثارها اليوم في المصاحف والمخطوطات الكثيرة المنتشرة في دور الآثار والمكتبات الكبرى ، وقد بلغت صناعة التجليد ذروتها في العصر المملوكي .

وأخيراً لابد من الإشارة إلى أن تدوين كتاب ضخم في مرحلتنا ، يقع في ثمانين مجلد ، هو تاريخ دمشق ، يدل على توفر الورق الجيد في دمشق .

ثانياً ـ النقود والأوزان :

١ـ النقود المتداولة :

كانت النقود المتداولة في دمشق هي الدنانير والدراهم والفلوس والقراطيس .

وكانت الدنانير وهي من الذهب ، تضرب في القاهرة وبغداد فقط ، وذلك قبل وصول الحملات الصليبية إلى الشام .

ولذلك كانت الدراهم الفضية أكثر انتشاراً واستعمالاً ، وكانت نسبتها العادية إلى الدينار هي ١٣ درهماً لكل دينار[٢] .

وكانت هذه النسبة غير ثابتة تماما ، وإنما يعتريها التغيير المستمر بحسب الأوضاع الاقتصادية والسياسية .

وعلى سبيل المثال فإنه عندما فتح أتسز الخوارزمي القدس سنة ٤٦٩هـ- ١٠٧٧م بعد مقاومة عنيفة ، قرر على أهلها أموالاً طائلة ، وأخذ منها مالا يسعه الحصر من الدراهم الفضية ، حتى أن هذه الدراهم بيعت بدمشق بواقع ٥٠ درهماً بدينار واحد[٣] .

---

١ ـ **المنجد : المصدر المتقدم ، ص ١١٢ .**
٢ ـ **رنسيمان : المصدر المتقدم ، ج٣ ، ص٦١٨ .**
٣ ـ **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٨٠ .**

وذكر ابن العبري أن امرأة بدمشق سنة ٤٦٩هـ– ١٠٧٧م باعت دارها بـ ١٤ قيراطاً ، وقد فسّرها فقال أي بـ ٧ دراهم وهذا يعني أن الدينار كان يساوي في الأحوال العادية ١٣ درهماً[١] .

وكان الدينار يقسم عادة إلى ١٤ قيراطاً .

وعندما جاء الفرنجة ، ورأوا نقص الدنانير المتداولة مع شدة حاجتهم إليها ، عمدوا إلى ضرب الدنانير الذهبية في القدس وصور وانطاكية فقط ، واحتكر ملوكهم حق الضرب في هذه المدن الثلاث ، وأعطوا الجاليات الايطالية وما شاكلها حق ضرب الفلوس فقط .

وقد حصل الصليبيون على معدن الذهب اللازم من الجزية التي كانوا يفرضونها على مدن الشام ، كما كان التجار يبيعونهم الذهب بأسعار عالية ، وكانوا يستوردونه من السودان وأفريقيا[٢] .

وكان عيار هذه الدنانير ١٦/ ٢٤ قيراطاً ، وكانت نسخة طبق الأصل من الدنانير الفاطمية مع اختلاف العيار فقط ، وقد عرفت تلك الدنانير باسم الدنانير الصورية نسبة إلى مدينة صور التي كان فيها دار كبرى للضرب قبل وصول الفرنجة ، واستمر عمل هذه الدار وتوسّع بعد سقوطها بيدهم سنة ٥١٨ هـ– ١١٢٤م ، وكانت هذه الدنانير الصورية هي المتداولة في الشام طوال المرحلة الدراسية التي نحن بصددها .

والطريف أن هذه الدنانير في إصداراتها الأولى نقشت عليها كلمات وتواريخ باللغة العربية كما نقش عليها اسم السلطان المسلم وآية من القرآن الكريم ، ثم نقش عليها الصليب لتمييزها عن الدنانير الفاطمية[٣] .

وقد سمّاها الفرنجة : الدنانير الإسلامية Saracente Besants .

ثم عمد الفرنجة إلى ضرب دنانير خاصة بهم على أحد وجهي الدينار صورة الملك الفرنجي وتاريخ الضرب ، وعلى الوجه الآخر صورة القديسين بولس وبطرس وإشارة الصليب[٤] .

وفي المتاحف الإسلامية نماذج من الدينار الفاطمي تعود إلى سنة ٥١٨هـ– ١١٢٤م وعليه اسم الآمر بأحكام الله[٥] .

وحتى سنة ٥٣٠هـ – ١١٣٦م لم تكن قد ضربت الدنانير في دمشق ، وذلك لأن السكّة كانت من أهم علامات الخلافة .

١ - **ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص١١٥ .**
٢ - **رنسيمان : المصدر المتقدم ، ج٣ ، ص٦١٨ .**
٣ - **القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٥٠٨ .**
٤ - **رنسيمان : المصدر المتقدم ، ج٣ ، ص٦١٩ .**
٥ - **قتيبة الشهابي: نقود الشام - وزارة الثقافة بدمشق سنة ٢٠٠٠ ، ص ١١٦ .**

وفي أواخر تلك السنة حضر إلى دمشق المدعو (الأصمعي الشهابي) والتمس من الأمير شهاب الدين محمود بن بوري الإذن له بضرب الدينار في دمشق على أن يكون عياره نصف وربع وثمن (٢١ قيراطاً) من الذهب الخالص والباقي من الفضة والنحاس ، وألح على المسؤولين في ذلك حتى أُجيب إلى سؤله وضرب الدينار وعليه اسم الإمام الراشد والسلطان مسعود ، وشهاب الدين محمود ، حاكم دمشق[١] .

وفي سنة ٥٤٠هـ – ١١٤٥م ضرب مجير الدين أبق دنانير ذهبية باسمه في دمشق ، وعليها اسم الخليفة والسلطان .

وعندما تصالح مع نور الدين سنة ٥٤٥هـ– ١١٥٠م ضرب نقوداً جديدة عليها اسم السلطان نور لدين ، تعبيراً عن خضوعه له ، وتتويجاً للاتفاق الودي بين الرجلين[٢] .

وكانت تضرب أحياناً دنانير للمناسبات الخاصة ، مثل الدنانير التي ضربها الخليفة المستضيء العبّاسي لنور الدين والتي كان واحدها يعادل عشرة من الدنانير الصورية[٣] .

ونبين فيما يلي أسماء المدن التي كانت تضرب فيها الدنانير في أتابكية دمشق بحسب تسلسلها الزمني[٤] .

–	صــور	منذ سنة ٤٣٠هـ
–	طرابلس	منذ سنة ٤٦١هـ
–	عكـا	منذ سنة ٤٦٢ هـ
–	طرابلس أيضاً	في سنة٤٦٣هـ
–	طرابلس أيضاً	في سنة٤٧٠هـ
–	طرابلس أيضاً	في سنة ٤٧٥ هـ
–	عسقلان	منذ سنة ٥٠٧هـ
–	أيلة	منذ سنة ٥١٤ هـ
–	دمشق	منذ سنة ٥٣٠ هـ
–	دمشق	في سنة ٥٤٠ هـ
–	دمشق	في سنة ٥٤٥هـ

أما القرطاس فهو من أقدم النقود الورقية في العالم ذلك أن المسلمين استخدموا الطباعة بواسطة قوالب الخشب منذ القرن الثالث الهجري ، وطبعوا بها الكتب بما في ذلك المصحف الشريف والأدعية وحتى أوراق اللعب ، وهذا ما يؤكده اكتشاف خمسين وثيقة من الوثائق

---

١ - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٠٥ .**
٢ - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٨٠ .**
٣ - **الفتح البنداري : سنا البرق الشامي ، ص ١٣٨ .**
٤ - **محمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية ، ص٤٢٧ .**

العربية المطبوعة على الكاغد في واحة الفيوم في مصر ، وأكثرها موجود اليوم في متحـف فيينا[1] .

وكان أصحاب الشأن في دمشق ، قبل عصر نور الدين قد أصدروا (قراطيس) مطبوعة بالقوالب الخشبية ، وكانت في حجم الكف وعليها خاتم السلطان ، وكانوا يبيعونهـا بالـدراهم والفلوس ، ثم توقفوا عن إصدارها ، وعندما جاء نور الدين ، فكر باصدار قراطيس جديـدة سميت القراطيس السود ، فاستنكر الشيخ عبد الله اليونيني الذي كان يلقب بأسد الشام ، استنكر ذلك وقال :

– انظروا الى هذا الشيخ – يعني نور الدين – الفاعل والصانع ... يُفسد علـى النـاس معاملاتهم ... فبلغ كلامه نور الدين فأبطلها واكتفى بإصدار الدراهم والفلوس[2] .

وذكر ابن بطوطة فيما بعد أن أهل الصين لايتبايعون بـدرهم ولا دينـار إنمـا بـيعهم وشراؤهم بقطع كاغد (ورق) كل قطعة قدر الكف وعليها خاتم السلطان ، وكل عشرين منها بدينار ، وإذا مُزّقتْ بيد إنسان حملها إلى دار السكة فأخذ عوضاً عنها ، بدون مقابل[3] .

ويمكن أن نعد هذه القراطيس أقدم عملة ورقية في العالم . أما قيمة هذه القراطيس فكانت تقريباً تتراوح بين ٦٠ – ٦٧ قرطاساً للدينار .

وعندما دخل نور الدين دمشق ، كان الناس يتعاملون بالقراطيس على أساس أن كـل ٦٠ قرطاساً تساوي ديناراً واحداً وحضر جماعة من التجار الى نور الدين فـشكوا إليـه تذبـذب أسعار القرطاس بالنسبة الى الدينار وقالوا :

إن تعامل التجار فيما بينهم قائم على اعتبار الدينار يساوي ٦٠ قرطاساً ، ولكنـه يرتفـع أحياناً الى ٦٧ قرطاساً فيخسرون الفرق ، وأشاروا على نور الدين بضرب الدينار الذهبي في دمشق وإلغاء القراطيس نهائياً .

فقال لهم : ((إذا فعلتُ ذلك فكأني خربت بيوت الرعيّة ، فإن كل واحد من السّوقة عنـده ١٠,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠ قرطاس أيش يعمل بها ، فيكون سبب خراب بيته))[4] .

وكان الدينار ، كما صرح التجار صورة لاحقيقة لها في الواقع ، ولم يكن أحد مـثلاً يصرف الدينار بالقرطاس أو العكس ، وإنما تم التعارف بين التجار على ، إطلاق اسم الدينار على كل ٦٠ قرطاساً في التعامل التجاري ، كما كان يطلق اســم (الكـيس) فــي العـصر العثماني على كل ٥٠٠ قرش .

---

[1] ـ **السامرائي : الطباعة العربية ، ص٤٨ وما بعد .**
[2] ـ **أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص١٢٥ .**
[3] ـ **ابن بطوطة : الرحلة ـ الرباط ١٩٩٧ م ، ج٤ ، صفحة ١٢٩ .**
[4] ـ **أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٦٤ .**

أما القيمة الشرائية للقرطاس هذا فكانت عالية حيث كان مصروف نور لدين الشهيد الشهري لكسوته ونفقه ومأكله ومشربه لايتجاوز (٢٠٠٠) قرطاس ، أو قرطيس كما كان يسمى أحياناً أي حوالي ٣٣ ديناراً ، وغالباً ما كان يتصدق بالباقي في آخر الشهر[١] .

أما الدراهم فكانت تضرب بواقع ١٦ قيراطاً من الفضة وثمانية قراريط من النحاس ، وكانت هذه الدراهم – بعكس الدنانير – تضرب في دمشق ، ومن أقدم هذه الدراهم درهم ضرب في أيام تاج الملوك بوري[٢] .

وفي عهد نور الدين ضرب في دمشق دراهم صغيرة الحجم خفيفة الوزن ، رديئة الضرب ، ليس فيها ذكر لكلمة التوحيد ولا اسم الخليفة العباسي ولا السلطان السلجوقي ، وإنما اسم نور الدين فقط ، وفي متحف دمشق نماذج من هذه الدراهم[٣] ، وقد نشرت صورة هذه الدراهم في كتاب متحف دمشق الوطني اللوحة ١٩ .

أما الفلوس فقد عرف منها في عهد نور الدين خمسة أنواع موجودة اليوم في المتحف البريطاني ومتحف القاهرة ودمشق ، وعلى الوجه الأول منها : اسم العادل نور الدين ، وصورة رجلين ، وعلى الوجه الآخر : ملك الأمراء محمود[٤] ، وفي الغالب كان كل ٦٤ فلساً تساوي درهماً[٥] .

وأخيراً فقد ذكر الدمشقي أنه اشترى درهماً من طرابلس على أحد وجهيه صورة فارس وأمامها كتابة نصها : من حفظ هذا الدرهم فهو كهذا الفارس ، وعلى الوجه الآخر صورة ثور وأمامها كتابة نصّها : ومن أضاعه فمثله كمثل هذا الثور[٦] .

٢ــ الأوزان والمقاييس والمكاييل :

اختلفت قيمة الأوزان والمقاييس والمكاييل من عصر لعصر في دمشق وغيرها من المدن ، وقد أورد المقدسي المكاييل والأوزان في بلاد الشام فقال :

في الرملة :

- الكيلجة = ٥، ١ صاغ ، والصاغ ٩ كغ والمجموع ٥، ١٣ كغ .
- المكوك = ٣ كيالج = ٤٠ كيلو غرام تقريباً .
- الويبة = ٢ مكوك = ٨٠ كيلو .

---

١ ـ **الفتح البنداري : سنا البرق الشامي ، ص١٤٣ .**
٢ ـ **القلقشندي : صبح الأعشى ج٣ ، ص٥٠٩ ، وفي الملاحق صورة لهذا الدرهم .**
٣ ـ **محمد باقر الحسيني : العملة الإسلامية ـ بغداد ١٩٦٦م ،ص٨٢ وعن صورة هذه الدراهم انظر،متحف دمشق الوطني ـ دمشق ١٩٦٩ ، الملحق ، اللوحة ١٩ .**
٤ ـ **قتيبة الشهابي : المصدر المتقدم ، ص١١٨ وفيه صورة هذه الفلوس وانظر، الحسيني : المصدر المتقدم ص١٢٧ .**
٥ ـ **القلقشندي : المصدر المتقدم ، ج٣ ، ص٥٠٩ .**
٦ ـ **جعفر بن علي الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة ـ بيروت ١٩٩٩ م ، ص٨٠ .**

- القفيز = ٤ ويبات = ٣٢٠ كيلو .

وفي القدس :

- المدى = ٣/٢ القفيز المذكور = ٢١٤ كيلو .
- القبُّ = ٤/١ المدى = ٥٤ كيلو .

وفي عمّان :

- المدى = ٦ كيالج = ٨١ كيلو .

والقفيز في صور = المدى = ٢١٤ كيلو .

والكيلجة في صور = صاغ = ٩ كيلو .

وفي دمشق :

- الغرارة = ٥، ١ قفيز فلسطيني = ٤٨٠ كيلو .
- والرطل = ٦٠٠ درهم = ١٩٢٠ غرام .
- والأوقية = ٥٠ درهم = ١٦٠ غرام .
- والدرهم = ٢٤ قيراط = ٢، ٣ غرام .
- والدينار = ٢٤ قيراط[١] .

وذكر الشيزري المتوفى سنة ٥٨٩هـ-١١٩٣م كيف كانت هذه الأوزان في عهده بشيزر بلده فقال :

- القنطار = ١٠٠ رطل .
- والرطل = ٦٨٤ درهماً أو ١٢ أوقية .
- والأوقية = ٥٧ درهماً .

وهو رطل شيزر الذي حدده بنو منقذ .

وفي حلب :

- الرطل = ٧٢٤ درهماً .
- والأوقية = ٣، ٦٠ درهماً .

وفي دمشق :

- الرطل = ٦٠٠ درهم .
- ورطل حمص والمعرة = ٨٦٤ درهماً .
- والأوقية = ٥٥ درهماً .
- ورطل حماة = ٦٦٠ درهماً .

---

١ - **المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٥٦ .**

وبما أن الدرهم يساوي ٢، ٣ غراماً تقريباً ، فإن أوزان دمشق في المرحلة التي ندرسها ، تساوي بأوزان اليوم :

- الرطل = ٦٠٠ درهم أي ١٩٢٠ غراماً .
- الأوقية = ١٦٠ غرام .
- والقنطار = ١٠٠ رطل أي ١٩٢ كيلو غرام .
- والمثقال = ١٠/ ٧ الدرهم أي ٥، ٤ غراماً[١] .

أما المقاييس فتختلف ضمن البلد الواحد بحسب ما يقاس بها .

- فهناك (ذراع القماش) وهو يعادل ٦١ سم .
- وهناك (الذراع الهاشمي) وهو يعادل ٦، ٦١ سم .
- وهناك (ذراع العمل) الذي تقاس به الأراضي الزراعية .
- وهناك (الذراع النجاري) الذي يستعمله النجارون ، وكل خمسة أذرع منه تساوي ثمانية أذرع من ذراع العمل[٢] .

والخلاصة : فإن كل ٦ أذرع هاشمية تساوي : ٥ أذرع نجارية أو ٨ أذرع عمل .

أما الأراضي المعدّة للبناء فتقاس بالقصبة الحاكمية وهي تساوي باعين والباع هو المسافة بين يدي الرجل إذا مدّهما يمنة ويسرة ، والباع يعادل ١٨٥ سم ، وبالتالي فالقصبة تساوي ٣٧٠ سم تقريباً[٣] .

ثالثاً ــ الأسواق والخانات :

١ــ الأسواق :

يقول ابن جبير :

((إن أسواق دمشق من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وصفاً ، ولاسيما قيسارياتها ، وهي مرتفعة كأنها الفنادق ، وكلها مغلقة بأبواب الحديد ، كأنها أبواب القصور ، وكل قيسارية منفردة بأقفالها وأغلاقها الجديدة ... وفي المدينة أيضاً سوق يعرف بالسوق الكبير يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي .....))[٤] .

وبداية وقبل الخوض في التفاصيل ، ومن خلال بحثنا في المصادر عن أسواق دمشق نعطي بعض الملاحظات العامة عنها :

ــ تنسب أسواق دمشق إلى مايباع فيها مثل سوق القطن وسوق الصوف وغيرهما .

---

[١] ـ **الشيزري : نهاية الرتبة ، ص١٥ وما بعد .**
[٢] ـ **القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٨٨ .**
[٣] ـ **القلقشندي : المصدر المتقدم ، ج٣ ، ص٥١٢ .**
[٤] ـ **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٦١ .**

ـ أو إلى باني السوق مثل سوق جقمق وسوق ساروجا .

ـ أو إلى الأماكن الحساسة القائمة فيها مثل سوق باب البريد وسوق باب الصغير وسوق باب شرقي .

ـ تطلق كلمة سوق على المكان الذي تباع فيه سلعة معينة ولو كان محلاً واحداً أو محلّين ، مثل سوق الطيور أو الطيوريين ، كما يطلق على المكان الكبير الذي يضم مئات المحلات مثل السوق الكبير بين باب الجابية وباب شرقي الذي كان يضم مجموعة من الأسواق الصغيرة .

ـ معظم أسواق دمشق المهمّة تقع في المنطقة المحيطة بالجامع الأموي حتى إنهم كانوا يطلقون على هذه الأسواق اسم (المدينة) .

ذلك لأنه – كما ذكرنا – لم يكن بدمشق ضمن السور في المرحلة التي ندرسها وحتى القرن الثامن الهجري إلا مسجد جامع واحد هو الجامع الأموي ، أو جامع دمشق كما كان يسميه المؤرخون ، ولذلك كان الناس يترددون عليه بصورة مستمرة ، الأمر الذي جعل الطرق المؤدية إليه تشهد كثافة سكانية عالية مع كثافة في عدد الأسواق والمحلات المحيطة به .

ثم إن بناء قلعة دمشق على مقربة من الجامع الأموي زاد من أهمية المنطقة تجارياً بحيث إنها صارت المركز التجاري الرئيسي الدمشق والمنطقة المحيطة بها ولا يزال الأمر على ذلك حتى اليوم .

ـ إن أسماء الأسواق في دمشق ، شأنها شأن الحارات والمحلات ، تتغير من قرن لأخر ومن مؤرخ لأخر ، الأمر الذي جعل عدد الأسواق نظرياً أكثر من عددها الحقيقي ، مثال ذلك أن سوق البيمارستان وسوق قميلة وسوق برا كلها أسماء لسوق واحد[١] .

ـ ويفهم مما أورده المؤرخون أن بعضاً من هذه الأسواق لم تكن مسقوفة ، ولا كانت الطرقات المؤدية إليها مبلطة ، الأمر الذي جعلها تتحول في فصل الشتاء إلى مستنقعات يصعب المرور فيها .

فقد ذكر ابن شداد أن الناصر صلاح الدين سأل عن خبر الحجاج فقالوا إنهم خارج دمشق ولولا كثرة الوحل لدخلوا ، فتقدم صلاح الدين بتنظيف الطرقات من المياه .

وذكر أبو شامة أن السلطان نور الدين استدعي إلى المحكمة فركب حتى بلغ باب المدينة وأرسل خادمه إلى القاضي تاج الدين وقال له إنني أحتاج للوصول إليه سلوك هذه الأزقة وفيها الأطيان ، وهذا وكيلي يسمع الدعوى[٢] .

---

[١] ـ **ابن عبد الهادي : نزهة الرفاق ـ تحقيق صلاح الخيمي ـ دمشق ١٩٨٨ ، ص٨١ .**
[٢] ـ **أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٦٦ .**

ـــ وذكر أبو شامة نقلاً عن عبد الرحمن الأزدي لدمشقي المتوفى سنة ٥٨٤هـ– ١١٨٨م أنه استجّد في أيام نور الدين الشهيد بدمشق في سنة ٥٥٤هـــ – ١١٦٠م سوق تحت المئذنـــة الغربية بجوار البيمارستان الدقاقي لصالح المسلمين وطول هذا السوق ٢٥ عضادة .

كما زاد نور الدين في سوق باب البريد من الصف الشمالي والقبلي حيث بنيت الحوانيت والحجرات وبنيت الطبقات فوقها .

ووسّع دار الخيل في الجهة الجنوبية من الجامع عند باب الزيادة وبنى بجوارها المساكن والحوانيت ، وبنى في سوق الخواصين – الخياطين اليوم – ١٣ حانوتاً تعرف بالمعتصميات ، و١٣ حانوتاً في سوق علي ، بالإضافة إلى بناء ثلاثة حوانيت في الصف الشمالي من السوق المذكور .

كما بنى حوانيت في الفسقار وفي اللبادين وعند فوارة جيرون وقيسارية العقيقي بـــسوق الأحد وبنى فيه ١٥ عضادة في الصف الشمالي وجعل ذلك كله في وقف الجامع الأموي[١] .

ـــ وعندما زار ابن جبير المنطقة المحيطة بالجامع الأموي بعد ربع قرن قدّم وصفاً نادراً لما يعرف اليوم بسوق المسكية فقال :

((إنه يقع في دهليز الباب الغربي للجامع ، وإن فيه حوانيت البقالين والعطارين ، وفيه سماط لبيع الفواكه ، وإنه في أعلاه باب عظيم يصعد إليه بدرج ، ولهذا السوق أعمدة سامية ، وتحت الأدراج سقايتان مستديرتان على اليمين وعلى الشمال ، ولكل سقاية خمـــسة أنابيـــب ترمي الماء في حوض رخام مستطيل[٢])) .

وقد كان هذا السّوق يوم زاره المقدسي قبل مائة عام من زيارة ابن جبير مكاناً للوراقين .

وعلى ذلك يمكن وصف هذا السوق – الذي أزيل اليوم – والذي كان اسمه سوق المسكية في المرحلة الدراسية بأنه كان على النحو التالي :

الخارج من الباب الغربي للجامع الأموي يشاهد على يمينه :

- المدرسة الصادرية الحنفية التي بنيت سنة ٤٩١هـــ – ١٠٩٨م .
- والمدرسة البلخية الحنفية بجوارها وهي التي بنيت سنة ٥٣٦هـــ – ١١٤١م .
- ثم يشاهد على اليمين والشمال حوانيت البقالين والفاكهانيين والعطارين ، الذين غلب اسمهم على السوق فصار يعرف بسوق العطارين ثم ســـوق باعـــة المـــسك – المسكية – .
- وبعد الحوانيت يشاهد على يمينه ويساره منهلان عذبان في حوضـــين مـــن الرخام .

١ ـ **أبو شامة : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٧٥ .**
٢ ـ **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٤٤ .**

- ثم يصعد الدرج الذي يؤدي به إلى الباب الكبير عند الأعمدة القائمة اليوم في رأس سوق المسكية .

هذه هي صورة هذا السوق كما كانت في القرن السادس الهجري .

ـ وكان لكل سوق شيخ مسؤول عنه ويكون صلة وصل بين تجار السوق والحكام .

ـ وعلاوة على ذلك فقد كان (المحتسب) يشرف على الأسواق كافة ، ويطوف فيها باستمرار لفحص المكاييل والموازيين ومعرفة المطففين ، ويؤدب كلاً منهم بما تقتضيه الشريعة ، ويحذّرهم من الغش والتلاعب بالموازين[1] .

ـ وكانت بعض هذه الأسواق ، مثل سوق الصرف وسوق الصبّاغين وغيرها تكاد أن تكون حكراً على اليهود والنصارى ، وكان تعامل التجار فيما بينهم يسير بصورة طبيعية تماماً بغض النظر عن اختلاف الدين والمذاهب ، بل إن العلاقات التجارية بين العرب والفرنجة كانت تسير على أحسن صورة ، رغم الحروب الطاحنة بين الفريقين كما ذكرنا في هذا البحث

وقد ذكر الشاعر القيسراني مثلاً وجود سوق يدعى سوق الصرف ، وقرأه بعضهم خطأ سوق الصوف ، وقال إن أهل هذا السوق كانوا في غالبيتهم من اليهود ، وتغزّل ببعض هؤلاء الصرّافين فقال :

في بني الأسباط ظبيٌ مالك رقّ الأسود

صيرفي في غرامي في صروف ونقودِ

أنا في الدّين حنيفي وفي الحب يهودي

وقال في يهودي آخر :

ظبي بسوق الصرف من أجله مهرتُ في الصرف وفي النقد

يقول والدينار في كفّه من عنده ؟ قلت له : عندي[2]

ـ وأخيراً نرى من المناسب أن نذكر سوقاً من نوع جديد ، يعطي فكرة عن الأسواق المرافقة للحملات العسكرية ، وهذا السوق هو الذي كان في عسكر المسلمين أثناء حصارهم لعكا سنة ٥٨٣ هـ – ١١٨٧م .

فقد كان فيه ١٤٠ دكان بيطار كما كانت مدوّنة عند شحنة السوق. وكان عدد الدكاكين الأخرى كثيراً جداً ، يجد فيه الناس من المقاتلين وغيرهم كل ما يريدونه بما في ذلك أفخر أنواع الأقمشة والملبوسات ، كما كان فيه عدد كبير من الحمامات[3] .

---

[1] ـ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٠، ص٢١٤ .
[2] ـ محمد بن نصر القيسراني : الديوان ـ طبعة الزرقاء بالأردن سنة ١٩٩١ م ، ص ١٨٤ و ١٨٥ .
[3] ـ تقي الدين المقريزي : السلوك ، بتحقيق محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة ، ١٩٥٧ م ، ج١، ص١١٩ .

ومن خلال متابعة ما كتبه ابن عساكر عن المساجد والحمامات وما ذكـره ابـن شـداد والقلانسي وابن قاضي شهبة وغيرهم ، استطعنا معرفة عدد لا بأس به من أسواق دمشق كما كانت في الفترة المدروسة ، وقد أمكننا تحديد مواقع عدد من هذه الأسواق وما يبـاع فيهـا ، وسنذكرها مكتفين بذكر ابن عساكر والجزء والصفحة ، نظراً لكثرة ورودها في الهامش .

– **سوق الأبارين** : وهو سوق مشهور ومعروف بين العمارة والمناخلية ، تبـاع فيـه الابر وما إليها .

– **سوق الأحد** : ذكـره ابن عساكر وحدّد موقعـه داخل باب السلامة – السلام اليوم[1] .

– **سوق الأخصاصين** : وهم الذين يصنعون الأخصاص ومفردها خص ، من القـصب ، كانت توضع في الدور بحيث لا يرى الناظر من خلفها من النساء ، وموقع هذا الـسوق فـي شارع النصر اليوم .

– **سوق الأساكفة** : في باب السلامة .

– **سوق الإسكافية العتيق**[2] .

– **سوق الأقباعين** : وتباع فيه أقباع الفلاحين والبدو وهي ما يوضع على الرأس جنوب الجامع الأموي وسوق الطواقيين .

– **سوق الأكافين** : جنوب البزورية وهم الذين يصنعون براذع الحمير .

– **سوق أم حكيم** : وهو سوق العلبيين في درب الريحان ، حيث حي مأذنة الشحم اليوم .

– **سوق باب توما** : وهو سوق عام شأنه شأن أسواق وسويقات أبواب دمشق ، وهنـاك من يسمي هذه الأسواق سويقات لصغرها .

– **سوق باب الجابية .**

– **سوق باب شرقي .**

– **سوق باب الصغير .**

– **سوق باب السلامة .**

– **سوق باب الفراديس .**

– **سوق البقل** : جنوب مأذنة الشحم[3] .

– **سوق التبن** : شرقي حمام نور الدين تماماً في البزورية .

– **سوق تحت القلعة** : وهو سوق عام يشبه المعارض لما فيه من البضائع .

---

[1] - **ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢ ، ص٣٧٩ و ٣٨٨ و ٣٨٤ .**

[2] - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣٠٣ ، وابن شداد : تاريخ دمشق ، ص٢٩ .**

[3] - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٩٢ و ٣٨٣ و ٢٩٥ ، والقلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٧ .**

- **سوق الجبن** : في مأذنة الشحم[1] .
- **سوق الجفري** : في قبر عاتكة[2] .
- **سوق الجلادين** : في منطقة الزلاقة ، جنوب البزورية[3] .
- **سوق جيرون** : سوق طويل واسع شرقي الجامع الأموي وله دهليز واسع ومحـــلاّت كثيرة وتحيط به أعمدة ضخمة شاهقة وفيه النافورة الرائعة[4] .
- **سوق الجواري** : وكان هناك أسواق عدة للجواري والعبيد في أكثر مـــن مكـــان فـــي دمشق ، وكان أشهر هذه الأسواق سوق تحت القلعة .
- **سوق الحبّالين** : شرقي سوق الصوف .
- **سوق الحجّامين** : داخل باب الجابية[5] .
- **سوق الحدادين** : داخل باب الجابية إلى الشمال .
- **سوق الحرير** : معروف جنوب الجامع الأموي .
- **سوق الحريميين** : في الحي المعروف اليوم بالقيمرية الذي عرف بهذا الاسم نسبة إلى المدرسة القيمرية ٦٥٠هـ – ١٢٥٢م .
- **سوق الخراطين** : في شارع النصر اليوم .
- **سوق الخريزاتية** : وهم الذين يخرزون الأوانـــي الفخاريـــة والـــصينية المكـــسورة ، ويصلحونها ، جنوبي سوق القمح أو سوق البزورية ولا تزال المنطقة معروفة بهذا الاسم حتى اليوم .
- **سوق الخرزيين** : عند باب الزيادة ، له أعمدة عظام ، وفيه دكـــاكين لباعـــة الخـــرز وسواهم[6] .
- **سوق الخواصين** : وهم صانعو السلال من الخوص وهو سعف النخيل وكانوا حيـــث المدرسة النورية الكبرى في سوق الخياطين اليوم .

سوق الخيل : ويسمى سوق تحت القلعة ، وهو من أكبر أسواق دمـــشق ، وقـــد ازدادت أهميته في عصر المماليك حيث بيع فيه كل ما يخطر على بال الانسان ، وهو فـــي الواقـــع معرض كبير يضم أسواقاً كثيرة صغيرة .

- **سوق دار البطيخ** : في شارع اليهود[7] .

---

[1] - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٩٤ .**
[2] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص١٤ .**
[3] - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٩٢ .**
[4] - **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٤٣ .**
[5] - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٩٢ و ٢٨٩ .**
[6] - **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٤٣ .**
[7] - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ج٢ ، ص٢٩٥ و ٢٩٧ .**

- **سوق دار البطيخ** : وهو السوق القديم ، شمال قلعة دمشق[١] .
- **سوق دار الخيل** : بجوار قصر الخضراء إلى الغرب وهو سوق من العصر الأموي .
- **سوق درب الحجر** : عند القشلة غربي الباب الشرقي .
- **سوق الدقاقين** : بالزلاقة ، جنوب سوق القمح أو البزورية . وفيه يـدقون الحريـر وغيره .
- **سوق الدقيق** : قرب سوق القمح – البزورية – .
- **سوق الدوّاب** : عند سوق الغنم غربي الباب الصغير .
- **سوق الديماس** : شمال السوق الكبير حيث منطقة الحريقة اليوم[٢] .
- **سوق الربوة** : وهوسوق يشبه المعرض يقدم كل متطلبات المصطافين والمتنزهين ، وتحدثنا عنه عند الحديث عن المنتزهات .
- **سوق الرطابين** : باعة الرطب والبلح .
- **سوق الرقّاقين** : باعة الرقائق من العجين .
- **سوق الرماحين** : شمال السوق الكبير بين القلعة والجامع الأموي .
- **سوق الريحان** : شرقي سوق البزورية[٣] .
- **سوق الزلاقة** : ويعرف بسوق الدقاقين اليوم ، جنوب البزورية .
- **سوق السرّاجين** : وهم باعة السرج ، مفردها سراج ، بجوار سوق القلانسيين ، في سوق مدحت باشا اليوم[٤] .
- **سوق السّقطين** : وهم باعة الملابس المستعملة ، وسوقهم عند باب الجابية .
- **سوق السّلاّلين** : وهم باعة السلال في مأذنة الشحم .
- **سوق السيوريين** : جنوب سوق العنبرانيين بالصاغة .
- **سوق السيوف** : قرب سوق الرماح بجوار الجامع الأموي[٥] .
- **سوق الشعير** : في مأذنة الشحم .
- **سوق الشماعين** : عند مأذنة الشحم .
- **سوق الصاغة** : معروف مشهور ، جنوب الجامع[٦] .
- **سوق الصرف** : وهو سوق لصرّافي العملات ومعظم أصحابه من اليهود .

---

١ - **المنجد : خطط دمشق ، ص١١٢ .**
٢ - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٦٣ و ٣٢٠ و ٣٠٢ .**
٣ - **علي الربعي : فضائل الشام ودمشق - تحقيق صلاح الدين المنجد - دمشق المجمع العلمي العربي ١٩٥٠م ص ٤٠ ، والربعي من مصادر ابن عساكر في تاريخه .**
٤ - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٩١ ، ٣٦٢ و ٢٩٠ و ٣٠٣ .**
٥ - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٨٨ ، ٣٨٧ و ٣٦٥ و ٢٩٦ .**
٦ - **أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٧٢ .**

- **سوق الصفارين** : في جيرون ، وهم باعة الصُفر أي النحاس ، وهؤلاء غير النحاسين الذين يصنعون الأواني النحاسية .
- **سوق الطرائف** : قرب سوق باب البريد .
- **سوق الطوائقيين** : شرقي الجامع الأموي ، حيث تضع وتباع الطواقي ، ولاسيما طواقي النسوان .
- **سوق الطير أو الطيور** : في المناخلية[1] .
- **سوق العلبيين** : في مأذنة الشحم ، وهم الذين يصنعون العلب الخشبية التي توضع فيها الحلوى وغيرها .
- **سوق علي** : في سوق الخواصين جنوب المدرسة النورية .
- **سوق العنبرانيين** : في الصاغة .
- **سوق الغزل القديم** : عند باب السلام .
- **سوق الغزل الجديد** : قرب سوق الصوف .
- **سوق الغنم** : جنوب باب الجابية وهو معروف[2] .
- **سوق الفرائين أو الفرايين** : غربي سوق باب البريد ، وهو اليوم بين باب توما وباب السلامة .
- **سوق الفسقار** : من أشهر الأسواق وهو جزء من السوق الكبير أو السوق المستقيم أو السوق الطويل أو سوق مدحت باشا وطوله من باب الجابية حتى باب شرقي ١٥٠٠ متراً ، ويقع سوق الفسقار في أول السوق الكبير من جهة باب الجابية .
- **سوق القباقبية** : وهو شمال الجامع حيث السيدة رقية اليوم ، ثم صار لصيق الجدار الجنوبي للجامع الأموي ، ولا يزال .
- **سوق القصّاعين** : داخل باب الجابية .
- **سوق القلانسيين** : عند رأس سوق الخواصين بينه وبين سوق الصوف[3] .
- **سوق القمح** : وهو سوق البزورية اليوم .
- **سوق القناديل** : داخل باب توما[4] .
- **السوق الكبير** : أشهر أسواق دمشق ، ويضم مجموعة من الأسواق أشهرها سوق الفسقار ، أي سوق مدحت باشا اليوم[5] .

---

[1] - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣٠٣ و ٣٦٣ و ٢٩٤ و ٣٧٩ .**
[2] - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ٢٩٣ و ٣٨٧ و ٤٨٣ و ٣٠١ و ٣٢٢ .**
[3] - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٩٠ و ٣٧٨ .**
[4] - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣٠٥ ـ ٣٠١ ـ ٢٩٦ ـ ٣٨٠ .**
[5] - **ابن جبير : الرحلة ص٢٦١ .**

- **سوق اللبادين** : مكان سوق العبي اليوم شرقي سوق الفسقار .
- **سوق اللؤلؤ** : في الدقاقين .
- **سوق المقسَّلاط** : تسمية يونانية ، وهذا السوق شرقي الفسقار ، وشمال سوق الصوف .
- **سوق المناخلية أو المناخليين** : ظاهر باب الفرج .
- **سوق المطرزين** : في القيمرية[1] .
- **سوق الناطفانيين** : وهم باعة الناطف .
- **سوق النحاسيين** : في مكان زقاق النقيب اليوم بالعمارة وفي هذا السوق تصنع الأدوات النحاسية التي تباع في سوق النحاسين الآخر عند باب القلعة .
- **سوق النطّاعين** : وهم الذين يصنعون النطع وهي أطباق القش والسوق في العمارة البرانية حيث مسجد النطاعين اليوم .
- **سوق النطافين** : شمالي الجامع الأموي وهم الذين يصنعون ما يلزم للدواب من أرسان وسماطات وزينة وغير ذلك وهي صنعة تابعة للسروجيين وهم غير الناطفانيين .
- **سوق الوراقين** : كان شرقي الجامع الأموي ، ثم انتقل إلى غربيّه[2] .

٢ ــ الخان والقيسارية والفندق والوكالة :

الخان : كلمة فارسية بمعنى المكان المعدّ للاقامة وتقابلها في اليونانية كلمة (باندكيون) التي عُرّبت إلى (فندق) .

والقيسارية : بناء تجاري متكامل لا يختلف عن الخان ، والكلمة لاتينية بمعنى إمبراطوري .

أما الوكالة : فهي كلمة عربية معناها المكان المخصص لبيع سلعة معينة .

وغالباً ماتنتسب الوكالة والخان والقيسارية والفندق إلى اسم الباني والمؤسس مثل خان الزنجاري وخان يلبغا وخان الخليلي .

- أو إلى ما يباع فيها مثل : خان الدبس وخان الزيت وخان البطيخ .
- أو إلى من ينزل فيها عادة مثل خان الحماصنة في دمشق .
- أو لموقعها مثل خان الصدرانية وخان العامود[3] .

وسنحاول فيما يلي إثبات ما أمكننا معرفته من الفروق بين هذه المؤسسات التجارية المختلفة .

---

[1] ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٩٤ ـ ٣٧٩ ـ ٢٩١ ـ ٣٧٩ ـ ٣٨٨ .**
[2] ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣٨٢ .**
[3] ـ **أكرم العلبي : خطط دمشق ، ص٤٦٩ .**

ففي عصر الأتابكية غلب اسم (الفندق) على الخان في دمشق ثم تراجعت كلمة الفنــدق في العصر المملوكي وحل محلها الخان ، ثم انحصر معنى الفندق فــي المكــان المخــصص لاقامة الغرباء والمسافرين .

والخان بصورة عامة ، كان مبنى من طابقين ، يخصص الأرضيّ منهما لنزول الدواب ، والعلوي لنزول التجار[١] .

ومع ذلك فقد وجدت خانات معدّة لإيواء الأنعام فقط ، وأخرى لإيواء الفقراء والمــشرّدين ولو كانوا من أبناء البلد ، وخانات معدّة لاستقبال البضائع وخزنها بدون نزول التجار فيهــا ، وخانات خصصت لاستقبال فئة معينة من أهل البلد وهي فئة بنات الهوى اللائي خصّص لهن خان الزنجاري في العقيبة .

أما القيسارية فهي بحسب ما ذكره مؤرخو العصر لا تختلف عن الوكالة إلا بالاسم ، فهي مكان معد لعرض البضائع على المشترين والتجار ، ويتم إغلاقها بإحكام لــيلاً مــع إغــلاق الأسواق .

وهكذا نجد أن القيسارية مثل الوكالة ، لكن غلب إطلاق اسم القيسارية في دمشق ، واسم الوكالة في مصر .

وقد بنيت داخل دمشق وفي مدنها وقراها خانات وقيساريات وفنادق ، وقد تحولت بعض الخانات الخارجية الى مدن قائمة بذاتها مثل خان يونس في غزة ، والذي بناه يونس الدوادار الذي بنى المدرسة اليونسية في دمشق ، وهي مكان جامع الطاووسية اليوم[٢] .

ومثله خان دنون وخان الشيح وخان شيخون وغيرها مما سنأتي على ذكره فيما يلي .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الخان أو الفندق أو القيسارية كانت نزلاً للأجانــب وعامّــة الناس .

أما العلماء والأعيان والكبراء ممن يزورون دمشق ، فإن نزولهم في الخــان كــان يعــدّ منقصة بحق أهل البلد ، لذلك كان هؤلاء يستقبلون العلماء وينزلون في المدارس أو الترب أو الخوانق ، كما حصل مع الإمام الغزالي الذي أنزل في الخانقاه السّمسياطية ودرّس في الجامع الأموي ، فلما عرف أهل الشام فضله أنزلوه في زاوية نصر المقدسي في الجامع نفسه وبقي فيها حتى غادر دمشق بعد نحو عامين[٣] .

وسنذكر فيما يلي بعض خانات وفنادق وقيساريات دمشق وأتابكيتها ، وهي :

- **خان البطيخ** : شمالي القلعة عند جامع يلبغا فيما بعد .
- **خان البقسماط** .

---

١ - أكرم العلبي : المصدر المتقدم ، ص٤٧٠ .
٢ - ابن جبير : الرحلة ، ص٢٦١ ، أكرم العلبي : المصدر المتقدم ، ص٣٣٨ .
٣ - ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢١٦ .

- **خان البيض** .
- **قيسارية الجعفري** .
- **خان الجواري** .
- **وخان الجوخ** .
- **قيسارية درب اللبان** : شمال القلعة[١] .
- **خان الزنجاري** : في العقيبة الكبرى حيث جامع التوبة اليوم .
- **قيسارية السبيل** : لصيق جامع النارنج في باب المصلى .
- **قيسارية السلطان** : في البزورية .
- **خان سوق السلاح** : جنوب الصاغة .
- **القيسارية الفخرية** : جنوب باب الجابية[٢] .
- **قيسارية الفراء** : في سوق الصوف[٣] .
- **قيسارية الفرش** : شرقي القيمرية .
- **قيسارية العقيقي** : في سوق الأحد .
- **قيسارية القواسين** .
- **خان قصر حجاج** : خارج باب الجابية .
- **قيسارية الوزير** : في البزورية – سوق القمح – .
- **فندق البيع** .
- **وفندق ابن عنازة** .
- **وفندق البزوريين** .
- **وفنادق الخشب** .
- **وفندق درب اللبان وغيرها**[٤] .

أما الخانات الخارجية فهي كثيرة لا تكاد تخلو منها مدينة أو بلدة ، منها :

- **خان الشيح** : جنوب دمشق .
- **وخان دنون** : جنوب دمشق .
- **وخان شيخون** : في شمالي حماة .
- **وخان تدمر** .
- **وخان الفستقة** : في القطيفة .
- **وخان قارا** .
- **وخان القصير** .

---

١ - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣٨١ .**
٢ - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣٠٥ - ٣٧٨ .**
٣ - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣٨٣ .**
٤ - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣٠٣ - ٣٧٨ - ٣٠٥ .**

- **وخان الكسوة** .
- **وخان الحلابات** : على طريق تدمر[1] .

وكما ذكرنا فقد تحوّلت بعض الخانات إلى مدن وقرى .

وهناك خان يدعى خان السلطان شرقي بلدة القطيفة ، شمال دمشق ، وسنتحدث عنه بوصفه نموذجاً للخانات الأخرى .

وقد ترك لنا ابن جبير وصفاً دقيقاً لهذا الخان فقال :

((وصلنا إلى خان السلطان في الصباح من شهر ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ – تموز ١١٨٤م ، وهو خان بناه السلطان صلاح الدين في الشام ، وهو في نهاية الوثاقة والحسن ، له باب حديد ، شأنه شأن كل خانات البلد . . . وفي هذا الخان ماء جار يتسرب إلى سقاية في وسط الخان ، كأنها صهريج ، ولها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ، ثم يغوص الماء في سرب تحت الأرض . . . ثم وصلنا إلى القصر وفيه خان كبير ، والنهر جار أمامه . .))[2] .

وموقع الخان اليوم شرقي القطيفة ، وقد جدده الوالي العثماني المعمار : سنان باشا كما هو مدوّن عليه[3] .

رابعاً ـ التجارة :

كانت طرق التجارة في مرحلة الحروب مع الفرنجة وما قبلها تتبع واحداً من الخطوط التجارية الكبرى التالية :

١ – خط أنطاكية – حلب – الرقة – الموصل – بغداد – البصرة .

٢ – خط حلب – حماة – حمص – دمشق .

ومن دمشق يتفرع الخط إلى ثلاثة فروع كبرى هي :

- دمشق – فلسطين – العريش – القاهرة
- دمشق – الأردن – الحجاز – عدن واليمن .
- دمشق – عكا[4] .

وكانت أهم الخطوط لتجارة دمشق الخارجية هي مع الفرنجة في عكا ، ومع القاهرة ، لأن هذين الخطين من أقصر الخطوط التجارية ، وأكثرها أماناً ، على ما كانت تتعرض له أحياناً من غارات البدو والفرنجة .

---

[1] - **انظر المعجم الجغرافي .**

[2] - **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٣٣ .**

[3] - **محمد وصفي زكريا : جولة أثرية في ربوع سوريا - دار الفكر - دمشق ١٩٨٤م ، ص ٣٨٣ .**

[4] - **جميعان : المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية ، ص١٦٥ .**

وكان طريق الحجاز يشهد نشاطاً ملحوظاً في أيام الحج ، وأول محطاته الكسوة ، ثم ذات المنازل ثم البثنيّة في حوران ، ثم يدخل في أخطر وأطول مراحله حتى يـصل إلـى تبـوك فالمحدثة فالأقرع فالحنيفية فالحجر وهي ديار ثمود ، ثم الوادي فالرحبة فذي مروة ثم السويدة ثم ذي خشب ثم المدينة المنورة وطوله يزيد عن ١٣٠٠ كيلومتر(١) .

١ ـ التجـارة مع الفرنجـة :

كانت العلاقات التجارية معهم ثابتة القواعد ومحترمة من الجميع ، وذلك لحاجة كل فريق إلى ما عند الآخر ، وكان مبدأ المعاملة بالمثل سارياً في العلاقات التجارية وما يلحقها ، وذلك على الرغم من كثرة نكول الفرنجة عن الاتفاقات التجارية والاقتصادية ، ثم عودهم عن ذلك .

وكانت هذه العلاقات الاقتصادية تقوم على مبدأ حماية التجار من الفريقين ، وعدم زيـادة الرسوم المقررة على الاستيراد والتصدير ، والضرب على أيدي العابثين وقطاع الطريـق ، وعدم الغش في المعاملة والأصناف والأوزان(٢) .

من ذلك مثلاً ، الاتفاق المعقود مع بغدوين صاحب القدس سنة ٥٠٧هـ – ١١١٣م والذي على أثره : استقامت الأحوال بين الطرفين ، وأمنت السابلة للمتـرددين والتجـار والـسفّار الواردين من جميع الأقطار(٣) .

وكان الفرنجة يدفعون رسوماً ثابتة إذا دخلوا إلى دمشق وأتابكيتها ، وكذلك كـان يفعـل تجار دمشق إذا دخلوا البلاد التي يسيطر عليها الفرنجة(٤) .

أما المسلمون الذين كانوا تحت حكم الفرنجة فقد أنشئت لهم محاكم تجارية يرأسها قـاض يعينه حاكم البلد الفرنجي ويساعده اثنان من الفرنجة وأربعة من السكان المحليين ، ويحلف كل واحد منهم على كتابه المقدس ، وتتولى محكمة المدينة تسجيل عقود البيع واستيفاء الرسـوم المقررة عليها .

وقد ذكر رنسيمان أنه كان لأبناء البلد في المناطق الواقعة تحت حكم الفرنجة محـاكمهم التي تنظر في الأمور الصغيرة ، ويتولى رئاستها الرؤساء المحليون الذين يعينهم حاكم البلـد الفرنجي ، ويجري العمل فيها بموجب قانون العرف عندهم .

وحـدث في عهـد الملك (المريك الأول) أن تقـرر إنـشـاء محكمـة المدينـة (Cour de la fonde) في كل واحدة من المدن الرئيسة التي يبلغ عددها ٢٣ مدينة ، والتي تنعقد في الأسواق ، وتنظر في القضايا التجارية وغيرها فيما يتعلق بأهل البلد .

---

١ ـ الادريسي : نزهة المشتاق ، ج١ ، ص٣٧٧ .
٢ ـ انظر المثالثات والمناصفات في الفصل الثاني .
٣ ـ القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٣٠٠ .
٤ ـ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص٤٨٤ .

ويرأس هذه المحكمة قاض يعينه الحاكم المحلي ويساعده ستة من المحلفين : اثنان من الفرنجة وأربعة من السكان الوطنيين ، ويحلف كل من المتقاضيين اليمين على كتابه المقدس ، وكان هذا النوع من المحاكم غير مألوف في البلاد قبل الفرنجة ، وكان أمراً محبباً للسكان ولمن يزورهم أيضاً .

وبالإضافة إلى ذلك كانت (محكمة المدينة) تتولى تسجيل عقود البيع ، والملكية بعد إثبات صحتها ، كما تعد المحكمة مركزاً لجباية الضرائب والرسوم على البيع والشراء .

وفي حال الخلاف يمكن لهذا الفريق أو ذاك استئناف هذه الأحكام الصادرة عن محكمة المدينة من (المحكمة البورجوازية) وهي محكمة خاصّة بالنبلاء توجد في كل المدن الكبرى وجميع أعضائها الـ ١٣ من الفرنجة .

وعلاوة على ذلك ، فقد أقام أملريك الأول ما عرف باسم : (محكمة المرفأ) Cour de la Chaine ، في كل المدن الساحلية للنظر في جميع القضايا المتعلقة بشحن السفن وتسجيل حصة الديوان من الرسوم الجمركية أو الرسوم على السفن .

وفوق ذلك ، كانت هناك محاكم قنصلية لكل جالية من الفرنجة ، بالإضافة إلى محاكم البارونات التي تنظر في الخلافات التي تقع بين الفرسان .

وكان السكان المحليون المسلمون يؤدون ما يعرف بضريبة العشر عن الأموال التي بحوزتهم في مقابل اشتراكهم في بعض الوظائف الحكومية الصغيرة في الجمرك – الديوان – وفي جباية الضرائب[١] .

كما يدفعون عن كل رأس ديناراً وخمسة قراريط كل سنة بالإضافة إلى رسوم خفيفة على ثمار الأشجار ، وكانوا في ذلك أفضل حالاً من إخوانهم المسلمين في مدن الأتابكية المستقلة .

وذكر ابن جبير عندما وصل إلى عكا أن المسافرين حملوا إلى الديوان ، وهو الخان المعد لنزول التجار ، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ، ورئيسهم صاحب الديوان يعرف بالصاحب ، وهذا الديوان يضمن بمال عظيم ، وكان المسافرون في القافلة ينزلون فيه بأمتعتهم ويدفعون الرسوم المقررة عليها برفق وتؤدة من دون تعنيف .

وكانت معظم موارد الإمارات الفرنجية من الرسوم المقررة على التجارة القادمة من داخل البلاد الإسلامية إلى الساحل ، ونجم عن الصلات التجارية نمو الصداقات بين الفريقين ، حتى ان طائفة (الداويّة) بما اشتهرت به من نشاط مصرفي ضخم أبدت استعدادها للتوسع في أعمالها المصرفية ، حتى تحمل العملاء المسلمين على الاشتراك فيها ، واتخذت عمالاً

---

[١] ـ رنسيمان : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٤٨٥ ـ ٤٧٨ .

وموظفين اختصوا بأمور المسلمين . وتعلم النبلاء والتجار الفرنجة اللغة العربية ودرس بعضهم آدابها وتراثها .

وكانت القوافل تخرج من دمشق إلى عكا وهي محمّلة بمنتوجات الشرق مثل التوابل والبهارات ، والمنتجات المحلية مثل الصابون والأصباغ والنيلة والعقاقير والنباتات العطرية والطبية والزجاج والخزف والفراء والحرير المقصّب والسكر والزجاج والمنسوجات وما إلى ذلك .

وفي موضع آخر قال إن مملكة بيت المقدس كانت تدوّن في وثائقها أنواع المواد التجارية التي تأتيها من أتابكية دمشق إلى ميناء عكا وغيره . وهذه المواد هي :

- المنسوجات الحريرية وأنواعها .
- التوابل وتشمل : القرفة والزنجبيل وحب الهال والقرنفل والفلفل والبهار وجوز الطيب والخولنجان والنيلة والفوّة .

وكانت الضريبة على هذه البضائع ١٠ %[١] .

٢ ـ التجارة مع الفاطميين :

كانت التجارة مع القاهرة تشكل ركناً أساسياً في التجارة الخارجيّة بسبب اتساع مصر وتكامل منتوجاتها مع إنتاج الشام في الزراعة والصناعة ، ولطبيعة العلاقات الخاصة بين الدولتين واتصال أراضيهما ، وهذه الميزات تعود إلى أيام الفراعنة ، وقد بدأت بالظهور في عهد الفاطميين ثم ازدادت في عصر نور الدين وصلاح الدين والأيوبيين ، وبلغت الذروة في عهد المماليك .

وكما ذكرنا في الفصل الأول ، فإنه على الرغم من أن المنطق يقتضي أن تكون علاقة دمشق ببغداد والخلافة العباسية هي الأصل وهي الأقوى ، إلا أن طريق المواصلات بين بغداد ودمشق لم تكن ميسّرة وآمنة وآهلة كما هو الحال بين دمشق والقاهرة .

وكانت دمشق تصدر للقاهرة زيت الزيتون والسيرج والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب والصابون والماورد والفواكه ولاسيما المشمش والسفرجل والكمثرى والقراصيا والدرّاق ، والزبيب والعنب والزجاج والأقمشة الحريرية والأخشاب والورق والعطورات والنيلة والنباتات الطبية التي يستخدمها العطارون ، والقصب والقوس والحبال والقبقاب وقمر الدين والقريشة والقنب والأغنام والعسل[٢] .

وعندما اندمجت مصر بالشام في أواخر عهد نور الدين صارت دمشق تصدّر الثلج إلى القاهرة ، وكان له أناس مخصوصون يعرفون طريقة جمعه وحفظه ونقله .

---

[١] ـ **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٧٥ ، ٢٧٦ .**
[٢] ـ **البدري : نزهة الأنام ، ص٢١٥ .**

وكان لتجار الشام وكالات معروفة في القاهرة ينزلون فيها ببضاعتهم ، وقد ذكر الأمير أسامة بن منقذ أكثر من مرة ، صفقات تجارية وبضائع منقولة بين دمشق والقاهرة والعكس ، وكما ذكرنا فقد كان الأعراب والفرنجة يشكلون الخطر الحقيقي على هذه التجارة بسبب غاراتهم المتكررة عليها .

وهناك التجارة الداخلية وهي التي كانت تتم بين المدن والقرى والبادية ، وهي تجارة قديمة معروفة .

فأما التجارة التي تتم مع القرى المحيطة بدمشق والقريبة منها ، فإن الفلاحين كانوا ينزلون إلى دمشق مع شروق الشمس ويعرضون سلعهم في الخانات والأسواق المعدة لها مثل دار البطيخ وحكر النعنع وخان الجبن وغيرها .

وكان البيع يتم مقايضة أو بالنقود بحسب أهمية السلعة التي يحملها الفلاّح ، ثم يشترون ما يلزمهم مما في (المدينة) . وغالباً ما يعود هؤلاء الفلاحون إلى قراهم بعد الظهر . وأمّا الذين يبيعون الخضار وما يتبعها فهؤلاء كانوا يصلون إلى المدينة مع الفجر فيبيعون ما يحملون ، ثم يأتي باعة الخضار في دمشق لشراء ما يلزمهم حتى يكون تحت تصرّف أهل المدينة مع الصباح الباكر ، وإذا تأخر الفلاح فقد لا يجد من يشتري منه محصوله ، وهي الصورة نفسها التي نراها كل يوم في دمشق وغيرها من مدن العالم .

وكان بعض التجار من دمشق يقومون بحمل بضاعتهم منها إلى القرى لمقايضتها ، فقد ذكر ابن عساكر مثلاً أن الشيخ فضائل الأنصاري المتوفى سنة ٥٥٠هـ – ١١٥٥م كان يداوم الخروج إلى القرى ويقايض الكتان بالغزل[١] .

٣ ــ أشــهر تجــار دمشــق :

وسنذكر فيما يلي نماذج من التجار الذين كانوا يتعاطون التجارة الداخلية والخارجية ، بالإضافة إلى أعمالهم العلمية .

– حمزة بن علي الثعلبي الدمشقي البزاز ٥٥٥هـ ١١٦٠م ، كان يعمل في تجارة القماش ، قدم دمشق وسمع الحديث فيها[٢] .

– إسماعيل بن علي الغساني ٥٥٣هـ – ١١٥٨م ، قدم دمشق وحدّث بها ، وكان يتعاطى التجارة .

– علي بن عساكر المقدسي : ٥٥٣هـ – ١١٥٨م ، قدم دمشق في تجارة ، ثم سكنها بعد استيلاء النصارى على بيت المقدس[٣] .

١ ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٤٨ ، ص٣٠٧ .
٢ ـ الذهبي : المختصر من تاريخ بغداد ـ بيروت ١٩٨٥م ، ص ١٣٨ .
٣ ـ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص٣٥٥ .

– الحسن بن مسمار الهلالي ٥٤٦هـ – ١١٥١م ، كان يتعاطى التجارة ، وأقرأ بدمشق ، وسافر إلى بغداد للعلم والتجارة[١] .

– المفضل بن سهل الاسفرائيني ٥٤٨هـ – ١١٥٣م ، دمشقي ، سافر إلى خراسان في تجارة ، كما سافر إلى غيرها من البلدان[٢] .

– عبد الكريم بن حسن الحموي ٥٥٤هـ – ١١٥٩م ، مقرئ قدم دمشق وقرأ بها القرآن وسمع الحديث وكان يتعاطى التجارة[٣] .

– محمد بن عبد الكريم بن المفضل ٥٠٨هـ – ١١١٤م ، تاجر ومحدث قدم دمشق وسمع من علمائها وعمل بالتجارة[٤] .

– محمد بن مرزوق الزعفراني ٥١٧هـ – ١١٢٣م ، فقيه أقام بصور ، ثم بدمشق التي قدمها في تجارة[٥] .

– الحسن بن مظفر البغدادي ٥٢٣هـ – ١١٢٨م ، ذكر ابن عساكر أنه كان تاجراً ، قدم دمشق في تجارة له[٦] .

– محمد بن علي بن صدقة الحراني ٥٨٤ هـ– ١١٨٨م ، تاجر استوطن دمشق ، وبنى فيها مدرسة للحنابلة[٧] .

– عيسى بن معبد الموصلي ٥٥٨هـ – ١١٦٣م ، محدث ، قدم دمشق مرتين للتجارة[٨] .

– ياقوت الرومي ٥٤٣هـ – ١١٤٨م ، تاجر متنقل ، حدث بدمشق ومصر وبغداد ، وقدم دمشق مرات للتجارة[٩] .

– فضائل بن الحسن الأنصاري ٥٥٠هـ – ١١٥٥م ، سمع الحديث بدمشق ، وكان يتجوّل في قرى الغوطة لمقايضة أهلها كما ذكرنا[١٠] .

٤ـ الحياة العامة في أسواق دمشق :

وسنتحدث فيمايلي عن الحياة العامة اليومية في أسواق دمشق في مرحلتنا الدراسية ، لأخذ فكرة علمية وواقعية عنها ولاسيما أنها لم تحظ بدراسة جدية كما يجب .

ذكر المؤرخ الاجتماعي جعفر الدمشقي أن من قوانين التجارة التي كانت شائعة عند الناس في مختلف البلدان قولهم :

---

١ ـ **ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١٣ ، ص٣٩٣ .**
٢ ـ **الذهبي : المصدر المتقدم ، ج٢٠ ، ص٢٢٦ .**
٣ ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٣٦ ، ص٤٣٤ .**
٤ ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ص٥٤ ـ ٣٠ .**
٥ ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٥٥ ـ ص٢٣٦ .**
٦ ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج١٣ ، ص٣٩٤ .**
٧ ـ **الدمياطي : المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٨م ص٢٧ .**
٨ ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٤٨ ، ص٥ .**
٩ ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٦٤ ، ص ٣٨ .**
١٠ ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٤٨ ، ص٣٠٧ .**

((إذا شارك السلطان الرعية في متاجرهم هلكوا .... وإذا شاركت الرعية السلطان في حمل السلاح هلك ...))[١] .

أما أصحاب المهن في أسواق دمشق فهم :

- العلافون : وهم باعة الحبوب .
- الخبازون .
- الفرّانون .
- صانعوا الزلابية : وهي العوامة .
- الجزّارون : وهم الذين يذبحون البقر والجمال والأغنام في المسالخ .
- القصّابون : وهو الذين يبيعون اللحوم للناس .
- الشوّاؤون : وهم الذين يشوون اللحم .
- الروّاسون : باعة الروس والكوارع[٢] .
- قلايو السمك .
- الطباخون .
- الهرائسيّون : باعة الهريسة وهي القمح مع اللحم .
- النقانقي : بائع النقانق وهي السجق باصطلاح المصريين .
- الحلوانيون .
- الصيادلة .
- العطارون .
- الشرابيون .
- السّمانون : باعة السمن .
- البزّازون : باعة القماش .
- الدلالون والمنادون : وهؤلاء ينادون على البضائع المعروضة للبيع .
- الحاكة .
- الخياطون .
- القطانون .
- الكتانون .
- الحريريون .
- الصباغون : وكانوا في غالبيتهم من اليهود .

---

١ - **جعفر بن علي الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة ، ص٥٥ .**
٢ - **الدمشقي : المصدر المتقدم ، ص٨٨ .**

- الأساكفة : من يصلحون الأحذية واحدهم إسكافي .
- الصرّافون .
- الصاغة .
- النحاسون والحدادون .
- البياطرة .
- نخاسو العبيد والدواب .
- الحمّاميّون .
- الحجّامون والفصّادون .
- الأطباء .
- الكحالون ، أطباء العيون .
- المجبّرون .
- الجرائحية : الأطباء الجرّاحون .
- مؤدبو الصبيان .
- الأئمة والمؤذنون .
- القضاة والمعلمون .
- الولاة والأمراء .
- غسالو الثياب .
- السقّاؤون .
- المكاريّة : أصحاب البغال والحمير .
- حمالو الحطب .
- البلان : وهو المزين وعامل الحمام[١] .

و ذكر الشيزري الفروق بين كل مهنة وأوجه الغش فيها فقال :

((الخبّازون مثلاً ، هم الذين يقومون بصناعة الخبز في التنور وبيعه ، وأما الفرّانون فهم الذين يقومون بخبز الخبز الذي يأتي به أصحابه في المعاجن ، وهؤلاء يستخدمون الفـــرن لا التنور وهم متفرقون في جميع أنحاء البلد لحاجة الناس إليهم ، وكذلك يقوم هؤلاء الفرانـــون بطهي السمك واللحوم والرؤوس والأطعمة الأخرى مثل المعمول وغير ذلك))[٢] .

خامساً ــ المحتسب والحياة العامّة في الأسواق :

---

١ ـ الدمشقي : المصدر المتقدم ، ص٨٩ .
٢ ـ عبد الرحمن الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص٢٣ ـ ٢٤ .

وسنتحدث فيما يلي عن الرجل الأول المسؤول عن أسواق دمشق ومراقبتها وحسن أدائها ، وهو المحتسب .

فلقد نشأت وظيفة المحتسب عملياً مع قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنـورة ، وكـان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يدور في الأسواق ويراقب ما يباع ويقمع الغشّاشين .

ومارس الخلفاء الراشدون هذه المهمة بعده ، بوصفها جزءاً أساسياً من نظـام المجتمـع الإسلامي القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولم يكن ثمة وظيفـة رسـمية أو ديوان للمحتسب ، بل كان من حق الجميع وواجباتهم الشرعية التصدي للغش والتدليس ورفع الأمر إلى الحاكم لمعاقبة المنحرفين والذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان .

ولكن مع توسع الدولة الإسلامية وجد رسمياً منصب المحتسب في أوائل العصر العباسي ، فقد كان عاصم بن سليمان الأحول (١٤١هـ – ٧٥٨م) يتولى الحسبة في المدائن علـى المكاييل والأرزاق في خلافة أبي جعفر المنصور[١] .

ثم أصبحت وظيفة رسمية ذات أهمية قصوى ، ويبدو ذلك مما ذكره الشيزري ، أن ظهير الدين طغتكين طلب محتسباً ، فذُكر له رجل من أهل العلم ، فأمر بإحضاره وقال له :

إني وليتك أمر الحسبة على الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال الرجـل : إن كان الأمر كذلك ، فقم عن هذه الطرّاحة وارفع هذا المسند ، فإنهما حرير ، واخلـع هـذا الخاتم فإنه ذهب ، فنهض السلطان عن راحته ورفع مسنده وخلع الخاتم من أصبعه ، وقال له : قد ضممت لك النظر في أمور الشرطة[٢] .

ويمكن إجمال وظائف المحتسب آنذاك فيما يلي :

١– النظر في الأسواق والطرقات : فلا يسمح لأحد من السّوقة بإخراج مصطبة دكانه إلى السوق ، لأنه عدوان على المارة .

وعليه أن يبعد حوانيت الطباخين والفرانين والحدادين عن الأسواق العامة لمنـع وقـوع الحرائق .

ومن أهم ما كان يقوم به المحتسب في الأسواق هو تعيين عريف عن كل مهنة ، يكـون من صالحي أهلها خبيراً بصناعتهم بصيراً بوجوه الغش والتدليس مشهوراً بالثقة والأمانـة ، يكون مشرفاً على أحوالهم ويطالعه بأخبارهم وما يجلب إلى السوق مـن السلع والبـضائع وماتستقر عليه الأسعار .

---

١ ـ **الذهبي : سير أعلام النبلاء ـ مؤسسة الرسالة ـ دمشق ١٩٨٢م ، ج٦ ، ص١٣ .**
٢ ـ **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص٨ .**

وليس من خصائص ومهمات المحتسب تسعير البضائع في الأحوال العادية ولكن إذا ارتفع السعر نتيجة للاحتكار فإنه يُلزم التجار بيع الطعام حالاً لأن الاحتكار حرام ، ومنعه واجب .

ومن وظائف المحتسب الشرعية الأخرى منع تلقي الركبان ، وهو أن يخرج بعض تجار البلد ، لتلقي الفلاحين أو البدو أو القوافل قبل دخولهم البلد ليشتروا ما معهم بأثمان بخسة[١] .

٢- مراقبة القناطير والأرطال والمثاقيل والدراهم والمقاييس وغيرها . وعليه مباغتة الباعة باختبار صنجاتهم ومكيالهم .

٣- مراقبة باعة الحبوب والدقاقين والتأكد من نظافة الحبوب وإلزامهم بتسليم الخبازين الكمية المقدرة عليهم دون تأخير .

٤- مراقبة الخبازين ، وذلك بجعل المداخن واسعة في سقوف حوانيتهم ، ويكتب المحتسب في دفتره أسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم ، ويأمرهم بنظافة المعاجن ومسح التنور بالماء قبل الخبز ، ومراعاة النظافة التامة للخبازين وغلمانهم ولاسيما ضرورة وضع عصائب على رؤوسهم لئلا يسقط من شعرهم شيء في العجين .

ويراقب الدقيق الذي يخبزونه ويمنعهم من وضع (البورق) في العجين ، لأنه يبيض الخبز ، لكنه يضر الناس ، كما ويلزمهم بخبز نفس الكمية كل يوم ، في جميع الأحوال ، حتى لا يختل البلد لنقص الخبز[٢] .

٥- مراقبة الجزارين ، وذلك بمراقبة الذبح والسلخ ، وينهى المحتسب عن نفخ لحم الشاة لأن رائحة الأدمي تغيّر اللحم .

ويأمر القصابين ، وهم باعة اللحم ، بإفراد لحوم الماعز عن لحوم الضأن ويُعلّموا لحوم الضأن بالزعفران ليعرفه الناس ، وتكون أذناب المعز معلقة فيها حتى آخر البيع ، فإذا انتهى القصّاب من البيع يأمره بوضع الملح على الدفوف حتى لا تلحسها الكلاب أو غيرها من هوام الأرض فإن لم يجد ملحاً وضع الأشنان المسحوق[٣] .

ومن الأمور الطريفة التي ذكرها الشيزري أن المحتسب إذا شك في الحيوان هل هو ميت أو مذبوح ، ألقاه في الماء ، فإن رسب فهو مذبوح ، وإن لم يرسب فهو ميت ، وهذا ينطبق أيضاًعلى صيادي العصافير وسائر الطيور الذين ربما باعوا الطيور الميتة مع المذبوحة[٤] .

وأما الشّوّاؤون ، وهم الذين يشوون الحملان في التنور ، فإن المحتسب يزن الحمل قبل دخوله التنور ، فإذا أخرج منه وزنه ثانية فإن نقص ثلث وزنه فقد انتهى من النضج وآية ذلك

---

١ - **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص١١ وما بعد .**
٢ - **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص٢٣ .**
٣ - **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص٢٧ .**
٤ - **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص٢٩ .**

أن يشق الورك ، فإن ظهر فيها عروق حمر ونزل منها ماء اللحم فهو لم ينضج ، وعلى الشواء ألا يضع اللحم وهو ساخن في أواني الرصاص أو النحاس لأنه يستحيل سُمّاً ، ويأمرهم المحتسب أن يطينوا تنانيرهم بطين قد عجن بماء نظيف .

ومن الشوّائين من يغش اللحم بالرؤوس المطبوخة أو أحشاء الحمل ، يفعلون ذلك في غفلة من المشتري .

وأمّا قلاّيو السمك فيؤمرون كل يوم بغسل قفافهم التي يحملون فيها السمك ، ويبالغون في غسله بعد شقه وتنظيفه وينثرون عليه الملح والدقيق .

وينبغي للعريف وهو نائب المحتسب ، أن يتفقد المقلي كل ساعة عند غيبة المحتسب ، لئلا يقلوه بدهن الشحم المستخرج من بطون السمك وأجود ما قلي به السمك السيرج ، ولا يقلونه بالزيت المعاد إذا كان متغيّر الرائحة[1] .

ويؤمر الطباخون بتغطية أوانيهم بعد غسلها بالأشنان ، ولا يخلطون لحم الماعز بلحم الضأن ، وآية ذلك أن لحم الماعز يسود في القدر .

وأما الهرائسيون ، وهم باعة الهريسة ، فإن المحتسب يلزمهم بوضع ثماني أواق من لحم الضأن مع رطل واحد من لحم البقر (٢ أوقية) لكل صاع من القمح ، وذلك بعد غسل اللحم ونقعه ساعة كاملة في الملح ، ثم يعمد المحتسب إلى تكليف العريف بختم القدر بختمه ، فإذا كان وقت السحر حضر العريف وكسر الخاتم وهرسوها بحضرة العريف لئلا يرفعوا شيئاً من اللحم منها ويعيدوه إليها من الغد ، فأكثرهم يفعل ذلك اذا لم يختم القدر[2] .

ويراقب صانعي النقانق ، وهو السجق ، فلا يقومون بإعدادها إلا بحضرة المحتسب أو العريف الذي يتأكد من نوع اللحم ونظافته وجودته ، فإن غشهم فيها كثير لايكاد يعرف ، وأكثر ما تغش به هو حشوها بلحم الرؤوس أو أحشاء الخروف أو لحم البقر والإبل .

ومنهم من يحشو السنبوسك بلحوم السمك المشوية والتوابل أو يغشها بالباقلا وبياض البصل[3] .

ومن مهام المحتسب ومهاراته الفردية في كشف الغش ــ في العصر الذي لم تكن فيه المختبرات قد ظهرت بعد ــ معرفته غش الحليب بالماء ، وطريقة ذلك أن يغمس فيه شعرة ثم يخرجها ، فإن لم يعلق عليها شيء من الحليب فهو مغشوش بالماء ، وإن علق كان خالصاً[4] .

---

[1] ـ **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص٣١ وما بعد .**
[2] ـ **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص٣٧ .**
[3] ـ **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص٣٨ .**
[4] ـ **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص٥٩ .**

أما الحمامات وهي عصب المجتمع الإسلامي ، فإن على المحتسب أن يأمر بكنسها ودلكها بالماء الطاهر مراراً ، وينظفون خزانة الماء مرة في كل شهر .

وعلى الحمامي أن يشعل البخور في الحمام مرتين كل يوم ، ومتى بردت الحمّام يقوم بتبخيرها بالخزامى .

ولا يجوز للحمامي أن يسمح للأساكفة – جمع إسكافي – بصبغ الجلود في الحمام ، حتى لا يتأذى الناس برائحتها ، وعليه منع المجذوم والأبرص وذي العاهة السارية من دخوله الحمام .

ويكون المزين وهو – البلان – خفيفاً رشيقاً بصيراً بالحلاقة ولا يأكل ما يؤذي الناس من الثوم والبصل ، ويمنع الناس في الحمام من التعرّي لحرمة ذلك[١] .

ثم يتحدث الشيزري عن طرق الغش في الأسواق فيقول :

ويكون غش الخبازين بخلط الدقيق بمسحوق العدس أو الرز أو الشعير ، ومنهم من يضع مادة (البورق) في الخبز ليبدو شديد البياض .

فعلى الفرانين أن يكون لدى كل واحد منهم في الفرن مخبزان : أحدهما للخبز ، والآخر للحوم والأسماك ، توخياً للنظافة ، ويشترط عليهم المحتسب أن يكون صبيانهم دون البلوغ لأنهم يدخلون بالخبز على نساء الناس ودورهم .

وغش باعة الهريسة يكون بخلط اللحم بلحم الروس ودهنها بدل لحم الضأن[٢] .

ثم يذكر جانباً طريفاً عن التجار والسماسرة فيقول :

((يجب الاحتراز من تصديق غالب التجار ، لأن فيهم من إذا أراد شراء بضاعة نادرة مطلوبة أشاع أن تلك البضاعة كاسدة في بلد المنشأ وأن سعرها قد هبط ، وهو يتواطأ مع الآخرين في ذلك ، ويكون للتاجر عملاء في بلد المنشأ ومهمتهم إرسال رسائل بالشيفرة للتاجر ، ويكون الاتفاق بينهم أنه إذا كتبت إليك : الله ، الله ، احذر أن تشتري البضاعة الفلانية لكسادها ، وإذا ذكرت أن قيمتها عندنا دينار فاعلم أنهما ديناران))[٣] .

وأما السماسرة فإنه يجب تحري الدقة عند سماع نصائحهم لأن بضاعتهم مبنية على الكذب .

ومن غشهم الذائع أنهم يندسون بين الزبائن ويطلبون البضاعة ويشترونها بأسعار عالية ، ولا يأخذونها ، وإنما يكتفون بدفع العربون ، فيطمع المشتري بالبضاعة ويزيد في السعر حتى يشتريها[٤] .

---

[١] - **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص٨٨ .**
[٢] - **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص٣٧ .**
[٣] - **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص٥٩ .**
[٤] - **الشيزري : المصدر المتقدم ، ص٥٨ .**

وكانت في أسواق دمشق أحوال طريفة من التلاعب والتدليس .

فقد ذكر الجوبري أن هناك طرقاً كثيرة للغش من ذلك أنهم يصنعون من التين المعـري والماء عسلاً فاخراً لا يميزه إلا أهل الخبرة ، والغشاشون أمثالهم .

وكذلك يعملون من الإلية سمناً فاخراً .

ويصنعون الزبدة من اللبن والخل والصمغ العربي والسكر .

ويصنعون السيرج من شحم الماعز .

ويعملون اللبن من الجوز الهندي والماء ، ويحصلون على لبن خاتر كثير الدسم[١] .

ومن أغرب أنواع الغش الغش في الأنعام والناس ، فقد كان من العامة من يشتري الفرس وهو أدهم ، ثم يدهنونه بخليطة بيضاء فيصبح شديد البياض ، وقد يبيعونه لصاحبه الأول على أنه فرس أبيض نادر .

وقد يفعلون العكس فيجعلون الأبيض أسود أو أحمر ، فلكل لون عندهم تركيبة خاصة[٢] .

وهناك طائفة متخصصة في صبغ البشر ، فيجعلون الأبيض أسـود والأسـود أبـيض ، ويفعلون ذلك بالرجال والنساء على حد سواء ، وذلك إذا كان الرجل مطلوباً وملاحقـاً مـن الحكام أو أصحاب الديون أو غيرهم .

قال الجوبري : ((ولقد رأيت رجلاً شاباً يقال له : محمود بن شاباش وكان مـن شـطّار زمانه ... كنت جالساً في دكان نجار صاحب لي ، قدم علينا رجل كبير أسود محني الظهر ، فكلمناه زماناً ، ثم انصرف . فقال لي صاحبي : إن هذا الذي كلمته هو محمود بـن شـاباش نفسه ، صنع دواء من ماء السماق واللبن وحب الليمون والرواند ، وطلى به رأسـه ولحيتـه فأصبح شعره شديد البياض[٣])) .

وفي ختام حديثنا عن المحتسب نذكر أن منصب الحسبة وأعمالهـا انتقـل مـن الدولـة الإسلامية في دمشق إلى المملكة الصليبية ببيت المقدس ، وسنذكر فيما يلي نصّاً منقولاً عـن كتاب لوالي هذه المدينة ، وهو :

((ينبغي أن يكون لمجلس الحكم رجل من أهل العلم والمعرفة واسمه المحتسب ، وهـو رئيس الشرطة وعليه أن يقسم اليمين أنه سوف يحافظ على حقوق الملك .

ويجب على من يتولى منصب الحسبة ، أن يذهب إلى الأسواق في الأصـباح ، ليتفقـد حوانيت الجزارين وحوانيت بيع الخبز والنبيذ وغيرها من حوانيت المأكول والمشروب .

---

[١] - **عبد الرحيم الجوبري : المختار من كشف الأسرار ، ص١٤ .**

[٢] - **الجوبري : المصدر المتقدم ، ص١٣١ .**

[٣] - **الجوبري : المصدر المتقدم ، ص١٣٤ .**

وعليه أن يحترس ممّا يُدخله الباعة والدّوّارون في مبيعاتهم من أنواع الغش ، وأن يُراعي وجود الخبز في الأسواق بشكل دائم ، وأن يكون وزن الخبز مطابقاً للوزن المقـــرر بمجلـــس الحكم ، وعليه مراقبة السلع المعروضة ومراعاة أثمانها ، وعليه أن يطوف بالمدينة .

ومن أجل ذلك ينبغي أن يكون له فئة من العيون – المخبرين – والأعوان حتى يحيطونه علماً بكل المخالفات .

وعليه أن يوقف الجناة ويعرضهم للنظر في عقوبتهم))[1] .

[1] ـ الشيزري : نهاية الرتبة ـ الملحق ـ ص١٢٧ تحت عنوان : والي المدينة ، أو الحسبة في بيزنطة .

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية : الأصول والمذاهب

ـ تمهيد :

على الرغم من الأطماع في الشام منذ فجر التاريخ وتوالي هجمات الشعوب وتغير المعالم والأديان في المدينة (آراميون ، رومان ، فرس ، صليبيون ، أتراك وغيرهم) فإن الطابع الحضاري للدين الإسلامي هو الأبقى في المنطقة ، وقد أعطاها سماتها وثقافتها ووجهتها الحضارية ، وفي ظل الحكم العربي الإسلامي عصر التسامح كانت كافة الأديان والأعراق يمارسون حياتهم وشعائرهم بكل حرية ، ولم يقلل من ذلك حدوث بعض التجاوزات التي لا تخلو منها أمة من الأمم في أي فترة تاريخية لها .

كما حملت دمشق ملامح المدينة الإسلامية والزاخرة بالفن العربي ، ومازالت الأحياء القديمة تضم مسجداً وحماماً ، والأحياء حافلة بلمحات من الحياة العربية ، والشوارع الرئيسية مازالت لا تنفذ إلى المساكن القديمة بل تتفرع إلى دروب وهذه تتفرع إلى أزقة تصل في النهاية إلى البيت الدمشقي ، ولازالت بعض الأبواب القديمة مثل الباب الضخم في زقاق البرغل ، وقد تتقارب بيوت الحي بمشربيات تكاد تتلامس لتظلل الزقاق من أشعة الشمس .

وفي دمشق القديمة تتداخل الأزقة الضيقة ومجاري المياه التي كانت تغذي البيوت والحدائق والحمامات العامة فتنساب فيها المياه لتسقي المدينة العريقة وترعى الأبواب المزخرفة والنوافذ المزركشة ، وبعض هذه الأحياء لا يزال إلى الآن شاهداً على العمق الحضاري لهذه المدينة .

أولاً – دمشق عاصمة الأتابكية :

١ـ السكان والجنسية :

يصعب تحديد عدد سكان دمشق في مرحلة الدراسة ، ولكن يفهم مما أورده بعض المؤرخين أنه كان يقيم بدمشق مابين ٣٠٠,٠٠٠ إلى ٥٠٠,٠٠٠ نسمة .

فقد ذكر ابن العبري أن سكان دمشق كانوا ٣٠٠,٠٠٠ فأصبحوا ٣٠,٠٠٠ ، وذلك عند نهاية الحكم الفاطمي لها وبداية حكم أتسز[1] .

وعلى كل حال فذلك القول لا ينهض دليلاً دقيقاً على عدد السكان لأنّ ما ذكره ابن العبري كلام عام فيه نوع من المبالغة ، على عادة المؤرخين إذ أننا لا نتصور أن يكون في المدينة كلها ٣٠٠٠ ساكن فقط ، مهما ساءت الأحوال .

وقال سبط ابن الجوزي من جهته إنه كان يقيم بدمشق ٥٠٠,٠٠٠ نسمة ، فلم يبق منهم إلا ٣٠,٠٠٠ ، أفناهم الفقر والغلاء والجلاء[1] .

---

[1] ـ ابن العبري : حوادث الزمان ، ص ١١٥ .

وذكر ابن عساكر أنه كان بدمشق على عهده أكثر من ٤٠٠ مسجد عـامر تـؤدى فيهـا الصلوات وهذا يدل على اتساع المدينة ووفرة سكانها[٢] .

وعلى كل حال فإن عدد سكان المدينة كان يزداد تدريجياً عاماً بعد عام بسبب الاستقرار النسبي للأوضاع السياسية من جهة ، وبسبب الهجرات الجماعية التي تمت باتجاه دمشق إبان الحروب الصليبية من البلدان التي سقطت بيد الصليبيين ويمكن القول افتراضاً إن عدد سكان دمشق تراوح بين ٣٠٠,٠٠٠ و ٥٠٠,٠٠٠ في القرن السادس الهجري .

أما جنسية السكان أو أصولهم ، فكانوا من العـرب والأتـراك والتركمـان والأكـراد ، بالإضافة إلى أهل الذمة من اليهود والنصارى وأقليات من بلاد شتى .

وكما هو واضح فقد كانت دمشق جامعة عربية إسلامية تستقبل الجميع من كل الأصول والجنسيات ، لأن الإسلام كان هو المقياس السائد في تلك الحقبة ، ليس في دمـشق وحـدها وإنما في جميع أنحاء البلاد العربية والإسلامية ، كما هو معلوم .

وعلى الرغم من أن أكثر المؤرخين الذين كتبوا عن دمشق كانوا من العرب مثـل ابـن القلانسي وابن الأثير وابن عساكر وغيرهم ، فإن أياً منهم لم يذكر في تاريخه أدنـى إشـارة حول هجرة المسلمين من مختلف بلادهم إلى دمشق والتلميح إلى أنهم من غير العرب .

ليس هذا فحسب ، بل إنه كما ذكرنا في الفصل الأول فإن حكام دمشق خـلال المرحلـة الدراسية جميعها ، لم يكن فيهم حاكم عربي واحد بالمعنى المفهوم للكلمة ، ولم يُعرّض بهم أو بأصولهم أحد من المؤرخين العرب بخلاف المستشرقين .

ونرى أن ذلك يعود لأسباب عدة :

– أولها أن العنصر العربي أزيح بالتدريج عن سدة الحكم منذ سـقوط الدولـة الأمويـة والمجازر الرهيبة التي ارتكبها أبو مسلم الخراساني وقادة العباسيين ضد الأمـويين ظـاهراً وضد العرب أمّة وأصلاً في حقيقة الأمر ، بحيث ندر أن نرى بعد ذلك حاكماً عربياً قوياً على غرار معاوية أو عبد الملك أو هشام ، ولذلك فإنه أصبح من المألوف للعرب أن يحكمهم أناس من أصول مختلفة ، وكان يكفيهم أن يكون حاكمهم الأعلى عربيّاً ، ونعني به الخليفة العباسي .

– والسبب الثاني أن المسلمين رأوا أن أوروبا بأسرها قد اتحدت تحت رايـة الـصليبيين وجاءت للقضاء التام عليهم ، على ما كان من صراع بين روما والقسطنطينية وبين البطاركة والباباوات وبين الكنيسة الشرقية والغربية ، فقد اتحد هؤلاء جميعاً وانطلقوا بإصرار غريـب وعزيمة لا تلين ، انطلقوا كالسيل الجارف نحو المشرق الإسلامي لإبـادة الكفـرة بحـسب

---

[١] – **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٧٦ – الحاشية .**
[٢] – **ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢ – ص٢٨٦ وما بعد .**

تصوّرهم ، ولم يكونوا يميزون بين كردي وعربي وتركي وهندي ، فالجميع بنظرهم أعــداء مغتصبون . والرب أمرهم بإبادتهم حتى يدخلوا الجنة ، ولذلك كان طبيعياً أن يتحد المسلمون تحت راية الهلال لمقاومة الذين جاؤوا من الغرب بهدف استئصال الإسلام نهائياً .

– والسبب الثالث : أن الدولة الفاطمية ، والتي أعلنت نفسها حامية للعروبة والإســلام ، كانت مذبذبة بين الصليبيين والمسلمين ، فطوراً تتحد مع الصليبيين ضد المــسلمين وطــوراً ترسل مساعداتها إلى دمشق .

من أجل ذلك ، كان الناس في دمشق وأتابكيتها لا يقيمون وزناً إلا لمــن يقــودهم نحــو النصر والتحرير ، لا إلى الذين يدفعون بهم إلى الذل والهوان ، تصفية لحسابات قديمة .

٢ ــ مكانة دمشق في عيون العرب والمسلمين :

كان لدى دمشق سحر خاص في العالم الإسلامي ، فهي عاصمة الأمويين ، وفيها الأولياء والصالحون والعلماء والمحدثون ، وفيها يرقد عدد من الصحابة والأوليــاء ، وهــي عمــود الإسلام ، وفــي جوارهــا المــسجد الأقــصى ، والرســول الكــريم حــدّث عنهــا وعــن فضلها[١] .

وبغض النظر عن الصحة والوهم في هذه الأخبار ، فإن الهجوم الصليبي الجارف علــى الشام واستهدافه دمشق ، وتصديها له ، أضاف إليها سحراً جديــداً وجعلهــا مهــوى أفئــدة المرابطين والمجاهدين .

وباختصار كانت دمشق في نظر المسلمين مدينة تجمع الدين والدنيا .

ومن العوامل الأخرى التي ساهمت في سحر دمشق وجود المصحف العثماني فيها ، الذي نقله الأتابك طغتكين من طبرية سنة ٤٩٢هــ – ١٠٩٩م ، كما ذكرنا من قبل .

وكان الناس من الرحالة والعلماء والحجاج يتبركون بمشاهدته وكما قال ابــن جبيــر إن الخزانة تفتح كل يوم بعد الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ، ويكثر الازدحام عليه ولمسه ، وقد بقي في المسجد حتى حريقه الأخير سنة ١٣١١هــ – ١٨٩٣م[٢] .

وفي المسجد آثار نبويّة شريفة وآثار من عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، نظمت وأفرد لها جناح خاص اليوم في المشهد الشرقي من الجامع وأطلق عليها : متحف الجامع الأموي[٣] .

---

[١] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ـ الجزء الثاني ، وهو بكامله مخصص لفضائل دمشق ومن فيها من الأنبياء والأولياء والصالحين وما قيل في كراماتها وفضائلها ، وذكر الربعي : أبو الحسن علي بن محمد المتوفى سنة ٤٤٤هـفي كتابه عن فضائل دمشق والشام عند زيارته لها سنة ٤٣٥هـ١١٨ حديثاً في فضلها وفضل ما حولها وحدّث في هذا الكتاب في الجامع الأموي . والكتاب بتحقيق الدكتور صلاح المنجد وطبع المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٥٠م ، انظر الصفحات ، ج١ ، ص١٨ ، وهو من الكتب التي اعتمد عليها ابن عساكر .

[٢] ـ ابن جبير : الرحلة ، ص٢٤٢ .

[٣] ـ حدثنا بذلك الشيخ عبد الرزاق الحلبي شيخ الجامع الأموي .

ومن الآثار التاريخية الأخرى بدمشق وجود نعل الرسول صلى الله عليه وسلم فيها ، ولا ندري كيف وصل إليها ، وكانت أسرة أبي الحديد الشريفة مسؤولة عنه .

وذكر أبو بكر بن العربي الذي زار دمشق سنة ٤٩١هـ - ١٠٩٨م أنه شاهد هذا النعل عند خطيب الجامع الأموي(١) .

ومن العوامل التي جذبت الناس إلى دمشق وقوعها على طريق الحج الشامي ، بل هي مركز قافلة الحج الشامي الذي كان يضم الحجاج الأتراك والتركمان والأكراد والعرب والعناصر الإسلامية الأخرى ، وكان لهذه القافلة آثار اقتصادية واجتماعية مهمة على دمشق ، كما سنرى .

وكان عدد من المسلمين الذين يذهبون لأداء فريضة الحج أو زيارة القدس ، يعرجون على دمشق ثم يقيمون فيها .

فالخطيب البغدادي قدم دمشق سنة ٤٤٥هـ - ١٠٥٢م حاجاً ، فسمع بها ، ثم توجه إلى الحج ، ثم عاد إليها فدرّس ووعظ وأقام بها(٢) .

وعزم الإمام الغزالي على الإقامة بدمشق لانعدام الحرية ببغداد وكثرة الفتن ، فهاجر إلى القدس ثم قدم دمشق سنة ٤٨٩هـ - ١٠٩٦م(٣) .

وقدم الشيخ يوسف الفندلاوي المغربي دمشق حاجاً ثم استوطن بها ودرّس وقضى شهيداً فيها(٤) .

وأقام الشيخ عبد الواحد الشيرازي بالقدس ونشر مذهب الإمام أحمد فيه ، ثم استقر وأبناؤه بدمشق(٥) .

وسكن الفقيه نصر المقدسي في بيت المقدس ثم استقر بدمشق سنة ٤٨٠هـ - ١٠٨٧م ، وتوفي فيها سنة ٤٩٠هـ - ١٠٩٧م(٦) .

---

١ - **المنجد : صلاح الدين : المشرق في نظر المغاربة - دار الكتاب الجديد - بيروت ١٩٦٣م ، ص ٢٤ .**
٢ - **ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٥ ، ص٣١ .**
٣ - **الغزالي : المنقذ من الضلال - القاهرة ١٣٧١ - ص ٣٧ .**
٤ - **ابن عساكر : المصدر المتقدم نفسه ، ج٢٨ ، ص٨١ .**
٥ - **أبو يعلي : طبقات الحنابلة - تحقيق عبد الرحمن العثيمي - الرياض ١٤٢٥هـ٣ مجلدات . انظر ، ج٣ ، ص٤٦١ .**
٦ - **ابن عساكر - المصدر المتقدم نفسه ، ج٦٢ ، ص١٦ .**

وقدم الحافظ محمد بن علي بن ميمون من بغداد إلى القدس ، ثم عرّج على دمشق بقصد الزيارة فأقام فيها[1] .

وأقام الفقيه أبو بكر الطرطوشي الأندلسي في القدس سنة ٤٨٣هـ – ١٠٩٠م ثم زار دمشق واستقر فيها[2] .

وفي سنة ٤٩١هـ – ١٠٩٨م زار دمشق الشيخ أبو بكر بن عبد الله العربي المغربي ، وترك وصفاً دقيقاً لها كما كانت في عهود دقاق بن تتش ، وقبيل سقوط القدس بيد الصليبيين .

وفي حدود سنة ٥٦٠هـ – ١١٦٥م زارها الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي ، ووصفها وصفاً مطولاً مرت أجزاء منه في الفصول المتقدمة من هذا البحث[3] .

٣ ـ خطط دمشق :

وبعد هذا الحديث عن سحر دمشق نعرض بصورة موجزة لخططها وأشهر معالمها ، نظراً لكثرة ورود أسماء الحارات والمحلات والأرباض عند المؤرخين ولتغير هذه الأسماء عبر العصور لما لذلك من علاقة بالحياتين الاجتماعية والاقتصادية .

أ ـ الأحياء :

ففي الجهة الجنوبية نشأ حي السويقة ، وهو تصغير السوق وهو اليوم جنوب قصر حجّاج وهذا الحي كما سنرى كان وما يزال سكن المغاربة بدمشق ويليه نحو الجنوب المصلى وعنده كانت تنتهي حدود دمشق في مرحلتنا الدراسية ، والى جنوبه كان ميدان الحصى ، وهو واحد من ميادين دمشق الكبرى ، وكانت تقام فيه ألعاب الفروسية .

والى الشرق من السويقة يقع حي الشاغور ، والذي يقسمه السور إلى قسمين : البراني خارج السور ، والجواني داخل السور ، ويفصل الشاغور عن السويقة مقبرة الباب الصغير وهي مقبرة دمشق الكبرى ، وقد زرت هذه المناطق واطلعت على معالمها .

وفي الجهة الشمالية نشأت ضاحية العقيبة – تصغير عقبة – وتنتهي حدودها عند مقابر الفراديس – الدحداح – .

وفي قاسيون نشأت منطقة الصالحية بسبب هجرة بني قدامة المقادسة إلى دمشق في أيام الملك العادل نور الدين ، كما سنرى عند الحديث عن الهجرات المختلفة إلى دمشق .

وكانت البساتين الواسعة تفصل بين الصالحية والعقيبة[4] .

أما مناطق المهاجرين ، والقبيبات وسوق ساروجة والقنوات فقد نشأت في عهود لاحقة .

---

[1] ـ ابن عساكر ـ المصدر نفسه ، ج٥٤ ، ص٣٩٥ .

[2] ـ الضبي : بغية الملتمس ـ بيروت ١٤١٠هـ ، ج١ ص٧٥ .

[3] ـ رحلة بنيامين التطيلي ، ص ٢٧٠ ، وهو هنا يشير إلى الساعة الكبيرة القائمة على الباب الشرقي للجامع .

[4] ـ عن الصالحية انظر : الشيخ محمد دهمان : في رحاب دمشق ، دار الفكر بدمشق ١٩٨١م ـ ص ٣٥ وما بعد .

وكانت المزة قرية من قرى دمشق وبينهما كانت قرية صغيرة تدعى صنعاء الشام في موقع كلية الهندسة اليوم ، وقد بنت فيها الخاتون زمرّد المدرسة الخاتونية[١] .

ومن الجهة الغربية نشأت أحياء منذ العصر الأموي واستمرت حتى اليوم ، وتعرف بأسماء القصور الموجودة فيها ، و هي :

قصر حجاج نسبة إلى حجاج بن عبد الملك بن مروان ، الذي بناه ظاهر باب الجابية[٢] .

قصر عاتكة ، وكان يقع إلى الغرب من قصر حجاج ، وينسب إلى السيدة عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، زوج الخليفة عبد الملك ، وأم الخليفة يزيد .

فقد بنت في تلك المنطقة قصراً منيعا عرف باسمها أي :

قصر عاتكة ، مات فيه زوجها عبد الملك ودُفن في مقابر الباب الصغير ، ثم ماتت فيه هي الأخرى ودفنت فيه ، ومع توالي الحروب والفوضى في دمشق تهدم القصر ، واختلسه الناس ، لكنهم أبقوا على القبر ، ولا يزال الحال على ما هو عليه حتى اليوم ، وتعرف المنطقة باسم قبر عاتكة بدل قصر عاتكة ، والقبر موجود على الطريق العام[٣] .

ب ــ الحارات والمحلاّت والأزقّة :

إن المهتمّ بتاريخ دمشق عامة ، وفي مرحلتنا الدراسية خاصة ، يُواجه بأسماء محلات وحارات وأماكن كان لها دور وذكر في تاريخ دمشق ، وكان لكل محلّة من هذه المحلات أحداثها ورجالها وخصوصياتها ، وغالباً ما كانت تنشأ النزاعات بين أهل هذه المحلات ، ثم يسود الوئام بينها ، ثم تعود إلى الخصام وهكذا ، ولم تكن للحكام سيطرة كاملة على هذه المناطق ، ولذلك رأينا أن في التعريف بها فائدة في شرح وفهم ما نحن بصدده من الحديث عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في دمشق[٤] .

وقد حاولنا زيادة في الإيضاح أن نبيّن مواضع هذه الحارات والأزقة والمحلاّت على الخارطة ، لأنها تكاد أن تكون مجهولة اليوم بعد مضي ألف سنة عليها .

وبيّنا في مصور آخر مواضع غوطة دمشق الشرقية والغربية لكثرة ورودها في المصادر التاريخية ولاسيما تاريخ دمشق للقلانسي .

---

[١] ـ العلبي : أكرم حسن ، خطط دمشق ١٩٨٩ ص١٨٥ .

[٢] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١٢ ، ص٩٩ .

[٣] ـ ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج ١٢ ، ص٦٩ ـ ٢٤٥ .

[٤] ـ اعتمدنا في هذه الدراسة أساساً على تاريخ دمشق لابن عساكر ، الجزء الثاني ، وتاريخ دمشق للقلانسي وما نشره كل من الدكتور نيكتيا إيليسف والدكتور عبد القادر الريحاوي عن دمشق وخططها بمناسبة مرور ١٠٠٠ سنة على ولادة ابن عساكر والذي طبع في وزارة الثقافة بدمشق سنة ١٣٩٩هـ ، ومصادر أخرى ، انظر : ص٩٧ بعنوان : خطط دمشق للدكتور الريحاوي .

ومن حارات دمشق وأزقتها ودروبها التي ترد كثيراً في كتب المؤرخين في فترتنا الدراسية نذكر :

– **طاحون السجن** : جنوبي سوق الصوف والحبال ، كانت فيه طاحون مشهورة ، توقفت منذ سنين .

– **حارة اليهود** : في الزاوية الجنوبية الشرقية داخل السور وكان فيها في القرن السادس الهجري الأماكن التالية : مسجد كليلة ، درب كليلة ، جامع الشهرزوري ، درب البلاغة ، كنيس اليهود ، على النهر .

– **جيرون** : شرقي الجامع الأموي ، وكان لها بابان وفيها : سقيفة كردوس ، وسقيفة القطيعي .

– **الخضراء** : كانت تمتد من داخل سوق الخيل في الصاغة ، إلى حدود الجامع الأموي الشرقية ، ومن أهم مبانيها : البيمارستان القديم .

– **السوق الكبير** : ويسميه ابن عساكر السوق الأوسط ، وهو الشارع المستقيم ، والسوق الطويل وطوله ١٥٠٠ متر ويضم عدة أسواق ذكرناها في موضعها ، بالإضافة إلى الأماكن التالية :

درب ابن خلاّد : على السور الشرقي لصيق درب كشكة . **درب نمير** : إلى الشرق من درب الفواخير ، غربي الباب الشرقي من جهة الجنوب . **الفورنق** : في وسط منطقة القيمرية اليوم . **الديماس** : لصيق الفورنق من الغرب ، وجنوبي سوق الطير . **محلّة حجر الذهب** : كانت من أجمل المناطق في دمشق وتشمل القسم الشمالي مما يعرف اليوم بمنطقة الحريقة . **درب الوزير** : وهي المنطقة الواقعة لصيق حجر الذهب من الجنوب حتى الشارع الطويل . **درب الأسديين** : على يمين الخارج من باب الجابية في الزاوية الجنوبية الغربية من درب الوزير . **درب اللبان** : لصيق درب الأسديين من الشرق وجنوب حارة بلاطة . **درب الشعّارين** : شمال درب الأسديين بينه وبين قلعة دمشق . **حارة الغرباء** : في القسم الغربي الجنوبي من القلعة حيث مدخل سوق الحميدية اليوم . **حارة الحجر** : مكان العصرونية اليوم . **دار الخيل** : جنوب باب الصاغة من أبواب الجامع الأموي . **درب باب البريد** : وهو سوق باب البريد اليوم . **درب القُرشيّين** : سوق الدقاقين اليوم جنوب سوق البزورية وهو نفسه الزلاّقة . **درب التميمي** : في منطقة خان القاري اليوم ومكتب عنبر . **حارة بلاطة** : غربي المدرسة النورية . **درب الوزير** : القسم الجنوبي من سوق الحريقة اليوم ويعرف بسيدي عامود وهي تسمية مملوكية متأخرة . **الفراديس** : خارج باب العمارة حتى المقبرة ، وكانت خربة أيام ابن عساكر بعد احتراقها سنة ٣٦٣هـ – ٩٧٤م . **منطقة الشماسية** : عند مسجد القدم اليوم . **منطقة لؤلؤة** : بين القينية والقنوات ، وتعرف اليوم بالحلبوني . **منطقة**

المحامليين : عند باب المصلّى . **مرح الأشعريين** : مكان سوق الخيل اليوم وسوق ساروجة أيضاً ، شمالي القلعة ، وغيرها .

وذكر ابن عساكر أنه كان على نهر يزيد رواشن مشرفة على النهر ، وكان ظاهر البلد مأوى للقبائل وكانت القرى فيه متصلة متقاربة فخرب أكثر ذلك في الفتن والحروب والحصارات وتمادى عليه الخراب إلى الآن .

ومن المناطق التي كانت قائمة ظاهر دمشق :

فندق بني عبد المطلب عند سوق الدواب ، ومحلة الراهب عند مسجد فلوس عند باب المصلى ، ومحلة الشماسية عند مسجد القدم ، ومحلة أو قرية فذايا وواسط ، جنوب تربة اليهود (على طريق المطار اليوم) ، وعالية وعويلية عند مسجد القدم ، ومحلة سطرا ، ومحلة الفراديس ، والأوزاع (العقيبة) ، ومقرى ، ومرج الأشعريين ، ولؤلؤة الكبيرة ، ولؤلؤة الصغيرة ، وقينية والحمرية ، وصنعاء (مكان كلية الهندسة)[١] .

ج – الأبواب :

كان يحيط بدمشق في عصر ابن عساكر أحد عشر باباً بقي منها حتى اليوم ثمانية أبواب ، وهي باتجاه شرق فشمال فغرب فجنوب :

– الباب الشرقي : ويقابل باب الجابية من الغرب ، ومنه دخل السلطان نور الدين إلى دمشق ٥٤٩هـ – ١١٥٤م ، ولا يزال إلى اليوم .

– باب توما من جهة الشمال : وكان فيه في فترتنا مسجد بمئذنة ، وقد هدم في عهد الاحتلال الفرنسي ، ولا يزال إلى اليوم .

– باب الجينيق ، إلى الغرب من باب توما ، وهو الباب الثاني في الجهة الشمالية من السور ، ولا أثر له اليوم .

– باب السّلام أو السلامة في الجهة الشمالية أيضاً وهو قائم حتى اليوم .

– باب الفراديس إلى الغرب من باب السلام ، ويعرف اليوم بباب العمارة ، وهو في الجهة الشمالية أيضاً ولا يزال إلى اليوم .

– باب الفرج في الجهة الشمالية ، غربي باب الفراديس وهو بابان داخلي وخارجي ، وفتحه نور الدين فحصل به الفرج فسمي باب الفرج ، ولا يزال إلى اليوم .

– باب الحديد آخر أبواب السور الشمالي ، وكان يفضي إلى القلعة مباشرة ، ولا أثر له اليوم .

– باب الجنان ، من غربي البلد ، وهو الذي عُرف فيما بعد بباب النصر وقد هُدم سنة ١٢٨٠هـ – ١٨٦٣م .

---

[١] **ـ ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣٦٧ .**

– باب الجابية ، في غربي البلد ، وكان يصله بالباب الشرقي الشارع المستقيم . ولا يزال إلى اليوم .

– الباب الصغير : أشهر أبواب دمشق ، وهو في جنوب البلد ، ومنه دخل تيمورلنك دمشق ، وسبب شهرته وجود مقبرة دمشق الكبرى إلى الجنوب الغربي منه ، واليوم ، كما علمنا وشاهدنا ، يطلق اسم الباب الصغير نفسه ويُراد به المقبرة .

– باب كيسان : في الجهة الجنوبية أيضاً ، كان مسدوداً ففتح سنة ٧٦٥ هـ – ١١٧٢م ، وفي عهد الاحتلال الفرنسي صار باباً لكنيسة القديس بولس ، ولا يزال[1] .

ولدى زياراتنا لهذه الأبواب اليوم ، وجدناها قد جددت حديثاً بحيث يمكن فتحها وإغلاقها من جديد .

ء ـ المعالم الرئيسية :

– قلعة دمشق :

لم يكن بدمشق قبل سنة ٤٦٩ هـ – ١٠٧٦م قلعة لأن أحداً من المؤرخين لم يذكر ذلك ولاسيما وأن الفترة التي سبقت تلك السنة كانت فترة حروب طاحنة داخل دمشق وخارجها .

وذكر ابن كثير أن أتسز شرع سنة ٤٧٠ هـ – ١٠٧٧م في بناء هذا الحصن المنيع ، ولم تكد ترتفع الأبراج حتى قتل ، وتابع تتش عمله ، فأكمل القلعة وأحسن عمارتها ، وابتنى فيها داراً لولده سمّاها دار رضوان[2] .

وذكر ابن شداد أن تتش هو الذي بنى القلعة سنة ٤٧١ هـ – ١٠٧٨م[3] . وجاء طغتكين فزاد فيها . ثم جاء حفيده شمس الملوك إسماعيل فأوجد فيها مجموعة من الأبنية هي : باب الحديد الأوسط ، وباب جسر الخندق ، فصار للقلعة ثلاثة أبواب بدل الباب الواحد .

وبنى دار المسرّة ، كما بنى قاعة الورد ، وبنى فيها الحمّام ، وعندما جاء نور الدين ، بنى فيها داراً من الخشب ، نظراً لكثرة الزلازل في ذلك العهد ، وكانت هذه الدار مقرّه الدائم وفيها توفي ودُفن[4] .

– قصر الخضراء :

هو أول قصر للإمارة في دمشق في العهد الإسلامي اشتراه أمير دمشق يزيد بن أبي سفيان من حرب بن عباد الأزدي ، وكان عبارة عن دار فسيحة واسعة ، ولما مات يزيد ورثه منه أخوه معاوية ، فنقض البناء وأقام عليه قصراً تعلوه قبة خضراء أطلقت عليه فصار يعرف بالخضراء وبقصر الخضراء وبدار الملك والإمارة ودار معاوية .

---

[1] ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٨ ، ص٦٩١ ، الريحاوي : عبد القادر ـ خطط دمشق ضمن كتاب ابن عساكر ، ص٩٧ وانظر : ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢ ، ص٤٠٧ .

[2] ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٦ ، ص٥٩ .

[3] ـ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ـ قسم دمشق ، ص ٣٠ وما بعد .

[4] ـ القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٣٧٩ ، وأفضل ما كتب عن القلعة كتاب الدكتور عبد القادر الريحاوي المطبوع في دمشق سنة ١٩٧٩م .

وكان القصر من الطوب ، فنقضه معاوية وجعله من الحجارة واتخذه مقراً للحكم واستمر كذلك في عهد ولده يزيد ، وعهد مروان بن الحكم .

وعندما حكم عبد الملك بن مروان اشتراه من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعين ألف دينار ، وصار داراً للإقامة والإدارة في دمشق[١] .

وفي العصر العباسي كان مركزاً للحكم أيضاً واستمر كذلك في أيام الإخشيديين والطولونيين والفاطميين .

وذكره المقدسي فقال : ((ومن الخضراء وهي دار السلطان أبواب إلى المقصورة بالجامع الأموي))[٢] .

وذكر المهلبي الخضراء فقال : ((وفي ظهر الجامع كانت خضراء معاوية وهي داره ، وهي الآن – حوالي ٣٧٥هـ – ٩٨٥م – مجلس الشرطة ودار الضرب))[٣] .

وقال ابن كثير عن حوادث سنة ٤٦١هـ – ١٠٦٩ بدمشق : ((فأُلقيت نار بدار الملك وهي الخضراء المتاخمة للجامع من جهته القبلية ، فاحترقت وسرى حريقها إلى الجامع الأموي فاحترق))[٤] .

أما موقع قصر الخضراء فكان في الناحية الجنوبية الشرقية للجامع الأموي مكان قصر أسعد باشا العظم وزقاق الحمراوي وزقاق الخضراء في حي النقاشات .

فقد ذكر البديري أن أسعد باشا اشترى داراً كانت تعرف بدار معاوية ليبني عليها داره[٥] .

وعندما بنى أتسز القلعة جعلها مركزاً لإقامته ، وكذلك فعل تتش وطغتكين وأولاده ونور الدين كما بينّا وتراجعت أهمية قصر الخضراء تبعاً لذلك .

– قصر فلاح :

بناه والي دمشق الفاطمي جعفر بن فلاح في سفح قاسيون في الموقع المشهور بالدكة على نهر يزيد بالقرب من دير مرّان على أنقاض قصر خمارويه ، ومن المرجح أن يكون هذا القصر هو الذي عناه المقدسي بالقول[٦] :

((وعليها حصن أحدث بدمشق وأنا بها ، وهو من طين وذلك في حدود سنة ٣٧٥هـ – ٩٨٥م)) .

---

[١] ـ ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣٥٩ .
[٢] ـ المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٣٩ .
[٣] ـ الريحاوي : عبد القادر ، قصور الحكام في دمشق . مجلة الحوليات السورية العدد ٢٢ ص ٣٤ ، نقلاً عن مخطوط نشره الدكتور صلاح الدين المنجد .
[٤] ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٦ـ ص١٨ .
[٥] ـ البديري : حوادث دمشق اليومية : تحقيق أحمد عزت عبد الكريم ، دمشق ١٩٥٩م ، ص١٤١ .
[٦] ـ المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٣٧ .

ومن القصور الأخرى قصر بكجور بين منطقة القدم وكفرسوسة ودار رضوان ودار المسرّة داخل قلعة دمشق ، وقد أوردنا هذه القصور لترددها كثيراً في كتابات المؤرخين في المرحلة الدراسية موضوع البحث .

٤- الجامع الأموي قلب دمشق النابض :

كان يسمى عند المؤرخين : جامع دمشق ، وهو مركز الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية في دمشق ، ومكان اجتماع أهلها في المواسم والأعياد ، وملاذهم في الحروب والأزمات والكوارث التي لم تكن تفارقهم في تلك الأيام .

وكان هذا الجامع ، ولهذه الأسباب مستهدفاً من بعض الحكام الفاطميين الذين رأوا فيه عقبة كأداء أمام انتشار أفكارهم الخاصة ، والتي بنوا الجامع الأزهر لنشرها وتخريج الدعاة لها .

ولذلك كانوا يضايقون العلماء الذين يدرسون فيه ، ويراقبونهم كما فعلوا مع الخطيب البغدادي الذي اتهموه بأنه (ناصبي) يدرس فضائل الصحابة والعباس في الجامع[١] .

ولقد استطاع هذا الجامع الوقوف أمام مختلف الخطوب ومنها حادثة إحراقه كما قدمنا سنة ٤٦١هـ - ١٠٦٩م .

ثم نهض الجامع من جديد بناءً ومدرسة وجامعة وموئلاً لأهل الشام ، وتابع رسالته في عهد السلاجقة و البوريين ونور الدين .

ومن الجدير بالذكر أنه كان الجامع الوحيد الذي تقام فيه صلاة الجمعة داخل دمشق وفي ضواحيها ، وذلك قبل بناء المساجد الكبرى التي صارت تقام فيها الجمعة مثل جامع التوبة في العقيبة وهو من العصر الأيوبي وجامع تنكز ويلبغا وجامع كريم الدين - الدقاق- في الميدان وهي جوامع من العصر المملوكي .

والسبب في عدم بناء مساجد كبرى بدمشق في فترة دراستنا ما ذكره ابن عساكر من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما زار دمشق أمر ألا يتخذ في المدينة مسجدان ، وكان الناس متمسكين بعهده[٢] .

وفي العصر المملوكي الأوسط تساهل بعض الفقهاء بدمشق في هذا الأمر ، فاتخذوا مسجداً آخر ضمن السور تصلى فيه الجمعة ، وكان ذلك سنة ٧٦٣هـ - ١٣٦٢م .

---

[١] - الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١٨ ، ص٢٨٢ ، والناصبي لفظ يطلق على أهل السنة ممن يرفضون شتم الصحابة ، كما يطلق اليوم لفظ " اللاسامي " على كل من يحارب الصهيونية " .

[٢] - ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣٢٢ .

فقد ذكر ابن كثير أنه في يوم الجمعة ٢٤ من ذي القعدة سنة ٧٦٣ هـ - ١٣٦٢م فتح مسجد الشهرزوري داخل باب كيسان ، وأقيمت فيه الجمعة ، وذلك بعد فتح الباب المذكور في العام نفسه[١] .

ثم توالى بناء المساجد الجامعة داخل السور وخارجه .

وكانت للجامع خصوصيات لم تكن لغيره .

فعندما هاجم الصليبيون دمشق سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٨م ، وضاقت الأحوال بأهلها ، وبلغت القلوب الحناجر التجؤوا رجالاً ونساءً إلى الجامع ونشروا مصحف عثمان ، وضجوا بالبكاء والدعاء حتى كتب الله لهم النصر[٢] .

وعندما زار الخطيب البغدادي دمشق أقام في الجامع إقامة دائمة ، وهو يدرس ويحدث ويعظ .

وكذلك فعل الإمام محمد الغزالي ، الذي وصل إلى دمشق سنة ٤٨٩هـ - ١٠٩٦م فأقام في الجامع ، وصار يدرس فيما عرف فيما بعد بالزاوية الغزالية في صحن الجامع ، كما كان يعظ في الجامع ويناظر الآخرين .

وكما ذكر ابن جبير ، فإنه في يوم وقفة عرفات ، كان الناس ينتشرون فيه مثل الحجاج وهم يدعون ويتضرعون وكأنهم في عرفات[٣] .

ويقول :

((ومنظر صحن الجامع من أجمل المناظر وأحسنها ، وفيه مجتمع أهل البلد وهو متفرجهم ومتنزهم كل عشية . تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق إلى غرب ، ومن باب جيرون إلى باب البريد ، فمنهم من يتحدث مع صاحبه ، ومنهم من يقرأ ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع إلى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ، ثم ينصرفون ، وأكثر الاحتفال بالعشي فيخيل لمبصر ذلك ، أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان ، لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم[٤])) .

ومن أدوار الجامع المهمة ما يعرف بالميعاد . ذلك أنه إذا نزل عالم غريب بالبلد ، يتوجه إلى الجامع حيث يلقي دروسه بحضور علماء البلد الذين كانوا يوجهون له الأسئلة المشكلة لاختبار ما عنده فإن وجدوه عالماً فتحوا له أبواب دورهم ومدارسهم وأقبلوا عليه ، وان كانت بضاعته من العلم مزجاة ، انصرفوا عنه فلا يسعه إلا الرحيل .

[١] - **ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٨ ، ص٦٩١ .**
[٢] - **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٤٦٦ - الحاشية نقلاً عن مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي .**
[٣] - **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٦٤ .**
[٤] - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٣٩ .**

ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عساكر عن الشيخ أبي الحسن البلخي الذي قدم دمشق للمـرة الأولى في حدود سنة ٥١٥هـ - ١١٢١م فقد نزل بالمدرسة الصادرية ، وناظر في الخلافات وعقد مجلس التذكير وحصل له قبول .

فحسده جماعة من أهل دمشق ، فأقام في مكة المكرمة ، فندموا على ذلك واستدعوه إلـى دمشق ثانية على يد ابن عساكر نفسه ، ودخل دمشق ثانية سنة ٥٢٢هـ - ١١٢٨م ، واشتغل بالتدريس والتذكير فصار له أصحاب كثر ، ووجاهة عند الخاصة والعامة .

وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فثقل مكانه على والي دمشق محمد بن بوري ، فأمره بمغادرتها ، فخرج منها إلى بصرى ، فأقام بها مدة ، ثم أعيد إلى دمشق وتوفي فيهـا سنة ٥٤٨ هـ- ١١٥٣م[١] .

وذكر القلانسي أنه ((ورد إلى دمشق في شوال سنة ٥٥٢هـ - ١١٥٧م ، أميـر أئمـة فقهاء بلخ في عنفوان شبابه ، ما رأيت أفصح من لسانه ببلاغته العربية والفارسية واسمه أبو الحياة محمد بن أبي القاسم بن عمر البلخي ، ووعظ في جامع دمشق عـدة أيّـام ، والنـاس يستحسنون وعظه ويستطرفون فنه وسلاطة لسانه وسرعة جوابه وحدة خاطره وصفاء حسّه[٢])) .

وهذا يعطي فكرة عن طبيعة الحياة الاجتماعية في دمشق ، فهذا الفقيه من بلخ ، ولـيس عربياً ، ولسانه سليط وعنده حدة ، ووعظ في جامع دمشق ، فالتف الناس حوله وأعجبوا به .

وذكر ابن عساكر عن نصر بن إبراهيم المقدسي أنه أقام بدمشق تسع سنين يدرس فيهـا على طريقة واحدة من الزهد والتنزه عن الدنايا ، والجري على منهاج السلف الـصالح مـن التقشف وتجنب السلاطين ، وكان يعيش من غلة أرض له بنابلس .

وزاره تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان يوماً ، فلم يقم له ، فسأله عن أحل الأموال التـي يتصرف بها السلطان فقال الفقيه : أموال الجزية ، فخرج من عنده وأرسل له بمبلغ من المال وقال : هذا من مال الجزية ففرقه على أصحابه ... وتوفي سنة ٤٩٠هـ - ١٠٩٦م وخرجت دمشق بجنازته[٣] .

وذكر ابن جبير أنه كانت تقرأ في الجامع كل يوم بعد العصر الكوثرية ، وهي مُعينةٌ لمن لا يحفظ القرآن الكريم ، وكان أصلها أن أحد ذوي اليسار أوقف وقفاً يغلّ ١٥٠ دينـاراً فـي السنة يصرف لمن لا يحفظ القرآن ، تُقرأ من سورة الكوثر إلى الآخر ، وغالب رواد الكوثرية من كبار السن الذين لم يتح لهم وقت لتلقي التعليم .

---

[١] - **ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٤١ ، ص٣٣٩ .**
[٢] - **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٥٣١ .**
[٣] - **ابن عساكر : تبيين كذب المفتري فيما ينسب إلى الامام الأشعري بيروت ١٩٨٤م ، ص ٢٨٦ .**

كما أوصى أحد الملوك بأن يجعل قبره في قبة الجامع بدون أن يظهر ، وعين أوقافاً تغل نحو ١٤٠٠ دينار في السنة لقرّاء ما يسمى بالسبع .

والسبع هو اجتماع قوم على ختم القرآن الكريم صباح كل يوم جمعة في الجامع بحيث يقرؤون كل يوم سبع القرآن ويختمونه في سبعة أيام ، ويتقاضون على ذلك مكافآت حسنة كان يعيش منها أكثر من ٥٠٠ إنسان ، كما يقول ابن جبير[١] .

وذكر ابن شداد أنه كان في المسجد على عهده أوقاف على ٢٤ سبعاً ، أقدمها سبع الأمير مجاهد الدين بزّان ، المتوفى سنة ٥٥٥هـ - ١١٦٠م[٢] .

ومن أشهر هذه الأسباع ، سبع السلطان العادل نور الدين ، الذي بقي قائماً حتى نهاية القرن التاسع عشر[٣] .

ويقول ابن جبير إن موضع اجتماع الناس لقراءة السبع في الجهة الشرقية من مقصورة الصحابة ، لا يتعدّاها .

ثم يقول :

((وللفقراء الملتزمين بالجلوس في الجانب الشرقي من الجامع المكرّم ، والذين ليس لهم أصلاً مأوى يأوون إليه وقف وضعه بعض أهل الخير برسمهم فيتناولون منه ما يكفيهم ، وعلى دهليز الباب الشمالي للجامع زوايا على مصاطب مخصصة لتعليم الصبيان[٤])) .

لقد كان الجامع مفتوحاً للكبير والصغير ، والعالم والجاهل والغني والفقير ، ولمن لا مأوى له ولا معين ، والجميع يستفيدون من أوقاف الجامع الواسعة ، وهو ما لم يشاهد له ابن جبير نظيراً في البلاد التي زارها .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أنه كان بالجامع ما يعرف بالمشاهد والمقاصير والصوامع .

فأما المشاهد ، ومفردها مشهد ، فهو المكان المنعزل عن الجامع تماماً مع أنه داخل الجامع ، حيث نجد فيه مرافق عامة وباباً ومحراباً ، تقام فيه الصلاة ، وينام فيه الطلبة والفقراء والصوفية والمنقطعون عن أوطانهم ومن لا مأوى له ، أو يتخذ مخزنا للجامع .

وأما المقاصير ، وهي جمع مقصورة فهي عبارة عن حواجز خشبية داخل الحرم ، يجلس في كل مقصورة أصحاب المذهب الواحد ، حتى لا يختلطوا بالمذاهب الأخرى وتحدث المناظرات التي كانت تنتهي في الغالب نهايات غير مستحسنة كما سنرى ، وهذه المقاصير والمشاهد تشبه ما يعرف في الأزهر بالأروقة .

---

١ - **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٦٣ و ٢٤٤ .**

٢ - **ابن شداد : الأعلاق الخطيرة - قسم دمشق - تحقيق سامي الدهان .**

٣ - **وثائق المحاكم الشرعية بدمشق السجل ٩٠٤ - الوثيقة ٤٧ عن وقف السبع النوري ، وتاريخها يعود لسنة ١٣٠٧هـ .**

٤ - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٦٤ و ٢٤٤ .**

وأما الصوامع فهي أماكن علوية صغيرة يقيم فيها المعتكف إقامة دائمة ، وعندما زار ابن جبير الجامع وجد فيه ثلاث صوامع إحداها كانت الصومعة التي كان يعتكف فيها الإمام الغزالي وهي في الجانب الغربي .

والى الغرب منها كانت الصومعة الثانية التي كان يسكنها الغرباء عن البلد .

وكانت الثالثة عند باب الفراديس[١] .

ومن أشهر المقاصير في الجامع المقصورة التاجيّة التي تنسب إلى الشيخ تاج الدين الكندي : زيد بن الحسن ٥٢٠ – ٦١٣هـ – ١١٢٦– ١٢١٦م والذي عاش نحواً من خمسين سنة بدمشق ضمن مرحلتنا الدراسية ، وكان من أقطاب الحنفية فيها ، فأنشأ في صحن الجامع وفي زاويته الشمالية الشرقية ، التي تقابل الزاوية الغزالية تماماً مقصورة للحنفية كانت لها شهرة بعيدة ويقصدها العلماء من كل مكان .

وقد بقيت هذه المقصورة قائمة يسكن بها الغرباء وكان آخر من سكن بها مهاجرو الأفغان في القرن العشرين ، ثم هدمت وأخرجوا منها سنة ١٣٣٤هـ – ١٩١٦م[٢] .

وقد أوقفت على المقصورة أوقاف كثيرة ، كانت منقوشة على جدرانها .

من ذلك نقش على الجدار الشمالي لها يعود تاريخه إلى سنة ٥٨٩هـ – ١١٩٣م وما يزال إلى اليوم ، جاء فيه :

((وقف الأمير ناصح الدين الغيدي : الربع من قرية دُربل ، وعمارة الفندق الذي أنشأه خارج باب شرقي على القراء الأخيار الحنفية ، يقرأ كل واحد سبعاً من القرآن بكرة كل يوم في هذه المقصورة ، ويلقن الصبيان المتعلمين لكتاب الله بها ، على ما ذكر في كتاب الوقف))[٣] .

وعلى الجدار الشرقي للمقصورة نقش آخر جاء فيه :

((وقف الفقير الحاج إلياس بن بشارة جميع البستان الموصوف والمحدود بقرية كفرسوسة ، والحقول التي في منطقة المنيبع – الحلبوني اليوم – على المقصورة الشرقية ، وقفاً على الخبز والكسوة بما يراه الناظر وذلك في جمادى الأولى ٦٠١هـ)) .

---

[١] ـ ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٤٠ ، وقد حدثنا الشيخ عبد الرزاق الحلبي مدير الجامع أن صومعة الغزالي ما تزال باقية تحت المأذنة الغربية .

وحول ظروف هذه المقاصير والمشاهد والصوامع وما كان يجري فيها انظر : مسجد دمشق للدكتور صلاح المنجد دمشق ١٩٤٨ ، ص ٢٠ .

[٢] ـ محمد دهمان : في رحاب دمشق ، ص ١٦٩ .

[٣] ـ دهمان : المصدر المتقدم ، ص ١٧٣ .

وكان المرحوم الشيخ دهمان قد نقل هذه النقوش منذ نحو ثمانين عاماً ، أثناء ترميم الجامع الأموي . وفي المصدر المذكور وصف دقيق للمقصورة وأبعادها .

وهناك نقش ثالث فيه وقف على الفقراء والمساكين بالجامع ونقشان آخران لقراء السبع[1]

.

ويبدو أن إقامة الناس في الصوامع والمقاصير والمشاهد في هذا الجامع قد أدى بعد فترة إلى ظهور مفاسد ومشكلات أساءت إلى حرمة الجامع حتى قال فيه الشاعر الوهراني :

تجنّـــب دمـــشق ولا تأتهـــا   وإن راقـك الجــامع الجــامع

فـــسوق الفـــسوق بــه قـــائم   وفجــر الفجــور بــه طالـــع

ولذلك عهد السلطان نور الدين إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري بمهمة إصـلاح أحوال الجامع والإشراف على أوقافه ، فنظم أموره وطهره من الانحراف الذي كان على عهد القاضي ابن أبي عصرون ، ثم فكت المقاصير وأخرج المجاورون منه[2] .

ثم عاد المجاورون إليه ، ففاجأهم الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٨هـ - ١٢٦٩م فوجدهم وقد عادوا للمبيت فيه ووضعوا فيه الكراسي والمقاصير وضيّقوا على الناس ، فأمرهم بإزالتها ورفعها وإخراج المجاورين من غير طلبة العلم والفقهاء .

ودخل الملك الظاهر إلى مشهد زين العابدين ليلاً فرأى فيه قوماً نياماً ، وآخـرين قيامـاً يقرؤون ويصلون فأمر لهم بصدقة وأمر ألا يسكن به أحد فأخرج من كان مقيماً به منذ سنين .

ويقول ابن شداد :

((وكان لكل ممن كان مقيماً به موضع قد أفرده ، واقتطعه وعمل فيه صندوقاً وأحاطـه بمقصورة حتى صار بهم كأنه خان))[3] .

وعمد الملك الظاهر في العام التالي ٦٦٩هـ - ١٢٧٠م إلى قطع الرواتب عن المنتفعين من أوقاف الجامع من غير العلماء إن كان غنياً ، أو إن كان فقيراً ، وليس به انتفاع في علم .

---

[1] ـ **دهمان : المصدر المتقدم ، ص ١٧٣ـ ١٧٤ ـ ١٧٥ .**

[2] ـ **العلبي : أكرم حسن : خطط دمشق ، ص٢٩٢ .**

[3] ـ **ابن شداد : تاريخ دمشق ، ص ٧٩ .**

وان كان فقيراً جعل راتبه من بيت المال وليس من أوقاف الجامع ، وكذلك للعالم الــذي ينتفع الناس بعلمه ، فإنه أبقى راتبه جارياً كما كان ، وجدد ما وقفه السلطان العادل نور الدين الشهيد في الجامع وأعاد العمل بموجبه[١] .

وقد عاد الناس إلى السكنى في الجامع بعد عهد الملك الظاهر ، وأخرجوا ثــم عــادوا ، وكانوا في معظمهم من الغرباء المجاورين .

وما ذكرناه وان كان خارج الحدود الزمنية لدراستنا ، فإنه يفيدنا في معرفة واقع المسجد ودوره الاجتماعي في مرحلة الدراسة .

واليوم اقتصر دور الجامع على الصلاة وإنشاد الأناشيد والعروض (الفلكلورية) .

والخلاصة فقد كان للجامع دور مهم في الحياة الاجتماعية في دمشق ، وفيه كــان يقــيم العلماء والفقهاء والقراء والغرباء ، وفوق ذلك كله فقد شهد الجامع أحوالاً اجتماعيــة غريبــة وطريفة كانت تعكس طبيعة الحياة الاجتماعية في دمشق في تلك الحقبة .

ومن الأدوار المهمة للجامع ، ما كان يعرف بالوعظ ، والواعظ غير العالم وغير الفقيــه ومهمته إيقاظ الناس من غفلتهم وحضهم على الجهاد والعبادة وطلب الآخرة ، وكان لهم فــي ذلك الوقت دور غاية في الخطورة والتأثير في دمشق لأن الجامع كان قلب دمشق النــابض ، والمكان الذي يفزع إليه الناس في الشدائد ، والقرن الذي نحن بصدده ، كان في مجمله قــرن الحروب والفتن والزلازل وتسلط الأعداء من الداخل والخارج ، ولذلك كان للــواعظين فــي الجامع تأثير كبير في النفوس .

وكان الواعظ يجلس على كرسي مرتفع في الجامع ، ويقول مــا عنــده ، وكــان القــوم يتأثرون من الوعظ أحياناً إلى درجة الموت ، كما سنرى .

ومع ذلك فلم تكن مجالس الوعظ تمضي بسلام دائماً كما قدّمنا ، وكان الأمر يصل أحياناً إلى المشاحنات والصراخ ، فكان الحكام يتدخلون فيمنعون الوعظ ، ثم يعــودون بعــد مــدة ويسمحون به ، ثم يمنعونه من جديد .

فقد ذكر القلانسي أنه في عهد مجير الدين أبق وفي شهر رجب سنة ٥٤٣هــ – ١١٤٨م ، أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم في الجامع المعمور بدمشق على جري العادة في ذلك ، ثــم بدا من اختلافهم في أحوالهم وأغراضهم والخوض فيما لا حاجة فيه من المذاهب ، ما أوجب صرفهم عن هذه الحال ، وإبطال الوعظ لما يتوجّه معه من الفساد وطمع الأوغاد ، وكان ذلك في شعبان من العام المذكور نفسه[٢] .

[١] ـ ابن شداد : المصدر المتقدم ، ص٨١ .
[٢] ـ القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٤٦٨ .

وذكر الغزالي ، الذي أقام في الجامع واطلع من صومعته على ما يجري فيه ، أن بعض الوعاظ يمزجون كلامهم بالبدعة فقال :

((وأحياناً قد يكون الواعظ شاباً متزيناً للنساء في ثيابه وهيأته ، كثير الإشارات والحركات ، وقد حضر بمجلسه النساء ، فهذا منكر يجب منعه ، ولا يجوز تسليم الوعظ إلا لمن ترضى ديانته وأمانته وعفته ، وزيّه زي الصالحين ، وإلا فلا يزداد الناس به إلا تمادياً في الضلال ... ويجب أن يضرب بحائل بين الرجال والنساء في المساجد ، بل يجب منع النساء من حضور المساجد والذكر ، وفي يوم الجمعة تقام في الجامع حِلَقٌ لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات[1])) .

ويفهم من كلام الغزالي ، أنه لم تكن ثمة حواجز بين الرجال والنساء في دروس الوعظ في الجامع ، كما أنه لا يشترط في الواعظ أن يكون شيخاً ، فقد يكون شاباً كما رأينا .

على أن الدور الأكبر للجامع كان في حلقات الحديث والفقه والسّماع ، وهو ما سنتحدث عنه عند حديثنا عن المذاهب الفقهية والخلافات المذهبية وأثرها على دمشق .

ثانياً ــ الفئات الدينية :

١ــ السنّة وأصولهم :

أ- العرب المحليون :

انتشر العرب في بلاد الشام قبل الإسلام ، ولكن لم يكن لهم كيان سياسي مستقل تماماً ، وعندما فتح المسلمون العرب دمشق وبلاد الشام ، تدفقت القبائل العربيّة إليها وأقامت فيها .

وفي العصر الأموي كان العنصر العربي هو الحاكم ، ولم يكن للوجود الأعجمي في دمشق أدنى أثر .

ومع سقوط الدولة الأموية ازداد النفوذ الأجنبي فيها ، وسيطر على مقدراتها عناصر من الأتراك والفرس وغيرهما .

وعندما جاء الفاطميون ، كان جلّ اعتمادهم على عناصر من البربر والأرمن والأتراك ، حيث إننا نجد أنه حكم دمشق في عهدهم نحو ٤٣ والياً منهم عدد كبير من غير العرب مثل يلتكين ، وخطلخ الحاجب وبشارة الأخشيدي وينجوتكين وختكين وتموصلت ولؤلؤ البشاري وساوتكين وابن باروخ وسختكين وأنوشتكين وسبكتكين وبدر الأرمني وبارز طعان وغيرهم[2] .

---

[1] ـ الغزالي : إحياء علوم الدين ـ تحقيق عبد الله الخالدي ـ دار الأرقم بيروت ١٩٩٨م ـ خمسة مجلدات . انظر ، ج ٢ ، ص٤٣٠ .

[2] ـ انظر : الصفدي ـ أمراء دمشق في الاسلام ، ص ١٣٨ .

وكانت علاقة الفاطميين بالقبائل العربية في الشام تتسم بعدم الثقة والوضوح والتغيّر المستمر [1] .

واستمرّ الحال كذلك في عصر السلاجقة والبوريين ونور الدين .

وعلى الرغم من ذلك كله فإن العروبة ، أو العربية ، كانت هي الأغلب في بلاد الشام طوال القرون الستة الأولى الهجرية .

ذلك أنه بعدما تم الفتح العسكري الإسلامي للشام ، حصل فتح آخر هو الفتح الإسلامي من حيث هو عقيدة ودين ، فانتشر الإسلام فيها بسهولة ، ثم كان الفتح الثالث وهو فتح اللغة العربيّة أو الفتح اللغوي ، الذي جعل اللغة العربية هي لغة الدولة والأدب والدواوين ، وتراجعت لغة الروم والفرس والسريان والكلدان والأرمن والموارنة ، وانحصرت في جزر صغيرة مثل معلولا وجبعادين وصيدنايا ، حيث نجد أن لغة الكنائس فيها سيريانية[2] .

وإزاء هذا الواقع الجديد أخذ الموالي يدخلون في الإسلام ويلتحقون ببعض القبائل العربية ، ثم أخذ الفاصل بين العرب وغير العرب بالاضمحلال وسرعان ما غدا الجميع عرباً بلا تمييز ، وعلى الرغم من أن الحكام لم يكونوا من العرب إلا أن الإسلام جعلهم عرباً بتصرفاتهم وأعمالهم لإقامتهم في أرض العرب . حتى إنه عندما وصلت إلى الحكم أسر عربية خالصة مثل بني عمار في طرابلس وآل منقذ في شيزر ، فإنهم كانوا تابعين بشكل أو بآخر لحكام دمشق من السلاجقة والبوريين .

وذكر ابن عساكر أن العرب عندما دخلوا دمشق سكنوا داخلها وفي أرباضها وغوطتها ، وقد عرفت بعض المحلات والأزقة في دمشق بأسماء من سكنها من العرب .

- من ذلك زقاق عطاف ، نسبة إلى عطاف المعلم .
- ودار بني نصر على شارع دار البطيخ الكبيرة ، نسبة إلى مالك بن عوف النصري .
- ودار طلحة في الزقاق المعروف ببني طلحة .
- ورحبة خالد ، نسبة لخالد بن أسيد الصحابي .
- ودار بني هبّار القرشي نسبة إلى هبار بن الأسود الصحابي .

ومن الدور المشهورة في دمشق :

- دار بني عبد المطلب الهاشميين ، نسبة لعبد المطلب بن ربيعة بن الحارث في منطقة باب الجابية .
- ودار الضحاك بن قيس الصحابي غربي حمام الضحاك عند السور الشمالي تشرف على بردى .

---

[1] ـ **أمينة البيطار : موقف أمراء العرب بالشام من الفاطميين دمشق ١٩٨٠ ، ص ٨٥ وما بعدها .**
[2] ـ **فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٧٠ .**

– ودار حبيب بن مسلمة الفهري ، على بردى عند طاحون القلعة .

– دار الشعارين ، كانت دار بُسر بن أرطأة .

– وهناك دار الأسديين شمالي زقاق الأسديين عند باب الجابية على يمين الخارج من الباب عند جامع السنانية اليوم .

– ودار مالك بن هريرة السكوني خلف الباب الشرقي .

– وبجوارها دار عقبة بن عامر الجهني[1] .

ب – المغاربة :

تعد هجرة المغاربة إلى الشام بمعناها الواسع ، من أقدم الهجرات ، وذلك للأسباب التي سبق أن شرحناها من الرغبة في الجهاد والمرابطة وزيارة الأماكن المقدسة ، ويضاف إلى ذلك سبب مهم ، وهو أن معظم المغاربة الذين هاجروا إلى دمشق كانوا من الأندلس ، وكان هؤلاء يرون أن الشام هي موطنهم الأصلي يوم كانت عاصمة الأمويين ، وهم من أحفادهم .

وكما ذكرنا في الفصل الأول ، فقد ساهم يوسف بن دوناس المغربي الفندلاوي في محاربة الصليبيين الذين حاصروا دمشق سنة ٥٤٣هـ – ١١٤٨م ، مع العلم أنه كان في الثمانين ، وكان يدرّس فقه المالكية في الجامع الأموي .

وكان زميله عبد الرحمن الحلحولي الذي استشهد معه يوم السبت سادس ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ – ١١٤٨م ، كما هو مدوّن على قبره ، قد أصبح بعد استشهاده مع الشيخ الفندلاوي ، من الأبطال المجاهدين العاملين الذين كان لهم تقدير تام عند أهل دمشق لسنوات طويلة .

فقد ذكر أبو شامة ٦٦٥هـ – ١٢٦٦م أن قبرالفندلاوي في مقبرة باب الصغير ، كان يُزار على عهده ، على الرغم من انقضاء أكثر من مائة وعشرين عاماً على استشهاده ، وكذلك كان حال زميله الحلحولي الذي ما يزال إلى اليوم في جسر النحاس من حي الأكراد كما يقول الشيخ محمد دهمان[2] .

وذكر ابن جبير أن الصليبيين كانوا يأخذون على كل مغربي يدخل بلادهم ديناراً كاملاً ، بينما لا يدفع غيرهم من البلاد الأخرى شيئاً .

وسبب ذلك كما يقول ابن جبير أن طائفة من المغاربة حاربت مع نور الدين واحتلوا حصناً مشهوراً عند الصليبيين فاستاء هؤلاء منهم وقالوا :

إن هؤلاء المغاربة ، كانوا يترددون على بلادنا ونسالمهم ولا نأخذ منهم شيئاً ، فلما تعرضوا لحربنا وجب أن نضع عليهم هذه الضريبة[3] .

---

[1] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢ ، ص٣٥٩ .
[2] ـ أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص١٩١ .
محمد دهمان : تهذيب تاريخ ابن عساكر ـ بيروت دار المسيرة ١٩٧٩م ، ج١ صفحة ٢٢٨ .
[3] ـ ابن جبير : الرحلة ، ص٢٧٤ .

وهكذا كان المغاربة يقاتلون الصليبيين مع أهل البلاد ، وكما ذكر ابن جبير فإنه كان عند الصليبيين أعداد كبيرة من أسرى المغاربة ، وكان ملوك وأمراء الشام يوصـون بتخـصيص أموال لافتكاك الأسرى من المغاربة ، لأنهم غرباء منقطعون عن أوطانهم . وكان نور الدين قد نذر في مرض موته تفريق ١٢,٠٠٠ ديناراً في أسرى المغاربة .

ويقول ابن جبير إن الله تعالى قيض للمغاربة رجلين من مياسير التجار أحـدهما يعـرف بنصر بن قوام والآخر ياقوت العطاني ، وقد نصبهما الله تعالى لافتكاك أسرى المغاربة ، فلا يكاد مغربي يخلص إلا على أيديهما[١] .

وقال عن سليمان بن إبراهيم المغربي :

((وهو يعطف على أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات ويسبب لهم وجـوه المعايش من إمامة مسجد أو سكنى مدرسة ويجري عليهم فيها النفقة ، أو التزام زاويـة مـن زوايا المسجد الجامع ، يجبى إليه فيها رزقه ، أو حضور قراءة (سبع) أو سدانة مشهد مـن المشاهد المباركة ، ويجري عليه ما يقوم به من أوقافه . فالغريب المحتاج هنا ، إذا كان على طريقة الخير مصون محفوظ .

وهو يسبب أسباباً غريبة من الخدمة للمغاربة :

- إما بستان يكون ناطوراً فيه .
- أو حمام يكون عيناً على خدمته .
- أو كفالة صبيان يؤديهم إلى مدارسهم ويعود بهم إلى منازلهم .

وليس يؤتمن في ذلك كله إلا المغاربة الغرباء ، لأنه قد علا لهم بهذا البلـد صـيت فـي الأمانة ، وأهلها لا يأتمنون أصحاب البلد ، وهذا من ألطاف الله تعالى بالغرباء .

وأما إذا كان الغريب عالماً فيمكنه الاتصال بالسلطان الذي يجري عليـه بقـدر رتبتـه ومنصبه ، وقد طبعت هذه البلاد قديماً وحديثاً على هذه الفضائل))[٢] .

ومن محاسن نور الدين أنه كان قد عيّن للمغاربة الغربـاء الملتـزمين زاويـة المالكيـة بالمسجد الجامع المبارك أوقافاً كثيرة .

- منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض وحمّام .
- ودكانان بالعطارين .

وكان هذا الوقف يغل في العام ٥٠٠ دينار .

ثم يقول ابن جبير :

---

[١] ـ **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٨١ .**
[٢] ـ **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٥١ .**

((ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء . وهذه البلاد المشرقية كلها كذلك ، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر .

فمن شاء الفلاح من أهل مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ، ويتغرّبُ في طلب العلوم ، فيجد ما يعينه على ذلك ، وأول ذلك فراغ البال من هم المعيشة .

ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء لكفاهم ذلك شرفاً .

وكل غريب في هذه البلاد يلتزم ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش . أو يلتزم الأمانة أو التعليم ، ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى . أو يصعد إلى جبل لبنان أو جبل الشيخ فيلقى هناك المريدين المنقطعين إلى الله فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء ... والنصارى لا يتعرضون لهؤلاء[1])) .

وفي ختام حديثنا عن المغاربة نرى من المناسب أن نعرض خلاصة لوثيقة شرعية تاريخها متأخر يعود إلى سنة ١١٤١هـ – ١٧٢٩م ، لكنها تفيد في معرفة أوضاع المغاربة وخلاصتها :

أن طوائف المغاربة في دمشق سبع هي : الطائفة الفاسيّة ، والطائفة الجزايرليّة ، والطائفة السوسية ، والطائفة التونسية ، والطائفة الطرابلسية ، والطائفة الدراوية ، والطائفة المراكشية .

ولكل طائفة منهم شيخ ، وللجميع شيخ يدعى شيخ المشايخ .

وقد ذكر هؤلاء المشايخ أن المغاربة متوطنون في دمشق منذ القديم وهم يعملون في ضبط الخانات والقياسر فيها ، أو في حراسة الدور في دمشق ، وبعضهم (ناطور) في القرى وبيادرها وبساتينها ، والبعض حارس في الأسواق ، والبعض يعمل في طائفة العسكر (اللاوند) أي خدمة والي الشام .

وإن شيوخ المغاربة مسؤولون وضامنون لكل خلل أو فساد يظهر من أي مغربي يعمل في الأعمال المذكورة ماعدا العسكر فهم غير مسؤولين عنهم ، وضابطهم هو المسؤول عنهم وحده .

دمشق في ١٠ رمضان ١١٤١هـ نيسان ١٧٢٩م[2] .

ج– التركمان :

---

[1] - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٥٩ .**

[2] - **وثائق المحاكم الشرعية بدمشق - سجل ٥١ - ص ٢٢٠ - وثيقة ٥٠٧ .**

التركمان من الشعوب التركية التي كانت تعيش في تركستان في أسيا الوسطى ، وأقدم من ذكرهم المقدسي في القرن الرابع الهجري .

ومعنى تركمان : أشباه الترك : ترك – مانند ، وكثيراً ما ترد كلمة تركمان مرادفة لكلمة ترك في كتابات المؤرخين المسلمين ، كما ترد مرادفة لكلمة السلاجقة أيضاً .

ويعد القرن الخامس هو القرن الذي انتشر فيه التركمان نحو الغرب ، أي نحو العراق والشام .

وقد بدأ توطنهم في فلسطين بعد السيطرة عليها من قبل الأمير السلجوقي أتسز ، وكان التركمان يشكلون معظم جيشه ، وذلك قبل نجاحه في فتح دمشق ، وفي عهده توطنت بعض القبائل التركمانية في الجولان وفلسطين .

ثم ازداد الوجود التركماني في الشام مع بداية الغزو الصليبي حيث وجدوا في حلب وحماة وحمص وعكا وصفد ومرج ابن عامر وحوران بالإضافة إلى القرى والأعمال التي كانت تحيط بتلك المدن[1] .

وقد تأكد هذا الوجود بولاية الأراتقه التركمان للقدس وفلسطين على أيد أرتق بن أكسك التركماني ، أحد مماليك السلطان السلجوقي ألب أرسلان .

وقد خاض معه كل حروبه ولاسيما معركة ملا ذكرد التاريخية ، ثم صار من مماليك ابنه السلطان ملكشاه الذي أرسله صحبة أخيه تتش لانجاد الأمير أتسز في دمشق ، فأقطعه تتش القدس وما حولها سنة ٤٧٩هـ – ١٠٨٦م فاستقر بها مع قبيلته وصارت إمارة مستقلة للأراتقة .

وعند وفاته سنة ٤٨٤هـ – ١٠٩١م أقطع تتش مدينة سروج لولده سقمان بن أرتق ، ثم أقطعه رضوان بن تتش معرّة النعمان[2] .

وفي أيام طغتكين وخلفائه كان التركمان أمراء البلاد وقادتها ولاسيما مع جهادهم المستمر وما ظهر من ثباتهم وشجاعتهم أمام الصليبيين ، ولذلك حصل أمراؤهم على إقطاعات واسعة .

فقد ذكر القلانسي في حوادث سنة ٥٠٠هـ – ١١٠٦م أنه وصل إلى دمشق الأمير الاصفهذ التركماني ، فأكرمه ظهير الدين وأحسن تلقيه وأقطعه وادي موسى ومؤاب والشراة والجبال والبلقاء فتوجه إليها في عسكره[3] .

---

[1] ـ **الموسوعة الإسلامية ، ج٥ ، ص٢١٢ .**

[2] ـ **ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٩١ . عماد الدين خليل : الامارات الأرتقية ـ بيروت ١٩٨٠ ، ص٥٧ وما بعد .**

[3] ـ **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٥٤ .**

وفي سنة ٥٢٨هـ – ١١٣٤م ، عندما هدد الصليبيون دمشق استدعى الأمير شمس الملوك التركمان من جميع الأعمال ، وهزموا الصليبيين ، وامتلأت أيدي التركمان من غنائمهم ، وأقاموا في الأتابكية في دمشق والجولان وحمص وغيرها[١] .

وبذلك ازدادت أعدادهم في الشام ، وكانوا العنصر الأكثر عدداً في جيوش دمشق ، ومما ساعدهم على سرعة الاندفاع في المجتمع الدمشقي أنهم كانوا من المسلمين السنّة .

ولم تكن لهم طموحات عرقية ، أو اتجاهات خاصة ، ولذلك تكاثروا مع مرور الأيام ، وصاروا يضاهون الأكراد عدداً .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت تحصل أحياناً بعض المصادمات بين التركمان والعرب .

ذلك أن قادة البلد السياسيين والعسكريين كانوا دائماً من التركمان أو الأكراد ، وكان مساعدوهم المدنيون وفي مقدمتهم الوزير الأول من العرب ، وكان لكل حزب أنصار .

وحدث سنة ٥٤٤هـ – ١١٤٩م أن وقعت فتنة بين الرئيس مؤيد الدولة ، وهو عربي ، ومجير الدين آبق التركماني وانضم لكل منهما المؤيدون والأعوان ، فقال الشاعر عرقلة الكلبي يصف مجتمع دمشق في ذلك العام :

ذر الأتراك والعربا   وكن في حزب من غلبا

بجلّق أصبحت فتن   تجرُّ الويل والحربا

لئن تمّت فوا أسفا   ولم تخرب ، فواعجبا[٢]

ومن الأسر التركمانية الموجودة في سورية اليوم آل العظم وآل العظمة في دمشق وآل الشيشكلي والعظم في حماة ، وآل الأتاسي والحسيني والصوفي والوفائي في حمص وغيرهم من الأسر الأخرى .

ء– الأكراد :

أما الأكراد ، فإنه لم يكن لهم وجود واسع في بلاد الشام في الحقبة التي ندرسها ، وانما انتشروا فيها مع مجيء الأيوبيين ، وكان الأمير ركن الدين منكورس الفلكي الذي أطلق اسمه على حي الأكراد بدمشق من أمراء السلطان العادل الأيوبي ، بل إنه كان أخاه لأمه ، وهو مدفون في مدرسته في ساحة شمدين .

ويعود الوجود الكردي في بلاد الشام إلى النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، وذلك عندما قام أمير حلب نصر بن صالح المرداسي بإسكان حامية كردية في هذا الحصن

[١] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٥٤ .

[٢] ـ عرقلة الكلبي : الديوان ـ تحقيق أحمد الجندي ـ طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٠م ، ص١٣ . أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٣٢٥ .

وأقطع رجالها الأراضي المحيطة به مقابل قيامهم برد الأعداء المغيرين على حمص وحماة وكان ذلك في حدود سنة ٤٢٥هـ – ١٠٣٣م[١] .

وقد سقط هذا الحصن بيد الصليبيين سنة ٥٠٣هـ – ١١٠٩م وغادره أهله وانتشروا في أنحاء الشام وصاروا يقاتلون تحت إمرة المغامرين والأمراء والطامعين ، كجنود مرتزقة .

ومن الأكراد الذين تركوا بصمات لهم في دمشق الأمير مجاهد الدين بزّان بن مامين الكردي المتوفى سنة ٥٥٥هـ – ١١٦٠م ، وقد قال عنه القلانسي إنه من الأكراد الجلالية ، وكان شجاعاً باسلاً يساعد الفقراء ، وهو مدفون في مدرسته المجاهدية البرانية عند باب الفراديس تماماً ، فيما يعرف اليوم بجامع السادات[٢] .

ومع دخول نور الدين دمشق سنة ٥٤٩هـ – ١١٥٤م مع الأخوين أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب ، بدأ الوجود الكردي في دمشق ولكن بصورة متقطعة ، ذلك أن أسد الدين شيركوه لم يستقر بدمشق ، ودخل مصر وزيراً للعاضد وتوفي فيها سنة ٥٦٤ هـ – ١١٦٩ م[٣] ، وبعد شهرين ، تم نقل جثمانه إلى المدينة المنورة ، فدفن فيها بناء على وصيته ، ومعنى شيركوه أسد الغابة .

أما أخوه الأصغر أيوب ، فقد كان زاهداً في الحكم وأقام بمصر مع ولده يوسف ومات فيها سنة ٥٦٨هـ – ١١٧٣م ، ثم دفن بجوار أخيه شيركوه في المدينة المنورة ، وهو والد الأيوبيين وعميدهم ، وبعد وفاة نور الدين ، وانتقال صلاح الدين إلى دمشق ، تعاظم وجود الأكراد في دمشق ، وأقاموا في الصالحية في قاسيون ولا زالوا كذلك حتى اليوم[٤] .

وكان في دمشق أصناف شتى من مختلف الأصول لكن لم تكن لهم تأثيرات مهمة في المجتمع الدمشقي كما كان لمن ذكرنا من الأكراد والتركمان .

٢ـ الشيعة :

مصادر الفقه الإسلامي عند السنة هي بالتسلسل :

القرآن الكريم ، الحديث الشريف ، الإجماع ، القياس ، الاستحسان ، والمصالح المرسلة .

بينما يقوم الفقه الشيعي على :

القرآن الكريم والسنّة كما رواها أئمتهم ، والإمام معصوم وهو ظل الله في الأرض ، وهو وارث النبوّة ، وهو الذي يملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً .

---

١ ـ الموسوعة الإسلامية ، ج٧ ، ص٤٤٨ .

٢ ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص١٨٥ و٢٠١ و٢٦٤ .

٣ ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٤٧ .

٤ ـ أحمد الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ـ بغداد ١٩٧٨ ص٢٥ وما بعد . ومن الأسر الكردية المعروفة اليوم آل كفتارو والزعيم وإيبش وبوظو ، وسعيد آغا شمدين أمير الحاج الشامي المدفون في مقبرة الشيخ محي الدين ، وقد زرته هناك ، وشمدين هي اختصار على عادة الأكراد لعبارة شمس الدين .

ونتيجة لبعض الاختلاف بين السنة والشيعة ، فقد اختلفت الأحكام تبعاً لذلك[1] .

ونحن لا نريد الخوض في عقائد السنة والشيعة ، فهي مبسوطة في المئات من المصادر ، ولكننا نريد بيان العلاقة الاجتماعية بين الطرفين في مرحلة الدراسة وبيان وضع السنة عندما كانوا تحت حكم الفاطميين الشيعة ، ثم بيان وضع الشيعة في الشام عندما صاروا تحت حكم السنة .

ففي يوم ٥ رمضان ٣٦٢هـ – ٩٧٢م دخل المعز بالله الفاطمي عاصمة ملكه الجديدة : القاهرة المعزّية ، وما كاد يستقر فيها حتى أصدر مجموعة من الأوامر والتوجيهات تصب جميعاً في نهر واحد هو نشر المذهب الشيعي[2] .

فأمر في ذلك العام أن يكتب على أبواب المساجد الكبرى بحروف من ذهب وفي أماكن بارزة من أنحاء دولته :

خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : علي .

وأذن في جميع المساجد بـ : حي على خير العمل[3] .

ومن جهة أخرى ذكر ابن جبير ((أن في دمشق مشاهد كثيرة لآل البيت رجالاً ونساءً ، احتفل الشيعة بالبناء عليها ، ولها الأوقاف الواسعة ، ومن أحفل هذه المشاهد ، مشهد منسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد بني عليه مسجد جميل وبإزائه بستان ، وفي المسجد ستور معلقة ، ومحراب فيه حجر عظيم قد شق نصفين))[4] .

ومن النماذج الطريفة لطبيعة العلاقات بين السنة والشيعة ، نذكر أبياتاً قالها ابن منير الطرابلسي الشاعر المشهور بالتشيع يتهكم فيها على أهل دمشق ويعيرهم بما يقومون فيه يوم عاشوراء من صنع الحلوى و (الحبوب) وغيرها ، وهذه القصيدة برأينا أفضل تعبير لحقيقة الشعور الذي كان كامناً في النفوس لأسباب شتى ، وهذه القصيدة تعرف بالتترية ، يقول :

عذّبت طرفي بالسّهر وأذبتُ قلبي بالفكر

وسهرت في طبخ الحبوبِ من العشاء إلى السحر[5]

وغدوت مكتحلاً أصافح من لقيت من البشر[6]

---

[1] - ولمزيد من التفاصيل عن هذا الأمر انظر المقريزي : خطط القاهرة - تحقيق أيمن السيد - لندن ٢٠٠٢م ، ج٢ - ج٤ ، ص٣٩٣ - ٥٩٧ وما بعد .

[2] - العظيمي : تاريخ حلب ، ص٢٠٦ .

[3] - ولمزيد من التفاصيل انظر المقريزي : المصدر المتقدم ، ج٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩٢ - ٣٨٩ - ٣٩٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٢٩٤ ، ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٣٤٢ ، ابن هانئ الأندلسي - بيروت ١٩٦٤ ص ١٤٦ - ابن كثير : البداية والنهاية ج١٥ ، ص٣٢٨ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٦٨ ، ج٤ ، ص٣٨٩ - ٣٩٠ .

[4] - ابن جبير : الرحلة ، ص٢٥٢ .

[5] - الحبوب : طعام من الحبوب والدبس مشهور حتى اليوم في دمشق .

[6] - يشير إلى عادة أهل الشام بالزينة يوم عاشوراء .

وطباعهــــــــــم كجبالهــــــــم جُبلت وقُـدَّت مــن حجـــر[1]

وقد رد عليه نظيره السني الشاعر محمّد بن نصر القيسراني ، فقال :

ابــــن منيـــر هجــوت منــــي حبــراً أفـــاد الـــورى صـــوابه

ولـــم تُـــضيّق بـــذاك صـــدري فإنّ لـــي أســوة الـصّحابــة[2]

وكان للشيعة مواسم وأعياد كثيرة ، أهمها :

موسم أول العام ، في المحرم وكانوا يقيمون فيه الولائم الجماعية ويوزعــون علـى العامّة الشيء الكثير من الأطعمة والحلاوات .

ويوم عاشوراء في ١٠ المحرم ، وكانوا يتخذونه يوم حزن عام ، لأنه اليـوم الـذي استشهد فيه الحسين رضي الله عنه .

يقول المقريزي :

((إن أوّل من تظاهر بالحزن في يوم عاشوراء من الملوك مُعزّ الدولة ابن بويه . ذلـك أنه أمر في العاشر من المحرم سنة ٣٥٢هـ – ٩٦٣م أن يغلق النـاس ببغـداد الحوانيـت ويظهروا النياحة وتخرج النساء منتشرات الشعور مسودات الوجوه))[3] .

وعيد ليلة النصف من شعبان :

وفيه يوقد الناس القناديل والمصابيح والشموع ويأكلون ويشربون حتى مطلـع الفجـر ، ويقرأ القراء والمنشدون ، ولذلك كان يسمى ليالي الوقود[4] .

وعيد غرّة شهر رمضان :

وهو عيد معروف يحتفل فيه السنّة والشيعة ، وأما سبب عدم اعتمادهم في ثبوت الـشهر على رؤية الهلال ، مثل أهل السنة ، فهو أنهم يعتقدون أن معرفة أول الشهر مـسبقاً وعـن طريق الحساب ، هو سر من أسرار النبوة ، لا يعرفه غيرهم ، ومعرفـة بـدايات الـشهور بالحساب والجداول تنطبق على جميع الأشهر ، وليس على شهر رمضان .

وموسم عيد الفطر وعيد الأضحى ، وهما معروفان .

وأما أشهر أعيادهم فهو عيد الغدير ، وفيه تزوج الأيامى ويعتق العبيد ، ويوزع الطعـام ويقع يوم ١٨ ذي الحجة .

يقول المقريزي :

---

[1] ـ ابن منير الطرابلسي ـ الديوان ـ تحقيق عمر عبد السلام التدمري ـ المكتبة العصرية في بيروت وصيدا ـ ط٢ ـ ٢٠٠٥م .

[2] ـ محمد بن نصر القيسراني : ديوانه ـ تحقيق الدكتور عادل جابر ـ الزرقا ـ الأردن ١٩٩١م ، ص٩٠ .

[3] ـ المقريزي : الخطط ، ج٢ ، ص٤١٧ وما بعد ، ابن الأثير : الكامل ، ج٧ ، ص٢٤٥ .

[4] ـ المقريزي : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٥٢٢ .

((هذا العيد لم يكن عيداً مشروعاً ولا عمله أحد من سالف الأمة المقتدى بهم ، وأول ما عرف أيام المعز علي بن بويه فإنه أحدثه في سنة ٣٥٢هـ ، فاتخذه الشيعة عيداً ...))[١] .

وأصل هذا العيد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من كنت مولاه فعلي مولاه ..)) ، وغدير خم موقع مشهور قرب الجُحفة .

وفي سنة ٣٦٢هـ - ٩٧٢م عُمل هذا العيد في القاهرة ومنها انتقل إلى الشام .

وردّاً على هذا العيد ، عمل السنة عيداً في ٢٦ ذي الحجة من كل عام ، وأكثروا فيه من السرور واللهو وقالوا هذا يوم دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه الغار[٢] .

والخلاصة فإن الشيعة في دمشق في القرن الخامس والسادس كانوا يتعايشون مع السنّة ويشتركون معهم في الدفاع عن البلد ، وعلى الرغم من بعض الاختلافات بين الفريقين ، لكنه ، وعلى الضد مما كان يجري في بغداد ، لم تشهد دمشق أي صدامات بين السنة والشيعة الذين كانوا يعيشون في الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة ، ولا يزالون فيها حتى اليوم .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الوعي الوطني في المجتمع الدمشقي ، وعلى فهم للعقيدة الإسلامية الصحيحة في تلك الفترة .

٣ـ الدروز :

يُنسب الدروز من حيث الاسم إلى رجل خراساني يقال له : محمد بن إسماعيل الدرزي وفد إلى مصر في عهد الحاكم بحدود سنة ٤٠٧هـ - ١٠١٦م ، وعمل تحت إمرة الهادي حمزة بن علي المعروف بإمام الموحدين الذي كان يقيم في مسجد ريدان ظاهر القاهرة ، ويعدّ العدة والأتباع لإعلان ما سماه بدعوة التوحيد .

وفي ليلة الجمعة الأول من المحرم سنة ٤٠٨هـ - ١٠١٧م أعلن في القاهرة عن بداية (دعوة التوحيد) على يد إمام الموحدين حمزة وأطلق على أتباعها اسم الدروز ، وسموا أنفسهم بالموحّدين[٣] .

ويقول الأنطاكي ، المؤرخ المعاصر لظهور الدروز :

((إنه في سنة ٤٠٨هـ - ١٠١٧م ، أعلن الدرزي ألوهية الخليفة الحاكم مبدع الخلائق ، وأذاع مذهبه في الناس))[٤] .

---

[١] ـ المقريزي : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٢٩٨ .
[٢] ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٥ ، ص٤٨٢ .
[٣] ـ أبو صالح : عباس . تاريخ الموحدين ـ بيروت ١٩٨٠م ، ص٦٠ .
[٤] ـ الأنطاكي : تاريخ الأنطاكي ، ص٣٣٤ ، والدرزي بفتح الراء من درز وهو لفظ فارسي ، يعني الخياط ، وهناك تناقض في المصادر حول من بدأ بإعلان المذهب في القاهرة ، وتناقض آخرحول تاريخ مصرع الرجلين ، كما سنرى .

وذكر الأنطاكي مجموعة من الكتب المرسلة من الحاكم إلى رجال الدين النصارى في القدس في سنة ٤١١هـ – ١٠٢٠م ، وهي السنة التي اختفى في أواخر شوال منها .

وقد جاء في الكتاب الأول المؤرخ في ربيع الآخر سنة ٤١١هـ – ١٠٢٠م :

((بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله ووليّه ، المنصور أبي علي الإمام الحاكم بأمر الله ، أمير المؤمنين لسليمان بن إبراهيم الراهب))[١] .

وفي كتاب آخر مؤرخ في جمادى الآخرة ٤١١هـ – ١٠١٧م نقرأ :

((بسم الله الرحمن الرحيم : أمر أمير المؤمنين بكتابة هذا المنشور لنقفور بطريرك بيت المقدس بما رآه من إجابة رغبته ، وتمكين أهل الذمة من صلواتهم واجتماعهم وحفظاً لذمة الإسلام فيهم ...))[٢] .

وفي شعبان ٤١١هـ – ١٠٢٠م ، أي قبل اختفائه بشهرين ونصف كتب كتاباً إلى عامة النصارى ، جاء فيه :

((بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الإمام الحاكم بأمر الله ، أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله ، لجماعة النصارى بمصر ... فأنتم آمنون بأمان الله عز وجل وأمان نبيه صلى الله عليه وسلم وأمان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين ... ويشهد الله على ما أمضاه من أمانكم ، وكفى بالله شهيداً وكتب في شعبان ٤١١هـ ..))[٣] .

فهذه النصوص القطعية الثابتة ، التي كتبت بعد ثلاث سنين من ظهور (دعوة التوحيد) أي تأليه الحاكم تُبيّن بوضوح تام أنه فيما يتعلق به شخصياً لم يدع النبوة ولا الألوهية ، ولم يخرج عن خط آبائه وأجداده ، بل إنه في هذا الكتاب الأخير لم يدع الألوهية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولقبه بلقبه الذي يعرفه جميع المسلمين وهو : أمير المؤمنين ، وأما ما يقال من ادعائه الربوبية أو تشجيعه لها أو سكوته عمن ادعاها له ، فلا صحة له إطلاقاً بوجه من الوجوه .

ذكر الذهبي أنه ((لما فقد الحاكم صار جماعة من الجهال يعتقدون حياته ويقولون إنه لابد أن يظهر في آخر الزمان ويعود إلى الخلافة ، وإنه هو المهدي لا محالة ، ويحلفون إلى الآن ـــ سنة ٧٤٠هـ – ١٣٣٩م ـــ بغيبة الحاكم))[٤] .

وتُستمد عقيدة الدروز مما يعرف بـ (رسائل الحكمة) وهي تضم ١١١ رسالة تقع في ستة مجلدات كبيرة ، منتشرة اليوم في مختلف مكتبات العالم ولاسيما في مصر ولبنان ، ذلك

---

[١] ـ **الأنطاكي : المصدر المتقدم ، ص٣٥٤ .**

[٢] ـ **الأنطاكي : المصدر المتقدم نفسه ، ص٣٥٦ .**

[٣] ـ **الأنطاكي : المصدر المتقدم نفسه ، ص٣٥٩ ـ ٣٣٩ .**

[٤] ـ **الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١٥ ، ص١٨٣ .**

أنه عندما دخل إبراهيم باشا المصري سورية سنة ١٢٤٧هـ – ١٨٣١م استولى المصريون أثناء صراعهم المرير مع الدروز في جبل لبنان على كميات كبيرة من المخطوطات ، استقرت أولا في القاهرة ، ثم انشرت في مختلف مكتبات العالم .

وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن البدوي أماكن وجود هذه المخطوطات اليوم . كما ذكرنا نماذج من هذه الرسائل مما هو موجود في دار الكتب المصرية في القاهرة وعددها ٣٦ رسالة[١] .

ومن جهة أخرى ذكر البستاني أسماء عدد من هذه السجلات قال إنها كانت قد نقلت من سورية إلى فرنسا سنة ١١١٢هـ – ١٧٠٠م ونقل في موسوعته مضمون عدد كبير من الرسائل على مدى ٤٠ صفحة في الموسوعة المذكورة[٢] .

وذكر الأستاذ الزركلي في الأعلام ، نقلاً عن صديقه فؤاد حمزة الخبير بشؤون الدروز ، أن هذه الرسائل الـ ١١١ من تأليف أربعة هم :

ـ الامام الحاكم نفسه ، الذي كتب الميثاق والسجل الذي علق على مساجد مصر .

ـ حمزة بن علي الهادي .

ـ علي بن أحمد السموقي المعروف بالمقتني .

ـ وإسماعيل بن محمد التميمي[٣] .

أما العقائد العملية وموقفهم من الديانات الأخرى وما جاءت به من أحكام فإنه يمكن تلخيصها بما يلي :

الله حق ما فيه شك .

وهو لا تحده بداية ولا نهاية .

وهو الذي خلق العالم بقدرته .

وأن الأعمار مقدرة .

وأن طهارة الإنسان في امتناعه عن المحرّمات .

والشعائر في صلاة الجنازة والختان والزواج مثل أهل السنة .

وتعدد الزوجات ممنوع .

وأما الطلاق فلا رجعة فيه أبداً .

وأنبياؤهم خمسة هم : شعيب وسليمان وسلمان الفارسي ولقمان ويحيى .

وأما المسيح فهو ليس إلهاً ، ولم يصلب .

---

[١] ـ **عبد الرحمن بدوي : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٥١٦ ـ ٥١٨ .**

[٢] ـ **البستاني : بطرس : دائرة المعارف ـ بيروت ـ لا تاريخ ٧ / ١٧٧ حتى ٢١٤ .**

[٣] ـ **الزركلي (خير الدين) : الأعلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط١٢ ، ١٩٩٧م ، ج١ ، ص٣٢٣ و ج٢ ، ص٢٧٩ .**

وعيد الأضحى من أهم أعيادهم[1] .

ونورد فيما يلي عناوين المجلد الأول من مجلدات الدروز التي تضم ١٤ رسالة كتبها الهادي حمزة بن علي :

١- الرسالة الأولى : وتضم نسخة السجل الذي وجد معلقاً على مساجد مصر عند غيبة الحاكم .

٢- السجل المنهي فيه عن الخمر ، وتاريخه في ذي القعدة ٤٠٨هـ - ١٠١٨م .

٣- رأي الموحدين في اليهود والنصارى .

٤- نسخة ماكتبه القرمطي إلى الحاكم .

٥- ميثاق ولي الزمان .

٦- كتاب نقض الشريعة صفر ٤٠٨هـ - ١٠١٧م .

٧- رسالة بدء التوحيد لدعوة الحق .

٨- ميثاق النساء ، ويتضمن طرق تربيتهن .

٩- رسالة البلاغة والنهاية في التوحيد - المحرم ٤٠٩هـ - ١٠١٨م .

١٠- الغاية والنصيحة - ربيع الآخر ٤٠٩هـ - ١٠١٩م .

١١- الأفعال اليومية للحاكم .

١٢- سيرة الحاكم - جمادى الأولى ٤٠٩هـ - ١٠١٨م .

١٣- كشف الحقائق - رمضان ٤٠٩هـ - ١٠١٨م وفيها عرض للمراتب الدينية عند الدروز .

١٤- سبب الأسباب كنز لمن أيقن واستجاب[2] .

والذي يعنينا الآن ما هو دور الدروز السياسي والاجتماعي في بلاد الشام في مرحلة الدراسة .

يقول الدكتور أبو صالح ، نقلاً عن كمال الصليبي :

((إن الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين اقتصر على الدول السنية المتعاقبة على بلاد الشام ، وعلى حلفائهم الدروز في وادي التيم وجبل بيروت)) .

ثم يقول :

((إن تراخي الفاطميين في مقاومة الصليبيين دفع الدروز إلى عرقلة الوجود الصليبي والانتقال من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم))[1] .

---

[1] - **البستاني : دائرة المعارف ، ج٧ ، ص٦١٧ - ٦٧٧ .**

[2] - **حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية - القاهرة ١٩٨١ ص ٣٦٤ والسجل موجود في دار الكتب بالقاهرة ، وعنه نقل المؤلف .**

ففي سنة ٤٩٤هـ – ١١٠٠م انضم عضد الدولة التنوخي إلى شمس الملوك دقاق بن تتش للتصدي للصليبيين عند نهر الكلب ، الأمر الذي دفع بالملك دقاق إلى مكافأة عضد الدولة المذكور ، والي بيروت والغرب ، فولاه على صيدا[٢] .

وفي سنة ٥٠٤هـ – ١١١٠م ، سقطت بيروت بيد الصليبيين الذي اجتاحوا قرى الغرب وقتلوا عدداً من الأمراء التنوخيين ، وارتكبوا المجازر ضد سكانها ، فأصبحت المنطقة الغربية الدرزية خاوية على عروشها[٣] .

وبسقوط بيروت واستيلاء الصليبيين على المناطق الساحلية انقسمت الامارات الدرزية في الشام بين مملكة القدس الصليبية وبين أتابكية دمشق .

فالمناطق المجاورة لصيدا من الشوف أصبحت تابعة لمملكة القدس ، ومنطقة الغرب والمتن ووادي التيم صارت تابعة لدمشق .

ومن جهة أخرى توزع ولاء الدروز بين القاهرة ودمشق :

فقد وقف آل جندل ، سكان وادي التيم إلى جانب الفاطميين ، بينما وقف التنوخيون إلى جانب دمشق[٤] .

وفي سنة ٥٢٨هـ – ١١٣٣م قام شمس الملوك إسماعيل إلى قلعة شقيف تيرون فامتلكها من صاحبها الضحاك بن جندل وبقي بنو جندل في وادي التيم ، وكان من أمرائهم : برق بن جندل وضحاك بن جندل وولده[٥] .

أما التنوخيون فقد نهضوا في بلادهم بعد الغزو الصليبي وتحالف أميرهم مجد الدولة بن عضد الدولة مع آل معن وآل نكد وآل تلحوق .

---

١ - القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢٣٥ .
٢ - أبو صالح : المصدر المتقدم ، ص٩٥ .
٣ - أبو صالح : المصدر المتقدم ، ص ١٠٠ .
٤ - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٨٢ .
٥ - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٧١ .

وفي سنة ٥٤٣هـ – ١١٤٨م أصدر مجير الدين آبق منشوراً باسم الأمير مجير التنوخي يقرّه فيه على إمارة الغرب[1] .

واستمر تعاون الدروز مع نور الدين في عهد الأمير الدرزي زهر الدين كرامة بن بحتر التنوخي فأقطعه قرى جديدة في البقاع ووادي التيم وإقليم الخروب بموجب منشور صدر سنة٥٥٦هـ – ١١٦١م[2] .

وفي سنة ٥٧٠هـ – ١١٧٤م تلقى الأمراء التنوخيون ضربة كبرى على يد الصليبيين ، قتل فيها معظم زعمائهم ، ودخل تاريخهم بعد ذلك مرحلة جديدة مع صلاح الدين[3] .

والدروز اليوم منتشرون في جبل العرب في سورية ، وفي ادلب ، ووادي التيم والشوف والجولان وصفد وطبرية وما حولها . ويقدر عددهم الإجمالي بحوالي ٥٠٠,٠٠٠ نسمة[4] .

٤ـ الإسماعيلية :

استخدم الفاطميون بعد سقوط حلفائهم البويهيين في العراق سنة ٤٤٧هـ – ١٠٥٥م فئة جديدة ناشطة وقدموا لها المال والإعداد والسلاح ، لتكون الأداة الفعّالة التي ترهب أعداء الفاطميين عن طريق الاغتيالات السياسية ، وعرفت هذه الفئة بالإسماعيلية والفداوية والباطنية والحشاشين[5] .

وكان من أنشط دعاة الإسماعيلية في القرن الخامس الهجري ، الحسن بن الصباح ، الذي جاء من فارس ، والتقى الخليفة المستنصر في القاهرة ، فأكرمه وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته ، ولابنه نزار من بعده .

وبعد وفاة المستنصر انقسم الإسماعيلية بين ولديه ، المستعلي : وسمّي أتباعه بالمستعلية ، ونزار : وسمي أتباعه بالنزارية[6] .

وكان الحسن من أتباع نزار ، ودافع عنه بشدة ، وأفلح في تكوين نظام جديد ، وأنشأ دولة إسماعيلية خاصة تضم عشرات الحصون المنيعة والتي انتشرت في بلاد فارس والشام[7] .

وكان من أشهر هذه القلاع والحصون قلعة (ألموت) في نواحي قزوين ، وتعني : عشّ النسر ، وقد احتلها الحسن الصباح سنة ٤٨٣هـ – ١٠٩٠م ، وبقيت بأيدي الإسماعيلية حتى سقطت بيد هولاكو سنة ٦٥٤هـ – ١٠٩٠م ، ولا تزال أطلالها إلى اليوم[1] .

---

[1] ـ أبو صالح : المصدر المتقدم ، ص١٠٣ .
[2] ـ أبو صالح : المصدر المتقدم ، ص١٠٤ .
[3] ـ أبو صالح : عباس ، المصدر المتقدم نفسه ، ص١٠٥ .
[4] ـ الموسوعة العربية العالمية : الرياض ١٩٩٦م ، ج١٠ ، ص٣٠٤ .
[5] ـ الذهبي : تاريخ الاسلام ـ حوادث سنة ٤٩٤هـ ، ص ٢٨ .
[6] ـ ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٧ ، ص٦٣ .
[7] ـ الذهبي : المصدر المتقدم ، ص٣٣ .

وذكر ابن الجوزي أنّ الحسن بن الصباح كان يذكر لمن يدعوهم ما حلّ بآل البيت من النكبات ويدعوهم إلى نصرتهم ، وقد أصبح بفضل هذه الطريقة يتولى توجيه ٢٠,٠٠٠ من الفداويّة الذين كانوا على أتم الاستعداد لتنفيذ إرادته أيا كانت[٢] .

وقد قام تنظيم الإسماعيلية على عدة مراتب متدرجة في الأهمية هي :

١-مرتبة شيخ الجبل وأفرادها سبعة يرأسهم الحسن نفسه .

٢-وتليها في الأهمية مرتبة كبار الدعاة وعددهم ثلاثة .

٣-مرتبة الدعاة ، وهم الذين يتلقون التوجيه الأساسي من القاهرة ، ثم ينتقلون إلى قلعة ألموت ، وهم عادة من كبار الدهاة والأذكياء .

٤-المرتبة الرابعة : مرتبة الرفاق ، وهم طبقة تفقهت في أمور المذهب الإسماعيلي ، يتولون اختيار الدعاة وتدريبهم .

٥-والمرتبة الخامسة : مرتبة الفداوية ، وهؤلاء ينتقون ممن جبلوا على الطاعة العمياء لرؤسائهم ، ولا يشترط فيهم العلم أصلاً ، وإنما إتقان اللغات والعادات للبلاد التي يرسلون إليها .

وغالباً ما يلبسون لباس الصوفية والمتسولين ، ثم يندسون في خدمة من جاؤوا لاغتياله ، ثم ينقضون عليه وهو غافل عنهم تماماً ، وبذلك نشروا الرعب والهلع في الشرق والغرب[٣] ، حتى إن من يتأخر عن داره بعد العشاء يظن أهله أن الفداوية قتلوه ، ونادراً ما كانت تخيب رميتهم أو ينجو من ابتلي بهم[٤] ، على ما ذكر ابن أثير .

وكان بعض الحكام يقيم صداقة مع رئيس الإسماعيلية للاستعانة بالفداوية على التخلص من أعدائه .

وقد ذكر ابن الأثير أن صلاح الدين راسل سنان الدين راشد ، شيخ الجبل ، بعد ما توطدت العلاقات بينهما ، وطلب منه إرسال من يخلصه من ملك الأنكتار ، والأمير كونراد وصاحب صور .

فأرسل سنان الدين اثنين لبسا لباس الرهبان الفقراء ستة شهور ، وهما يظهران العبادة والتقوى ، فأنس بهما المركيز فوثبا عليه فقتلاه ، ثم قُتلا[٥] .

وفي سنة ٤٩٤هـ - ١١٠٠م أنزل بهم السلطان السلجوقي بركياروق ضربة قوية[١] .

---

[١] - الموسوعة الإسلامية ، ج٢ ، ص٩٠ و٥٩٧ ، الصفدي : صلاح الدين - الوافي بالوفيات - طبعة ألمانيا وتحقيق إحسان عباس ١٩٨٢م ، ج ١٥ ، ٤٦٤ ، وابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٤١٥ - وأما قلعة " ألموت " فقد بناها الداعي العلوي حسن سنة ٢٤٦هـ .

[٢] - ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٧ ، ص٦٣ و ٦٤ .

[٣] - حسن إبراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ص٣٦٩ .

[٤] - ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٤٥٠ ، ابن الجوزي - المنتظم ، ج١٧ ، ص٦٣ .

[٥] - ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج١٠ ، ص١٠٥ و ١٠٦ والموسوعة الإسلامية ، ج٢ ، ص١٩١ .

وكانت حلب في أيام الأمير رضوان بن تتش السلجوقي مركزا حصيناً لهم ، بسبب تغاضي رضوان المذكور عنهم .

وفي سنة ٤٩٩هـ – ١١٠٥م احتلوا افامية ثم أجلوا عنها .

وفي سنة ٥٠٧هـ – ١١١٣م ، بعد قتلهم الأمير مودود في دمشق قوي أمرهم في حلب ، وخاف ابن بديع ، رئيس الأحداث بحلب منهم لكثرتهم وتعاونهم ، وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ أول من أظهر هذا المذهب بالشام في أيام الملك رضوان ، واستمالا إليه بالخدع والمحاولات ، ومال إليهم خلق كثير من الإسماعيلية بسرمين وجبل السمّاق وبني عليم .

فشرع ابن بديع في الحديث مع الأمير ألب أرسلان بن رضوان ، في أمرهم ، فقبض على أبي طاهر الصائغ وعلى كل من دخل في المذهب وهم زهاء مائتي نفس ، وقتل الصائغ في الحال ومعه إسماعيل الداعي ، وأخو الحكيم المنجم وغيرهم ، وحبس الباقون واستصفيت أموالهم ، فمنهم من هرب ومنهم من قتل ، وتفرقوا في البلاد[٢] .

وفي سنة ٥١٥هـ – ١١٢١م ، اغتالوا أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي لتقربه إلى السنة[٣] .

وفي سنة ٥٢٣هـ – ١١٢٩م نزلت بهم الضربة القاضية في دمشق على يد شمس الملوك بوري كما بينّا .

وفي سنة ٥٢٧هـ – ١١٣٣م ، اشتروا حصن القدموس بعدما سلموا حصن بانياس للصليبيين[٤] .

ثم استولوا على حصن مصياف وجبل السمّاق وبلغت عدّة حصونهم في الشام عشرة[٥] .

وكان زعيمهم سنان بن سليمان المعروف براشد الدين البصري من أشهر رجال القرن السادس الهجري ، وكانت له صولات وجولات في بلاد الشام ذكرها المؤرخون مفصّلة[٦] .

ثم تراجع أمرهم في القرن السابع الهجري وبقيت حصونهم في أيديهم وهي مصياف وسلمية والقدموس وما حولها من القرى .

---

[١] ـ ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص٤٥٦ .
[٢] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٩٨ ـ ٣٠٢ .
[٣] ـ ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٨ ، ص٦٦٩ .
[٤] ـ ابن الأثير : المصدر المتقدم ، ج٩ ، ص١٧ و ٤٧ .
[٥] ـ الموسوعة الإسلامية ، ج٢ـ ص١٩١ .
[٦] ـ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج١٥ ، ص٤٦٣ حتى ٤٧٠ وفيه مراسلات صلاح الدين مع سنان الدين ، وقد توفي الاثنان في عام واحد هو سنة ٥٨٩هـ ـ ١١٩٣م .

ويوجدون اليوم في إيران ونيروبي ودار السلام وزنجبار ومدغشقر والكونغو والهند وكراتشي والشام[1] .

ثالثاً ــ اليهود والنصارى :

١- اليهود :

يعود الوجود اليهودي في دمشق إلى أزمنة قديمة بدليل وجود كنيس لهم في قرية جوبر من ضواحي دمشق ، وهو من أقدم المعابد الباقية ، إذ يعود تاريخه إلى سنة ٧٣٠ ق .م كما هو مدون عليه حتى اليوم ، ويرى اليهود أن النبي إيليا أو إلياس أو إلياهو ، وهو الذي يسميه يهود الشام بالخضر ، اختبأ فيه هرباً من ملاحقة الملكة إيزابيلا .

وكان الرحالة الأجانب يزورونه ويبدون إعجابهم به حتى ظنوا بأن جوبر كلها من اليهود[2] .

والمهم أن اليهود كانوا يعيشون في قرية جوبر ، ثم انتقل أو هاجر قسم منهم إلى المدينة نفسها ، وعند انقسام اليهود إلى ربانيين وقرائيين وسامرة ، سكن الآخرون إلى الغرب من جوبر فيما يعرف ببيت الآلهة أو بيت لهيا ، وهي المنطقة المحيطة بساحة العباسيين اليوم ، وبقي الآخرون في دمشق و جوبر .

وذكر المقدسي الذي زار دمشق سنة ٣٧٥هـ – ٩٨٥م أنه كانت لليهود حرية العمل في دمشق فكان كثير من الجهابذة والصباغين والدباغين والصيارفة في الشام يهوداً[3] .

أما عن أعداد اليهود في دمشق في فترة الدراسة ، فإنه زار دمشق وفلسطين في عهد نور الدين الرحالة اليهودي (بنيامين التطيلي) بين سنة ٥٦٠هـ – ١١٦٥م وسنة ٥٦٩هـ – ١١٧٣م ، وكان يبدي اهتماماً خاصاً باليهود حيثما حل .

وقد ذكر أنه كان يقيم بدمشق لما زارها ٣٠٠٠ يهودي بينهم العلماء ، والأغنياء ، وكان فيها أيضاً رئيس المدارس الدينية العليا لعلماء فلسطين : عزريه أو عزرا ، ويسميه بنيامين : رأس المشيبة لعلماء فلسطين (وهي رتبة دينية) .

وكان مقره في القدس ، ولكن عند سقوطها بيد الصليبيين جمع هؤلاء اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم[4] ، فانتقل رأس المشيبة إلى دمشق ، وكان من الوجهة العلمية تابعاً لـرأس المشيبة في بغداد وكان رئيسها آنذاك صموئيل بن علي[1] .

---

[1] ـ الموسوعة الإسلامية ، ج٢ ، ص٣٢٤ .

[2] ـ أحمد إيبش : رحلة الفارس دارفيو ـ دار المأمون دمشق ، ص ٥٧ و ٨٣ ، وانظر أيضاً : محجوب : بشير " جوبر " دمشق ١٩٩٩م ، الصفحات ١٠٢ حتى ١٠٤ وفيه صور الكنيس المذكور ونقوشه ، وقد زرت هذا الكنيس ، وهو في محطة " المدارس " في جوبر .

[3] ـ المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٥٧ ، والجهابذة جمع جهبذ وهو الموظف الذي يقوم بتحصيل الأموال وتدوينها في السجلات وإعطاء الوصولات لأصحابها .

[4] ـ القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٢٢٢ .

وهذا بيان بعدد اليهود في مدن الشام في عصر نور الدين استخلصناه من رحلة بنيامين التطيلي :

أنطاكية ١٠ اللاذقية ٢٠٠ جبيل ١٥٠ بيروت٥٠

صيدا ٢٠ صور ٤٠٠ عكا ٢٠٠ قيسارية ٢٠٠

اللد ١ نابلس ١٠٠٠ القدس ٢٠٠ بيت لحم ١١

بيت جبرين ٣ قلعة الحصن ٣٠٠ بيت النبي ٢

الرملة ٣٠٠ عسقلان ٢٠٠ طبرية ١٠٠ جرش ٣٧

وهناك مدن زارها فلم يجد فيها أحداً من اليهود مثل جبلة وحيفا وكفرناحوم وقاقون والسامرة القديمة والخليل وبيسان وأشدود وصفورية وتبنين وغيرها[٢] .

ويقول بنيامين :

((إنه كان يقيم مع الرابي عزريه أخوه قاضي القضاة الرابي شالوم ، والرابي يوسف ، خامس أساتذة المشيبة والعميد الواعظ الرابي : مصيلح ، وفخر الأحبار الرابي مئير ، وأمين سر المشيبة الرابي يوسف بن الفلات ، والخازن الرابي مئير ، والطبيب الرابي صادوق)) .

ثم يقول :

((ويقيم في دمشق نحو من المائتين من القرّائين ، و ٤٠٠ من الكوتيين (السامرة) ، وهذه الجماعات على وفاق فيما بينها لكن أفرادها لا يتزوجون بغير بنات نحلتهم))[٣] .

ومن جهة أخرى ذكر مترجم الكتاب وهو خبير باليهود ، أن العرف جرى أن يُحصي الباحثون والمؤرخون اليهود عددهم بالبيت والأسرة ، لا بعدد الأفراد ، فلا يحصى في هذه الحالة إلا رب الأسرة فقط ، ومعنى هذا أن عدد اليهود الذين ذكرهم بنيامين وهو ٣٠٠٠ قد يصل إلى أكثر من ١٠,٠٠٠ بالنسبة لليهود الربانيين ، ويتراوح بين ١٠٠٠ – ٢٠٠٠ بالنسبة لليهود الآخرين من القرائين والكوتيين .

ويهود الشام ، كما ذكر بنيامين ، كانوا على ثلاث فرق أو طوائف أو مذاهب هي الربانيون والقرّاؤون والكوتيّون أو السامرة[٤] .

فأما الربّانيون وهم الأكثر عدداً فهم يعرفون بالربانيين والناموسيين والكتبة ، ويدعى الواحد منهم بالحبر أو الرابّي وكانوا حتى هجرتهم من دمشق ، يقيمون في حي اليهود داخل السور ويدعى رئيسهم الذي كان يعينه السلطان بالربّيس .

---

١ ـ التطيلي : بنيامين الرحلة ، ص ١٣٠ ، وذكر محقق الرحلة عزرا حداد معلومات مهمة في الهامش عن رحالة يهودي أخر يدعى " فتاحيه " زار دمشق بعد بنيامين ، وما تزال رحلته هذه مخطوطة .

٢ ـ التطيلي : المصدر المتقدم ، ص٤٨ .

٣ ـ التطيلي : المصدر المتقدم ، ص ٢٧٣ .

٤ ـ انظر مقدمة كتاب التطيلي .

وتقوم عقيدتهم على المبادئ التالية :

إن الله قديم أزلي واحد قادر .

وإنه بعث موسى بالحق وشد أزره بأخيه هارون .

ويعظمون التوراة أشد تعظيم .

ويرون أن شريعة موسى هي خاتمة الشرائع وأنه لا دين بعدها ، بما في ذلك النصرانية والإسلام .

وهم يذهبون إلى تأويل ما في التوراة من ذكر الصورة والاستواء على العرش والنــزول على طور سيناء ، كما يقول الأشعرية من المسلمين .

وهم يقولون بأنه ليس ثمة قدر سابق مقدر وأن الأمر طبيعي ليس فيه ما هو مقدّر .

وهم يؤمنون بالتلمود وغيره مثل التوراة بعكس الآخرين .

وهم يكرهون فرعون وهامان .

ومن أعظم الكبائر عندهم الأخذ بدين النصرانية .

وهم يرمون مريم ويغمزون فيها .

ويقدسون طور سيناء الذي كلم الله تعالى موسى عليه .

ويقدسون الصخرة المشرفة .

ويعترفون بنبوة موسى وهارون ويوشع ، وآبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهو إسرائيل ، والأسباط الاثني عشر .

وينكرون على السامري ومن آمن به .

ويكرهون أريحا لأنها مدينة الجبارين .

ويستنكرون عصيان قوم لوط وما فعلوه .

ويهدرون دم من يبيح العمل في السّبت .

ومن الكبائر عندهم الانتقال إلى دين آخر .

وهم يحرمون لحم الجمل وأكل الحوايا وهي ما استدار من البطن[١] .

ويفهم مما ذكرته المصادر أنه كان يعين الرئيس على فرق اليهود من الربانيين حصراً .

وقد أورد ابن عبد الظاهر نسخة مرسوم برئاسة اليهود لأحد الربانيين وهو الطبيب أبــو الحسن بن الموفق بن النجم ، وكان مما جاء فيه :

((وجماعة الربانين فهم الشعب الأكبر ، فعاملهم بالرفق الأجدى ، ولكونك منهم لا تمــل معهم على غيرهم . وجماعة القرّائين ، المعروفون بملازمة الأدلة والاحتراز في أمر الأهلة ،

---

[١] - **القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص٢٦٠ ، وفيه تفصيلات وافية ودقيقة .**

فانصب لأمرهم من كان منهم ... والسامرة ، فمن قدرت على ردّه بدليل من مذهبك فاردده ، وإلا فقل له : يا سامري بصرت بما لم تبصر به ، وارفق بهم ، ومرهم بملازمة قوانينهم كيلا يعدو أحد منهم في السبت ، ولا تختر إلا الأعيان من كل خزان وديّان . ومن كان له من داود عليه السلام لحمة نسب فارع له حقه)) . ثم يقول المرسوم :

((والجزية فهي لأولادكم ودمائكم عصمة ، ولأجلها ورد : من آذى ذمياً كنت خصمه ، وهي أجرة السكنى في دار الإسلام ... وخذ قومك بتجنب الغش ... وهـذه موهبـة الدولـة وإحسانها لكم ولطفها بكم وعاطفتها عليكم ... ومن قرأ هذا المرسوم من كافة النواب فليوعز بإكرام الربيس المذكور واحترامه ... وإعانته على ما وليناه))[1] .

وأما اليهود القرّاؤون : فقد ظهرت نحلتهم في بغداد في عصر الخليفة أبي جعفر المنصور ، وهؤلاء تأثروا بأقوال المعتزلة والفكر الإسلامي ، فانتقدوا الربانيين وسيطرتهم ثم انـشقوا عنهم وأسسوا لهم في القدس كنيساً ، بعيداً عن بغداد .

ثم انتشرت طريقتهم في فلسطين والشام والعراق وامتدت نحو الشرق إلى خراسان ، ثـم بلغت شواطئ البوسفور وانتقلت إلى شبه جزيرة القرم ، ودخلـت مـصر واسـتقرت فـي الإسكندرية ، ثم انطلقت إلى اسبانيا .

ووصل من انتشارها في مصر في القرن الثاني عشر الميلادي ، أن أصبح القرّاؤون فيها أكثر من الربانيين عداً .

ثم انتشر القرّاؤون في أوروبا ، و تقلصت أعدادهم لاعتبارات شتى حتى أصبح عـددهم اليوم لا يزيد عن ١٢,٠٠٠ يهودي منهم ١٠,٠٠٠ في شبه جزيرة القرم ، والباقون في مصر واستانبول وبولندة وبعض أنحاء كردستان .

أما في دمشق ، فقد تزايد عددهم كثيراً وكانوا في العـصر العثمـاني الأول يـضاهون الربانيين عدداً ، بل يزيدون عليهم ، ثم هاجروا وتلا شوا تدريجياً حتى لم يبق من آثارهم في دمشق في أواخر القرن التاسع عشر إلا مقبرتهم عند باب كيسان وأوقافهم في منطقة البـاب الشرقي ، وكنيسهم المشهور القائم في حي الزيتون بدمشق ، وهو الذي تحولّ إلـى كنيـسة للكاثوليك في عهد الحكم المصري للشام[2] .

ومن أخص الأمور الدينية التي يخالف القراؤون بها سائر اليهود :

[1] ـ **القلقشندي : المصدر المتقدم ، ج ١١ ، ص٣٧٨ ، ابن عبد الظاهر : محي الدين : تشريف الأيام والعصور ـ تحقيق مراد كامل ـ القاهرة ١٩٦١ ، ص٢١٨ ـ ٢٢٠ وفيه النص الكامل للمرسوم أو التقليد كما كان يسمى**

[2] ـ **حول هذا الكنيس الذي صار كنيسة انظر : أسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية ـ ٥ مجلدات ـ بيروت ١٩٨٧م الوثيقتان : ٣١٤٨ و ٣١٩٥ في المجلد الثاني .**

– ترك قواعد التقويم اليهودي في تعيين المواسم والأعياد . ولذلك اختلفت أعيادهم مع اليهود الآخرين .

– تشددهم الصارم بحرمة يوم السبت وتمسكهم الحرفي بعدم العمل فيه أو الخروج من البيت ، أو إعداد الطعام بعكس الربانيين الذين يتساهلون في هذا الأمر انطلاقاً من قواعد التلمود والذي لا يؤمن به القراؤون أصلاً .

– الإيمان بالتوراة وحدها وعدم الإيمان بالتلمود وغيره من كتب الأحبار .

– وهم يكفرون الربانيين ، والربانيون بدورهم يكفرونهم ،

– ومن حيث العقيدة فالقراؤون يقفون عند ظاهر نصوص التوراة مما ورد من صفات الله تعالى ، كما تقول الظاهرية من المسلمين ولذلك يقولون بالجهة والتشبيه ، ويقولون أيضا بأن الأمور مقدرة في علم الله منذ الأزل كما يقول الأشاعرة من المسلمين[١] .

وأما السامرة أو السامريون فهم فرقة دينية نشأت في فلسطين بعد سقوط مملكة اسرائيل سنة ٧٣٨ قبل الميلاد .

وسميت بهذا الاسم لأنها استوطنت مدينة السامرة – سبسطية – إلى الشمال الغربي من شكيم – نابلس .

وهؤلاء السامرة ليسوا يهوداً بنظر اليهود الآخرين وإنما يعودون في أصولهم بنظرهم إلى الأجانب الذين استوطنوا السامرة وما جاورها والذين كانوا يعبدون إله اليهود (يهوه) إلى جانب أربابهم وأصنامهم ولذلك سماهم اليهود بالكوتيين ، وسموهم (شومرونيم) أي السامريين .

وعندما أذن (كورش) الفارسي لليهود بالعودة سنة ٥٣٨ ق.م ، اصطدموا بالسامريين ، وكان الانفصال الكامل بين الفريقين ، وطلّق اليهود زوجاتهم السامريّات .

وبالمقابل ، شيّد السامريون هيكلاً يضاهي هيكل القدس فوق جبل جرزيم – الطور في نابلس – لأن الله تعالى كلم موسى عليه ، واتخذوا أسفار موسى كتاباً مقدساً لهم ، ورفضوا ماعداها من أسفار اليهود ، وبذلك تم الانفصال الأبدي بين الفريقين .

وفي سنة ١٩٠ ق .م هاجم اليهود السامرة ودمّروها وهدموا معبد السامرية على جبل جرزيم ، وجعلوا من انتصارهم هذا عيداً يدعى : يوم جرزيم[٢] .

وفي سنة ١٣٢م أعاد الرومان بناء شكيم وسمّوها (نيوبوليس) غربي شكيم ، ثم عرفت بنابلس .

---

[١] ـ **القلقشندي : المصدر المتقدم ، ج١٣ ، ص٢٦١ .**
[٢] ـ **بنيامين التطيلي : المصدر المتقدم ، ص٣٧٢ .**

وكان في نابلس يوم زارها بنيامين التطيلي ١٠٠٠ سامري و ٢٠٠ في قيسارية و ٣٠٠ في عسقلان و ٤٠٠ في دمشق .

أما عن عقيدة السامريين ، فهم موحدون لا يعترفون إلا بأسفار موسى الخمسة ، و يتمسكون بنصوصها حرفياً ، ولا يعترفون على التلمود وسواه من كتب الربانيين ، ويتشددون في حرمة السبت ، ويحجون إلى جبل جرزيم وينحرون الأضاحي عنده .

وفي القرن السادس عشر عُثر على توراة لهم في دمشق ونشرت في أوربا .

وفيما يتعلق بالسامرة في دمشق ، والذين كما قدمنا كانوا يقيمون في بيت لهيا ، فإن آخر ذكر مدوّن لهم يعود إلى سنة ٩٩٢هـ – ١٥٨٤م ، كما أفادتنا وثائق دمشق الشرعية حيث قرأنا في إحدى الوثائق أخبار أسرة سامرية تضم :

الشيخ سرور بن غزال السامري .

والحرمة ستيتة بنت الشيخ يوسف الربيس السامرية .

وإبراهيم بن صدقة السامري .

ويوسف ولاوي ولدي الشيخ بهنا السامري ، كان لهم بستان في محلة السامرة بدمشق ، في بيت لاهيا[١] .

واليوم ، يوجد عدد محدود جداً من السامرة في مدينة نابلس .

أما عن علاقة اليهود بأهل الشام في مرحلتنا الدراسية ، ونشاطهم العلمي والتجاري ودورهم في مجتمع دمشق ، فقد كان منهم الصالح والطالح ، وكانوا منفتحين على السكان . وظهر منهم الأطباء والحكام والصيارفة والجهابذة ، وهم الذين يتولون جمع الأموال للحكام .

وقد ذكر ابن أبي أصيبعة عدداً من أطباء اليهود وصفهم بالأمانة والاستقامة والعلم والفضل ، ومنهم :

الطبيب أبو الحسن بن غزال السامري ، الطبيب سكرة الإسرائيلي الفاضل ، وابنه العفيف بن سكرة الطبيب ، والطبيب يوسف الإسرائيلي ، والطبيب عمران الإسرائيلي ، والطبيب صدقة بن منجا السامري ، والطبيب يعقوب بن غنائم السامري[٢] .

لكنه ذكر أن الطبيب مهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري والذي خدم الملك الأمجد في بعلبك ، قد قرّب أهله ومعارفه من السامرة واستغل مهارته في الطب وإعجاب الملك الأمجد به في الحصول على امتيازات ومكاسب جعلتهم من أغنى الناس في بعلبك ، وصار الناس يغمزون منهم ومن الملك الأمجد معاً ، حتى قال الشاعر :

---

[١] - **السجل الأول من سجلات مركز الوثائق التاريخية بدمشق ، ص ١٧٦ - الوثيقة ٣٤١ .**

[٢] - **ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء - بيروت - دار الحياة - لا تاريخ انظر الصفحات : ٦٣٧ حتى ٧١٧ .**

الملــك الأمجــد الــذي شــهدت   له جميـــع الملــوك بالفــضــل

أصــبح فــي الــسامري معتقــداً   ما اعتقد الــسامري فــي العجــل

وكان الطبيب مهذب الدين السامري ، والطبيب الصاحب أمين الدولة أبو الحسن بن غزال السامري الذي أعلن إسلامه يمكنان للسامرة في بعلبك وما يتبعها .

وفجأة أمر الأمجد باعتقال جميع السامرة ومصادرة أموالهم وكانت خيالية ، وقضى مهذّب الدين في دمشق ، ومع ذلك فقد أثنى ابن أبي أصيبعة على أخلاقه وعلمه(1) .

وذكر القلانسي أنه كان بدمشق رجل يهودي يقال له : منشا بن إبراهيم الغرّار ، وكـان يشغل منصب مدير المال بدمشق ، فصار يحابي أبنـاء جلدتـه ويـؤثرهم بالمناصـب دون المسلمين ، وكان قد عينه الوزير اليهودي : يعقوب بـن كلـس ، فاشـتكى عليـه النـاس فعُزل(2) .

وأخيراً : ذكر شيخ الربوة عند حديثه عن السامرة في نابلس أنه إذا اجتمع فـي طريـق مسلم ويهودي ونصراني وسامري رافق السامري المسلم من دون الآخرين(3) .

---

[1] - **ابن أبي أصيبعة : المصدر المتقدم ، ص٧٢١ .**

[2] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٦ ، وعن السامرة انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص٢٧٠**

التطيلي : الرحلة ، ص٣٧٧ .

[3] - **شيخ الربوة : نخبة الدهر ، ص٢٦٨ .**

وكان في طرابلس في حدود سنة ٤٨٥هـ – ١٠٩٢م ، يهودي فاسق ، يتعرض لنساء المسلمين ، فقال الشاعر ابن الخياط (ت ٥١٧هـ – ١١٢٣م) يغري به الأمير جلال الملك علي بن عمّار :

ألا من مبلغ عني علياً ... وقاه الله صرف النائبات

فليس لنصره ملك يرجى ... سواك اليوم يا مجد القضاة

لأعيا المسلمين يهود سوء ... فما تحمي الحصون المحصنات[١]

ومن جهة أخرى قال الشاعر ابن القيسراني في صرّاف يهودي :

في بني الأسباط ظبي ... مالك رقَّ الأسود

يأسر الناس بقدٍ ... وبخدٍّ وبجيد

صيرفي في غرامي ... في صروف ونقود

أنا في الدين حنيفيّ ... وفي الحب يهودي[٢]

٢ـ النصارى :

كانت سورية مهد النصرانية ، ففيها ظهر السيد المسيح ، وفيها أقدم كنيسة في العالم تعود إلى سنة ٢٣٢م ، وفيها كنائس تاريخية كثيرة تعود إلى القرن الرابع والخامس الميلادي في دمشق والقدس وجرش والرها وأنطاكية وغيرها .

وعلاوة على ذلك فقد كان فيها في الفترة بين ٤٦٨هـ – ٥٦٩هـ / ١٠٧٥م – ١١٧٤م مركز الكنائس الخمس الكبرى وهي : كنيسة اليعاقبة ، والكنيسة الملكانية ، والكنيسة النسطورية الشرقية ، وكنيسة السريان الموارنة ، وأخيرا الكنيسة الأرمنية .

وكان في دمشق كرسيّ اثنتين من هذه الكنائس هما كنيسة اليعاقبة والكنيسة الملكانية[٣] .

وعندما عقدت المجامع الدينية النصرانية المختلفة لبحث العلاقة بين المسيح الإنسان والمسيح الله ، وظهرت فكرة الطبيعة الواحدة للمسيح وفكرة الطبيعتين ، وما نشأ عن ذلك من نظريات ومذاهب ، كانت كنيسة الشرق الأولى وهي كنيسة اليعاقبة أول كنيسة في سورية ترفض مقررات المجمع الخلقدوني الذي قال بالطبيعتين ، وتصرّ على موقفها الرافض للهيمنة اللاتينية على الكنيسة السورية ، ثم ظهر العرب المسلمون فنشروا تسامحهم وتفهّمهم للأمور ، وبدأ بذلك عهد جديد للنصارى في سورية .

---

[١] ـ **ابن الخياط : الديوان ـ تحقيق خليل مردم بيك ـ دمشق ١٩٥٨م ، ص٤١ .**

[٢] ـ **القيسراني : الديوان ، ص١٨٤ .**

[٣] ـ **القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٠١ .**

ذلك أنه عندما دخل خالد بن الوليد دمشق فاتحاً أعطى من فيها من النصارى عهدا مكتوبا ، لا يختلف في جوهره عن عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه للنصارى في بيت المقدس . وكان ذلك العهد هو عمدة أهلها النصارى عند اضطراب الأحوال .

ونص الكتاب :

((بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق يوم فتحها . أعطاهم أمانا لأنفسهم ولأموالهم ولكنائسهم ، لا تهدم ولا يسكن شيء من دورهم . لهم على ذلك ذمة الله وذمة الرسول وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين ، أن لا يعرض لهم أحد إلا بخير ، إذا أعطوا ما عليهم من الجزية . وكتب في شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة))[1] .

وبالمقابل اشترط أهل الذمة على أنفسهم في كتابهم إلى أبي عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه شروطاً التزموا بها ومنها :

((إنا شرطنا على أنفسنا ... ألا نؤوي في منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم على من غش المسلمين ، ولا نجاورهم بالخنازير ، ولا نبيع الخمور ، ولا نمنع أحداً من قرابتنا إن أراد الدخول في الاسلام ، وأن نوقرّ المسلمين في مجالسهم ولا نضرب أحداً منهم[2] ...))

وقد التزم حكام دمشق طوال القرون الهجرية الخمسة الأولى بهذا العهد ، كما التزم به النصارى .

وأما عن الجزية ومقدارها ، فقد ذكر المؤرخ الشيزري ذلك فقال : ((... وعلى المحتسب أن يأخذ من أهل الذمة الجزية : على الفقير ديناراً في السنة ، وعلى المتوسط دينارين ، والغني أربعة دنانير ، وذلك عند رأس الحول ، ويلزمهم بأحكام الإسلام ، فإذا امتنع الذمي لزوم الأحكام ، أو قاتل المسلمين أو قطع الطريق أو آوى المشركين أو قتل مسلماً انتقضت ذمته[3])) .

ولم يشهد تاريخ دمشق أي صدام مع أهل الذمة من اليهود والنصارى على حد سواء ، ولم ترتكب في حقهم شيء من المجازر التي كان الصليبيون يرتكبونها باستمرار ضد المسلمين في المعرّة والقدس وطرابلس وبيروت ، كما ذكرنا في الفصل الأول ، وبقيت الأوضاع هادئة وعادية حتى وصول الغزاة الصليبين إلى الشام .

وقد تغير الحال بدخول الصليبيين الأمر الذي دعا البوريين ونور الدين إلى اتخاذ سياسة الحذر الشديد والمراقبة التامة تجاه النصارى ، مع المحافظة التامة على العهود والمواثيق المقطوعة لهم .

---

[1] ـ **ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢ ، ص١١٧ .**
[2] ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص١٢٠ .**
[3] ـ **الشيزري : نهاية الرتبة ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .**

وذكر مؤرخو النصارى ، وفي طليعتهم وليم الصوري أن الوفود التي كان يرسلها البابا أوربان الثاني إلى الشرق ، وعلى رأسهم الراهب بطرس ، وكانت تلتقي النصارى بصورة طبيعية وبدون أدنى رقابة ، وتتلقى شكاويهم وطلباتهم ضد الحكام والأمراء المسلمين ، ولم يرد في جميع كتب المؤرخين المسلمين أي ذكر لعمليات إجلاء أو محاصرة أو إبادة لهؤلاء النصارى ، ولم تتغير معاملة المسلمين لهم حكاماً وشعوبا طوال عهد البوريين ونور الدين وصلاح الدين .

وكان في دمشق عدد وافر من الأطباء النصارى الذين كانوا يعالجون الحكام والأمراء ، وكانوا على درجة من العلم والخلق و الإخلاص ، منهم الطبيب موفق الدين المطران والطبيب أبو منصور وأبو النجم وأبو الفرح ويعقوب بن سقلاب وابنه سديد الدين[1] .

وفي كتاب تعيين بطريك طائفة النصارى الملكانية بدمشق ما يشرح بصورة وافية موقف الحكام من النصارى من أهل البلد .

ومما جاء فيه :

((رسم أن يستقر فلان بطريك الملكية بالشام ، حسب ما اختاره أهل ملته المقيمون بالشام المحروس ورغبوا فيه وكتبوا خطوطهم .... فخذ نفسك بآداب شرعة المسيح القائمة على المسامحة ... ولا تستكثر من متاع الدنيا فإنه قليل ، ونظف صدور إخوانك من الغلّ ، ولا تقنع بما ينظفه ماء المعمودية من الأجسام ، وإليك الأمر في البيع ، فإياك أن تتخذها تجارة مربحة أو تقطع بها مال نصراني ... وتفقد أمر الديارات في الأيام والليالي ، واعلم أن أهلها اعتزلوا فيها للتعبد فلا تدعها تتخذ متنزهات ، فلا تكون مصيدة للمال أو خلوة بالنساء ... وإياك أن تؤوي بها الغرباء القادمين عليك ، أو تمنع عنا أخبار ما يجري ، أو تستلم كتاباً من أحد من الملوك بدون إعلامنا بمضمونه ، ولا تكتب لهم في أمر حتى تعلمنا ... والتقوى مأمور بها أهل كل ملّة[2])) .

والكتاب طويل لكن يفهم منه بشكل واضح طبيعة المعاملة الإنسانية لأهل الذمة ، ولفت نظر أولي الشأن عندهم إلى ضرورة الالتزام بالآداب السامية التي أجمعت عليها جميع الديانات ، وتحذرهم من الاتصال بالعدو بأي حال .

وعلى المستوى العملي لم نجد في مصادرنا في حقبة الدراسة ذكراً لأهل الذمة من اليهود والنصارى في دمشق ومناطقها ، إلا فيما ندر .

---

[1] ـ **ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، الصفحات ٦٥١ـ ٦٩٩ .**
[2] ـ **القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٢ ، ص٤٢٤ .**

من ذلك استخدام الأمير البوري شهاب الدين محمود بطانة له من الأرمن كانوا يرافقونـــه في تحركاته ، وقد سماهم القلانسي : الأرمن الشمسية ويبدو أن ثقته بهم كانت شديدة حتى إنه استخدمهم لاغتيال الأمير المزعج : بزواج .

ومن سوء حظه أن نهايته كانت على يد واحد منهم يقال له (ألبغش الأرمني) وهو الذي اصطنعه وقرّبه إليه واعتمد عليه في أشغاله ، فقتله وهو نائم وهرب دون أن يعثر عليه أحد[١] .

وذكر ابن الأثير أن السلطان العادل نور الدين الشهيد تحالف مع الأمير ملـــيح الأرمنـــي وقرّبه إليه وزوّده بقوات عسكرية ليحارب بها الروم والمنافسين الآخرين من أمراء الأرمن ، حتى إنه نجح في استرداد مدينة أدنة والمصيصة من البيزنطيين وهزم إمبراطورهم هزيمـــة نكراء .

ولعل مليحا هذا هو النصراني الوحيد الذي وقف هذا الموقف من بني جلدته على حـــسب ما تذكر المصادر ، حتى إن وليم الصوري قال عنه : إنه من أســـوأ أعداء الصليبيين[٢] .

أما على المستوى العام ، فإن ابن جبير أورد عبارات موجزة عن طبيعة العلاقـــة بـــين المسلمين والنصارى من فترة البحث فقال :

((ومن العجيب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان ، إذا رأوا به بعض المنقطعين مـــن المسلمين ، جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ويقولون :

هؤلاء ممن انقطع إلى الله عزّ وجل ، والواجب مشاركتهم وقلما يخلو هذا الجبل من العبّاد والزهّاد))[٣] .

وكان في دمشق والشام في المرحلة المدروسة خمس كنائس مذهبية كبرى ، وهذه الكنائس هي :

أ- **الكنيسة اليعقوبيّة** : كنيسة الشرق الأولى ، وتعرف بالكنيسة السريانية الأرثوذكسية ، وهي من أعرق المراكز الدينية في سورية ، وأحد الأصوات التاريخية في التعبير عن الانتماء السوري – العربي الثقافي والتاريخي .

وكان أهلها هم أول من دان بالنصرانية ، وينسب تأسيسها إلى بطرس الرسول في القرن الأول في انطاكية

---

١ - **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٤١٥ - ٤٢٢ .**
٢ - **سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص٩٦٢ ، ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٣٨٠ .**
٣ - **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٦٠ .**

وقد تبنت هذه الكنيسة عقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح ، وذلك بعد رفضها لقرارات مجمع خلقدونيه الرابع المنعقد سنة ٤٥١م والذي شرّع عقيدة الطبيعتين للمسيح كعقيدة رسمية للامبراطورية الرومانية .

وقد دعاها منافسوها باليعقوبية نسبة إلى المطران يعقوب البرادعي الذي ثبت مؤسساتها .

وكانت حتى القرن الثالث الهجري أقوى كنيسة في بلاد الشام ، حيث كان يتبعها ١٦٠ أبرشية .

وشهد القرن الخامس والسادس الهجري ، أي في فترتنا الدراسية خراب أبرشيات عامرة مثل أنطاكية والرقة والرها وحران والأبرشيات المحيطة بملطية ،

ويعود ذلك إلى ذوبان كثير من أتباعها في المجتمع العربي الاسلامي الجديد والى الحروب والمجاعات والهجرات والانقسامات والمشاحنات الدينية التي لم تكن تهدأ[١] .

وفي القرن الخامس الهجري ، كان مقرّ هذه الكنيسة في دير الزعفران شمالي سورية ، ثم استقر في دمشق .

وابتداءً من سنة ٥٦٢هـ – ١١٦٦م ، بدأت الانقسامات في هذه الكنيسة واستمرت بعد ذلك قروناً عديدة ، وكان من أهم الكنائس التي انفصلت عنها : الكنيسة النسطورية ، وكنيسة السريان الموارنة ، وكنيسة الروم الأرثوذكسية ، وكنيسة السريان الكلدانية ، وغيرها . وكانت السريانية هي لغة هذه الكنائس جميعاً[٢] .

أما عن عقيدة هذه الكنيسة فان من أهمها :

ـــ الإيمان بمبدأ الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، وأن المسيح الإنسان صار إلهاً بعد اتحاد اللاهوت بالناسوت فهو اله كلّه وإنسان كله .

ـــ والحياة الآخرة هي حياة روحانية فيها لذة وسرور ولكن لا أكل ولا شرب ولا نكاح .

ـــ وهم يختتنون ، ويذكون ذبائحهم ، وأتباعهم منتشرون في سورية والحبشة والسودان وغيرها[٣] .

ب ـــ الكنيسة الملكانية :

وهي المعروفة بالكاثوليكية التابعة لباباوات روما ، وهم يعتقدون بالتثليث قائلين إن كلا من الأب والابن والروح القدس إله .

وهم يقولون إن المسيح قديم أزلي من قديم أزلي وإن مريم ولدت إلها أزلياً ، ويقولون إن الصلب وقع على الناسوت (القسم الإنساني) واللاهوت معاً .

---

[١] ـ سمير عبده : المسيحيون السوريون خلال ألفي عام ، دمشق سنة ٢٠٠٠م ، ص٤٨ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص٢٨١ وما بعد .
[٢] ـ عبده : المصدر المتقدم ، ص٤٩ .
[٣] ـ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص٢٨٢ .

ويؤمنون بأن المعاد والحشر يكونان بالأبدان والأرواح كما يقول المسلمون ، وهم لا يختتنون[1] .

وكان مركز هذه الطائفة في دمشق حيث يقيم البطريرك ، ومركزها العام في روما ، وهي التي قادت الغرب بكامله في الحروب الصليبية ضد المسلمين[2] .

ج ـ كنيسة الشرق الآشورية :

وتعرف أيضا بالنسطورية ، انشقت عن كنيسة السريان في القرن الخامس الميلادي عندما قال نسطوريوس بطريرك القسطنطينية بأن في المسيح طبيعتين ، إحداهما إلهيّة والأخرى بشرية إنسانية .

وإن مريم ولدت المسيح الإنسان الذي حلّت فيه كلمة الله فيما بعد ، و لم تلد إلهاً ، وإن المسيح ليس إلها حقيقة بل انه إله بالموهبة والكرامة ، وإن الصلب وقع على المسيح الإنسان لا على المسيح الإله ، وإن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة : الوجود والعلم والحياة .

وقد بادر بطريرك الإسكندرية وبطريرك روما إلى مخالفة نسطوريوس في آرائه ، وأبطلوا مقالته وصرّحوا بكفره .

وفي سنة ٤٣١م أدان مجمع أفسس نسطوريوس ونفي إلى صعيد مصر حيث توفي واستقر مذهبه في سورية وفلسطين والجزيرة .

وفي بداية القرن السادس عشر انفصلت عن الكنيسة الأشورية النسطورية فرقة تعرف باسم النصارى الكلدان وحوّلت ولاءها إلى كنيسة روما الكاثوليكية ، وبقيت الكنيسة الآشورية الأم على مبدئها[3] .

ويقول الملك المؤيد صاحب حماة إن هؤلاء الآشوريين عند النصارى كالمعتزلة عند المسلمين[4] .

ء ـ الكنيسة الأرمنية :

انتشرت النصرانية في أرمينيا منذ القرن الأول الميلادي ، وظهرت فيها أقدم الكنائس في العالم ، لكنها لم تصبح دين الدولة الرسمي إلا بعد ثلاثة قرون .

وكانت كنيسة الأرمن الأم في مدينة : (ايتشميازين) في بريفان عاصمة أرمينيا حيث قصر الجاثليق وهو أعلى سلطة دينية وروحية لدى الأرمن ، وفي تلك المدينة شيدت الكاتدرائية الأرمنية المشهورة .

---

1 ـ **القلقشندي : المصدر المتقدم ، ج١٣ ، ص٢٨٠ .**
2 ـ **القلقشندي : المصدر المتقدم ، ج٤ ، ص٢٠١ .**
3 ـ **عبده : المصدر المتقدم ، ص٤٣ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص٢٨٣ .**
4 ـ **أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ـ بيروت ـ لا تاريخ ، ج١ ، ص١١٢ .**

والكنيسة الأرمنية تقول بمبدأ الطبيعة الإلهية الواحدة للسيد المسيح وترفض ما اتفق عليه رجال الدين في مجمع خلقدونية ٤٥١م من القول بالطبيعتين .

وفي سنة ٥٠٦م ، تم الانفصال النهائي بين الكنيسة الأرمنية وبين الكنائس الأخرى ، عندما شجبت هذه الكنيسة مجمع خلقدونية ومذهب النسطورية معاً .

وللكنيسة الأرمنية تسع رتب دينية أعلاها الجاثليق أو الكاثوليكوس ، وأدناها الشمعداني .

والكهنة على نوعين : العالم والمعلم ، وهذا يجب أن يكون عزباً . والدردر ، وهذا يجب أن يكون متزوجاً[1] .

وفي سنة ٤٨٨هـ - ١٠٩٥م أي مع بدايات الحروب الصليبية ، انتقل مركز الكنيسة الأرمنية إلى مدينة ساف - لير ، في جبال الأمانوس .

وفي سنة ٥٢٤هـ - ١١٢٧م انتقل إلى مدينة : دوزفيك .

وفي سنة ٥٤١هـ - ١١٤٧م انتقل إلى : قلعة الروم .

وأخيرا استقر في مدينة سيس .

أما ولاء الأرمن ، فكان مع الصليبيين ، مثل الموارنة ، ولقد عرضنا بعضاً من مواقفهم عند سقوط مدينة الرها بيد المسلمين ، وتآمرهم مع قادة الصليبيين لاسترجاع المدينة ، وسنعرض طرفاً من أخبارهم مع بقية طوائف النصارى في الصفحات التالية .

ومركز الكنيسة الأرمنية اليوم في ايتشميازين في أرمينيا ، وتتبعها كنيسة دمشق للأرمن المنشقة عن كنيسة لبنان .

وهناك الكنيسة الأرمنية الأخرى في أنطلياس بلبنان وتدعى :

(بطريركية الأرمن لكيليكية وأنطاكية وسائر المشرق) وتتبعها كنائس الأرمن في القدس وأوربا وأميركا ، والخلاف بين الكنيستين هو خلاف سياسي غير عقائدي بين حزبي الأرمن الكبيرين : الهنشاك الذي يتبع ايتشميازين ، والطاشناق الذي يتبع كنيسة أنطلياس[2] .

---

[1] - مروان المدور : الأرمن عبر التاريخ - بيروت ١٩٨٢ ، ص٢٨٦ .

[2] - مروان المدور : المصدر المتقدم ، ص٢٨٧ ، وتعرف كنيسة أنطلياس بكرسي القيليقيو : Kilikio سمير عبده : المصدرالمتقدم ، ص٥٨ .

هـــ ـــ كنيسة السريان الموارنة :

ينتسب الموارنة إلى القديس مارون الناسك الذي توفي ودفن بالرستن بين حمص وحماة ، وكانت وفاته بين ٤١٠م و ٤٣٣م على اختلاف بين المؤرخين ، وبني على قبره ما يعــرف بدير البللور .

وفي سنة ٦٩٤م قام القديس يوحنا مارون بنقل رفات القديس مارون من الرستن إلى قرية (كفرحي) حيث بنـــى عليـــه هـــيكلا وســـمي ذلـــك الـــدير : ريـــش مـــارو ، أي رأس مارون[١] .

وفي سنة ٥٢٤هـــ – ١١٣٠م قدم الشام أحد رهبان القديس مبارك وظفر في لبنان بهامة القديس مارون ففرح بها كثيراً وأخذها إلى وطنه في ايطاليا ودفنها في مدينة فولينيو وصـــار قبره محجة للناس هناك .

ويقول بعض المؤرخين إن الموارنة ينتسبون إلى القديس يوحنا مارون المذكور المتـــوفى سنة ٨٨هـــ – ٧٠٧م لا إلى القديس مارون الناسك ، ومارون هذا هو أول بطريرك رســـمي للموارنة وهو أصلا سمي مارون لقيامه على قبر مارون الأول[٢] .

أما عن عقيدتهم فهم كاثوليك شرقيون ، وكرسي طائفتهم في إنطاكية ويلقـــب ببطريـــرك انطاكية وسائر المشرق .

وكان الموارنة سادة جبل لبنان في العصر الأموي والعباسي والعصور التاليـــة . وكـــان الخلفاء يدارونهم حتى لا يتحالفوا مع الدولة البيزنطية ضدهم ، ولذلك لم يحاول أمراء دمشق الاستعانة بهم ضد الصليبيين كما فعلوا مع الدروز .

وعندما جاء الصليبيون تركوا الموارنة على حالهم وحاولوا استمالتهم وكان بطريـــركيهم عند قدوم الصليبيين البطريرك يوسف الجرجي .

ولما ملك غودوفري القدس أرسل يوسف إليه وفداً لتهنئته بالملك وأعرب له مـــن خـــلال الوفد أنه تابع للبابا ومتشبث بالايمان الكاثوليكي .

وكان قادة الصليبيين قد شكّلوا وفدا منهم لابلاغ البابا أوربان الثـــاني بمـــا حققـــوه مـــن انتصارات في الشرق بوصفه الراعي الأول والمحرّض الأساسي للحملات الصليبية ، فشارك الموارنة في هذا الوفد ، وأبلغوا البابا الجديد بسكال الثاني عن تمسك الموارنـــة بالكاثوليكيـــة وطاعة البابا فسرّ البابا بذلك سروراً شديدا وأرسل إلى يوسف المذكور تاجا وعكازاً[٣] .

[١] ـ يوسف الدبس : الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصّل ـ بيروت ١٩٩٤م ـ انظر ، ص ٢١ ، وقورش مدينة شمال سورية قرب إعزاز .

[٢] ـ الدبس : المصدر المتقدم ، ص ٦٥ .

[٣] ـ الدبس : تاريخ الموارنة ، ص١٦٢ ، وكان البابا أوربان الثاني قد توفي قبل وصول الوفد إليه ، وخلفه بسكال المذكور .

وانتشر الموارنة خارج جبل لبنان في دمشق وحلب وأنطاكية وغيرها من المدن ، وكانوا يشكلون خطرا شديدا على امارة دمشق لطبيعة العلاقات الحميمة بينهم وبين الصليبيين ، ولذلك فإنه عندما استقرّ الصليبيّون في بلاد الشام ، وقف الموارنة إلى جانبهم ، فتجاهلهم البوريّون ونور الدين ولم يستخدموهم في الأعمال .

أما بطاركتهم في الحقبة الزمنية موضوع الدراسة فهم :

يوسف الجرجي . بطرس الأول . غريغوريوس الثالث . يعقوب الأول . يوحنّا اللحفدي[١] .

وكانت لهم في بلاد الشام أديرة خاصة هي :

دير مارون : أنشأه يوحنا مارون في البترون . دير السيّدة . دير البللور : في الرستن . دير يانوح : في لبنان . دير القديس إلياس . وديرالعذراء في لبنان . ودير القديس أنطونيوس . ودير القديس يوحنا في قبرص . ودير كفتون في لبنان . وكنيسة باسيلوس في جبل لبنان . ودير قنو بين القديم في لبنان .

هذه هي طوائف النصارى التي كانت في فترتنا الدراسية ، وسنختم هذا الفصل بالحديث عن العلاقة بين النصارى المذكورين وبين الغزاة الصليبيين .

ذكر وليم الصوري : ((إن الصليبيين عندما تحركوا من منطقة طرابلس نزل إليهم المسيحيون الذين كانوا يعيشون في جبال لبنان العالية ، وهم الموارنة ، ورحبوا بهم وقدّموا لهم تهانيهم ، وكالوا لهم المديح بحب أخوي ، واستدعى قادة الحملة الصليبية الأولى هؤلاء الناس وتشاوروا معهم حول الطريق الأسلم والأسهل إلى القدس ، ودرس (السوريّون) بدقة وإخلاص صادق ميزات الطرق المختلفة وطولها ، ونصحوهم في النهاية أن يسلكوا الطريق الساحلي ، لأنه الطريق الأكثر استقامة ، ولأن أساطيلهم ستقدم لهم المساعدة .

وعندما اقترب الجيش من بيت لحم ، استنجد به سكانها لمساعدتهم ، فأرسل اليهم الدوق غودفري مائة فارس مسلحين ، فاستقبلهم السكان بحفاوة كبيرة واصطحبهم العامة من الناس ورجال الدين وواكبوهم بالتراتيل والأناشيد الروحية إلى الكنيسة ، ورفعت راية (تانكرد) قائد هذه الحامية فوق الكنيسة إشارة إلى الانتصار وذلك وسط الابتهاج المفعم بالحماسة))[٢] .

وبعد أن أباد الصليبيون سكان القدس من المسلمين واليهود إرضاء للرب ، تقدم مسيحيو القدس من بطرس الناسك وأجلّوه كثيراً ، لأنهم كانوا قد رأوه منذ خمس سنين ، وتقدم إليه

---

[١] ـ الدبس : المصدر المتقدم ، ص ١٦٨ ، ص١٧٤ ـ ١٧٨ .
[٢] ـ سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، ص٣٩٨ ـ ٤٠٣ .

آنذاك بطريرك النصارى بالقدس والرجال القياديون الآخرون من رجال الدين وعامة الناس وأعطوه في ذلك الوقت رسائل أملوا أنها ستثير ملوك الغرب لمصلحتهم ، ولذلك تذكروا بامتنان قدومه الأول والصداقة التي رضي أن يكوّنها معهم وشكروه بعمق على أنه أنجز المهمة بإخلاص[١] .

وهكذا تنافس الناس بشكل فردي وعام في إبداء مظاهر الحفاوة والتكريم لبطرس الناسك ونسبوا إليه تخليصهم من العبودية القاسية .

وعندما التقى الأفضل بن بدر الجمالي بالصليبيين في عسقلان في رمضان ٤٩٢هـ - ١٠٩٩م وهُزم الأفضل هزيمة نكراء على الرغم من ضخامة جيشه ، فقال أحد الشعراء العرب النصارى مخاطباً صنجيل قائد الصليبيين آنذاك :

نصرت بسيفك دين المسيح فللّه درّك من صنجل

وما سمع الناس فيما رووه بأقبح من كسرة الأفضل[٢]

وذكر وليم : ((إنه عندما اجتاح الصليبيون شمال سورية وشرعوا بحصار أنطاكية سنة ٤٩١هـ - ١٠٩٨م وقف فلاحو البلاد من المسيحيين مع بلدوين ، وبادروا إلى تسليمه الأماكن الحصينة وهكذا استولى بلدوين على المنطقة بأسرها في بضعة أيام وكان ما استولى عليه حتى نهر الفرات العظيم .

ولم يكن عامة الناس هم الذين تمسّكوا ببلدوين وحدهم . بل إن الأمراء من المسيحيين في تلك البقاع تحالفوا أيضا وتعاونوا معه بإخلاص في سبيل مشروعه ، وزودّوه بالجند وقدّموا له الطاعة التامة[٣] .

وتسامع أهل مدينة الرها بنبأ وصول قائد مسيحي قوي لتحريرهم بالكامل من نير العبودية ، وأنه يعود بهم إلى الحرية ، ولذلك أرسلوا إليه سفارة تدعوه بإخلاص عظيم شفويا وكتابيا إلى القدوم إليهم ....

وعندما وصل بلدوين إلى الرها ، استقبله حاكم المدينة الصليبي بكثير من الحفاوة والود وخرج رجال الدين وجميع الناس لاستقباله منشدين المزامير[٤] ...)) .

وعندما حرر عماد الدين زنكي الرها سنة ٥٣٩هـ - ١١٤٤م عامل أهلها بالرفق واللين وأعاد إليهم أموالهم ودورهم ولم يتعرض لكنائسهم ومع ذلك فانه عندما قتل سنة ٥٤١هـ - ١١٤٦م عصوا على ولده نور الدين وسلموا البلد لجوسلين[١] .

---

[١] **ـ سهيل زكار : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٤٤٠ .**
[٢] **ـ ابن الطوير : نزهة المقلتين في أخبار الدولتين ، تحقيق أيمن فؤاد السيد ـ شتوتغارت ١٩٩٢م ، والمؤلف عاش بين سنة ٥٢٤هـ ، وسنة ٦١٧هـ ، فهو معاصر للأحداث .**
[٣] **ـ سهيل زكار : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٢٦٤ .**
[٤] **ـ سهيل زكار : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٢٦٦ .**

ومن جهة أخرى ذكر وليم الصوري :

((لاحظ بلدوين ملك القدس قلة السكان في المدينة المقدسة ، وعدم وجـــود عـــدد كـــاف للدفاع عنها ، بعدما قتل جميع سكانها المسلمين .

وفي الوقت نفسه ، تضاءل عدد سكان المدينة من النــصارى الــسرّيان بــسبب المحــن والمصائب ، وهم سكان المدينة بالأصل .

وقد هداه تفكيره إلى أن العديد من المسيحيين كانوا يعيشون في قــرى شــرقي الأردن ، تحت شروط كان يراها قاسية ومذلّة لذلك أرسل إلى هؤلاء المسيحيين ، ووعــدهم بتحقيــق شروط أفضل لهم ، وقدم هؤلاء مع أزواجهم وأولادهم وقطعانهم وجميع ما يملكون ، وجذبتهم روعة المدينة وحبنا لهم وللحرية ... وقدم بعضهم بدون دعوة ، وعاشوا في مدينة الــرب ، ومنح هؤلاء الاقتطاعات المدنية التي بدت بحاجة ماسة لهذه المعونة ، وامتلأت المنازل بهم ، وكان ذلك في حدود ٥٠٥هـــ – ١١١١م))[٢] .

والخلاصة فان قسما كبيرا من النصارى في بلاد الشام وقفوا بشكل أو آخر مع الفرنجة ، ووقف بعضهم مثل السريان ، على الحياد في حين أعلن الموارنة بوضوح تام وصراحة كاملة أنهم تابعون للبابا أوربان الثاني رأس الحربة في الحروب الصليبيّة ومــسعر نارهــا علــى المسلمين .

وعلى الرغم من ذلك كله ، نجد أن حكام المسلمين كانوا يقربون النصارى واليهود مــن أهل البلد إليهم ولم يحاولوا الانتقام منهم بسبب ارتمائهم فــي أحــضان الفرنجــة وشــماتتهم بالمسلمين .

فقد كان أبو الحسن بن أبي سلامة النصراني ، كاتبا لتاج الملوك بوري بن نجم الــدين ، أخي صلاح الدين المتوفى سنة ٥٧٩هـــ – ١١٨٣م .

وكان شاعرا فمدح بوري بقصائد كان منها القصيدة التي مطلعها :

تـــاج الملـــوك أدام الله نعمتـــه أسخى البريّة من عجم ومن عــرب[٣]

وهكذا أظهر المسلمون سماحتهم وحلمهم تجاه الآخرين وهو ما عرفوا به طوال تاريخهم ، ولكن هل كان الآخرون كذلك ؟ .

---

١ ـ **سهيل زكار : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٧٣٨ و ٧٥٣ ، ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص١٣٣ ـ ١٤٥ .**
٢ ـ **سهيل زكار : المصدر المتقدم ، ج١ ، ٥٦٠ .**
٣ ـ **الأصفهاني : خريدة القصر ، طبعة ١٩٥٥ قسم الشام ، ص٣٩٣ .**

الفصـــــل الخامس

طبيعـــة المجتمع الدمشـــــــقي

أولاً – فئـــة الحُـــكام

١ــ فئة السلاطين ورجال الحكم :

تضم هذه الفئة كلا من السلاطين وأتباعهم من القادة العسكريين و الأمراء ومن دونهم من العسكر ، كما تضم الإداريين والقضاة ، وأهل القلم والبيان .

فقد حكم دمشق في المرحلة التاريخية المدروسة عشرة سلاطين ، انتهت حياة سبعة منهم بالقتل المباشر أو بالسم ، وعُزل الثامن ، ومات اثنان موتاً طبيعياً ، وهما الأتابك ظهير الدين طغتكين والسلطان نور الدين محمود الشهيد .

وعلى ذلك فإنه يصعب تحديد سمات نظام الحكم وطبيعته ؛ فهو ليس ملكيا وراثيا بمعنى الكلمة ، كما أنه لم يكن (جمهورياً) انتخابياً ، وإنما كان يجمع بين الأمرين ، وهو في ذلـــك يشبه نظام الحكم المملوكي إلى حدّ كبير .

وكان هذا النظام ، إن صحت التسمية يتصف بما يلي :

ــ إن السلاطين وأعوانهم من الأمراء العسكريين جميعاً ، كانوا من غير العرب ، مـــن التركمان والترك والأرمن والأكراد ، وكان الأمير أسامة بن منقذ القائد العسكري الوحيد بين هؤلاء الحكام ممن كان من العرب .

ــ وبالتالي كانت لغة الغالبية منهم غير عربيّة ، فقد كانوا – شأنهم شأن معظم الأقليـــات الإسلامية وغير الإسلامية في القديم والحديث في بلاد الشام – يتحدثون فيما بيـــنهم بلغـــتهم الخاصة ، ورأينا كيف أن شمس الملوك إسماعيل بن بوري عندما باشرت أمه زمرّد خـــاتون بقتله صاح وهو تحت السيوف : زنهار ، زنهار ، أي الرحمة ، الرحمة .

ــ وكان هؤلاء الحكام وأمراؤهم يعيشون حياتهم الخاصة ، بعيداً عن حياة العامة أو أهل البلد ، وذلك على الرغم من أنهم جميعاً عرباً وعجماً كانوا يختلطون فيما بينهم ، ولكن فـــي حدود العمل والإدارة وليس في الحياة الاجتماعية الخاصة ، وهذا المبدأ استمرّ فـــي عـــصر المماليك والعثمانيين أيضاً .

ــ وبناءً على ما سبق فقد كانوا يتزوجون فيما بينهم على الأغلب ولم تذكر المصادر مثلاً ، اقتران السلطان بامرأة من دمشق من أهل البلد ، أو أن إحدى الأميرات الحاكمات اقترنـــت بواحد من أعيان البلد .

فالسلطان تتش (تنازل) عن مطلقته لنائبه ومساعده طغتكين الذي احتفظ بها زوجة لـــه طوال حياتها وحتى وفاتها سنة ٥١٣هـــ – ١١١٩م دون أن يطلقها ، وكان ذلك إكراما مـــن تتش لطغتكين ووفاء من الأخير لسيّده .

ومعين الدين أنر ، كانت له ثلاث بنات : زوّج الكبرى منهن ، وهي عصمة الدين ، إلى نور الدين . وزوّج الوسطى لمجير الدين أبق السلطان . وزوّج الصغرى لأحد كبار قادته ، وسبقت الإشارة إلى ذلك .

ـ وكان هؤلاء الحكام يحاولون التقرب من الناس ، ولاسيما العلماء والعامة والأحداث عن طريق إسقاط المكوس والضرائب والرسوم الجائرة ، حتى إن نور الدين قبيل وفاته بأشهر أسقط جميع الرسوم والضرائب والغرامات ، ولم يُبْقِ إلا على الرسوم الشرعية من المسلمين وأهل الذمة .

ـ وكان هؤلاء الحكام يعيشون في قلعة دمشق التي بنوها ، خوفا من غدر الباطنية ، واستمر الحال كذلك حتى بناء (دار السعادة) في عصر المماليك ، وفي هذه القلعة مات نور الدين ودُفن قبل نقل جثمانه إلى مدرسته .

ـ وكان جميع هؤلاء الحكام بدون استثناء تابعين للخليفة العباسي في بغداد ، ولم يحاول أي منهم الانفصال عن الخلافة ، وعلى الرغم من أن هذه التبعية والولاء كان اسمياً ، فإنه يحمل في طياته معاني كبيرة جداً .

من أهمها شعور المسلمين بالوحدة الإسلامية ، ودفاعهم عن هذه الوحدة ، وذلك على الرغم مما كانوا يرونه ويسمعونه عن سيطرة السلاجقة على مقدرات الخلافة .

والسبب في ذلك أنهم كانوا يرون أنفسهم بعيدين عن العرب ، وهم يعرفون تماما أن طاعة الخليفة العباسي هي من طاعة الرسول العربي الكريم ، ولذلك فإنهم بإعلانهم الخضوع للخلافة يخففون من قسوة عجمتهم أمام السكان العرب ، ويتقربون منهم بهذه الطريقة .

وهذا الشعور بالوحدة الإسلامية والالتفاف حول الخلافة العباسية ، استمر حتى بعد سقوط بغداد عندما استقر الخليفة العباسي في القاهرة .

ولذلك كانت الخطبة والسكة في دمشق للخليفة العباسي أولا ، ثم لسلطان السلاجقة ، وأخيرا لسلطان دمشق .

ـ من جهة أخرى ، وتطبيقا لما سلف ، كان حكام دمشق منذ عهد ظهير الدين طغتكين يشعرون بالحرج أمام الناس وأمام الخليفة ، بل وأمام منافسيهم ، لأنهم لم يحصلوا على رضا الخليفة وموافقته على انفرادهم بالحكم في دمشق .

وبيان ذلك أنه عندما رأى الأتابك طغتكين أن عددا من الأمراء المنافسين له يسعون عند الخليفة والسلطان غياث الدين لعزله عن دمشق لعدم شرعية حكمه بعد انقطاع ذرية السلاطين السلاجقة بدمشق بوفاة تتش الحفيد ، بادر إلى السفر إلى بغداد ، وكانت أخبار انتصاراته قد سبقته ، لذلك استقبل بالحفاوة وأصدر السلطان غياث الدين (منشوراً) طويلاً ، كان بمثابة

الدستور الذي يجب أن يسير عليه ، وكان ذلك في المحرم سنة ٥١٠هـ – ١١١٦م ، وممّا جاء في هذا المنشور :

((أمرناه بحفظ الثغور وشحنها بالرجال ، وأمرناه أن يفي بوعوده وعهوده ، وأمرناه بالإحسان إلى رعاياه وإقامة العدل بينهم ....)) .

وختم المنشور بالقول :

((فليُعلن شعار الدولة في الخطبة والسكة ، وليتمسّك بولاء الدولة العباسية ، التي هي سنة متّبعة[١] ....)) .

وعاد طغتكين إلى دمشق وقد هابه الجميع وصارت سلطته شرعية ، وبقيت كذلك نحواً من أربعين عاماً ، عندما خُلع آخر أحفاده : مجير الدين أبق سنة ٥٤٩هـ – ١١٥٤م .

وعندما جاء نور الدين ، لم ير داعياً للمثول بين يدي السلطان أو الخليفة ، لأنه ورث الشرعية في الحكم عن والده عماد الدين زنكي ، الذي حصل عليها من الخليفة العباسي ، ومع ذلك فإنه كان يرسل إلى الخليفة بالهدايا و بأخبار انتصاراته ويصف نفسه بأنه تابع للخليفة والسلطان[٢] .

وكانت العادة في تلك العصور أن يضفي الحكام على أنفسهم ألقاباً طنانة ، كانوا يعتقدون أنها تزيد في هيبتهم أمام الناس ، وكان المباشرون لديوان الرسائل ، يتبارون في اختراع ألقاب جديدة للحكام للحصول على رضاهم وذلك لإضفاء ألقاب عربية على أسمائهم الأعجمية الغريبة .

فالأتابك طغتكين كان لقبه :

((الأمير الإسفهسلار الأجل ظهير الدين أتابك))[٣] .

بينما نجد حفيده أبق يُذكر على أنه :

((الأمير الإسفهسلار الكبير ، العادل المؤيد ، المظفر المنصور ، ظهير الدين ، عضد الإسلام ، ناصر الإمام ، تاج الدولة ، سيف الملّة ، محي الأمة ، شرف الملوك ، عماد الأمراء ، كهف المجاهدين ، زعيم جيوش المسلمين أبو سعيد آبق بن محمد بن بوري))[٤] .

وكان كل سلطان يُعدل في هذه الألقاب بحسب ما يرى ، ولذلك فإنه عندما استقر نور الدين في حكم دمشق ، طلب من وزيره خالد القيسراني أن يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر ، بقصد صيانة الخطيب عن الكذب ، فكتب له الصيغة التالية :

---

١ - **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٣١٣ .**
٢ - **آخر رسائله صدرت قبل شهور من وفاته . انظر خاتمة الفصل الأول .**
٣ - **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٣٠٨ .**
٤ - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٤٣ .**

((اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ، ناصر أمير المؤمنين)) .

فوافق نور الدين على ذلك وأمر بإذاعته وقال :

((قلة عقل أن يفرح الإنسان إذا ذكر بما ليس فيه[1] ...)) .

ومن خلال تتبعنا لسيرة السلاطين الذين حكموا في دمشق في مرحلة الدراسة ، لم نجد بينهم من كان جباراً أو مستكبراً أو طاغية بل ، كان منهم من ألحقه بعض المؤرخين بعمر بن عبد العزيز ، وهو السلطان نور الدين محمود بن زنكي .

وقد دُوّنت المؤلفات الكثيرة عنه من الأصدقاء والأعداء على حدّ سواء ، بما يغنينا عن الإطناب في سيرته هنا ، ولذلك سننقل شذرات من عدله كما ذكرها المؤرخون .

قال ابن العديم :

((حدثني والدي أحمد بن هبة الله (٦١٣هـ – ١٢١٦م) أنه مات في حلب أيام نور الدين تاجر موسر وخلّف ولداً صغيراً ومالاً وفيراً ، فكتب بعضهم إلى نور الدين يقترح عليه مصادرة المال وضمه إلى الخزينة ، فكان جواب نور الدين على الرقّعة نفسها : أما الميّت : فرحمه الله . وأما الولد : فأنشأه الله . وأما المال : فثمرة الله . وأما الساعي فلعنه الله))[2] .

وكان كمشتكين قد ولاّه نور الدين " شحنة الموصل " وطلب منه ألا يعمل شيئاً إلا بأمر الشرع وممثله في الموصل الشيخ : عمر الملاّء .

فبطلت الشحنكية وكثر الدعّار وأرباب الفساد ، لتوقف رجال " الشحنة " عن ضرب المجرمين أو صلبهم ، واشتكى الناس إلى القاضي عمر الملاّء فكتب إلى نور الدين يقول :

((إن الدعّار والمفسدين وقطّاع الطريق قد كثروا ، ونحتاج إلى نوع سياسة ، وذلك لا يتأتى إلا بالقتل والصلب والضرب ، وإلا فإنه إذا أخذ مال إنسان في البرية من يشهد له ؟)) .

فكتب نور الدين على ظهر الكتاب :

((إن الله خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم ، وهي تحصل لهم بالشرع ، فما لنا حاجة إلى زيادة ما شرعه الله تعالى ...)) .

فجمع الشيخ عمر أهل الموصل وقال لهم بعد أن قرأ الكتاب :

[1] ـ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص٦٩ ، ومعنى الإسفهسلار " قائد الجيش " .
[2] ـ أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٥٨ .

((انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك وانظروا في كتاب الملك إلى الزاهد[1])) .

وممّا نذكره ، شهادة الأعداء .

قال أبو شامة :

وبلغنا عن جماعة من الصوفية ممّن دخلوا ديار القدس للزيارة ، حكاية عن الفرنجة أنهم كانوا يقولون :

((ابن القسيم – يعني نور الدين – له مع الله سرٌّ ، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره ، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، فإنه يصلي بالليل ، ويدعو الله ، والله سبحانه وتعالى يستجيب ، فيظفر علينا))[2] .

وقال العماد الأصفهاني :

((إنه في سنة ٥٦٩هـ – ١١٧٣م أسقط نور الدين كل المكوس والضرائب والرسوم ، وعزل رجال الشحنة وعيّن القاضي كمال الدين الشهرزوري في منصب الشحنة وطلب منه العمل بموجب أحكام الشريعة))[3] .

وفي ختام حديثنا عن السّلاطين بدمشق ، لابدّ من التنويه إلى أمر يغيب عادة عن المؤرخين ، ولاسيما المستشرقين منهم ، طوال العهود الإسلامية .

فهؤلاء يقارنون الأمراء المسلمين ، بأمثالهم من الفرنجة أو البيزنطيين ، على أساس أن الجميع ملوك وأن جميع الملوك يتمتعون بسلطات مُطلقة لا يحدّها حدّ ، ولذلك نجد ملوك الفرنجة يرتكبون المجازر الجماعية طوال الحروب الصليبية ، بينما لم يتحدث أحد عن مجازر مماثلة في الطرف الإسلامي .

والسبب في ذلك ، أن سلطات ملوك الفرنجة وحدهم هي سلطات مطلقة وهم يعتقدون أنها حق إلهي مقدّس ، ولذلك كانوا يصدرون أحكاماً ويقومون بأعمال تتعارض تماماً مع ما هو مشهور ومتواتر عن السيد المسيح من الدعوة إلى الحب والسلام والتواضع والحديث عن المجد لله في الأعالي ، وفي الناس المسرّة ، وكل ذلك الذي كان يُتلى دائماً في الكنائس والمواعظ ، فإذا ما قارنا ما يقال بما يحدث فعلاً على الأرض من المجازر المروّعة أدركنا تماماً أن الدّين كان مغيباً تماماً عن ملوك الفرنجة ، ولا يزال ، وأن ملوكهم ، أو أكثرهم ، كانوا بعيدين تماماً عن روح الدين المسيحي ونصوصه وأنهم كانوا في واقع الأمر ، يدينون بدين جديد ، لم يأت به أحد من الأنبياء فيما نعلم ، وهو إبادة المسلمين تقرّباً إلى الله ؟؟ .

---

[1] ـ **أبو شامة : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٥٩ .**

[2] ـ **أبو شامة : المصدر المتقدم ج١ ، ص٦٣ .**

[3] ـ **الأصفهاني : سنا البرق الشامي ، ص١٤٦ .**

وفي الجانب الآخر ، كان أمراء المسلمين وملوكهم ، سواء في أتابكية دمشق أو غيرها مقيدين بنصوص شرعية دقيقة لا يستطيعون ولو أرادوا أن يتجاوزها ، وبالتالي كان أحدهم أقرب إلى شيخ القبيلة منه إلى الملك ذي السلطات الإلهية كما كان الحال عند ملوك الفرنجة وحكامهم . لقد كانت الأحكام الشرعية الإسلامية تقيد حرّية السلاطين المسلمين إلى حد كبير ولا تعترف بحقهم الإلهي ، ويبدو أن عدداً من ملوك المسلمين يحلمون أو يحاولون أن يكونوا على شاكلة ملوك الفرنجة ، وقد سبق لنا أن بينّا كيف أن نور الدين لم يسمح باستعمال الضرب والتعذيب لإجبار المفسدين في الأرض من اللصوص وقطاع الطرق على الاعتراف عن جرائمهم ، التزاماً منه بنصوص الشرع الحنيف ، وهو مالا نكاد نرى نظيراً له هذه الأيام في العالم كله .

٢- فئة الأمراء التركمان والأكراد :

كان هؤلاء الساعد الأيمن للسلاطين ، فهم جميعاً من أصل واحد ، ويتكلمون لغة واحدة ، ويعيشون عيشة السلاطين أنفسهم ، وهم يشكلون مع السلاطين القوّة العسكرية الحاكمة في البلاد .

وكانت أسماؤهم كالسلاطين أعجميّة بحتة يغلفونها بغلاف عربي مثل : أمين الدولة ، ومجاهد الدين وأسد الدين ونجم الدين وصلاح الدين .

ومن أشهر هؤلاء الذين عاشوا في المرحلة التي ندرسها نذكر : الأمير آق سنقر وأكز وألتونتاش وإيلدكز وأُنر وبوزان أو بزّان وتمرتاش وساوتكين وسرخاك وسكمان وسنجر وسونج وشيركوه وطرخان وطغان وفروّخ وفيروز ومنكوبرس وجاروخ وكمشتكين وغيرهم .

ومن أشهر هؤلاء الأمراء القادة ثلاثة هم :

طغتكين ظهير الدين الذي كان أول من لقب بلقب الأتابك والذي كان الساعد الأيمن للسلطان السلجوقي تتش .

والإسفهسلار معين الدين أُنر الذي منحه السلطان شهاب الدين محمود صلاحيات واسعة وأطلق يده في العمل .

والأمير أسد الدين شيركوه ، الساعد الأيمن للسلطان نور الدين الشهيد .

وقد ذكر ابن شداد عن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي أنه أرسله إلى عمّه أسد الدين شيركوه ، وكان في دمشق ، وكان نور الدين لا يفعل شيئاً إلا بمشورته ، فاستشاره في

موضوع إسقاط جميع المكوس والضرائب غير المشروعة ، فعارضه أسد الدين في ذلك ، ثم أمضى نور الدين ما كان عزم عليه[1] .

وكان هؤلاء يقومون بالأعمال ذات الطابع العسكري سواء في الداخل أو الخارج .

فمنهم من كان يعين بمنصب الإسفهسلار ، وهو لفظ يعني قائد الجيش ، فقد ذكر القلانسي أنه ((في يوم الأحد ١٧ شعبان سنة ٥٣٢هـ – ١١٣٧م خلع شهاب الدين محمود بن بوري على الأمير معين الدين أُنر ، وقرر له أمر الإسفهسلارية ، وخُوطب بالأتابكية))[2] .

ومنهم من يُعين في " الشحنكية " وهي وظيفة قائد الشرطة العام ، وذكر القلانسي أنه سنة ٥١١هـ – ١١١٧م تُوفي السلاّر شحنة دمشق ، ونائب ظهير الدين ، وأقيم ولده : السَّلار عمر مكانه[3] .

وكان أول عمل مارسه صلاح الدين الأيوبي في دمشق هو منصب شحنة دمشق ، وذلك سنة ٥٥٠هـ – ١١٥٥م ، وقال فيه الشاعر عرقلة الكلبي :

لصوص الشام توبوا من ذنوب تكفّرها العقوبة والصفادُ

لئن كان الفساد لكم صلاحاً فمولاي " الصلاح " لكم فسادُ

وقال أيضاً :

رويدكم يا لصوص الشآم فإني لكم ناصح في مقالي

وإياكم وسمّي النبيّ يوسف ربّ الحجا والجمال

فذاك مقطع أيدي النساءِ وهذا مقطعُ أيدي الرجال[4]

ولم تكن العلاقة آمنة دوماً بين السلطان وأمرائه ، فبعضهم كمن ذكرنا كان الساعد الأيمن للسلطان طوال حياته وحياة السلطان ، ولكن بالمقابل كنا نرى عدداً من هؤلاء الأمراء يهربون من السلطان إلى أماكن بعيدة ، كما فعل يوسف بن فيروز بشمس الملوك إسماعيل ، عندما هرب منه إلى تدمر ، وكما فعل الأمير معين الدين أنر ، عندما هجر دمشق ، مركز الحكم ، ليعيش معتزلا مع أملاكه في حمص ، وكما فعل الأمير الكبير مجاهد الدين بزّان الذي كان يؤثر العيش في صرخد عن العيش بقرب السلطان مجير الدين أبق .

---

[1] ـ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص٤٢ ، وأبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٦٧ .
[2] ـ القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٤١٥ .
[3] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣١٦ .
[4] ـ عرقلة الكلبي : الديوان ، ص٣٥ و ٨٧ ـ أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٣١٩ .

وكان الأمراء شأنهم شأن السلاطين يعيشون وسط أتباعهم في جوٍّ خاص بهم ، لا يختلطون بأهل البلد ، الذين كانوا يسمونهم بالعوام ، وهم وإن كانوا يخفون ذلك أحيانا ، ويعلنونه أحيانا فإن تصرّفاتهم توحي بما في نفوسهم .

من ذلك أنه عندما أمر نور الدين الشهيد ، رحمه الله تعالى ، بإقامة "دار العدل" بسبب تصرفات أسد الدين شيركوه وأتباعه ، قال لهم أسد الدين :

((خروج أملاكي من يدي أسهل من أن يراني نور الدين بعين ظالم ، أو يساوي بيني وبين آحاد الناس في الحكومة ...)) .

وهكذا نرى أن هؤلاء الأمراء لم يكونوا يرون أنفسهم من آحاد الناس ، بل من طائفة أخرى ، وبلغ بأسد الدين الأمر ، أنه فضّل أن يفقد أملاكه كلها على أن يقف أمام القاضي مع واحد من عامة الناس .

وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري قد علم بتعديات أسد الدين ورجاله على أهالي المدن والقرى ، فانتصف منهم جميعا ، لكنه لم يتجرأ على أسد الدين الأمر الذي دعا نور الدين إلى إنشاء دار العدل ، والغريب أن أحداً لم يشتك عليه فيها فقال نور الدين :

((الحمد اله الذي ألهم أصحابنا أن ينصفوا أنفسهم قبل حضورهم عندنا))[1] .

وكان هؤلاء الأمراء يعيشون من غلّة الإقطاعات التي يقدمها لهم السلاطين ، بالإضافة إلى الغنائم التي كانت من أهم المصادر لهم .

وكان " ديوان الإشراف " بالكسر ، هو الذي يتولى إعداد " الدستور" الذي كانت تكتب فيه أسماء الجنود ومرتباتهم وأسلحتهم وما إلى ذلك .

وكان العماد الأصفهاني قد تولى هذا الديوان في عهد نور الدين ، فقال :

((كان من عادة نور الدين أنه إذا قطع أميراً إقطاعاً وعيّن له ضياعاً ، قرَّر عليه عدداً من الرجال في خيل وسلاح وعدد ، فإذا نقص إيراد الإقطاع ، يدفع نور الدين للأمير الفرق من خزانته حتى لا ينقص عدد المقاتلين[2])) .

وكان إذا توفي الأمير ، نقل إقطاعه إلى ولده ، إن كان له ولد ، ولذلك كان الأجناد يقولون :

هذه أملاكنا ، يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عنها ، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في الحروب .

وكان يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه ، ومعهم كمية السلاح ونوعه وحالته ، خوفا من أن يتلاعب بعض الأمراء بحصته من الرجال والعتاد ، وكان يقول :

---

[1] ـ أبو شامة : عيون الروضتين ، ج١ ، ص٣٦٥ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٧٤ .
[2] ـ العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ، ص١٢٢ .

((نحن في نفير في كل وقت ، فإذا لم يكن أجناد الأمراء كاملي العدد والعُـدد ، دخـل الوهن على الإسلام[1])) .

٣- السلطات المحلية :

كانت فئة الحكام تعتمد على جناحين رئيسيين :

- أمراء العسكر وهم من التركمان والأكراد .
- والكتبة والاداريين من أصحاب القلم الذين يمارسون أعمالا كثيرة ذات طبيعة مدنيـة بحتة مثل : منصب الرئيس والوزير ، منصب الإشراف على الدواوين ، منصب أمين الخزانة ، ومنصب القضاء ، وهو أهم هذه المناصب ، ومنصب مستوفي ديوان المعاملات وغير ذلك .

ففي سنة ٤٩٧هـ - ١١٠٤م ولّى الأتابك ظهير الدين كلاً من : سيف بن أبـي محمـد الصوفي ، وأخيه المفرّج ، في منصب " رئيس دمشق " وجعلهما مسؤولين عن هذه الوظيفـة معاً ، وهذا المنصب يعادل منصب المحافظ[2] .

وفي سنة ٥٢٤هـ - ١١٣٠م قام تاج الملوك بوري بتعيين المفرج بن حسين الـصوفي رئيس دمشق في منصب الوزارة .

ويمكن معرفة طبيعة هذا العمل مما ذكره القلانسي عن المفرج هذا فقد قال : ((إنه عالم بسياسة المتعاملين في المعاملات والحسابات[3])) .

وفي سنة ٥٣٣هـ - ١١٣٩م عيّن : النفيس عقيل بن حيدره في وظيفة مستوفي ديـوان المعاملات[4] .

وفي أواخر ذي القعدة سنة ٥٤٨هـ - ١١٥٥م استدعي الرئيس رضي الدين إلى القلعـة المحروسة ، وألبس الخلع الفاخرة وكتب له المنشور بالإقطاع والتقليد ، وكان لقبه : الـرئيس الأجل ، رضي الدين ، وجيه الدولة ، سديد الملك ، فخر الكفـاة ، عـز المعـالي ، شـرف الرؤساء[5] .

وفي التاريخ المذكور عُين الرئيس عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علـي التميمـي فـي منصب الرئيس ، فطاف بالبلد مع أتباعه ، فسكن أهل البلد والدهماء[6] .

---

[1] - **أبو شامة : عيون الروضتين ، ج١ ، ص٣٦٧ - ٣٦٨ .**
[2] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٣٤ .**
[3] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٦٠ .**
[4] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٢١ .**
[5] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٠٢ .**
[6] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٠١ .**

وقد أورد ابن قاضي شهبه صورة لحكومة دمشق أيام نور الدين ، وكانت الحكومة قد اجتمعت في القلعة في صفر ٥٥٤هـ - ١١٥٩م برئاسة نور الدين ، للبحث في أوقاف الجامع الأموي والبيمارستان النوري .

وقد ضمت هذه الحكومة " المدنية " كلاً من :

- القاضي الحسن القرشي بن محمد .
- والشيخ : شرف الدين بن أبي عصرون .
- والخطيب : أبي البركات بن عبد .
- والإمام : علي بن الحسن .
- وعبد الوهاب بن عيسى المالكي .
- ونجم الدين بن عبد الوهاب الحنبلي .
- ورئيس دمشق : أبي غالب بن عبد المنعم التميمي .
- وأبي الكرم بن المحسن : متولي الوزارة بدمشق[١] .

- وكما كان الحال مع الأمراء ، وكما هو الحال مع كل الحكام في جميع العصور ، لم يكن هؤلاء الرؤساء والوزراء والكتاب والقضاة بمنأئ عن انتقام السلطان ، بسبب أو بدون سبب ، ومع ذلك فقد كانو يترامون على هذه الوظائف .

- ففي سنة ٥٤٨هـ - ١١٥٣م ، وفي ذي القعدة قتل وزير دمشق حيدرة الصوفي وأخوه مؤيد الدين المسيب ، وطيف برأس حيدرة في دمشق فلعنه الناس وصفعوه وتحدثوا عن ظلمه ومقاسمته اللصوص أموالهم ، واتفاقه مع قطاع الطرق على أموال الناس المستباحة ، وكثر السرور بموته وصودرت أمواله ، وبولغ في خراب دياره[٢] .

وفي العام نفسه ، اعتقل عطاء الخام ، الوزير السابق في دمشق بتهمة " التقصير " في قضاء حوائج الناس ، ثم أمر مجير لدين أبق بمصادرته ، ونهب الغوغاء داره ودور أصحابه ، ثم ضرب عنقه[٣] .

وفي سنة ٥٥١هـ - ١١٥٦م كان أبو سالم بن همام الحلبي قد ولّي مشارفة الديوان بدمشق عن الملك العادل نور الدين ، فظهرت منه خيانات وتفريطات ، فاعتقل وحوسب ، وحُلقت لحيته وأركب حماراً بالمقلوب وطافوا به في أسواق دمشق[٤] .

---

[١] - ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص٤٩ .
[٢] - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٠١ .
[٣] - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٠٢ .
[٤] - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥١٦ .

٤- القُضَـــاة :

كان القضاة يعينون من لدن الحكام . وقد يعزلهم الحكام وقد يسجنونهم أيضاً ، ومع ذلـك فقد كانوا بمثابة السدّ المنيع أمام طغيان الحكام فـي العـصر الـذي ندرسـه وفـي جميـع العصور .

لقد كان القاضي يشكل دائما عامل أمان تجاه جبروت الحكام ، وقد عرضنا نماذج واقعية من موقف القضاة تجاه الحكام ، ولاسيما موقف القاضي كمال الدين الشهرزوري من الملـك العادل نور الدين الشهيد . وعليه فإنه يمكن الافتراض أن القضاء كان نزيهاً ومنفـصلاً عـن سلطة الحكام وأهوائهم ، وقد كان لبناء دار العدل في دمشق ، والتي كانت بمثابـة المحكمـة الدستورية العليا آثار جيدة على المجتمع الدمشقي ، كما سنرى .

وكانت صلاحيات القضاة واسعة فهي تشمل الفصل في الخـصومات وتعيـين القـضاة المساعدين في دمشق وما يتبعها ، كما تشمل تعيين إمام الجامع الأموي والخطيب ، بالإضافة إلى تعيين النظار على أوقاف دمشق والإشراف عليهم .

وكان موقف الحكام من القضاة مرهونا بموقف الأوّلين من الدين ، وكانوا يتورعون عن عزل القضاة لأسباب شخصية ويرون أن وجود قاضٍ يقف في وجههم يعدّ أفضل دعاية لهـم أمام الناس .

وكان القضاة يعينون من الشافعية والأحناف ، وفي العصر الأيوبي وعصر المماليك كان القضاة من الشافعية حصراً ، وكان قاضي القضاة الشافعي في القاهرة ينافس السلطان نفسه ، ولذلك عمد الملك الظاهر بيبرس إلى إيجاد مناصب لقضاة المذاهب الأخرى للحد من سـلطة قاضي القضاة الشافعي ، فصار هناك أربعة قضاة بدل الواحد .

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه ، عُويمر بن قيس أوّل قضاة دمشق في الإسلام ، وقـد حكم أيام خلافة عثمان رضي الله عنه ، واستمر حتى وفاته في عهد معاوية ، ودفن في مقابر الباب الصغير بدمشق .

وفي العصر الفاطمي كان القضاة يُعينون من القاهرة ، وكان آخر قـضاة هـذا العـصر بدمشق : الشريف أحمد بن علي النصيبي الذي توفي سنة ٤٦٨هـ - ١٠٧٥م ، وهو القاضي الواحد والسبعون لدمشق .

وقد خلفه القاضي عبد الجليل الروزي الذي توفي معزولا ، وهو أول قاضي عـام فـي دمشق في عصر السلاجقة .

ثم خلفه علي بن محمد الغزنوي الذي ولاّه تاج الملوك تُتُش سنة ٤٧٣هـ – ١٠٨٠م وبعد ثلاث سنوات ضُرب وحُبس وعُذب ثم عزل ومات وهو كذلك[١] .

وتولى بعده الحسين بن الحسن الشافعي ، وقد استشهد في إنطاكية أثناء محاصرة الصليّبيين لها سنة ٤٩١هـ – ١٠٩٨م .

ثم خلفه أشهر قضاة دمشق في مرحلتنا الدراسية وأبعدهم أثراً وهو : محمد بن موسى التركي البلاساغوني الحنفي ، قاضي القدس .

وكما قلنا فقد ثار الشافعية بدمشق عليه لأنه عيّن إماماً حنفياً في الجامع الأموي ونقل عنه قوله :

((لو كان لي أمر لأخذت من الشافعية الجزية[٢])) .

وتولى بعده محمد بن نصر الهروي الذي قتل سنة ٥١٩هـ – ١١٢٥م ، وخلفه يحيى بن علي القرشي ، وهو جد ابن عساكر لأمه .

ثم خلفه ابنه سلطان سنة ٥٢٩هـ – ١١٣٥م ومات في العام نفسه[٣] .

ثم خلفه محمد بن يحيى القرشي سنة ٥٣٧هـ – ١١٤٢م .

وخلفه القاضي زكي الدين علي بن محمد القرشي الذي أقام في القضاء حتى استعفائه سنة ٥٥٥هـ – ١١٦٠م ، وتوفي في شوال سنة ٥٦٤هـ – ١١٦٩م في بغداد .

وخلفه القاضي كمال الدين الشهرزوري ، الذي حكم في أيام نور الدين ، وكانت وفاته سنة ٥٧٢هـ في المحرم – ١١٧٦م .

ثم خلفه القاضي شرف الدين ابن أبي عصرون ، الذي تنسب إليه المدرسة العصرونية شرقي القلعة والتي عرفت المنطقة كلها بها[٤] .

ومن مفاخر السلطان نور الدين الشهيد بدمشق إقامة " **دار العدل**" .

فقد ذكر ابن الأثير أن نور الدين أول من بنى داراً للكشف وسماها " دار العدل " .

وكان سبب بنائها أن أسد الدين شيركوه ، الساعد الأيمن له ، صار وكأنه شريك له في الملك ، واقتنى الأملاك الواسعة ، وتعدّى رجاله على أهل القرى ، فكثرت الشكاوى إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري ، فاشتكى هذا إلى نور الدين ، فأمر ببناء دار العدل .

فلما سمع أسد الدين بذلك عرف أنه هو المقصود ببناء هذه الدار ، فأحضر نوابه وقال لهم :

---

١ ـ محمد بن طولون : الثغر البسام في معرفة قضاة الشام ـ تحقيق صلاح الدين المنجد ـ دمشق ١٩٥٦م ، انظر ، ص ٤٠ ، ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٤٣ ، ص٢٢٦ .

٢ ـ ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ص٥٦-٧٥ ، ابن طولون : المصدر المتقدم ، ص٤٣ .

٣ ـ ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٥٦ ، ص١٠٧ .

٤ ـ ابن طولون : المصدر المتقدم ، ص٤٩ ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٤٢ .

((اعلموا أنّ نور الدين ما بنى هذه الدار إلا بسببي ، و إلا فمن هو الذي يمتنع عن القاضي كمال الدين . والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحد منكم لأصلبنه ، فأرضوا خصومكم بأي طريقة ولو بمالي كله ، فذلك أسهل من أن يراني نور الدين بعين ظالم أو يساوي بيني وبين آحاد الناس)) .

فلما فرغت دار العدل جلس فيها نور الدين لفصل الخصومات ، وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء ، ومضت مدّة ولم يحضر من يشتكي من أسد الدين[1] .

وهذه صورة لعدل نور الدين ننقلها من أبي شامة ، حيث يقول :

((كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العدل للنظر في أمور الرعيّة وكشف الظلم ، لا يطلب في ذلك درهماً ولا ديناراً إلى خزانته ، وانما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبوّاب حتى يصل إليه الضعيف والفقير ، والقوي والغني ، ويكلمهم بأحسن كلام ، ويستفهم منهم حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال .

وكان يحضر مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تستطيع الوصول إلى خصمها ، فيأمر بمساواته معها فتغلب خصمها طمعاً في عدل نور الدين ويعجز الخصم عن دفعها ، فيظهر الحق عنده ، فيأمر في القضية بما هو موافق للشريعة ، ويسأل العلماء والفقهاء الحاضرين عما يصعب عليه من الأحكام . فلا يجري في مجلسه إلا الشريعة وأحكامها[2])) .

وقد بقيت دار العدل قائمة طوال العهد الأيوبي والمملوكي ، وألغي دورها تماماً في العصر العثماني وكانت تقع بجوار دار السعادة مركز حكام دمشق في العصر الأيوبي والمملوكي في مكان ما يعرف اليوم بجامع سوق الحميدية . الذي كان في الأصل : الخانقاه الأحمدية[3] .

ومن جهة أخرى ، أورد ابن منقذ نماذج من نظام المحاكمات التي كانت تجري في مدن الشام الأخرى التي يسيطر عليها الفرنجة ، ويبدو أن أحكام الفرنجة في القضايا الجنائية كانت قاسية ، بعكس القضايا التجارية والمدنية .

يقول ابن منقذ عن النوع الأول :

((كنت يوماً بنابلس ، فحضر اثنان للمحاكمة ، لأن رجالا من المسلمين هاجموا ضيعة من ضياع الفرنجة في نابلس ، فاتهموا أحد الفلاحين ، وكان هذا شيخاً كبيراً فقال للحاكم : أنا أبارز الذي زعم أنني دللت اللصوص على القرية . وجيء بالمدعي وهو حدّاد شاب ليبارزه ،

---

[1] - **ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٨ .**
[2] - **أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٦٢ .**
[3] - **العلبي : خطط دمشق ، ص٥٥ .**

فجاء الحاكم في البلد وأعطى كلاً منهم العصا والترس وجعل الناس حولهما حلقة .

وتضارب الرجلان حتى صارا كعمود الدم ، واستمرّ الحداد يضرب الشيخ حتى قتله ، فطرحوا في رقبته حبلا وجرّوه وهو ميت فشنقوه[١])) .

وذكر ابن العبري أن رجلاً في ملطية اعتدى على فتاة وقتلها وأخفى جثتها ، ولما انكشف أمره حكم عليه بالسلخ حيّاً ثم تقطيعه إرباً إرباً ، ثم إحراقه بالنار .

وقبضوا على قاطع طريق في نواحي إنطاكية فأحرقوه بالنار حيّاً[٢]

وعن النوع الثاني من الدعاوى ، قال :

((إن الإفرنج ، ما فيهم فضيلة إلا فضيلة الشجاعة ، والفرسان عندهم أصحاب الرأي والقضاء والحكم .

وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم ، أخذها صاحب بانياس بالجولان وكان بيننا صُلح ، وأنا إذ ذاك بدمشق وكان ذلك حوالي ٥٢٦هـ - ١١٣١م ، وبقيت الأغنام عنده حتى ولدت وماتت أولادها عنده ، ثم ردّها .

فقال الملك فولك الخامس ملك أورشليم لبعض الفرسان أن يحكموا في هذه القضية ، فعادوا وقالوا : حكمنا على صاحب بانياس بدفع غرامة ما أتلف من غنمهم ... فأمر الملك بدفع الغرامة ، وهذا حكم قطعي لا تبديل له بحال[٣])) .

أما المحاكم التجارية ، فقد كانت لدى الفرنجة محكمة للتجارة تعرف بمحكمة الفندق أو السوق واختصاصهما النظر في الخلافات التجارية وأعضاؤها ستة رجال ، منهم أربعة سوريون ، واثنان إفرنجيان .

وهناك محكمة السلسلة وهي المختصة بفض الخلافات بين الملاّحين والبحارين .

وكان للسوريين محكمة تسمى محكمة الريّس ، وهو شيخ البلد وكانت تحكم بحسب العرف السائد وقوانين الإمارة[٤] .

---

١ - **أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص١٦٠ ، ١٧٧ .**
٢ - **ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص١٧٢ – ١٧٥ .**
٣ - **ابن منقذ : المصدر المتقدم ، ص١٦٦ .**
٤ - **زكي النقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية – بيروت – ١٩٥٨م ، ص١٥٩ .**

ثانياً – العلماء :

١ــ علاقات العلماء بالحكام :

تُعدّ فئة العلماء في المرحلة التاريخية موضوع الدراسة في دمشق من أكثر فئات الــشعب تأثيراً وقوة ، وكان للعلماء سيطرة مؤثرة على الناس وأحياناً على الحكام أنفسهم وذلك قبل أن تتراجع قوتهم في العصور التالية حتى كادوا أن يفقدوا فيها دورهم المتميّــز فــي المجتمــع الإسلامي .

ثم بدأ الأمراء يتقدمون على العلماء حتى أصبح هؤلاء في معظمهم موظفين عند الحكــام يبررون لهم تصرفاتهم أيّاً كانت وعندهم فتاوى جاهزة لكل حالة ، حسب الطلب .

لقد كان العلماء في الشام في القرن الخامس والسادس هم القادة الحقيقيــون فــي البلــد ، والأمراء من خلفهم أو معهم على نسق واحد .

ومن جهتهم ، لم يكن الحكام في معظمهم ، ولاسيما نور الدين الشهيد أقل تمسكاً بــأوامر الدين من العلماء ، فكان الدافع الديني هو الدافع الذي يحرّك الجميع في دمشق مــن علمــاء وأمراء وعامة .

وفوق ذلك فإن الأمراء والحكام ، كانوا يؤثرون أن يكون العلماء في صفّهم ، ولذلك كانوا يغدقون عليهم المناصب والهدايا والأموال ، فيقبلها بعضهم ، ويرفضها الآخرون .

وأهم من ذلك كله أن العلماء كانوا يرفعون أصواتهم بكلمة الحق ، والأمراء يسمعون منهم ويقفون عند آرائهم ونصائحهم في أحيان كثيرة .

وسنعرض فيما يلي نماذج تساعد على فهم ما قدمناه .

فالفقيه نصر المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠هــ – ١٠٩٧م لم يكن يقوم لتاج الدولــة تــتش عندما كان يزوره في الجامع الأموي ، وعند وفاته خرجت دمشق بجنازته بعد العــصر مــن الجامع ، فلم يصلوا بها إلى مقابر الباب الصغير إلا عند الغروب ، من شدة الزحام[١] .

وأرسل مرة القاضي كمال الدين الشهرزوري غلامه إلى نور الدين يستدعيه إلى مجلــس القضاء بسبب دعوى عليه ، فانطلق نور الدين إلى المجلس وقال للقاضي كمال الدين المذكور :

((لقد جئت محاكَماً ، فاسلك معي ما تسلكه مع غيري)) فلما حضر ساوى القاضي بين نور الدين وخصمه إلى أن انتهت المحاكمة[٢] .

[١] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ج٦٢ ، ص١٧ .
[٢] ـ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص٢٠ .

وكان في الموصل شيخ صالح يقال له عمر الملاّء ، فأراد نور الدين بناء مسجده المعروف هناك ، فعهد بالأمر كله إلى الشيخ الملاّء وقال : إذا وليت بعض أصحابي قد يصدر منه الظلم ، ويغلب على ظني أن هذا الشيخ لا يظلم أحداً .

وكان نور الدين وكل من بالموصل من الأمراء والسلاطين والقادة والأعيان يزورون هذا الشيخ ويتبركون به[١] .

وذكر ابن قاضي شهبة أن نور الدين كان يُحضر عنده مشايخ الصوفية والعلماء ويقرّبهم ويدنيهم ويتواضع لهم ويجتمع معهم للبحث والمناظرة . ولذلك كانوا يقصدونه من البلاد الشاسعة ، كما كان يتغافل هفواتهم ويقول : من المعصوم[٢] ؟ .

وكان نور الدين قد استقدم الشيخ قطب الدين النيسابوري من خراسان وبالغ في إكرامه ، فحسده بعض الأمراء وطعن فيه عند نور الدين فقال له :

((لو صح ما تقول فيه فله حسنات تغفر زلاّته وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها[٣])) .

وعاب أحد العلماء على نور الدين ملازمته وأصحابه على لعب الكرة في ميدان دمشق[٤] بصورة دائمة . فأجابه نور الدين :

((إن اللعب بالكرة على ظهور الجياد ، وسرعة انعطافها يمنة ويسرة وتقدمها وتراجعها ، هو ترويض لها ، يعلمها سرعة الحركة في الحروب ، ولو تركناها ، اعتادت الكسل والجمود ، فنحن نركبها ونلعب الكرة لذلك[٥])) .

وكان الغزالي من أشد العلماء نقداً للسلاطين ، ومن أقواله فيهم :

((إن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلّها ، أو أكثرها ... لأن الحلال هو الصدقات والفيء والغنيمة ، وهذه لا وجود لها ... ولم يبق إلا الجزية ، وهي تؤخذ بأنواع المظالم ، وهم يجاوزون في ذلك حدّ الشرع . وهناك الخراج المضروب على المسلمين . وهناك المصادرات والربا . ثم إن السلاطين في عصرنا ، لا تسمح نفوسهم بالعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثر بهم ... فلذلك لا يجوز أن نأخذ من سلاطين هذه الأيام ما يُعلم أنه حرام[٦])) .

---

١ - **ابن قاضي شهبة : المصدر المتقدم ، ص٣٦ .**
٢ - **ابن قاضي شهبة : المصدر المتقدم ، ص٣٨ .**
٣ - **ابن قاضي شهبة : المصدر المتقدم ، ص٣٩ .**
٤ - **يعرف هذا الميدان بميدان ابن أتابك ، وهو نور الدين الشهيد نفسه ، وكان يمتد من موقع التكية السليمانية حتى ساحة الأمويين ، وكان مخصصاً للعب بالكرة وأعمال الفروسية .**
٥ - **أبو شامة : عيون الروضتين ، ج١ ، ص٣٦١ .**
٦ - **الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص١٧٥ .**

وذكر أبو شامة أن القاسم بن عساكر الدمشقي ، حضر مجلس صلاح الدين الأيوبي لما ملك دمشق ، فرأى فيه من اللغط وسوء الأدب من الحضور مالا مزيد عليه . فشرع يحدّث صلاح الدين كما يحدّث نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف وقلة استماع الحاضرين . فقام وانقطع مدة عن الحضور .

وطلبه صلاح الدين مراراً فلم يحضر ، ثم حضر فعاتبه على انقطاعه فقال :

((نزّهت نفسي عن مجلسكم ، فإنني رأيته كبعض مجالس السُّوقة ، لا يستمع فيه إلى قائل . وقد كنّا بالأمس نحضر مجالس نور الدين ، فكأنما على رؤوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار ، فإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلم تكلمنا استمع إلينا)) .

فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه بالكف على ما هم عليه من اللغط في مجلسه إذا حضر الحافظ[١] .

ولما هُزم نور الدين أمام الفرنجة في وقعة البقيعة قال البرهان البلخي :

((أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور كلا ، لن تنصروا ...)) . فلما سمع نور الدين ذلك تقدم بمنع المحرمات والمنكرات وخرج إلى حارم فكسر الفرنج[٢] .

وفي سنة ٥٦٨هـ – ١١٧٢م ، وصل فقيه العراق قطب الدين النيسابوري إلى نور الدين في حلب فسرّ نور الدين بحضوره ، وأنزله في حلب بمدرسة باب العراق ، ثم أرسله إلى دمشق ودرس في زاوية الشافعية الغزالية بالجامع الأموي ، ونزل بمدرسة جاروخ واجتمعت طلبة العلم عليه ، وشرع نور الدين في إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية لأجله . فمات قبل أن يتمها ، ومات قطب بعده بتسع سنين[٣] .

وعندما قدم شيخ الشيوخ محمّد بن علي بن حمويه دمشق في سنة ٥٦٤هـ – ١١٦٨م ، وكان كبير الشأن في العلوم ، أقبل عليه نور الدين بكليته . وأمر العماد الأصفهاني بإنشاء منشور له بمشيخة صوفية الشام وأتحفه بعمامة نادرة كان أرسلها له صلاح الدين من القاهرة[٤] .

وذكرنا أن الأتابك طغتكين عندما عيّن المحتسب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدأ المحتسب به وأمره أن يرتفع عن " الطرّاحة " لأنها من حرير ، وينزع خاتمه لأنه من ذهب ، وكلاهما حرام فامتثل طغتكين ذلك في الحال[٥] .

---

١ - **أبو شامة : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٧١ .**
٢ - **أبو شامة : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٨٠ .**
٣ - **البنداري : سنا البرق الشامي ، ص ١٣٤ .**
٤ - **البنداري : المصدر المتقدم ، ص١٣٥ .**
٥ - **عبد الرحمن الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص٦ .**

ولما كان من المحتم أن يكون للعالم مذهب فقهي من المذاهب الأربعة فإنه لابد من إلقاء الضوء على واقع المذاهب الفقهية في دمشق من وجهة نظر العلماء والعامّة ، لما كان لذلك من الآثار الكبيرة في مجتمع دمشق .

٢ـ المذاهب الفقهية وأصحابها :

انتشر المذهب الحنفي في مشرق الخلافة الإسلامية عند طوائف المغول والترك والتركمان واستقر فيها حتى اليوم .

أما في مصر فقد نافسه فيها المذهبين الشافعي والمالكي ، ثم انتشر المذهب الحنفي في أفريقية على يد أسد بن الفرات واستمرّ فيها حتى سنة ٤٠٠هـ – ١٠٠٩م عندما انضم إليه مذهب مالك وصارا المذهبين الوحيدين في المغرب[١] .

وذكر المقدسي أن أهل طبرية ، ونصف نابلس والقدس وأكثر أهل عمان كانوا شيعة في أيّامه ، وقد تغيّرت الصورة تماماً بعد مائة سنة ، وصار السكان من أهل السنة على المذهب الحنفي والشافعي .

وقال ((إن أهل طبرية ، لما سمعوا أميرهم يجهر بالبسملة – على رأي الشافعي– تظلموا منه إلى كافور الإخشيدي واستبشعوا ما فعله)) ، وهذا يدل على مبلغ الولاء للمذاهب الفقهية[٢] .

أمّا مذهب مالك فقد انتشر مع هجرة المغاربة إلى دمشق ، وبنى لهم نور الدين محمود الشهيد مدرسة في دمشق ، كانت أول مدارس المالكية فيها ، وهي المدرسة النوريّة المالكيّة بالقرب من البيمارستان النوري ، فيما كان يعرف بدرب الوزير .

وكان تأثير المالكية ووجودهم في دمشق ضعيفاً ، ولا يزال الحال على ذلك إلى اليوم[٣] .

أما المذهب الشافعي فقد انتشر في دمشق على يد محمد بن عثمان الدمشقي المعروف بأبي زرعة قاضي دمشق سنة ٢٩٧هـ – ٩٠٩م ، ولم يكن هذا الانتشار واسعاً ، لأن المقدسي ذكر بعد مائة عام أن العمل في الشام كان على مذهب أبي حنيفة[٤] .

وقال : ((إنه كان يناظر بعضهم في مسألة فقهية ، فذكر له قول الشافعي فقال له الآخر : اسكت ، من هو الشافعي ، إنما كانا بحرين ، أبو حنيفة لأهل دمشق ، ومالك لأهل المغرب ، ولقد أخذ الشافعي الفقه عن مالك ثم خالفه[٥])) .

---

١ ـ **المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٩٦ .**
٢ ـ **المصدر المتقدم نفسه ، ص١٥٤ .**
٣ ـ **العلبي : خطط دمشق ، ص٢٥٤ .**
٤ ـ **ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٥٤ ، ص١٩٠ .**
٥ ـ **المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٥٣ .**

أما المذهب الحنبلي ، فإنه لم يكن معروفاً في دمشق قبل سنة ٤٧٥هـ - ١٠٨٢م ، عندما أرسل الحنابلة في بغداد واحداً من أقطابهم يدعى : عبد الواحد الحنبلي إلى فلسطين حيث نشر المذهب هناك ، ثم استقر في دمشق ونشر مذهبه فيها ، ثم ازداد هذا المذهب انتشاراً مع هجرة المقادسة من فلسطين إلى الشام إبان الحروب الصليبيّة[١] .

ـ الخلافات المذهبيَّة وآثارها الاجتماعية :

شهدت دمشق في الحقبة الزمنية التي ندرسها خلافات حادة وعنيفة بين أتباع المذاهب الفقهية ولاسيّما بين الشافعية والحنابلة وبين الشافعية والحنفية .

وقد انطلقت هذه الخلافات من بغداد عاصمة الخلافة العباسية منذ القرن الرابع الهجري ، وتحدّث عنها المؤرخون بالتفصيل ، وكانت لها آثار مدمّرة هناك ، ولاسيما عندما انتقلت هذه الخلافات إلى العامّة ، فتدخل الخليفة القادر بالله ، وأذاع سنة ٤٣٣هـ - ١٠٤١م ما عرف بالمرسوم القادري ، بيّن فيه بجلاء عقيدة الدولة الرسمية ، ومع ذلك فقد اشتعلت الفتنة بين الشافعية والحنابلة سنة ٤٦٩هـ - ١٠٧٦ م[٢] .

ثم انتقلت الفتنة إلى مشرق الخلافة ومغربها ومنها دمشق التي شهدت مناظرات ومشاحنات دامت زمناً طويلاً واستمرت حتى نهاية العصر المملوكي .

فمن ذلك ما ذكره أبو يعلى الفرّاء في تراجمه للحنابلة أنّ ((الشيخ عبد الواحد محمد الشيرازي ، العالم الحنبلي الزاهد المتصوّف الذي صحب والده أربعين سنة ، قد حصل له الأصحاب والأتباع والتلامذة والغلمان ، وكانت له كرامات ظاهرة " و وقعات" مع الشافعية ، وظهر عليهم بالحجة في مجالس السلاطين ببلاد الشام ، وكان ناصراً لاعتقاد الحنابلة)) وكانت وفاته بدمشق سنة ٤٨٦هـ - ١٠٩٣م .

وقد نسب إليه أتباعه " الكرامات" وهو الأمر الذي كان يحاول كل فريق أن يُظهره على أشياخه وأقطابه ، كما سنرى ، لكسب المزيد من الشهرة والأنصار .

وقال الفراء إن " تاج الدولة تتش " كان " معتقداً " فيه لأنه سأله مرّتين عن أمور غيبيّة فأجابه عنها وصحت نبوءته ، وإنه كانت له دعوة مستجابة وأحوال خاصة[٣] .

والغريب أن ابن عساكر - وكان شافعياً - تجاهل عبد الواحد هذا تماماً ، ولم يترجم له في تاريخ دمشق ، فإذا كان هذا فعل العلماء المحدثين ، فكيف يكون تصرّف أتباعهم من العامّة وأنصاف المتعلمين ؟ .

---

[١] **ـ مجير الدين الحنبلي : المنهج الأحمد ـ تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ دار صادر بيروت ١٩٩٧م ، ج٣ ، ص ٨ .**

[٢] **ـ ابن الجوزي : المنتظم ، ج١٦ ، ص١٨٠-١٨١ ، ابن الصابي : عيون التواريخ ، ص٣٤١ ، ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٢٦١ .**

[٣] **ـ الفراء : محمد بن أبي يعلى الفراء البغدادي : طبقات الحنابلة ، ج٣ ، ص٤٦١ .**

وذكر ابن عساكر أن إمام الجامع الأموي : علي بن داود الداراني المقرئ ، وبعدما رأى انتشار مذهب أحمد في الشام كتب إلى بغداد يشكو أمر الحنابلة ، فأرسل له الإمام الباقلاني رسولا إلى دمشق يدعى الحسين بن الحاتم الأزدي المتكلم ، وعقد هذا مجلس وعظه في حلقة ابن داود في آخر الرواق الأوسط في الجامع ، وحضر عنده شيوخ دمشق[١] .

وقد حدثت بين الطائفتين أمور مضحكة ، وكانت تجري في الجامع ، ثم تنشر في البلد . ويتناقلها الناس مدّة طويلة ، وهي تعكس حقيقة مجتمع دمشق في تلك الحقبة ، من ذلك : ما ذكره مجير الدين الحنبلي : ((أن عبد الواحد الشيرازي المذكور كان يعظ مرة في الجامع الأموي فأجاد وملك القلوب . وصاح في محله رجل متواجد صيحة عظيمة ومات في المجلس ، وكان يوماً مشهودا للحنابلة في دمشق . فاجتمع الشافعية ، وقد هالهم ما حدث ، فعمدوا إلى رجل غريب عن دمشق فدفعوا له عشرة دنانير وقالوا له : احضر مجلسنا ، فإذا طاب المجلس فصح صيحة عظيمة ثم لا تتكلم حتى نحملك ونقول مات ، ونجعلك في بيت ، فاذهب في الليل وسافر عن البلد ، ففعل الرجل ما أمر به وصاح صيحة عظيمة ووقع على الأرض بلا حراك ، فقال الشافعية : مات ، مات .

فحملوه ليخرجوه من الجامع ، فوكزه أحد الحنابلة بشدة فصاح الرجل من الألم فقال الناس : عاش ، عاش ، وبطلت الحيلة ، وأخذ الناس في الضحك[٢])) .

وذكر ابن عساكر أن إسماعيل بن فضائل البدليسي قدم دمشق ، وجعل إماماً في الجامع الأموي ، وسكن قربه ، وكان متصوفا حافظا للقرآن الكريم بالروايات ، فأقام إماماً أكثر من ثلاثين سنة .

ثم ظهر عليه ميل للحنابلة ، فعزل عن الإمامة ونصّب أبو محمد بن طاووس مكانه ، وتم التأكيد على أنه لا يتقدم في الجامع إلا إمام الحنفية والشافعية ، وتم ذلك بعد شكاوى ومرافعات مع والي دمشق شمس الملوك واستقرّ الأمر على ذلك[٣] .

وذكر الحافظ ابن رجب في ترجمته الشيخ عبد الوهاب بن عبد الواحد الشيرازي أنه بنى بدمشق المدرسة " الحنبلية الشريفية " داخل باب الفراديس ، ولكن هذا لم يتم بسهولة ، بل احتاج الأمر إلى نوع من المغامرة والتحايل .

قال ابن رجب :

((ولما شرع الشيخ عبد الوهاب في بناء المدرسة ، اطلع بعض المخالفين إلى زمرد خاتون وكان حكمها نافذاً في البلد فقال لها : هذا ابن الحنبلي يبني مدرسة للحنابلة ، وهذا البلد

---

١ - **ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١٤ ، ص٤٩ .**
٢ - **الحنبلي : مجير الدين : المنهج الأحمد ، ج٣ ، ص١٠ .**
٣ - **ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٧١ ، ص٣٠٨ .**

عامّته شافعية وتصير الفتن ، وفي بنائها مفسدة وضرر كبير فأمرت الشيخ عبد الوهاب بوقف العمل في بناء المدرسة فتوقف .

وفي الليل أحضر العمال والفعلة وأصحابه وأشعلوا المشاعل والشمع وشرعوا في بناء حائط القبلة ونصبوا المحراب ، فاشتكى عليه الشافعية إلى زمرّد خاتون ثانية وقالوا لها : هذا خالف أمرك ، فنزل إليه عشرة من القلعة وقالوا له : أما نهتك خاتون عن بناء هذا المكان ؟ فقال : أنا بنيت بيتاً من بيوت الله عزّ وجل ، ونصبت محراباً للمسلمين ، فإن أرادت الخاتون هدمه فلتهدمه ، فقالت : صدق ، أنا مالي وللفقهاء ...))[1] .

واستمر العمل في المدرسة حتى اكتملت و ما تزال آثارها حتى اليوم .

وفي أيام الملك العادل نور الدين الشهيد بنى الحنابلة أكبر مدرسة في دمشق وهي المدرسة العمرية في الصالحية ، ولم يتركهم الشافعية وشأنهم بل حشروا أنفسهم في هذه المدرسة ، وفرضوا مدرسين من لدنهم فيها ، في الوقت الذي كانوا يرفضون بشدة أن يشاركهم في مدارسهم أي مدرس غير شافعي .

ثم توالى بناء المدارس الحنبلية في عصر المماليك حتى صار عددها في دمشق ١٢ مدرسة وتكاد تكون جميعا في حالة حسنة حتى اليوم[2] .

ومن جهة أخرى شهد الجامع الأموي بدمشق خلافات حادة بين الشافعية والحنفية ، وإن كانت أقل من الخلاف مع الحنابلة . وكالعادة فقد شارك في هذه الخلافات عدد كبير من سكان دمشق وما يتبعها بحكم انتشار ما يمكن تسميته بالتعصب المذهبي .

وكان الشافعيّة في دمشق شديدي التمسك بمذهبهم والتعصب له ، ويمارسون فيها مثل الدور الذي كان يمارسه الحنابلة في بغداد عندما كانوا في أوج قوتهم ، لكن الذي كان يحدّ من قوتهم أن جميع حكام دمشق في المرحلة الدراسية كانوا من الأحناف .

وكان الشافعية يعدون الشام من أملاكهم الخاصة ، يقول السبكي :

((منذ أن انتشر مذهب الشافعي لم يولّ في الشام قاضٍ إلا شافعي ، ولا صعد منبره إلا شافعي ، واستمرت دمشق على ذلك حتى عصر الظاهر بيبرس . وقبل الشافعي لم يكن يلي الإمامة والخطابة والقضاء في دمشق إلا أوزاعي))[3] .

وهذا الكلام غير دقيق ، فقد تولى قضاء دمشق وخطابتها الفقهاء من الحنفية والمالكية أيضاً ، ولسنا الآن بصدد التوسع في الأمور الفقهية والتاريخية ، ولكننا نذكر ما يفيد في

---

[1] - **ابن رجب الحنبلي : الذيل على طبقات الحنابلة ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن العثيمين – مكتبة العبيكان – الرياض ١٤٢٥هـ - خمسة مجلدات . انظر : العلبي : خطط دمشق ص٢٣٥ .**

[2] - **العلبي : خطط دمشق ، ص ٢٤٢ و ٥٥٠ .**

[3] - **السبكي : طبقات الشافعية بتحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي ، الطبعة الثانية ، دار هجر – القاهرة ١٩٩٢م – ٨ مجلدات ، ج١ ، ص٣٢٦ .**

تصوير المجتمع في دمشق من جميع جوانبه ، والتعصب المذهبي كان من أبرز صفات هـذا المجتمع في تلك الحقبة[1] .

ففي أيام تتش و طغتكين تولى قضاء دمشق محمد بن موسى البلاساغوني ، الـذي كـان مغالياً في مذهب أبي حنيفة على حدّ قول ابن عساكر الشافعي ، فأمر أن تقام الـصلاة فـي الجامع مثنى مثنى بحسب مذهب أبي حنيفة ، فاستاء الشافعية وغادروا الجامع ، واتخذوا لهم ((دار الخليل)) مكاناً للصلاة حتى جاء أمين الدولة كمشتكين فبنى مكان دار الخليل ما عرف بالمدرسة الأمينية سنة ٥١٤هـ – ١١٢٠م ، فصاروا يصلون فيها[2] .

واستمرت الإقامة مثنى مثنى طوال فترة الدراسة حتى جاء صلاح الدين فجعلها واحـدة واحدة ، أي على مذهب الشافعي والحنابلة[3] .

ونرى من المناسب أن نعرض هنا موقف علم من أعلام الشافعية في هذه الخلافات ، وهو الإمام الغزالي الذي قال :

((إن زعم أحد أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعري أو المعتزلي أو الحنبلي أو غيرهم ، فهو أعمى من العميان ، فاسأله : من أين ثبت أن كون الحق وقفا على الأشعري ؟ ما الفرق بين الأشعري وغيره ؟ إن شرط المقلد أن يسكت ويُسكت عنه ، لأنه قاصر عن سلوك طريق الحجاج . وإن من جعل الحق وقفاً على أحد بعينه ، فهو أقرب إلى الكفر ، لأنه نزله بمنزلـة النبي المعصوم من الزلل))[4] .

ولكن المشكلة أن العلماء والفقهاء في تلك المرحلة لم يكونوا على شاكلة الغزالي ، وكان أتباعهم على شاكلتهم ، ولذلك انتشرت الفوضى والقلاقل في أنحاء العالم الإسلامي .

ومن أمثلة انحراف بعض العلماء ما ذكره " الوهراني " في رقعته عن الجـامع الأمـوي ومساجد دمشق وما فعله القاضي أبو سعد بن عصرون فقد قال الـوهراني مخاطبـاً قاضـي القضاة المذكور :

((... لقد اكتنزت الأموال ... وصليت بالمسوح حتى ظفرت بأنواع الصيد ، فلم بعـت الباقية بالفانية ؟ وحسبك ما قد بلغني عنك مما أنت عليه من قلّة الوفاء مع هؤلاء الـضعفاء ،

[1] ـ العلبي : المصدر المتقدم ، ص١٠٤ .
[2] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ج٥٦ ، ص٧٦ .
[3] ـ ابن قطلوبغا : الطبقات السنية في تراجم الحنفية ـ دار القلم دمشق ١٤١٣هـ ـ ص ٢٥١ في الهامش وانظر : القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٢٩٢ ، وقال ابن عساكر في المصدر السابق نفسه : وسمعت عنه من يذكر قوله : لو كان لي ولاية ....
[4] ـ الغزالي : فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة ـ تحقيق محمود بيجو ـ دمشق ١٤١٣هـ ـ انظر الصفحات ١٩ ـ حتى ٢٣ .

فاحسم عنهم أذاك ولا تمكّن منهم أعداهم ....)) ، فأنزل نور الدين القاضي ابن عصرون عن رتبته وعزله[1] .

ولعل كثيراً من أتباع المذاهب قد ساهموا في كسب مؤيدين لمـذهبهم بطريـق ظنـوه صحيصاً .

وفي ختام هذا البحث نذكر مدارس دمشق بين ٤٦٨هـ – ١٠٧٥م ، ٥٧٠هـ – ١١٧٤م :

- المدرسة الغزالية بالجامع الأموي سنة ٤٨٢هـ – شافعية
- المدرسة الصادرية : ٤٩١هـ – حنفية
- المدرسةالأمينية ٥١٤هـ – شافعية
- المدرسة المعينية ٥٢٤هـ – حنفية
- المدرسةالطرخانية ٥٢٥هـ – حنفية
- المدرسة الخاتونية البرانية ٥٢٦هـ – حنفية
- المدرسة المجاهدية الجوانية ٥٢٩هـ – شافعية
- المدرسةالشريفية ٥٣٠هـ – حنبلية
- المدرسة البلخية ٥٣٦هـ – حنفية
- المدرسة الجاروخية ٥٣٨هـ – حنفية
- المدرسةالمجاهدية البرانية ٥٣٨هـ – شافعية
- المدرسة المسمارية ٥٤٦هـ – حنبلية
- المدرسة العمادية ٥٤٩هـ – شافعية
- المدرسة التاشيّة ٥٥٠هـ – حنفية
- المدرسة العمرية الكبرى ٥٥٥هـ – حنبلية
- مدرسة الكلاسة ٥٥٥هـ – شافعية
- المدرسة الأسدية ٥٦٠هـ – شافعية
- المدرسة النورية الصغرى ٥٦٠هـ – حنفية
- المدرسة النورية الكبرى ٥٦٦هـ – حنفية
- المدرسةالصلاحية ٥٦٧هـ – شافعية
- المدرسة النورية ٥٦٧هـ – مالكية
- المدرسةالخاتونية ٥٧٠هـ – حنفية

---

[1] - محمد بن محرز الوهراني – ٥٧٥هـ ، رقعتُهُ عن مساجد دمشق بتحقيق صلاح الدين المنجد ، مجمع اللغة العربية – دمشق ١٩٦٥ ، ص٢١ .

وهكذا نرى وجود ٢٢ مدرسة فقهية منها ١٠ مدارس للحنفية و ٨ مدارس للــشافعية و٣ للحنابلة وواحدة للمالكية[١] .

٣ــ المتصوّفون :

المتصوفون هم فئة من المجتمع الإسلامي ، أرادت أن تتفرغ للعبادة من دون أن تتــشغل بأسباب المعاش ، ولذلك فقد كان من أوائل الأوقاف في دمشق ، والعالم الاسلامي ، ما يعرف بالزوايا والربط والخوانق التي يلجأ إليها الصوفيّون المنقطعون للعبادة ، وهي إلى حدّ مــا ، تشبه الأديرة والبيع عند النصارى .

ومن أشهر دور التصوف وأقدمها في دمشق الخانقاه السمسياطية التي بنيت سنة ٤٥٣هــ – ١٠٦١م وواقفها : علي بن محمد السميساطي الذي توفي في السنة نفسها ، ودفن بداره عند الباب الشمالي للجامع الأموي بعدما وقفها على فقراء الصوفية . ويقال إنها كانت داراً لعمــر بن عبد العزيز .

ولما ملك تتش دمشق ، سألوه أن يُفتح لها باب إلى دهليز الجامع الأموي ، فأجاب إلــى ذلك .

وكان شيخها يُعدّ شيخ جميع الخوانق بدمشق ، مثل شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة[٢] .

وزارها ابن جبير وقال إنّ الواقف أوصى أن يختم القرآن الكريم على قبره كل يوم جمعة ، وعيّن لكل من يحضر ذلك الختم رطلاً من الخبز ، فوجد الغرباء والفقراء فيها فرجاً عظيماً ، ثم قال :

((وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك في دمشق ، لأنه قد كفاهم الله مؤن الــدنيا ، وفــرّغ خواطرهم لعبادته عن التفكير بأمور المعايش ، وأسكنهم في قصور شاهقة ، وهم على طريقة شريفة وسنة من المعاشرة عجيبة ... وبالجملة فأحوالهم بديعة وهم يرجون طيباً هنيئاً[٣])) .

وكان لهم عند الربوة قصر عظيم في أعلاه مساكن جميلة ، وله بستان عظيم يتصل به ، وكان متنزهاً لأحد ملوك الأتراك ، فاشتراه السلطان نــور الــدين ووقفــه علــى الــصوفية لايشاركهم فيه أحد ، فقال فيه الشاعر :

عمّــر الربــوة قــصراً شــاهقاً   نزهـــة مطلقـــة للفقـــراء

---

[١] ـ العلبي : المصدر المتقدم ، ص٥٨٦ـ٥٨٨ .
[٢] ـ العلبي : الخطط ، ص٣٩٨ .
[٣] ـ ابن جبير : الرحلة ، ص٢٣٦ .

وكان في جبال لبنان عدد من هؤلاء الصوفية المنقطعين إلى الله تعالى ، وكان النصارى إذا رأوهم جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع إلى الله عزّ وجل ، فتجب مشاركتهم[١] .

وذكر الضبّي في ترجمة محمد بن الوليد الطرطوشي المتوفى سنة ٥٥٢هـ – ١١٥٧م ، أنه قصد جبل لبنان وأقام فيه مدة ، وصحب فيه رجلاً يُعرف بعبد الله السائح ، من أولياء الله المنقطعين إلى العبادة .

وبعد مدة عرض محمد على صاحبه عبد الله مغادرة الجبل وقال له : أنت هنا بمعزل ، ولا تلقى أحداً ، ولا يلقاك أحد ، فقال له : أنا هنا آكل الحلال ، وأعيش في المباح ... ثم انتقلا إلى رشيد بمصر[٢] .

وذكر الغزالي أن للعزلة والابتعاد عن الناس فوائد جمّة ربما هي التي دفعت الناس آنذاك إليها ، منها :

((الأولى التفرغ للعبادة والفكر ، والاستئناس بالله تعالى والتفكر في خلقه ، وكما قيل : من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قلّ علمه ، وعمي قلبه ، وضيّع عمره[٣] . ومن أقوالهم الأخرى في الخلوة : الاستئناس بالناس علامة الإفلاس . والفائدة الثانية للخلوة هي التخلص من المعاصي التي يتعرض لها الإنسان بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة : الغيبة والنميمة والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والفائدة الثالثة الخلاص من الفتن والخصومات ، عملاً بالحديث الشريف :

((إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم ، وخفّت أمانتهم ... فالزم بيتك واملك عليك لسانك ، وخذ بما تعرف ، ودع ما تنكر وعليك بأمر خاصّة نفسك ، ودع عنك أمر العامّة))[٤] .
والفائدة الرابعة : الخلاص من شرّ الناس ، وكما قال الشاعر :

اخفض الصوت إذا نطقت بليل   والتفت في النهار قبل المقال

وقول الآخر :

من حمد الناس ولم يبلهم   ثم بلاهم ذمّ من يحمد

وصار بالوحدة مستأنساً   بوحشة الأقرب والأبعد

---

[١] ـ محمد دهمان : في رحاب دمشق ١٩٨٢م ، ص ١٨٥ ، ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٥٧ .
[٢] ـ الضبّي : بغية الملتمس ، ص١٧٦ .
[٣] ـ الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص٣٠١ .
[٤] ـ الغزالي : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣٠٨ .

والفائدة الخامسة : انقطاع طمع الناس عنك وهذا فيه فوائد لا تحصى ، وانقطاع طمعك عنهم[١] .

والفائدة السادسة : الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ومقاساة حمقهم وأخلاقهم ، فإن رؤية الثقيل هي العمى الأصغر ، وكما قال الأعشى عندما سئل : ممّ عمشت عيناك ؟قال : من النظر إلى الثقلاء[٢])) .

وبالمقابل ، ذكر الغزالي آفات العزلة وهي :

((انقطاع المتصوف المعتزل عن العلم والتعلم ، ولذلك قالوا : تفقه قبل أن تعتزل . انقطاع النفع والانتفاع لما في خدمة الناس وقضاء حوائجهم من الثواب . انقطاع التأديب والتأدب عن طريق معاشرة الناس والصبر على أذاهم . عدم الاستئناس والإيناس بالناس والعلماء والصالحين . الغياب عن حضور الجنائز وعيادة المريض وحضور الجمع والجماعات ، وما في ذلك كله من الفضل والثواب[٣])) .

وكان الصوفي يلبس خرقة التصوّف على يد شيخه في حفل عام ، حتى يعرفه الناس .

من ذلك أن شيخ الشيوخ بدمشق صدر الدين بن حمويه ، ألبس رشيد الدين علي بن خليفه خرقة التصوف سنة ٦١٥هـ - ١٢١٨م وأعطاه شهادة أو إجازة بذلك ، هذا نصها :

((هذا ما أنعم به شيخ الشيوخ من إلباس خرقة التصوّف على مريده علي بن خليفة .

- ألبسه وأخبره أنه أخذها عن والده عماد الدين
- الذي أخذها عن والده معين الدين
- الذي أخذها عن الخضر عليه السلام
- وأخذها الخضر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم))[٤] .

ومن الخوانق الأخرى في دمشق : خانقاه الطواويس ٥٠٤هـ - ١١١١م ، التي بنتها صفوة الملك أم دُقاق بن تتش المتوفى سنة ٤٩٧هـ - ١١٠٤م ، وقد تم بناؤها سنة ٥٠٤هـ - ١١١١م ودفنت فيها عند وفاتها سنة ٥١٣هـ - ١١١٩م بجوار ابنها دقاق ، وكانت تقع مقابل جامع الطاووسية ، ولا أثر لها اليوم .

خانقاه القصر (٥٢٨هـ - ١١٣٤م) في موقع فندق الميرديان اليوم . بناها شمس الملوك إسماعيل بن بوري[٥] ، ولا أثر لها اليوم .

---

[١] - **الغزالي : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣١٢ .**
[٢] - **الغزالي : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣١٣ .**
[٣] - **الغزالي : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣١٩ .**
[٤] - **ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ص ٧١٤ .**
[٥] - **العلبي : الخطط ، ص٤٠٢- ٤٠٤ .**

الخانقاه الأسدية (٥٦٠هـ – ١١٦٥م) ، كانت في منطقة باب الجابية ، بناها أسد الدين شيركوه .

الخانقاه الخاتونية (٥٧٥هـ – ١١٨٠م) ، كانت لصيق جامع تنكز من الشرق تماماً ، بنتها الخاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر ، أرملة نور الدين وزوج صلاح الدين بعده ، وقد هدمت مع جامع تنكز في حدود سنة ١٣٦٥هـ – ١٩٤٥م[١] .

وكان في دمشق علاوة على الخوانق المعدة للصوفية ما كان يعرف باسم الرباط ، والأصل في الرباط أن يكون على الحدود ، أو الثغور كما كانت تسمى ، ثم صارت وظيفة الرباط لا تختلف كثيراً عن الخانقاه .

ولم يكن في دمشق في فترة دراستنا إلا رباط واحد هو رباط أبي البيان نبأ في درب الحجر ، قرب الباب الشرقي .

وهذا الرباط ينسب للشيخ أبي البيان نبأ من محمد محفوظ القرشي الشافعي الدمشقي المتوفى سنة ٥٥١هـ – ١١٥٦م ، وكان رجلاً صالحاً صاحب أحوال وكرامات ، وله أذكار ومريدون وفقراء ، وكان مع الشيخ أرسلان (رسلان) شيخ دمشق في عصر نور الدين ، لكن شهرة الشيخ أرسلان طغت فيما بعد على شهرة الشيخ أبي البيان ، وكانا يتعبدان معا في هذا الرباط حيث كانت تقام حلقات الذكر ويقيم الصوفية والفقراء في هذا الرباط الذي ما يزال إلى اليوم قرب الباب الشرقي عند القشلة العزيزية تماماً وهو مسجد صيفي وشتوي لا يكاد يعرفه أحد ويدعى : جامع البيانية .

أما الزوايا ، فلم تكن قد انتشرت في دمشق في المرحلة التاريخية التي ندرسها ، وإنما بدأت بالانتشار في العصر المملوكي وتوسّعت في العصر العثماني[٢] .

وفي ختام حديثنا عن الصوفية والتصوف والخوانق ، نرى من المناسب أن نعرف بعلم من أعلام الصوفية في دمشق ارتبط اسمه بها وأطلقوا عليه لقب الباز الأشهب وحامي الشام ، ولا يزال اسمه يتردد في المواكب والعراضات الشعبية في دمشق حتى اليوم حتى إنه صار واحداً من أعلامها المقصودين بالزيارة ونعني به الشيخ أرسلان الدمشقي أو كما يلفظ اسمه اليوم : الشيخ رسلان الذي سبقت الاشارة إليه مع زميله أبي البيان . وكانت وفاة الشيخ رسلان بين سنة ٥٥٠هـ – ٥٦٠هـ – ١١٥٥م – ١١٦٥م .

وقد ترجم له الذهبي فقال : ((إنه الشيخ الزاهد العابد بقية المشايخ رسلان بن يعقوب بن عبد الرحمن الجعبري الدمشقي النشار ، من أولاد الأجناد بقلعة جعبر . صحب الشيخ أبا

١ - العلبي : الخطط ، ص٣٩٦ .
٢ - العلبي : المصدر المتقدم ، ص٤١٠ ، وعن ترجمة أبي البيان انظر القلانسي : المصدر المتقدم ، ص ٥١٢ ، وقبره معروف اليوم وعليه لوحة بارزة في مقابر الباب الصغير ، وقد قمت بزيارته .

عامر المؤدب ، المدفون قرب جامع خالد بن الوليد بدمشق[١] . وكان يتعبد بمسجد داخل باب توما ، ثم انتقل إلى مسجد درب الحجر مع الشيخ أبي البيان وصحب كلا منهما جماعة ، ثم انتقل إلى مسجد خالد بن الوليد تجاه قبة الشيخ رسلان اليوم ، ومات في حدود سنة ٥٥٠هـ – ١١٥٥م . وكان ورعاً قاضياً صاحب أموال ومقامات ، وماعلمته أنه اشتغل بالعلم[٢])) .

وقال الصفدي نقلاً عن شمس الدين الجزري :

((كان الشيخ أحمد بن الرفاعي قد عيّن نخلة في داره وقال لأصحابه إذا استوت هذه أهديناها إلى الشيخ رسلان . فمرّ بها بعد مدة فوجد أكثرها قد راح ، فسألهم فقالوا : لم يطلع إليها أحد ، لكن في كل يوم يجيء بازي أشهب يأكل منها ، ولا يقرب غيرها ثم يطير . فقال لهم : البازي الذي يجيء إليها هو الشيخ رسلان ، فلذلك يقال له : البازي الأشهب[٣])) .

وذكر المناوي : ((أنه أهدي للشيخ رسلان لبن ، فأخذ الجرّة وأكل ما فيها ، ثم ملأها ماء وسلمها لصاحبها وقال له لا تفتحها إلا في بلدك ، ففتحها فإذا هي مملوءة عسلاً .

ومرّ يوماً برجل يبيع النبّق – وهو ثمر السدّر – فقال للشيخ : ضع يدك فيه يا سيدي ، فوضعها فباع منه ثلاثة أيام ، ثم وضع يهودي يده فيه فنفذ[٤])) .

ونحن لا نريد الحديث عن كرامات هذا الشيخ ، وإنما التعرف به ، لأنه كما قدّمنا ، كان ولا يزال علماً من أعلام الشام ، وقد نسبت إليه في العصور التالية كرامات كثيرة جداً حتى صارت قصته تقرب من الأساطير[٥] .

وما ورد من كرامات عنه في بحثنا هذا تعكس ـ بغض النظر عن صحتها أو عدمها – مدى ما وصل إليه هذا العالم من مكانة هامة بين أهل دمشق وخاصة العامة منهم .

ثالثاً – المحكومون :

١- العامّة :

تشكل العامة الفئة الأكثر عدداً في المجتمع الإسلامي ، وهي الفئة الفاعلة والمؤثرة ، لما تمتاز به من البساطة والعفوية والاندفاع والنخوة والشهامة والمبادرة إلى مساعدة العاجز والضعيف والمظلوم ، وهي الفئة التي ساهمت بدور كبير في تحرير المشرق الإسلامي العربي من الفرنجة على مدى مائتي عام .

---

[١] ـ أقدم مسجد في دمشق ، يقع بجوار ضريح الشيخ رسلان والنية متجهة إلى تجديده نظراً لأهميته التاريخية .

[٢] ـ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص٣٧٩ .

[٣] ـ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٨ ، ٣٤٥ .

[٤] ـ زين الدين المناوي : الطبقات الصغرى ـ بيروت ١٩٩٩م ، ج٤ ، ص٢٩٢ .

[٥] ـ لمعرفة المزيد عن كراماته انظر يوسف النبهاني : جامع كرامات الأولياء ، بيروت ١٩٨٣ ، ج٢ ، ص٧٢ .

وتضم هذه الفئة : المتعيشين ، وهم الباعة المتجولون ، كما تـضم البؤسـاء والفقـراء والمساكين والعاطلين عن العمل .

وتضم في الوقت نفسه المتسولين والمـشعوذين واللـصوص والظرفـاء والمتمـاجنين والحشاشيين والدعّار وأصحاب الملاهي والملاعب والنصب والاحتيال بالإضافة إلى طائفـة الأحداث ، التي كان لها دور متميز في مجتمع الشام على مدى عدة قـرون ، وقـد عرفـت بأسماء كثيرة مثل الشطّار والعيّارين والحرافيش والزعران .

وتشمل كلمة العامة سكان المدن والقرى على حدّ سواء ممن ليسوا حكاماً ولا علماء ، ولا أغنياء ولا زعماء .

وهؤلاء كانوا يحصلون على رزقهم عن طريق التسول ، أو المساعدات الرسمية والشعبية ، ذلك لأنهم كانوا هم الفئة الأكثر بؤساً في مجتمع دمشق ، وقد ازدادت أعدادهم ومـصائبهم مع انتشار الحروب والكوارث والمجاعات .

وكان السلطان نور الدين الشهيد في طليعة الحكام الذين أولوا هـذه الفئـات اهتمـامهم ورعايتهم .

فقد ذكر العماد الأصفهاني في حوادث سنة ٥٦٩هـ – ١١٧٤م أن نور الدين كان إذا أمر بصدقة يستدعي جماعة من أعيان البلد وعيونه من كل محلة ، ويسألهم عن الفقراء والأرامل في حيّهم ، ثم يسلّم له ما يكفيهم ، ثم يعود هؤلاء بكشوفاتهم فيها أسماء وعناوين كل من قبض ، وكمية ما قبض ، فيطلع عليها نور الدين أولاً بأول[١] .

وذكر ابن قاضي شهبة أنه حضر صبي عند الملك العادل وبكى وذكر أن أباه محبـوس لأنه لم يدفع أجرة الحجرة التي يقيم فيها وعندما سأل نور الدين عنه قالوا :

إنه ابن الشيخ أبي سعيد الصوفي ، الزاهد القاعد ، وليس له قدرة على الدفع ولـم يـدفع الأجرة منذ سنة كاملة ، فأمر نور الدين بدفع الأجرة كل سنة ، وأخرجه من الحبس[٢] .

وكانت للأيتام في دمشق مدرسة كبيرة ولها وقف كبير ، يأخذ منه المعلم ما يقـوم بـه ، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بكسوتهم . وطعامهم كما يقول ابن جبير .

وقد علق ابن جبير على ذلك بالقول :

((وهذا من أغرب ما يُحدّث به من مفاخر هذه البلاد))[٣] .

وذلك يعني ، أنه لم يشاهد مثل ذلك في البلاد التي زارها ، وأن دمشق انفردت بذلك .

---

١ - **الأصفهاني : سنا البرق ، ص١٤٣ .**
٢ - **الأصفهاني : المصدر المتقدم ، ص٥١ .**
٣ - **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٤٤ .**

وكان نور الدين الشهيد قد نصّب جماعة لتعليم يتامى المسلمين بدمشق وأجــرى الأرزاق عليهم وعلى معلميهم ، وفعل مثل ذلك في جميع مدن المملكة[١] .

ومن أوجه البر النادرة في دمشق والتي خصّصها السلطان نور الدين الشهيد للفقراء والتي لم يشر إليها أحد ، ما يعرف بوقف حنطة داريا .

وهذا الوقف كان يغل في السنة كميات كبيرة من القمح وكانت تعطى بطاقات للفقراء من النساء والرجال يأخذون بموجبها في كل عام كمية من القمح بحسب عدد أفراد العائلة وحاجتها .

وفي مركز الوثائق التاريخية بدمشق المئات من هذه البطاقات التي كان يمنحها القاضــي للمستحقين والفقراء ، علماً بأنه في حالة وفاة المستفيد كانت الكمية المخصصة له من القمــح تنتقل لولده أو ابنته أو أرملته ، وإذا اغتنى الفقير كان يتنازل عنها لغيره عن طريق القاضي ، وقد بقي ها الوقف قائما حتى نهاية الحكم العثماني .

ونذكر هنا نموذجاً من هذه الوثائق .

((قرر القاضي أبو بكر أفندي

– الحرمة : زينب بنت إبراهيم أوده باشي .

– في ١٨ كيلاً من حنطة داريا في كل سنة .

وهي المنسوبة إلى السلطان نور الدين محمود الشهيد .

– وذلك بدلاً عن : إبراهيم المقصوص .

– لوفاته ، وانحلال المعلوم بموته)) .

دمشق في ١٠ ذي الحجة سنة ١١٠٠هـــ (أيلول ١٦٨٩م)[٢] .

وفي وثيقة أخرى نقرأ : ((قرر القاضي أبو بكر أفندي :

– الشريفة عائشة بنت عبد الحي

– في غرارة واحدة سنوياً من حنطة داريا

– المنسوب وقفها إلى السلطان نور الدين الشهيد

– بدلاً عن والدتها المتوفاة الحرمة :

رحمة بنت الشيخ أيوب الخلوتي . دمشق في ٢٩ ربيع الثاني ١١٠١هـــ – شباط ١٦٩٠م))[٣] .

وفي وثيقة ثالثة نقرأ : ((قرر القاضي محمد أفندي :

– الأخوين : محمد وحسين سنان

---

[١] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٥٧ ، ١٢ – أبو شامة : عيون الروضتين ، ج١ ، ص٣٥١ .

[٢] ـ مركز الوثائق التاريخية بدمشق – السجل ١٨ – الصفحة ١٣٦ – الوثيقة ١٩٩ والكيل = ١٢ مدا وكل ١٢ كيلاً تساوي غرارة ، والغرارة تعادل ٢٠٥ كغ تقريباً وهذه المعلومات مستقاة من واقع وثائق المحاكم الشرعية ، وعليه فالحرمة المذكورة قررت في غرارة ونصف من الحنطة .

[٣] ـ السجل ١٨ – الصفحة ١٥٧ – الوثيقة ٢٤٥ .

- في مرتب قدره : ٣٧ كيلاً من حنطة داريا
- بدلاً من الأختين : فاطمة ونفيسة العاتكي
- بحكم فراغهما لهما عن القدر المذكور ، بين يدي القاضي
- ويشهد لهما تقرير صادر في ١٣ شوال سنة ١١٣١هـ .دمشق في ٢١ رجب سنة ١١٧٥هـ – شباط ١٧٦٢م)) .
- وفي وثيقة أخرى نقرأ : ((قرر القاضي محمد أفندي :
- كلاً من : حسن وآمنة ولدي الحاج علي المصري
- ووالدتهما الحرمة : مريم المصري
- في ٤٣ كيلاً من حنطة داريّا

المنسوب وقفها لسيدي السلطان نور الدين الشهيد دمشق في ٢١ رجب ١١٧٥هـ – شباط ١٧٦٢م))[١] .

ومن الجهات التي كانت تساعد الفقراء الخوانق والمدارس ، فالخانقاه السمسياطية التي بنيت سنة ٤٥٣هـ – ١٠٦١م كانت تقدم الطعام والإقامة للمحتاجين ، ولا سيما الفقراء من أهل العلم كما ذكرنا عند الحديث عن الصوفية .

ومن أشهر المدارس التي أقيمت في دمشق المدرسة العمرية التي بنيت سنة ٥٥٥هـ – ١١٦٠م ، والتي ذُكر أنها كانت تقدم كل يوم ألف رغيف أو نحو ذلك .

وإذا نزل الواحد فيها يعطي " طُلمة " أي رغيف عادي ، فإذا أمضى فترة من الزمن يقدم له كل يوم رغيف كبير يعادل طلمة ونصفاً ثم يقدم له طلمتان ، ولها أمين يفرق الخبز ، وكاتب غيبة يسجل أسماء الغائبين .

وقد كان لها من الأوقاف عُشر غلاّت البقاع وستة آلاف درهم هي ثمن الأغنام التي تذبح فيها في شهر رمضان المبارك كل عام ، وكان لها ٦٠ غرارة قمح على قرية داريا كل عام .

وفي رمضان يطبخ فيها طعام بلحم كل ليلة مثل القمحية وحبّ الرمان واللبنيّة والعدس ، وفي ليالي العيد يطبخ فيها ثلاثة أطعمة هريسة ورز حلو – أي بدبس – وطعام حامض .

ولها الأضاحي في العيد الكبير وتعطى لكل من هو نازل بها ، ولها " جشيشة " في الشتاء[٢] .

وللمدرسة أيضاً أوقاف على مختلف أنواع الألبسة ، وعلى ختان من لم يكن مختوناً أو من فقراء الصالحية وأيتامها .

---

[١] ـ السجل ١٦٨ ـ الصفحة ٦ ـ الوثيقة ٢٤ و ٥٢ ولمزيد من الوثائق انظر : السجل ٦٨ المذكور الوثائق : ٢٢٣ ، ٢٩٣ ، ٣٥٩ ، والوثائق كثيرة جدا في مركز الوثائق التاريخية حول وقف حنطة داريا .

[٢] ـ ابن طولون : محمد : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ج٢ ، ص٢٦٦ ، والجشيشة هي حساء باللحم والقمح ، مثل الهريسة ، ولاتزال تكية السلطان سليم بدمشق تقدم هذا الطعام صباح كل خميس للفقراء .

ولها وقف الحلوى في شهر رجب وشعبان ، ووقف لزبيب وقضامة كل ليلـة جمعـة ، ووقف للحصر كل سنة ، ووقف للصابون وللكعك في رمضان ، وللكنافة ليلة العشر الأول منه ، ولها وقف لغسل أطباق الفقراء وحللهم ، وسخّانة لتسخين الماء في شهر رمضان وأيام الشتاء وهذا الوقف عام لأهل الصالحية[١] .

ومن الأوقاف الأخرى على وجوه الخير وقف آمنة بنت محمد القرشية – بعد ٥٥٥هـ – ١١٦٠م التي أُوقفت رباطاً لسكنى الفقيرات والمنقطعات من النساء في دمشق .

ومثال ذلك سكن ملكة بنت داود العالمة الصوفية في دويرة السمسياطي الخانقاه المخصصة للمنقطعين إلى العبادة من الرجال والنساء[٢] .

وانتقد بعض العلماء هذه الخوانق والربط وقال إنها صارت دكاكين للزوايا وأماكن تجمع للعاطلين عن العمل من قبل اناس تثاقلوا عن المعاش إلى الأكل والشرب واللهو[٣] .

٢ – الأحـداث :

إن أهم فرقة في صفوف العامة كانت هي الأحداث ، ذلك أنه في القرن الرابع الهجري ، ظهرت من بين العامة في دمشق طائفة دعيت بالأحداث أو شطار الأحداث ، ويفهم مما أورده المؤرخون أن هذه الطائفة في نشأتها لم تكن نابعة من الشعب أو مدافعة عن وجوده ومصالحه ، وإنما هي فئة يمكن أن تكون على شاكلة الفتيان أو العيّارين في بغداد ، أو الجعيدية والحرافيش في مصر أو ما صار يعرف في دمشق في العصور التالية بالزعران .

فقد ذكر القلانسي في حوادث سنة ٣٦٣هـ – ٩٧٤م ، أن أهل الشر وغيرهم ، ومنهم المعروف بالمارود رأس شطّار الأحداث كانوا يعيثون في دمشق فساداً[٤] .

وفي العام التالي ٣٦٤هـ – ٩٧٥م كان الأحداث هم المتغلبون على دمشق والمتحكمون فيها ، وكان شيوخ دمشق وأهلها مستائين منهم وطلبوا من الوالي كفّ الأحداث عنهم[٥] .

---

[١] - النعيمي : عبد القادر بن محمد : الدارس في تاريخ المدارس ، إعداد إبراهيم شمس الدين ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٩٩٠م .ج٢ ، ص٢٦٧ ، والقضامة هي " الحمص" والحصر يعني ما يفرش في الأرض ، العلبي : خطط دمشق ص٢٤٥ .

[٢] - ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٦٩ ، ج٤٥ و ص٧٠ ، ١٢٧ .

[٣] - ابن الجوزي : تلبيس إبليس – القاهرة – المطبعة المحمدية ١٣٦٨هـ ص ١٧٥ .

[٤] - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص١٦ .

[٥] - القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٢ .

وفي سنة ٣٧٨هـ – ٩٩٧م اقتسم رؤساء الأحداث البلد وفي العام التالي ٣٨٨هـ – ٩٩٨م ، استخّص والي دمشق جيش بن الصمصامة رؤساء الأحداث وقدّمهم وصار يقيم لهم الولائم كل يوم ويستميلهم بكل حال[١] .

وفجأة بطش بهم ، وقتل منهم زهاء مائتي رجل ، ثم انطلق العسكر في البلد والغوطة وتتبعوا الأحداث فقتلوا ألف رجل ، ثم أخرج رؤساء الأحداث فضرب رقابهم وصلب كلاً منهم في محلّته ، وبلغ عدد من قتل منهم زهاء ٣٠٠٠ رجل[٢] .

ولذلك ، وبعد هذه الضربة القاصمة للأحداث في دمشق ، لم نعد نسمع عنهم الكثير في القرن الخامس الهجري وإن كان لهم دور بارز في حلب حتى إن أحد الرحالة سنة ٤٤٩هـ – ١٠٧٥م قال إن في حلب قوماً يُسمون الأحداث هم لها أملك من مالكها[٣] .

وذكر القلانسي أن فخر الملوك صاحب حلب توّجه سنة ٤٩٨هـ – ١١٠٥م ، وقد جمع ما أمكنه جمعه من أعمال حلب والأحداث الحلبيين إلى طرابلس بقصد الجهاد[٤] .

وعليه يمكن القول بأن ظهور الصليبيين ، دفع بالأحداث إلى العودة من جديد إلى مسرح السياسة والحرب في دمشق ، وقد ظهروا في هذا الدور بمظهر جديد وهدف جديد وهو الدفاع عن دمشق ضدّ الطامعين والغزاة ، بعدما كان دورهم في عهد الفاطميين السيطرة والتحكم وظلم الناس .

لقد كان وجود الأحداث قائما على التطوع الارادي بدافع النخوة والرجولة والشهامة والوطنية للوقوف إلى جانب المظلوميين والمعتدى عليهم في وجه المعتدين والطامعين ، وفي مقدمة هؤلاء : الصليبيون .

لقد كانوا نوعا من " الجيش الشعبي " وكانت لهم رتب عسكرية مثل النقيب والقائد والمقدّم ، وكما شاهدنا فإن عددهم وصل في دمشق إلى نحو ٣٠٠٠ رجل ، وهم في غالبيتهم في ريعان الشباب أو دون ذلك أيضاً ، ولهم رئيس منهم يأتمرون بأمره دون غيره ، فهناك رئيس الأحداث في دمشق ، ورئيسهم في حلب ، ورئيسهم في بعلبك وطرابلس وسائر المدن .

وكانت أسلحتهم الحجارة والمقلاع والسكاكين ، وقد كان لهم دور حاسم في الحروب الصليبية وفي دفع الطامعين بدمشق عنها ، ولم يكونوا يتقاضون رواتب من أحد مقابل خدماتهم وإنما كانوا يعدون ذلك واجباً عليهم تجاه البلد الذي احتضنهم .

وكما قلنا فإن صورة الأحداث التي ظهروا بها في القرن السادس تختلف اختلافا جذريا عن صورتهم التي كانوا عليها عند نشأتهم في دمشق في القرن الرابع .

---

[١] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٨٢ .**
[٢] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٨٨ .**
[٣] - **سهيل زكار : إمارة حلب – دار الكتاب العربي – دمشق ١٩٨٨ ، ص٢١٦ .**
[٤] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٤٠ .**

وسنعرض فيما يلي وقائع حيّة من دور هؤلاء الأحداث في تاريخ دمشق ومجتمعها في القرن السادس ، مراعين التسلسل الزمني .

ففي سنة ٥٠٣هـ – ١١٠٩م حاصر طغتكين بعلبك لخيانة عاملها كمشتكين وتحالفه مع الفرنجة ، فلم يدافع عنه أحداثها وإنما أعلنوا ولاءهم لطغتكين فأحسن إليهم وخلع عليهم[١] .

وعندما قوي أمر الباطنية في حلب سنة ٥٠٧هـ – ١١١٣م خاف ابن بديع ، رئيس الأحداث فيها منهم لكثرتهم وخطرهم فشرع في الحديث مع السلطان ألب أرسلان في أمرهم[٢] .

وفي سنة ٥١٩هـ – ١١٢٥م وصل المتطوعون من مختلف أنحاء البلاد إلى دمشق تحت قيادة طغتكين لمنازلة صاحب بيت المقدس بغدوين ، وكان اللقاء في مرج الصفر جنوبي دمشق ، فاجتمع هناك من أحداث دمشق وأحداث الباطنية المعروفين بالشهامة من العقيبة وقصر حجاج والشاغور والشباب الأغرار خلق كثير[٣] .

وعندما فتك تاج الملوك بوري بالإسماعيلية في دمشق سنة ٥٢٣هـ – ١١٢٩م – ثارت الأحداث فيها ومعهم الغوغاء والأوباش فقتلوا من ظفروا به من الباطنية وأعوانهم . فهم هنا وقفوا مع سلطانهم ضد أعداء الجميع[٤] .

وعندما حاول زنكي احتلال دمشق سنة ٥٢٩ – ١١٣٥م تصدّى له العسكريون ، يدعمهم الأحداث[٥] .

وموقفهم هذا يشبه سابقه ، فهم لم يكونوا مقتنعين بالأتابك عماد الدين زنكي ، ولم يكونوا مستعدين للدخول تحت حكمه ، لذلك وقفوا مع حكامهم ضدّه في كل محاولاته العاثرة لدخول دمشق ولذلك فإنه عندما هاجم دمشق سنة ٥٣٤هـ – ١١٤٠م ظفر بجماعة وافرة من أحداث البلد وأحداث الغوطة وقتل مقتلة عظيمة بحسب رواية القلانسي الذي قال :

((إن زنكي لم يصادف من أجناد دمشق وأحداثها إلا الثبات في القتال ، فعاد عن دمشق مهزوماً[٦])) .

وفي شعبان ٥٣٢هـ – ١١٣٨م ، هاجم الفرنج مدينة حلب من جهة الجنوب والغرب ، فخرجت إليهم فرقة واحدة من أحداثها فقاتلتهم وانتصرت عليهم[٧] .

---

١ - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٦٧ .**
٢ - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٠٢ .**
٣ - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٣٨ .**
٤ - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٥٥ .**
٥ - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٣٩١ .**
٦ - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٢٦ .**
٧ - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤١٧ .**

وفي اليوم الأخير من حصار الفرنج لدمشق في سنة ٥٤٣هـ - ١١٤٨م ، فتح المسلمون أبواب البلد ، وكان يوما لم يُر مثله في جاهلية ولا اسلام ، وقصد واحد من أحداث دمشق قسيس الفرنج وهو في أول القوم فضربه وأبان رأسه وقتل حماره الذي كان قد علق فيه صليبا ، فانهزم الفرنج ، ولم يكن يدنو أحد من الفرنج إلا صُرِعَ برشقة أو طعنة ، وطمع فيهم نفر كثير من رجّالة الأحداث والضياع وجعلوا يرصدونهم في المسالك ، وقد تعبوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها ، وحصل من رؤوسهم العدد الكبير[1] .

وقد ذكر القلانسي في حوادث سنة ٥٤٤هـ - ١١٤٩م أنه عندما تمرد رئيس دمشق ، جمع من أمكنه جمعه من سفهاء الأحداث والغوغاء[2] .

وهذا يعني أنه كان بين الأحداث بعض السُّفهاء المرتزقة ، ولم يكونوا جميعاً على درجة عالية من الأخلاق الحميدة وهذا أمر طبيعي في جميع التنظيمات الجماعية .

ولعل دور الأحداث في سنة ٥٤٩هـ - ١١٥٤م كان من أهم الأدوار في تاريخهم .

وذلك أنه كانت للصليبيين قطيعة على أهل دمشق في عهد مجير الدين آبق ، وكانوا يرسلون إلى دمشق من يأخذها في وقتها ، فخاف نور الدين أن يستنجد حاكمها بالصليبيين ، فاستماله ، ثم كاتب الأحداث فيها واستمالهم فوعدوه بالمساعدة .

ولما تيقنوا أن مجير الدين قد اتصل من جديد بالصليبيين ثاروا عليه وسلموا البلد لنور الدين ، بعدما فتحوا الباب الشرقي فدخل نور الدين إليها وملكها[3] .

وفي سنة ٥٥٢هـ - ١١٥٧م نادى نور الدين بالجهاد يوم السبت آخر ربيع الأول ، فتبعه الأحداث والمتطوعة من فتيان البلد والغرباء والفقهاء والصوفية والمتدينين[4] .

وفي العام نفسه توجه نصرة الدين - أخو نور الدين - إلى حلب ، فأغلق الوالي أبوابها في وجهه ، فثار الأحداث وقالوا : هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه نور الدين ، فكسروا باب البلد ودخل نصرة الدين وهدّد الأحداث والي القلعة . وتوعّدوه ، وطلبوا إعادة الأذان بحي على خير العمل ، فاستنكر نور الدين ذلك وقال : أنا الآن أصفح عن الأحداث عن هذا الخطأ ، ولا أؤاخذهم بالزلل[5] .

[1] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٦٥ .**
[2] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٧٦ .**
[3] - **ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٢١٧ .**
[4] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٢١ .**
[5] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٣٤ .**

وهذه ناحية مهمة في موضوع الأحداث وعقيدتهم ، فالواضح هنا أن أحداث حلب كـــانوا شيعة أو يميلون إلى الشيعة بدليل طلبهم الأذان بحي على خير العمل ، وهو شعار الشيعة في كل بلد ، مع أن نور الدين كان قد ألغى ذلك سنة ٥٤٣هـــ – ١١٤٨م كما ذكرنا[١] .

فهل كانت أحداث دمشق مثلهم ؟ والواقع أنه لا توجد إشارة من أحد حول هذا الموضوع ، فربما كانوا سنّة ، وربما كانوا شيعة ، وربما كانوا من هؤلاء ومن هؤلاء .

ومن ذلك العرض نخلص إلى النتائج التالية :

بدأ ظهور الأحداث في بلاد الشام في القرن الرابع الهجري وكانت أهدافهم وطريقتهم غير حميدة ولذلك بادر والي دمشق جيش بن الصمصامة إلى القضاء عليهم سنة ٣٨٨هـــ – ٩٥٠م .

ولم يرد ذكر للأحداث في القرن الخامس في دمشق .

ولكن مع ظهور الخطر الصليبي عادوا للظهور ثانية ولكن بصورة مختلفة عن صورتهم الأولى ، وشاركوا مشاركة فعّالة في حماية دمشق والدفاع عنها ، وحاربوا الصليبيين تحـــت قيادة حكامها وأبلوا في ذلك بلاءً حسناً ، حتى صار اسم الأحداث مرادفا للشجاعة والـــشهامة والكرامة والمروءة .

ولم يقتصر دورهم على ذلك بل أضحوا ركناً أساسيا في حياة دمشق العامـــة ، لا يمكـــن لأي فئة أو حاكم أن يتجاهلهم أو يعمل خلافا لرغباتهم التي كانت بلغة اليوم : العدل والتحرير ، ولذلك كان كل حاكم في دمشق يتقرّب منهم .

ولم يكن تأثيرهم في دمشق وحدها بل كان هناك الأحداث في الغوطة وفي كـــل مدينـــة وقرية من مدن الأتابكية ، وكما رأينا فقد كان لهم دور بارز في تاريخ حلب أيضا حتى قيـــل فيهم إنهم كانوا أملك لحلب من مالكها .

أما عن عقيدتهم وأفكارهم فإنهم كانوا يمثلون السنة والشيعة معاً ، وكان الحكام يعرفـــون ذلك منهم .

ولم يكونوا جميعا على مستوى واحد من الشرف والأخلاق والفضيلة ، كما كان رجـــال الفتوّة في بغداد ، بل ظهرت منهم جماعة وصفت بالسفاهة .

على أن ذلك لا يغير الواقع كثيرا ، فالحقيقة التي يمكن الوصول إليها أن الأحداث – بما لهم وما عليهم – كانوا ظاهرة ايجابية في مجتمع المـــشرق ، وكـــانوا يخـــدمون مجـــتمعهم بطريقتهم ويرون أن الدفاع عن الوطن واجب قومي لازم ، وأن المشاركة فـــي إدارة أمـــور دمشق والدفاع عنها أمر مقدّس عندهم ، وكان من أهم ميزاتهم أن قيادتهم كانت جماعية وأنه

---

[١] ـ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٢٩٣ .

لم يحاول زعماؤهم الحصول على مكاسب مادية لقاء عملهم الذي كانوا يرونه فرضا علـيهم تمليه المروءة والنخوة والشهامة والوطنية .

وكانت تحصل أحيانا صراعات بين الأحداث في أحياء دمشق ، وكان يؤيد كل حي نفـر من شطار الغوطة والأتابكية وكان أهل الشاغور الحي الذي نشأ فيه الشاعر فتيان الشاغوري على خلاف مع أهالي قصر حجاج وقبر عاتكة وباب سريجة ، ومع ذلك نرى أن هذا الشاعر هجا أهله أهل الشاغور فقال :

وبـين نهيـري الـشاغور قـوم يرون الفخر كـونهم لـصوصا

فكلهـم متـى يظفـر بـشـاة تحوّل شوحة تغتـال صوصـا

ولـو أنّـا نـصافـح خيرّيهـم لسلّوا من خواتمنا الفصوصا[1]

وقد تطور هذا النزاع فيما بعد ، وصار نزاعا تاريخيا بين حي الشاغور وحـي الميـدان وحلفاء كل حي منهما وهو ما بدا واضحا في عصر المماليك .

ونختم حديثنا عن فئات المجتمع بدمشق بذكر الجواري والعبيد والأسرى لتكتمل صـورة ذلك المجتمع .

٣- الجواري والأسرى :

كان في دمشق عدة أماكن لبيع الجواري ، فالجميلات كُن يُبعن في سوق تحت القلعـة ، ومن دونهن جمالا في سوق الفسقار (مدحت باشا اليوم) ، والفائقات الحـسن فـي سـوق الشيخي ، وكان لهن دلال يدعى : دلال الجواري[2] .

وذكر القلقشندي أن من مهمة المحتسب وناظر أسواق الرقيق الاحتراز في الأمر ، لعـدم اختلاط العبيد بالأحرار ، لتكون الأنساب مصونة مرعيّة[3] .

وذكر الشاعر ابن الخياط قصيدة في جارية أراد شراءها من سوق الجواري ، فغفل عنها ، فسبقه إليها غيره فاشتراها ، وكان مما قال :

يا مفلت الظبية الغنـاء مـن يـده هلا علقـت بهـا حُييـت مقتنـصا

قد أمكنتك فمـا بـادرت فرصـتها من شاور العجـز لـم يـستنهض

إن اللبيـب إذا مـا عـنّ مطلبـه أهوى إليه ولم ينظر به الرُّخصا[4]

---

1 - **فتيان الشاغوري : الديوان ، ص٢٥٣ .**
2 - **أكرم العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ص١١٦ .**
3 - **القلقشندي – : صبح الأعشى ، ج١٠ ، ص٤١ و١٥٦ .**
4 - **ابن الخياط : الديوان ، ص١٠٠ .**

وكما كان الحال في العصر العباسي والأموي والجاهلي ، كانت الجواري ممّا يتهاداه الناس فيما بينهم .

وفي ديوان ابن الساعاتي أنه استهدى من صديق له جارية سوداء مغنية تدعى وردة ، فأهداها إليه فقال فيها :

ولقد شقيت بوصل خودك ليلة طالت فكان ظلامها لا ينفذ

سوداء حالكة تُلقّب وردة وعجيبة الأيام ورد أسود[١]

أما مصادر الجواري والعبيد فكان عن طريق الشراء أو الغنيمة في الحرب ، ولما كانت الحروب لا تنقطع بين المسلمين والفرنجة ، فقد كان من الطبيعي أن يكثر الرقيق في المعسكرين على حد سواء ، أي أنه كان في الطرف الغربي من البلاد حيث يسيطر الفرنجة أسواق للنخاسة يباع فيها المسلمون والمسلمات أيضاً ، الأمر الذي يدفعنا للحديث عن الأسرى والأسيرات .

فقد ذكر ابن جبير : ((أن أسرى المسلمين من الرجال والنساء كانوا يعاملون معاملة سيئة للغاية ، فالرجال كانوا يرسفون في القيود ، ويكلّفون بأداء الخدمات الشاقة مثل العبيد تماماً ، والأسيرات المسلمات كذلك ، في أرجلهن الخلاخل من الحديد ومنظرهن تنفطر له الأفئدة ، ولا يغني الإشفاق شيئاً . وكان المسلمون بالشام يوصون بمبالغ كبيرة لافتكاك الأسرى ولاسيما المغاربة ، لأنه لا أهل لهم ولا مخلص لهم سوى الله تعالى ، وقد نذر نور الدين مره ١٢,٠٠٠ دينارا لفكاك أسرى المغاربة ... وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسير التجار أصحاب القوافل الصادرة والواردة إلى الساحل السوري والفرنجة وهذان يعملان دوماً في افتكاك الأسرى المغاربة[٢])) .

ويقول في موضع آخر :

((ورحلنا من تبنين ، دمّرها الله ، وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلهم مسلمون ، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه ، يؤدون لهم نصف الغلّة عند أوان ضمّها وجزية قدرها دينار وخمسة قراريط (ربع دينار) ولا يعترضونهم في غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم وكل ما بيد الفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، القرى والضياع كلها للمسلمين[٣] ...))

---

١ - **ابن الساعاتي : الديوان – تحقيق أنيس المقدسي – بيروت ١٩٣٨ – جزءان ، ج١ ، ص١٢٤ .**
٢ - **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٨١ .**
٣ - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٧٥ .**

وذكر عن رجل من ذلك العصر يدعى مظفر الدين كوكبوري أنه كان يسيّر في كل سنة بعض أمناء البلد لافتكاك أسرى المسلمين من أيدي الكفار[1] .

ووقع أخ للأمير أسامة بن منقذ في الأسر ، فأرسل إلى ابن عمه الأمير ناصر الدين يطلب منه المساعدة على إطلاق سراحه قائلاً :

يا ناصر الدين يا بن الأكرمين ومن   يغني ندى كفه عن وابل الدّيم

هذا ابن عمك في أسر الفرنج له   حولٌ ، تجرّم في الأغلال و الظلم

أنا ابن عمك فاجعلني بفك أخي   من أسره لك عبداً ما مشت قدمي

فلم يحركه الشعر ، وما مشى في خلاصه ولا أعان عليه ، حتى ملك الملك العادل نور الدين وكان في أسره فارس يدعى " المشطوب" من فرسان الداودية ، وكان الفرنج قد بذلوا فيه ١٠,٠٠٠ دينار فأبى ولما علم بأخي الأمير أسامة أطلقه مقابل إطلاق الأمير الأسير نجم الدين[2] .

وذكر المقدسي ((أن مدن عمواس وغزة وعسقلان ويافا وأرسوف وغيرها كان يتم فيها افتكاك أسرى المسلمين بواقع مائة دينار لكلّ ثلاثة أسرى ، وكل يشتري من الأسرى لإطلاق سراحهم بحسب الحالة[3])) .

رابعاً – المرأة :

تمهيد :

ارتبط تاريخ المرأة في دمشق في الحقبة التي ندرسها ، بتاريخ الحروب الصليبية التي جعلت المرأة تقاتل مع الرجل أو من خلفه ، وتعيش حياتها كما تعيش اليوم المرأة العربية في فلسطين والعراق .

ولذلك غلب طابع الجد في حياتها على طابع الهزل والمرح والغزل ، وهذا ما نلمسه بوضوح من خلال استعراض سيرة العديد من النساء العربيات في دمشق ، واللواتي برزن في ميادين الجهاد والعلوم والحكم والشعر والأدب .

وسنقدم فيما يلي نماذج مختلفة من صور المرأة ومكانتها في المجتمع من خلال المصادر الأصيلة المعاصرة .

---

[1] - **ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١١٧ .**

[2] - **أسامة بن منقذ : الديوان ، ص١٤٩ .**

[3] - **المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٥١ .**

١ – المرأة والجهاد :

فرض الصليبيون الجهاد على المسلمين رجالا ونساء وغلمانا وشيوخا ، بما قاموا به من مجازر جماعية مدروسة بدقة بالغة ، ومخطط لها بخبث ودهاء .

وقد وصف لنا الأمير أسامة بن منقذ وغيره من المؤرخين صوراً من حياة المرأة العربية المسلمة التي كانت تكافح ضمن إمكانياتها ، مع الرجل جنبا إلى جنب ، وهذا أمر لا يمكن أن يتم أصلاً ، إلا إذا كانت المرأة على درجة معقولة من الوطنية والثقافة والحريّة والمروءة ، وهذا يعني أن المرأة لم تكن حبيسة الدار معزولة عما يدور حولها ، بل إنها كانت تعيش حياتها مثل من سبقها من النساء العربيات على مرّ التاريخ مع الاحتفاظ التام بمثلها وتقاليدها وعاداتها ودينها وشرفها وأصالتها .

فمن حوادث المروءة والشرف ، ما ذكره الأمير ابن منقذ في " الاعتبار " أنه ((لما كان في شيزر يحارب الباطنية ، جاءت أمّه إلى أخت له كبيرة ، ووضعتها على روشن أي شرفة ، في داره يشرف على الوادي العميق من جهة الشرق ، ثم قالت له : يا بني ، لقد أجلستها على الروشن ، حتى إذا جاء الباطنية إلينا رميتها في الوادي فتموت ويكون خيراً لها من الوقوع في الأسر .

وعندما جاء الباطنية تلثمت عجوز من جواري جدي الأمير علي يقال لها " فنون " وأخذت سيفا وخرجت إلى القتال حتى نهاية المعركة لئلا يصل إلينا شيء من أذاهم ويقع المحظور في النساء[١])) .

وقال في موضع آخر :

((كان في الجند رجل كردي يقال له " أبو الجيش " وله بنت اسمها " رفول " قد سباها الفرنجة ، وأبوها يسأل عنها باستمرار عبثاً ... وفي أحد الأيام وجدناها غرقى في نهر العاصى ، وعليها ثوب أزرق ، وقد رمت نفسها من على فرس الإفرنجي الذي سباها فغرقت ، وعلق ثوبها في شجرة صفصاف))[٢] .

ومن صور الشرف الأخرى ما ذكره أسامة ، فقد قال :

((وشاهدت من نخوات النساء عجبا ، وهو أن أحد الرجال كان له نظر ثاقب يبصر الأشياء البعيدة ، فانتقل إلى خدمة الإفرنج يقدم لهم خدماته وكان يدعى " ابن أبي الريداء " .

فتضرر المسلمون منه كثيراً ، وكان يقيم مع الفرنجة في " كفر طاب " ومعه امرأته ، وهي تنكر عليه فعله واتصاله بالفرنجة ، دون جدوى . فاستدعت أخاها من إحدى الضياع

---

١ ـ **أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص١٦٠ .**

٢ ـ **أسامة بن منقذ : المصدر المتقدم ، ص١٩٢ .**

فقتلاه ثم أخفته زوجته في البيت إلى الليل ، ثم هربت مع أخيها إلينا في شـيزر وقالـت[1] : غضبت للمسلمين مما يفعله هذا الشيطان الكافر ، فأرحتهم منه)) .

وقال : ((ومن صور البطولة للمرأة المسلمة في تلك الأزمنة . أن جماعة مـن حجـاج الفرنجة كانوا قد حجوا وعادوا إلى " رفنيّة " ثم خرجوا منها يريدون أفاميا ، فتاهوا في الليل وجاؤوا إلى شيزر وهي بغير سور وهم في ٧٠٠ رجل وامرأة وصبي ، ولم يكن فـي البلـد عسكر للمسلمين .

وكان في البلد امرأة يقال لها نضرة ، خرجت فأخذت إفرنجياً وأدخلته دارها ، ثم أخـذت آخر ثم ثالثاً ، فلما سلبتهم ما معهم ، خرجت ودعت جيرانها فقتلوهم[2] ...)) .

٢- المرأة الحاكمة :

وأما صورة المرأة الحاكمة فقد تجلت في ثلاث نساء ، كان لهن دور مؤثر فـي تـاريخ دمشق وهن : صفوة الملك ، وزمرُّد بنت جاولي ، وعصمة الدين بنت معين الدين أُنر .

أ ــ الخاتون صفوة الملك :

زوج السلطان تاج الدولة تتش ، طلقها ووهبها للأتابك طغتكين إكراماً له ، على عـادة السلاجقة ، وهي أم السلطان شمس الملوك دقاق بن تاج الدولة تتش .

وقد ذكر القلانسي أنه عندما أشرف دقاق المذكور على الموت ، طلبت منه أمه أن يوصي بما في نفسه فأوصى أن يكون الأميـر ظهيـر الـدين أتابـك فـي ولايـة دمـشق مـن بعده[3] .

وأورد ابن عساكر أن أمّه صفوة الملك هذه زيّنت له جارية ، فسمّته في عنقود عنـب ، ثقبته بإبرة فيها خيط مسموم ولما أكله تهرّى جوفه فمات[4] .

وقد دفنت أمه في الخانقاه الطواويسيّة التي كانت قد باشرت ببنائهـا ، مقابـل " جـامع الطاووسية " اليوم والذي استمدّ اسمه من الخانقاه المذكورة .

والغريب أن هذه المرأة ، شأنها شأن ابنتها الآتية زُمرد ، أقدمت على قتل ولـدها دقـاق بحسب رواية ابن عساكر التي انفرد بها عن سائر المؤرخين ، ولعلّها فعلت ذلك حرصا على تقوية الجبهة الداخلية والتفاف الناس حول الأمير ظهير الدين طغتكين زوجها .

والمهم أنها أوصت بأن تدفن عند ولدها في " قبة الطواويس " في الشرف الأعلى ظـاهر دمشق ، وقد نفذ طغتكين رغبتها ودفنها عند ولدها يوم وفاتها في آخر جمادى الأولـى سـنة ٥١٣هـ - ١١١٩م .

---

[1] ـ أسامة بن منقذ : المصدر المتقدم ، ص١٦٣ .
[2] ـ أسامة بن منقذ : المصدر المتقدم ، ص١٦٥ .
[3] ـ القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٢٣٣ .
[4] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١٧ ، ص٣٠٤ .

ب ــ زمرد بنت جاولي الخاتون :

زوج تاج الملوك بوري ، وأخت الملك دقاق لأمه ، وبنت صفوة الملــك ، وأم شـــمس الملوك إسماعيل بن بوري وأخيه محمود .

وقد وصفها ابن عساكر بأنها كانت :

((امرأة محبة للخير ، مكرمة لأهل العلم ، سمعت الحديث من أبي الحسن بن قيس وأبي الفتح نصر الله بن محمد ، وأبي طالب الصوري ، واستنسخت الكتب المفيدة ، وقرأت القرآن على محمد بن طاووس وأبي بكر القرطبي ، وبنت المسجد المشهور بالشرف الأعلى – مكان كلية الهندسة اليوم– ووقفت عليه الأوقاف الواسعة ، ولما خافت من ولدها إســماعيل قتلتــه بحضرتها وأقامت أخاه محموداً مكانه))[1] .

وكانت السيدة الأولى لدمشق على مدى عشر سنين ، وقد تزوجت بالأتابك زنكي وأقامت معه في حلب ، وبعد قتله عادت إلى دمشق ، ثم توجّهت إلى بغداد ، ثم جاورت فــي مكــة المكرمة وصارت تعمل بغربلة القمح وطحنه لتعيش بأجرته ، وماتت في المدينة المنورة فقيرة غريبة ودفنت في البقيع سنة ٥٥٧هــ– ١١٦٢م .

وكما اتهمت أمها بقتل ولدها دقاق ، اتهمت زمرد هذه بالميل إلى ابن فيــروز الحاجــب فعاجلت ابنها بالقتل قبل الإساءة لها ، أو الحجر عليها ، كما يفعل الملوك بأمهاتهم وأزواجهم .

وأيّا ما كان الأمر ، فقد كانت هذه الخاتون السيدة الأولى في دمشق ، في عصر كثــرت فيه الأخطار والحروب والفتن ، وكان الناس يلجؤون إليها لحل مشكلاتهم ، وهو مــا ظهــر بوضوح عند حديثنا عن بناء المدرسة الحنبلية الشريفيّة .

وتعد الخاتون زمرد أوّل وآخر امرأة في دمشق مارست السلطة بشكل أو بآخر ، لأن من جاء بعدها من الأميرات ، سواء في عصر نور الدين أو صلاح الدين وخلفائه أو المماليــك ، لم يصل بهن الحال إلى التدخل في شؤون الحكم ، ماعدا ما كان من شجرة الدر في مصر[2] .

ج ــ الخاتون : عصمة الدين بنت أُنرْ :

كانت واحدة من ثلاث بنات لمعين الدين أنر ، تزوج الثانية صاحب دمشق مجير الــدين آبق وتزوج الثالثة واحد من أمراء أنر[3] .

عقد نور الدين الشهيد عقده عليها بدمشق في شوال ٥٤١هــ – ١١٤٧م وهو في الثلاثين من عمره ، وحملت إليه في حلب في ذي القعدة[4] .

---

[1] ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٦٩ ، ص١٦٧ .**
[2] ـ **الصلاح الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج١٧ ، ص٢١٣ .**
[3] ـ **سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، ص٧٤٤ .**
[4] ـ **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٥٠ .**

وعلى الرغم من أن زواجها هذا يذكر بزواج الخاتون زمرد بنت جاولي بعماد الدين زنكي والد نور الدين ، إلا أن عصمة الدين هذه كانت بعيدة تماماً عن السياسة منصرفة عنها إلى العبادة والتهجُّد ، وكانت أثيرة عند نور الدين .

وقد وصفت بأنها من خير النساء ، وأعفهن وأعصمهن ، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى ، ولها معروف وبرّ وصدقات ورواتب للفقراء وبنت لهم في دمشق المدرسة الخاتونية بجوار البيمارستان النوري والخانقاه بجوار جامع تنكز من الشرق تماماً .

وقد ذكر أنها نامت يوما عن وردها ، فأصبحت وهي غضبى ، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب الطبول في القلعة وقت السحر لإيقاظ النيام . وبقي هذا الأمر حتى نهاية عصر المماليك[1] .

ومع ذلك ، فإنها أرسلت يوما أخاها إلى نور الدين تذكر له ، أن ما قرّره لها لايكفيها وتطلب منه الزيادة .

فغضب نور الدين لذلك وقال : والله لا أخوض في نار جهنم في هواها ، إنما هي أموال المسلمين وأنا خازنهم ، ولي ثلاث دكاكين في حمص قد وهبتها لها فلتأخذها[2] .

ولما توفي عنها نور الدين ، أقامت في منزلها بقلعة دمشق رفيعة القدر ، مستقلة بأمرها ، كثيرة الصدقات والأعمال الصالحات ، فأراد السلطان صلاح الدين الاقتران بها ، بعد موافقتها ، وتم العقد في شهر صفر سنة ٥٧٢هـ – ١١٧٦م .

وبقيت عصمة الدين عند صلاح الدين حتى وفاتها في ذي القعدة سنة ٥٨١هـ – ١١٨٦م .

وقد وصفها أبو شامة بأنها من أعف النساء وأحزمهنّ ، ولها أوقاف وأياديها خيّرة للجميع .

وكان السلطان صلاح الدين عند وفاتها ، في حران في شمالي البلاد ، وكان يكتب إليها في كل يوم كتابا طويلا لثقته بها وميله إليها ، وقد دفنت في تربتها ، جنوب المدرسة الجهاركسية بالصالحية فيما يعرف اليوم بجامع الجديد ، وقبرها في قبة خاصة في صحن الجامع[3] ، وقد زرتُه .

---

[1] ـ العلبي : خطط دمشق ، ص١٨٦ .

[2] ـ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص٥٤ .

[3] ـ أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج٣ ، ص٢٤٤ .

٢ــ المـــــرأة والتعليـــــم :

لا يمكننا معرفة نسبة المتعلمات من النساء ولا حتى من الرجال في تلك الحقبة ، كما أننا لم نجد في المصادر التي بين أيدينا ذكراً لمسجد أو مدرسة أو رباط يتولى تعليم البنـــات فـــي دمشق ، كما لم يذكر ابن جبير ولا غيره ، وجود بنات مع الصبيان في حلقات التعليم ســـواء في جامع دمشق أو غيره ، بل إننا وجدنا نصّا واضحاً وصريحا في وقفية المدرسة البادرائية بدمشق يمنع دخول المرأة إلى المدرسة منعا باتا ، وفصل الطالب الذي يتزوج أثناء الدراســـة وقـــد حـــضر الـــسلطان الناصـــر حفـــل افتتـــاح المدرســـة ، وقـــرئ أمامـــه كتـــاب الوقف[١] .

ومن القواعد التي كانت متبعة آنذاك في تعليم البنات عامة ويعمل بها ، ما كتب به عمـــر بن الخطاب إلى أهل الكوفة ، وما حـــدّثت بـــه الـــسيدة عائـــشة أم المـــؤمنين رضـــي الله عنها :

((لا تروّوا لبناتكم الشعر ، وعلموهن القرآن الكريم ، ومـــن القـــرآن ســـورة النـــور . وعلموهن الغزل . بتسكين الزاي))[٢] .

وأما سبب تعليمهن سورة النور خاصة ، فهو لما في تلك السورة مـــن آيـــات الحجـــاب والاستئذان والحشمة والعفّة ، وعقوبة المنحرفات والمنحرفين أخلاقياً .

وقد ذكر عن عيسى بن مسكين أنه كان يجلس إلى طلبته حتى العصر ، ثم يـــدعو بناتـــه وبنات أخيه يعلمهنّ القرآن الكريم والعلوم الأخرى . وذكر ابن الجـــوزي أن فاطمـــة بنـــت الحسين ٥٢١هــ – ١١٢٧م كانت واعظة متعبدة لها رباط تجتمع فيه الزاهدات وأنها أسمعت ابن عساكر[٣] .

والمهم : ماذا عن وضع المرأة العلمي في دمشق والتي وصلت إلى درجة (الأســـتاذية) أي الشيخة ، أو الدكتوراة بلغة اليوم .

ذكر الذهبي أنه تتلمذ على يد ١٠٤٣ شيخا وشيخة كان منهم ١٠٦ شيخات ، وقـــد ذكـــر سماعاتهن وإجازاتهن ودروسهن مما يقطع بأنه كان يتلقى عنهن العلم مباشرة ، وقال عنهن :

((ما علمت من النساء من اتّهمت ولا من تركوها)) في الوقت الذي ذكر عدداً كبيراً من الرجال المدلّسين والمتهمين[٤] .

وعقد محمد بن سعد جزءا من كتابه للنساء راويات الأحاديث ذكر فيه أسماء ٦٢٩ امرأة روين الحديث ورواه عنهن أئمة الحديث[٥] .

---

١ ـ **عبد القادر النعيمي : الدارس ، ج١ ، ص١٥٤ .**

٢ ـ **القرطبي : الجامع لأحكام القرآن – دمشق ١٤١٥هـ ، ج٦ ، ص١٤٦ .**

٣ ـ **القاضي عياض : ترتيب المدارك – طرابلس ليبيا ١٣٨٨ ، ج٤ ، ص٢٢٧ .**

٤ ـ **الذهبي : معجم شيوخ الذهبي – تحقيق روحية السّيوفي – بيروت ١٤١٠هـ ـ الصفحات من ٤١٣ حتى ٤١٧ .**

٥ ـ **ابن سعد : الطبقات الكبرى – بيروت ١٤١٠هـ ـ الجزء الثامن .**

كما ذكر الحافظ المزّي أسماء ٢٦٥ امرأة من راويات الحديث الثقات[1] .

وذكر السبكي أن الخطيب البغدادي قرأ صحيح البخاري في خمسة أيام علـــى " كريمـــة المروزية[2] " .

على أن أوضح وأدق صورة لواقع المرأة المتعلمة في دمشق في مرحلة الدراسة ، إنمـــا ذكرها مؤرخ دمشق ابن عساكر .

فقد أفرد في تاريخه جزأين كاملين لتراجم النساء ممن كان لهنّ رواية أو أدب .

ووضع كتاباً سماه : ((من سمع منهن من النسوان)) أي اللواتي سمع منهن الحـــديث ، ويعرف أيضا بمعجم النسوان[3] .

وهذا الكتاب يتضمن أسماء بضع وثمانين امرأة من شيخاته في دمشق وبغداد .

وقبل الحديث عن شيخات ابن عساكر ، لابد من التنويه ، إلى أن قواعد علم الحديث كانت صارمة تماما في ألفاظها ومدلولاتها ، وهناك فروق بين كلمات قد لا يقيم لها المؤرخون بالاً مثل قولهم أخبرني وحدّثني وسمعت وقرأت ، مما هو مبسوط في كتب الحديث .

والمهم في ذلك بالنسبة لموضوعنا عن المرأة أنه عندما يذكر الحـــافظ – أي المحـــدث– عبارة : حدثني مثلا ، أو سمعت عن فلان أو فلانة ، فإنه لابد أن يكون متأكدا من شخـــصية من حدّثه أو سمع منه أو أخبره ، وبمعنى آخر لابد أن يكون قد رآه وعاينه ولذلك لا يـــصح السماع من وراء حجاب ، بل لابد من معاينة الطالب لشيخه أو شيخته حتى يصح الـــسماع ، وهذا يعني أن المرأة المدرسة كانت تجلس أمام طلابها في مجلس عام في الجامع أو الرباط أو الخانقاه أو البيت أو القصر ، وتسمع الحديث الشريف والعلوم الأخرى .

وهذا يقودنا إلى الحديث عن السماع نفسه .

فالسماع باختصار هو الطريقة الأكثر شيوعا من طرق تلقي العلوم في القـــرون الأولـــى ولاسيما مع نشأة علوم الحديث وظهور الحفاظ والمحدثين .

وأما كيفيته فهو أن يجلس الشيخ أو الشيخة في مجلس العلم ثم يقوم الشيخ نفسه أو القارئ الذي يعينه الشيخ بالقراءة في الكتاب المقرر وشرح عباراته وما غمض من فنونه ، ويتـــولى الطلاب المتحلقون حول الشيخ تصحيح العبارات في كتبهم ، كما ذكرها الشيخ .

ويكون في حلقات السماع هذه في العادة كل من :

الكاتب أو كاتب الغيبة كما كان يسمى ، ومهمته تسجيل أسماء الحاضـــرين والمتـــأخرين والغائبين من الطلبة وعندما يمنحهم الشيخ إجازة في الكتاب الذي قرأه عليهم يكتب للمتأخرين

---

[1] **ـ الحافظ المزّي : تهذيب الكمال – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٣هـ ـ الجزء ٣٥ بكامله ، وهو مخصص للنساء .**

[2] **ـ السبكي : طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص٣٠ .**

[3] **ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١ ، ص٢٣ .**

والغائب على الإجازة عبارة : مع فوت ، أو مع غياب عن الفصل الثاني والثالث على سبيل المثال .

وقد يساعد الكاتب من يدعى بالناسخ ، وهذا يسجل السماعات على الكتاب أي أسماء الذين حضروا في كل مجلس ، كما يسجل اسم الكتاب المقرّر ومكان القراءة وزمانها .

وعلى سبيل المثال ذكر الذهبي أنه كان يقرأ للشيخة عزبة بنت محمد الكفربطنانية –نسبة إلى بلده كفر بطنا – في درسها وأن السبكي والواني والمحب ، كانوا من المستمعين لها[١] .

ومن النساء العالمات اللواتي مارسن التدريس عن طريق السماع نذكر الأستاذة الشيخة : كريمة بنت علي القرشية ، التي كانت تدرس الحديث الشريف في بستانها في الميطور بقاسيون .

وكان اسم المخطوط : أحاديث محمد الأسدي

- وعدد الحضور : ١٣ طالباً
- والتاريخ : ٢٣ جمادى الآخرة ٦٣٠هـ – ١٢٣٣م
- وقارئ الدرس والكاتب : يوسف بن الحسن النابلسي
- وهذا السماع مسجل على الورقة ٣٤ من المخطوط المذكور ، المحفوظ في مكتبة الأسد من مخطوطات المدرسة العمرية
- رقم المخطوط في المكتبة : ٣٨٠٣ مجاميع .

وقد يكون التاريخ متقدماً بعض الشيء ، وقد اضطررنا لاستخدامه لأن المخطوطات الأقدم سماعا ، أي في القرن الخامس والسادس كانت في حالة سيئة للغاية ، بحيث يتعذر قراءة محتواها فضلا عما فيها من السماعات ، وذلك لا يؤثر على الجوهر والمبدأ الذي نتحدث عنه .

[١] - الذهبي : معجم شيوخ الذهبي ، ص٤١٧ . وأفضل ما نشر عن السماعات كتاب " معجم السماعات الدمشقية " من تأليف المستشرق الألماني : ستيفن ريدر ، والأستاذ ياسين السواس ومأمون صاغرجي وفيه تتبع الباحثون السماعات الموجودة في المكتبة العمرية ، والتي نقلت مخطوطاتها إلى مكتبة الأسد ، والكتاب طبع في المعهد العلمي الفرنسي العربي B .O . E بدمشق سنة ١٩٩٦م ، ثم صدر ملحق له سنة ٢٠٠٠م فيه جميع صور السماعات كما كانت مدونة على المخطوطات ، وسوف نعرض فيما يلي نماذج من هذه السماعات التي تصدّرت فيها المرأة للتدريس حتى تصبح الصورة كاملة بأدق تفاصيلها .

وللشيخة الأستاذة المسمّعة كريمة المذكورة سبعة سماعات أخرى على هــذا المخطــوط وجميعها في بستانها بالميطور[1] .

ومن سماع آخر نقرأ :

– المكان : جبل قاسيون ظاهر دمشق

– المسمعة الشيخة : زينب بنت مكي الحرّاني ، أم أحمد

– القارئ أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة .

– الكاتب : القاسم بن محمد البرزالي ، علم الدين

– عدد الحضور : ١٤

– اسم المخطوط : أمالي القاضي أبي يعلى الفرّاء[2] .

وسماع آخر للخاتون فاطمة بنت أحمد بن صلاح الدين الأيوبي أم الحسن

– اسم الكتاب حديث أبي حفص الكتاني المقرئ

– المكان : منزل المسّمعة بسفح قاسيون

– التاريخ : ٢٤ ربيع الأول ٦٧٣هـ – ١٢٧٥م .

– القارئ : علي بن مسعود الموصلي

– الكاتب : عبد الحافظ المقدسي

– عدد الحضور : ١٤[3] .

وهناك سماع من مرحلتنا المدروسة نذكره هنا من باب العلم بالشيء ، وهو سماع للرجال :

– اسم الكتاب : الفتن ، لحنبل بن إسحاق بن حنبل الشيباني

– التاريخ : رمضان ٥٧٤هـ – ١١٧٩م

– المسّمع : أحمد بن عبد الحيّ

– القارئ : نصر الحصري

– عدد الحضور : ١٠[4] .

ولابن عساكر سماعات كثيرة وجدنا منها السماع التالي :

– اسم الكتاب : فوائد أبي طاهر

[1] ـ أرقامها : ٩ و ١٢ و ١٨ و ١٩ و ٢٢ و ٢٤ و ٢٥ ، ومعنى ميطور : ماء الجبل ، وهو جنوب المدرسة الركنية .انظر :
ياسين السواس وزملاؤه : المصدر المتقدم ، الصفحات : ١١٦ و ١١٧ و ١١٨ .

[2] ـ ياسين السواس : المصدر المتقدم ، ص ١٣٩ السماعان : ١٣ و ١٤ .

[3] ـ ياسين السواس : المصدر المتقدم ، ص ١١٠ السماع رقم ٥ و ٦ .

[4] ـ ياسين السواس : المصدر المتقدم ، ص١٠٢ سماع رقم ٤ .

- التاريخ : يوم الجمعة ١٢ شعبان سنة ٥٧٠هـ - ١١٧٥م
- ويوم الجمعة ١٩ شعبان ٥٧٠هـ - ١١٧٥م
- المكان : جامع دمشق
- المسمع : علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ابن عساكر)
- القارئ : الحسن بن صصرى
- القارئ الآخر : الحسين بن صصرى
- الكاتب : أحمد بن علي الفرضي
- وعدد الحضور : ٢٠[١]

وقد يقوم الشيخ بمهمة القارئ والكاتب أيضا كما في السماع التالي :

- الكتاب : فوائد أبي طاهر
- التاريخ : شعبان ٥٥٩هـ - ١١٦٥م
- المكان : المسجد الجامع بدمشق
- المسمع والقارئ والكاتب : ابن عساكر
- عدد الحضور : ٣٤ (ثم تذكر هذه الأسماء بالتفصيل)[٢] .

ومن سماعات الحنابلة في دمشق نقرأ :

- اسم الكتاب : جزء فيه فوائد في الحديث لأبي سليمان الحرّاني
- رقم الورقة : ٣٣ / أ
- التاريخ : يوم الخميس ٦ ذي القعدة ٥٨٩هـ - ١١٩٣م
- المكان : حلقة الحنابلة بجامع دمشق
- المسمع : عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي - الموفق -
- الكاتب : يوسف بن خليل الدمشقي
- عدد الحضور : ١٧[٣] .

وهناك سماعات كثيرة تعود إلى الحقبة الزمنية التي ندرسها ، لكنها غير مقروءة بسبب الرطوبة أو لسوء الحظ ولعوامل الزمن الأخرى لأن عمرها قد قارب الـ ٩٠٠ عام .

ونذكر فيما يلي نماذج من النساء العالمات بدمشق بحسب رواية ابن عساكر ، مراعين في العرض الترتيب الزمني .

---

[١] - **ياسين السواس : المصدر المتقدم ، ص ٧٨ - سماع رقم ٣ .**

[٢] - **ياسين السواس : المصدر المتقدم ، ص٧٨ - سماع ١ وانظر ص ٧٧ سماع ٣ و ٤ وهي أيضاً لابن عساكر .**

[٣] - **ياسين السواس : المصدر المتقدم ، ص٧٣ - سماع ٤ وانظر السماعات ٥ و ٦ و ٧ و ١٠ .**

ومن النساء العالمات أيضاً اللواتي مارسن التدريس عن طريق السماع العالمة ملكة بنت داود المتوفاة سنة ٥٠٧هـ – ١١١٢م ، ولقب العالمة هو أعلى الألقاب العلمية .

يقول ابن عساكر :

((سمعت بمصر من أحمد بن القاسم الحسني ، وسمعت بمكة من كريمة بنت أحمد المروزيّة ، وسمع منها شيخنا أبو الفرج الصوري ، وسكنت دمشق في دويرة السّمسياطي ، وأجازت لي جميع حديثها ، توفيت بدمشق ودفنت في مقابر الباب الصغير عند قبر بلال ، رضي الله عنه))[١] .

– ومن خلال هذه الترجمة الموجزة لها نلاحظ الآتي : أنها سافرت إلى مصر ، ثم إلى مكة في طلب العلم ، وأسمعت الحديث لأبي الفرج الصوري أستاذ ابن عساكر ، وأغرب ما في الأمر ، أنها كانت من المعمّرات ، فقد ولدت سنة ٤٠٣هـ – ١٠١٢م ، وحدثت ابن عساكر المولود سنة ٤٩٩هـ – ١١٠٦م ، وإذا افترضنا أن هذه الإجازة تمت عندما كان ابن عساكر في الثامنة أي سنة ٥٠٧هـ – ١١١٣م ، فمعنى هذا أنّ هذه العالمة كانت تحدث وتجيز وقد تجاوز عمرها مائة عام بل إنه وصل بالتحديد إلى ١٠٤ أعوام .

ويفهم من ذلك أيضاً ، أن دويرة السمسياطي ، أي الخانقاه السمسياطيّة كانت للرجال والنساء .

ومن النساء العالمات فاطمة بنت علي العكبري نحو ٥٢٦هـ – ١١٢٦م ، التي ولدت في بغداد ، وسمعت فيها عدداً من الشيوخ ، ثم قدمت دمشق ، فقرأ عليها ابن عساكر جزءا في صفة المنافق ، وجزءاً في الحديث سنة ٥٢٦هـ – ١١٣٢م ، ثم قال : وأظنها ماتت بدمشق[٢] .

ومن النساء العالمات ستّ العشيرة بنت عبد الله – ٥٥٦هـ – ١١٦١م ، سمعت جدّها القاضي الخطيب أبي عبد الله

ثم قال ابن عساكر :

((وجدت سماعها على جزء واحد فعزمت على قراءته عليها فلم يتفق . عمرت وحجّت حجتين وعاشت ٩١ سنة[٣])) .

ومنهن عائشة بنت علي بن الخضير – ٥٦٤هـ – ١١٦٨م هي زوج ابن عساكر وقال عنها :

---

١ - **ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٧٠ ، ص١٢٧ .**
٢ - **ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٧٠ ، ص٣٤ .**
٣ - **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٦٩ ، ص١٩٠ .**

((أم عبد الله السلمية ، أسمعتها الحديث من فاطمة بنت علي في دارنا ، وسمع منها أولادها في دارها[1])) .

– ومنهن فاطمة بنت سهل ؟ قال عنها ابن عساكر :

((ستّ العجم سمعت أباها وسمعت من أحمد بن محمد الطريثيثي . وكانت تعظ النساء في بعض المساجد وفي الأعزية ، لقيتها ولم أسمع منها شيئاً ، كانت تلقب بالعالمة الصغيرة[2])) .

ومنهن فاطمة بنت علي – ٥٦٧هـ – ١١٧١م ، سمعت أباها الفقيه أبا الحسن المالكي ، وكانت امرأة متدينة ، حجت هي وأختها ، ولم تتزوّجا ، ووقفتا وقفا على إمام محراب جامع دمشق ، وعلى الفقهاء المالكية المشتغلين بالفقه في جامع دمشق ، ماتت ليلة السبت ١٢ شوال ٥٦٧هـ – ١١٧٢ ، ودفنت بباب الصغير[3] .

ومنهن تجنّي الوهبانيّة – ٥٧٥هـ – ١١٧٩م ، شيخة مسندة معمّرة ، روى عنها عشرة من المحدثين ، وذكرها الدبيثي وقال :

((أجازت لنا[4])) .

ومن النساء اللواتي جمعن السماع والشعر والأدب الشاعرة تقية الصورية ٥٠٥هـ – ٥٧٩هـ – ١١١١م – ١١٨٣م .

وهذه الشاعرة المحدّثة العالمة ولدت بدمشق . واسمها الكامل : تقية بنت غيث بن علي الأرمنازي الصوري ، أم علي . وهي النموذج الكامل للمرأة الدمشقية وطموحها وقدراتها .

قال عنها ابن خلكان :

((كانت فاضلة ، ولها شعر جيّد ، قصائد ومقاطيع ، وصحبت الحافظ أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني ، في ثغر الإسكندرية ، وذكرها في بعض تعاليقه وأثنى عليها .

وقال :

حكى الحافظ المنذري أبو محمد عبد العظيم ، أن تقية المذكورة نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفر : عمر ، ابن أخي السلطان صلاح الدين ، وكانت القصيدة خمرية وصفت فيها آلة الخمر وما يتعلق بها ، فلما وقف عليها الملك المظفر قال :

الشيخة تعرف هذه الأحوال من زمن صباها ... فبلغها ذلك ، فنظمت قصيدة أخرى حربيّة ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف ، ثم سيّرتها إليه تقول :

[1] ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٦٩ ، ص٢٦١ .**
[2] ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٧٠ ، ص٢٥ .**
[3] ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٧٠ ، ص٣٤ .**
[4] ـ **الصلاح الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج١٠ ، ص٣٧٩ .**

علمي بهذا كعلمي بهذا[١])) .

ومن شعرها في الحنين إلى دمشق :

إذا ما تذكرت الشـــام و أهلـــه بكيت دما حزنا على الزمن الماضـــي

ومذ غبت عن وادي دمشق كـأنني يقرّض قلبي كـل يـوم بمقـراضٍ

لعـل الليالي أن تجـرّد صـارماً على البين أو يقضي لنا حكمه قاضي

وكانت وفاتها في الإسكندرية وهي في السبعينات[٢] .

والخلاصة فإن تعليم المرأة في مرحلتنا الدراسية كان يتم في الدور والمساجد والربط وأماكن العزاء وذلك ضمن الحدود الشرعية .

وإن القران الكريم كان أوّل ما يدرس للبنات ، ثم الحديث الشريف .

وكان من النساء من يتابعن دراستهن – العليا – إن صح التعبير . ولا سيما في علم الحديث الشريف حتى تصل المرأة إلى درجة الأستاذية .

وقد قام العديد من النساء بتدريس الحديث وإسماعه لكبار العلماء ومنهم ابن عساكر والحافظ المزي والبرزالي والذهبي .

والى جانب ذلك فقد تحدث المؤرخون عن بعض النساء اللواتي كان لهن تأثير واضح في حكم دمشق من خلف الستار أو من أمامه .

وأما النساء العاديات ، فقد كن يشاركن الرجال في الجهاد ضد الصليبيين ، وظهر ذلك واضحاً في أثناء حصار هؤلاء لدمشق سنة ٥٢٣هـ – وسنة ٥٤٣هـ – ١١٢٩– ١١٤٨م .

وآخر ما يقال في هذا المجال ما ذكرته إحدى الباحثات ممّن درسن تاريخ ابن عساكر دراسة وافية[٣] .

فقد ذكرت بعد إحصائيات طويلة نسبة العالمات في دمشق إلى العلماء في القرون الثلاثة الأولى فقالت :

– في القرن الهجري الأول : كان عدد علماء الرجال : ٤٨٥ مقابل ٢٣ امرأة والنسبة ٤ .%٥.

– وفي القرن الثاني كان عدد العلماء في دمشق ٩١٥ مقابل ٣٦ امرأة عاملة ، والنسبة ٤% .

---

١ - ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٩٧ .

٢ - الصلاح الصفدي : المصدر المتقدم ، ج١٠ ، ص٣٨٤ .

٣ - هي السيدة ملكة أبيض وقد نشرت الدراسة مع دراسات أخرى في الكتاب الوثائقي المعنون باسم : ذكرى ابن عساكر– وزارة الثقافة – دمشق ١٣٩٩هـ بمناسبة مرور (٩٠٠) سنة على وفاة ابن عساكر انظر ، ص٧٤٢ .

– وفي القرن الثالث : كان عدد العلماء ٦٢٧ عالما والعالمات ١٣ والنسبة ٢% .

ونقول نحن تجاوزا إن ابن عساكر ذكر أن شيوخه كانوا ١٣٠٠ شيخا ، وشيخاته ٨٠ شيخة ، وهذا يعني أن نسبة العالمات ارتفعت إلى ٦% وهذه النسبة تشمل العالمات في دمشق ، وبغداد وبعض المدن الأخرى في القرن السادس الهجري ، أو عصر ابن عساكر .

ومن جهة أخرى ذكر الحافظ الذهبي أن عدد شيوخه كان ١٠٤٣ شيخا وعدد شيخاته ١٠٦ شيخات والنسبة العامّة تقارب الـ ١٠ % .

وأيا ما كانت الاعتبارات ، فإن المرأة في دمشق في القرن السادس كانت في وضع علمي يعادل ، إن لم نقل أفضل من وضعها في القرون الثلاثة الأولى وهي عصر النهضة العربية الإسلامية الذهبي .

٤– المرأة الفرنجية :

إن صورة المرأة لا تكتمل إلا بعرض نماذج من أخلاقيات وممارسات المرأة الفرنجية في مجتمع الشرق ، وقد جاء الصليبيون بعادات وأخلاق جديدة لا عهد للمشرق بها .

ويقول بعض مؤرخي الغرب الذين عاصروا تلك الفترة وهو يصف الحياة الاجتماعية في عكا :

((وكانت عكا مكتظة ببنات الهوى اللاتي يجنين أرباحا بما يلقينه من حظوة عند رجال الدين والدنيا على حد سواء .

ففيها نرى الرجال يغتالون نساءهم . والنساء يُسمّمن أزواجهنّ في سبيل عشاقهن ، ولذلك كانت عكا من أشهر مدن الساحل ببيع السموم والعقاقير القاتلة))[1] .

وذكر أسامة بن منقذ ، الشاهد على العصر ، ((أنه لم يكن عند الفرنجة شيء من النخوة والغيرة .

يكون الرجل يمشي هو وامرأته ، فيلقاه رجل آخر ، فيأخذ المرأة ويتحدث إليها ، ثم يتغزّل بها ، وزوجها واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طوّلت عليه تركها مع صاحبها ومضى ...))[2] .

ثم يقول : ((ومما شاهدت من ذلك أنني كنت إذا جئت نابلس ، – وكانت بيد الصليبيين – أنزل في دار رجل يقال له : معز ، ولداره طاقات تفتح إلى الطريق ، ويقابلها دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجّار .

فجاء الإفرنجي يوماً فوجد رجلا مع امرأته في الفراش ، فقال له :

– أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي ؟

---

١ ـ زكي النقاش : العلاقات الاجتماعية من خلال الحروب الصليبية ، ص ١٥٣ .

٢ ـ أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص١٧٤ .

– قال : كنت تعبان ودخلت أستريح .

– قال : فكيف دخلت فراشي ؟

– قال : وجدت فراشا مفروشا فنمت .

– قال : والمرأة نائمة معك ؟

– قال : الفراش لها ، هل كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟

– فقال له الزوج :

– وحق ديني ، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت !!!

فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته ......))[١] .

وذكر العماد الأصفهاني المعاصر للأحداث خبر ((وصول ٣٠٠ امرأة افرنجية مستحسنة في مركب ، لاسعاف الغرباء ، وتسبيل أنفسهم للأشقياء ، وهنّ لا يمتنعن من الغرباء ، وهذا عندهم أفضل القربان .

فوصلن وقد سبلّن أنفسهن ، وأقمن في خيم وقباب معروفة معلومة ، وانضم إليهن أترابهن من الشابات الحسان .

وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية ، وعجبوا كيف تعبّدن بها ، ثم هرب من المماليك الأغبياء جماعة اتبعوا الغواية ، فمنهم من رضي فأقام ، ومنهم من ندم فعاد)) .

وهكذا تأثرت شريحة محدودة من مجتمع الشرق ببعض عادات الصليبيين المألوفة لديهم[٢] .

وكان المسلمون يترددون على مدن الفرنجة التي احتلوها ويتغزلون بنسائهم ، من ذلك ما قاله الشاعر القيسراني في امرأة فرنجية لقيها في إنطاكية سنة ٥٤٠هـ – ١١٤٥م .

لقد فتنتني فرنجية نسيم العبير بها يعبق

ففي ثوبها غض ناعم وفي تاجها قمر مشرق

وإن تكن في عينيها زرقة فإن سنا القنا أزرق[٣]

وقال في جارية حسناء تسمى " ماريّا " كانت تغني بالدف في بلاد الفرنجة وتغيظ النصارى بأغانيها ، وتتقرب بها إلى قلوب المسلمين وهي تقول :

علقت بحبل من حبال محمدٍ أمنت به من طارق الحدثان

قال القيسراني فيها :

---

١ ـ أسامة بن منقذ : المصدر المتقدم ، ص١٧٤ .
٢ ـ العماد الأصفهاني : الفتح القبسي ، ص٣٤٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج٤ ، ص١٠٥ .
٣ ـ العماد الأصفاني : خريدة القصر ١٩٥٥ ، ص٩٩ .

ألا يا غزال الثغر هل أنــت منــشدي " علقت بحبل من حبــال محمــد "

لقد أسرتني حيــث لا أبتغــي الفــدا فقل في أسير لا يُــسرُّ بمفتــدي[١]

ونختم حديث المرأة بذكر وصف لعرس إفرنجي ، لفت أنظار المسلمين ، لأنهم رأوا فيه للمرة الأولى ما لم يعهدوا له مثيلا في بلادهم كما أنه يعطي من طرف خفي طبيعة العلاقات مع الفرنجة ، في أيام السلم .

يقول ابن جبير : ((إن أهل صور " ألينُ الكفّار طبائع ، وأخلاقهم ســميحة ، ومنــازلهم واسعة ، وأحوال المسلمين عندهم أهون وأسكن .... وعكا أكبر وأكفر ...[٢] .

وشاهدنا بها زفاف عروس عند الميناء ، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس ، والبوقات تضرب حتى خرجت تتهادى بــين رجلــين يمسكانها ، وهي في أبهى زيّ ، وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب ســحباً ، علــى الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب ، وعلى صدرها مثل ذلــك ، وهــي تمشي الهوينى ....

وأمامها ثلة من رجال النصارى في أفخر ملابسهم ، تسحب أذيالها خلفهــم ، ووراءهــا أترابها النصرانيات مثلها في اللباس ، والمسلمون والنصارى قد اصطفوا سماطين يتطلعــون إلى هذا الموكب ، ولا يتعرّض أحد للمسلمين .

ثم ساروا بها حتى أدخلوها دار زوجها ، وكانوا يعدّون الولائم طول ذلك اليوم[٣])) .

ولم تسعفنا المصادر بوصف لعرس دمشقي ، ربما لأن ظروف الحرب كانت هي الطاغية في تلك الحقبة ، ولا مكان لكثرة الاحتفالات .

---

[١] - **العماد الأصفهاني : المصدر المتقدم ، ص١٠١ .**

[٢] - **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٧٧ .**

[٣] - **ابن جبير : المصدر المتقدم ص٢٧٨ .**

الفصـــل الســـادس

الحياة اليومية لسكان دمشق

١ــ العادات والألقـــاب :

ذكر ابن جبير أن من عادات أهل الشام كلهم وفي جميع مدنهم ، أنهم يخاطبون بعـضهم مستخدمين في ذلك ألفاظاً وعبارات ، وجدها غريبة عليه تماماً .

من ذلك قول بعضهم لبعض : يا سيدي ، يا مولاي ، حضرتكم ، عبدكم أو مملـوككم أو خادمكم جاءكم برسم الخدمة .

كل ذلك يقال عند السلام ، أو مقدمه للسلام ، وإذا رأى أحدهم الآخر ، انحنى له راكعاً ، وكما قال ابن جبير :

((فترى الأعناق بين رفع وخفض ، فواحد ينحط وواحد يرتفع والعمائم تهوي في ذلـك هوياً)) ، ثم يقول :

((وهذه الحالات من الركوع والارتماء كنّا نعرفه خاصـاً عنـدنا بالنـساء ، أو عنـد استعراض رقيق الإماء)) .

ثم يبدي تأسفه واستنكاره من هذه العادات التي رآها مذلّة للنفس الأبيّة ، ويقـول : ((إذا كانت تلك عاداتهم فيما بينهم . فكيف يفعلون إذا قابلوا أمراءهم وملوكهم ؟ . ومما يزيد الأمر ضغثاً ... أنهم جميعاً في هذه البلاد يمشون وأيديهم إلى الخلف قابضين الواحدة على الأخرى ، ويركعـون للـسلام وهـم علـى هـذه الحـال الـشبيهة بـأحوال الأسـرى مهانـة واستكانة))[١] .

ويتابع :

((وإن من آداب المصافحة ، السنة الحسنة ، وهم لا يستعملون المصافحة إلا بعد الفراغ من الصلاة .

ولهم أدعية وتهاني يطلقونها فيما بينهم عند رؤية الأهلة ، أيا كان الشهر . ويدعو بعضهم لبعض بحصول بركة هذا الشهر وسعادته وخيره ، وهذه من الطرق الحسنة لما فيهـا مـن الدعوات والرحمات))[٢] .

ومن عادات أهل الشام والمشرق عموماً إطلاق ألقاب طنّانة على الرجل قبل ذكر اسمه ، ولاسيما إذا كان من كبار العلماء أو الأمراء أو التجار ، وقد انتشرت هذه العادات في المشرق ، وهو ما لفت نظر ابن جبير الذي لم يكن قد سمع بها في بلاد المغـرب ، حتـى إن هـذه الألقاب صارت هي الغالبة على الرجل الملقّب بها ، بحيث أصبحت أكثر إشتهاراً من اسـمه واسم أبيه ، كما كان الحال في القرون الأولى .

---

[١] ـ **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٦٨ .**
[٢] ـ **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٦٩ .**

فنور الدين الشهيد ، وصلاح الدين الأيوبي لقبان غلبا على الاسم الحقيقي لكل منهما وهما : محمود بن زنكي ويوسف بن أيوب .

وأول هذه الألقاب أو الإضافات بدأت في عهد الخليفة المكتفي ، المتوفى ٢٨٩هـ – ٩٠٢م – ففي عهده انتشرت الألقاب المضافة إلى الدولة مثل : ركن الدولة ، عماد الدولة وسيف الدولة ، وكانت هذه الألقاب مختصة بالأمراء والقادة[١] .

وفي عهد الخليفة القادر بالله المتوفى سنة ٤٢٢هـ – ١٠٣١م ، ظهرت الألقاب المضافة إلى الدين مثل أسد الدين ونور الدين وصلاح الدين ومعين الدين وبدر الدين وشمس الدين وشهاب الدين وسعد الدين وعصمة الدين وما إلى ذلك ، وهذه الألقاب كانت مشتركة بين القادة والعلماء .

فمن عاداتهم في ذلك أنهم :

- كانوا يطلقون لقب شمس الدين على من اسمه محمد .
- وشهاب الدين على من اسمه أحمد .
- وغرس الدين على من اسمه خليل وهكذا .

وقد تزايدت هذه الألقاب في عصر المماليك حتى بلغت الغاية في الكثرة بحيث يصعب على الإنسان استخلاص الاسم الحقيقي للمترجم من وسط الكم الكبير من الكنى والألقاب والصفات والوظائف والمهارات والاختصاصات التي تسبق اسمه .

فصار يقال لشمس الدين : الشمسي ولنور الدين : النوري ، ولوليّ الدين : الولوي ، ولسيف الدين : السيفي ، وكأنهم أرادو بهذه الألقاب تكبير قدر الذي أُغدقت عليه كائناً من كان[٢] .

ولذلك استعجب ابن جبير هذا الأمر وقال :

((إنهم كانوا – في مجالس العزاء – يقيمون من ينادي بأسماء كبار المعزّين من أعيان البلد ويُحلونهم بألقاب الشرف التي وصفوها لكل منهم إضافة إلى الدين فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه أو بدره أو نجمه أو جماله أو مجده إلى مالا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة . فإذا كان الضيف عالماً زيد في ألقابه عبارات شرف مثل جمال الأئمة وحجة الإسلام وفخر الشريعة وشرف الملّة ... فيمتلئ الواحد منهم كبراً وعجباً[٣])) .

---

[١] - **القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١ ، ص٤٩٠ .**
[٢] - **القلقشندي : المصدر المتقدم ، ج٥ ، ص٤٦١ .**
[٣] - **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٦٨ .**

٢ــ اللباس :

هذا عن الألقاب والعادات ، وأما اللباس ، فإنه أمكننا جمع معلومات عنـــه مـــن خـــلال المصادر الكثيرة ، لأنه لم يفرد أحد فيما نعلم ذلك العصر ببحث علمي عن اللباس ، وما كتب عنه فيما رجعنا إليه من المصادر في العصر الذي ندرسه ، لا ينطبق إطلاقا على العـــصر ، ولا على ما حوله ، ولا يمكن الاعتماد عليه .

وقد تنوعت الأزياء في دمشق بحسب مكانة مرتديها وعمله ووضعه المادي .

فكان للعسكر التركمان والأكراد لباس خاص ، وكذلك الأمر بالنـــسبة لرجـــال الـــشحنة والعلماء والعامة والفلاحين والبدو والسوقة والأحداث .

والمهم في الموضوع أنه لم يُلزم أهل الذمة بارتداء لباس خاص أو لون خـــاص ، كمـــا حصل فيما بعد في عصر المماليك ، وإنما كان لباسهم عادياً ، ويعرفهم الناس بمعاشرتهم لهم أو بالمهنة التي يمارسونها أو بلباسهم الذي يختارونه بدون تدخل من أحد .

وكان لفصل الشتاء لباس وللصيف لباس ، وللكتّاب والموظفين لباس خـــاص ولِلـــصوفية ورجال الخوانق زي مخصوص ، وطبعاً هنالك لباس الرجل ولباس المرأة ، ولباس الأغنياء والفقراء .

ومن ألبسة الرجل عموماً السّراويل والإزار والقميص والقفطان الذي يشده حزام ، ويعلو ذلك البردة والعباءة والجبّة ، وتختلف هذه الألبسة بحسب الوضع المادي لصاحبها .

وأما لباس الرأس للرجال فهو العمامة والقلنسوة ، وكان يختلف حجمها ولونهـــا بحـــسب صاحبها والفئة التي ينتمي إليها ، فكانت عمامة القضاة والفقهاء واسعة عريضة ، وغلب على العمامة اللون الأبيض ، أما الشيعة فكانت عمامتهم سوداء .

وأما البدو فكانوا يضعون " الكوفية " على رؤوسهم ، وكذلك الفلاحون والعامة .

وأما لباس المرأة فكان الأتب – ماقصر من الثياب – والقميص وفوقهما الملحفة والإزار ، ثم الجلباب الذي كان يغطي القدمين .

وأما في القرى ، فكان لكل قرية لباس مختص بنسائها يختلف من قريـــة لأخـــرى ، ولا تزال هذه الظاهرة حتى اليوم .

وبطبيعة الحال فإن الموسرات من النساء ، كنّ يزيّن لباسهن بالحلي والجواهر وخيـــوط الذهب ، على الضدّ من النساء الفقيرات .

وأمّا لباس أهل الذمة فكان الغيار والزنّار ، وكان الصوف لباس الرهبـــان والراهبـــات ، وكانوا يرتدون الجبة والطيلسان ، ومعظم ثيابهم من الصوف الخشن والوبر[١] .

---

[١] ـ القلقـشندي : المـصدر المتقـدم ، ج٩ ، ص ٢٥٧ ، ج١٢ ، ص٢٩٨ . ابـن جبيـر : الرحلـة ، ص١٣٩ ، ١٥٧ .

وكانت العادة الشائعة عند العرب هي مهاداة الثياب ، فكانوا يُهدون أصدقاءهم ، ولاسيما الفرنجة ، مجموعة من الثياب الشرقية الأمر الذي أدى إلى انتشار اللباس العربي بين الفرنجة رجالا ونساء حتى صارت المرأة الفرنجية ترتدي القميص الطويل والسترة القصيرة والحجاب أيضاً ، وكل ذلك موشى بخيوط القصب والذهب ، كما ذكرنا .

كما كان الأمراء يهدون رجالهم أنواع الثياب ، ويعدون ذلك غاية الإكرام .

فقد ذكر ابن قاضي شهبة أنه ((أهديت للسلطان نور الدين الشهيد عمامة مقصبة من الذهب الرفيع من مصر ، فوضعت بين يديه ، ثم جاء رجل صوفي فأهداها له ، فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار[١])) .

أما لباس كبار الأمراء ، فإن صلاح الدين الأيوبي عند وفاة عمه أسد الدين شيركوه في مصر ، قلّده الخليفة العاضد وزارة مصر ولقبه بالناصر ، وجهز إليه خِلَعَ الوزارة وهي :

عمامة بيضاء ، وثوب ديبقي بطراز ذهب ، وجُبّة ، وطيلسان ديبقي بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته ١٠،٠٠٠ دينار ، وسيف محلى بالجواهر ، وفرس صفراء من خيل العاضد ، وعدة " بقج " – جمع بقجة – من المسك[٢] .

وقال الشاعر ابن الخياط المتوفى سنة ٥١٧هـ – ١١٢٣م في ثوب أهدي إليه :

وقد وصل الثوب ولا عذر لي أن ألبس الثوب بلا فوطة

ولاسيّما وهي بحكم النّدى في عقدها ميعادك مشروطةْ[٣] .

٣ـ الموسيقى والغناء :

لم نجد فيما بين أيدينا من المصادر إشارات واضحة إلى وجود موسيقيين ومطربين ومطربات أو حانات ومحلات عامة تقدم لروادها وصلات من الموسيقى أو الطرب أو التمثيل ، ولكننا عثرنا على شذرات هنا وهناك يمكن أن تقدم صورة تقريبية للحركة الفنية في دمشق في تلك الفترة ، إن صحت التسمية .

وإن عدم وجود تراجم أو أخبار عن هذا الموضوع لا يعني عدم وجود مطربين أو موسيقيين أو فنانين ، لأن أصحاب كتب التراجم والتاريخ في جميع مراحل التاريخ الإسلامي كانوا يترجمون في الغالب للعلماء والمحدثين وكبار الأدباء والشعراء ، ويتجاهلون من عداهم ولو كانوا من الحكام ، فضلا عن المطربين ، باستثناء كتاب الأغاني للأصفهاني ، وما وضع على شاكلته .

---

[١] ـ **ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص٥٦ .**
[٢] ـ **ابن قاضي شهبة : المصدر المتقدم ، ص١٧٩ .**
[٣] ـ **ابن الخياط : الديوان ، ص٣١٧ .**

وقد ورد في ترجمة الطبيب محمد بن عبد الله الباهلي المتوفى سنة ٥٧٠هـــ – ١١٧٤م أنه :

كان طبيباً حاذقاً ، وله اليد الطولى في الهندسة والنجوم ، ويعرف الموسيقى ، ويلعب بالعود ، ويُزمّر ، وله في سائر آلات الطرب يدٌ عمّالة ، وعمل أُرغناً وبالغ في إتقانه[١] .

وكان أبوه عبد الله بن المظفر المتوفى – ٥٤٩هـ – ١١٥٤م كثير المجون واللعب ، وكان إذا طرب يغني :

يا صيّاد النحلة جاك العمل قم أخرج من بكرة هات العسل .

وكان يعزف الموسيقى ويلعب بالعود ، وعنه أخذ ابنه هذه الموهبة كما أخذ علم الطب والعلوم الأخرى[٢] .

وكذلك كان الطبيب أبو زكريا يحيى البياسي المغربي الذي أقام بدمشق وتوفي فيها : جيد اللعب بالعود ، وعمل الأرغن أيضاً وحاول اللعب به ، وكان يقرأ علم الموسيقى على ابن النقاش البغدادي في دمشق[٣] .

وذكر ابن أبي أصيبعة في ترجمة عمه علي بن خليفة ، ((أنه لم يكن في زمانه من يعرف الموسيقى واللعب بالعود مثله ، ولا أطيب صوتاً منه ، حتى إنه شوهد منه عند سماعه مثل ما يحكى عن الفارابي[٤])) .

وكان في دمشق مغن جميل الطلعة اسمه (البديع) ، فقال فيه ابن الساعاتي :

– ما دعوك البديع حتى تفرّدت وأصبحت في الغناء بديعاً

– فإذا ما دعوت لهواً بألحانك ، وافاك سامعاً ومطيعا[٥] .

ومن خلال أبيات ذكرها عرقلة الكلبي ، يهجو بها مغنيا سيء الصوت ، نستطيع القول إن الغناء كان شائعا في دمشق ، وإنه كما في هذه الأيام كانت هناك أصوات منكرة تفرض نفسها على الناس بشتى الوسائل .

فقال عرقلة في مغنٍّ اسمه عليّ :

عليّ صوته سوط علينا ، لا على الفرس

يقول السامعون له رماك ، الله بالخرس

[١] - ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ص٦٢٨ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٣ ، ص٢٤ .
[٢] - ابن أبي أصيبعة : المصدر المتقدم ، ص٦١٥ .
[٣] - ابن أبي أصيبعة : المصدر المتقدم ، ص٦٣٧ .
[٤] - ابن أبي أصيبعة : المصدر المتقدم ، ص٦٣٦ .
[٥] - ابن الساعاتي : الديوان ، ج٢ ، ص٣٤ .

و خـــذ يـــاربّ مهجتـــه إذا غنى : " خـذي نفـسي "[1]

وذكر ابن عساكر في ترجمته لعلي بن الحسن العطار ٥٢٢هـ – ١١٢٨م أن أباه اشترى له جارية مغنية ، فتعلم منها الغناء ، ثم افتقر ، فكان يغني في مجالس الشرب ويشرب الخمر إلى أن كبر وضعف وساءت حاله[2] .

وهذا واضح في وجود مجالس عامة في دمشق لتعاطي الخمر ، ويتردد عليها المغنّون أيضاً .

قال القيسراني في غلام مغن يصفه وهو يغني في مجلس عام :

والله لو أنصف الفتيان أنفسهم أعطوك ما ادخروا منها وما صانوا

ما أنت حين تغني في مجالسهم إلا نسيم الصبا ، والقوم أغصان[3] .

وعند الحديث عن الموسيقى والغناء ، لابد من الحديث عن نوع من الغناء الديني الذي يسمى " السّماع " على اختلاف بين الفقهاء في حكمه الشرعي .

فقد ذكر ابن خلكان في ترجمته للأمير مظفر الدين كوكبورى ((أنه لم يكن لـه لـذة إلا السماع ، فإنه كان لا يتعاطى المنكر ، وإنما يجمع الصوفية في الخانقاه ، وكان ينزل إليهم بنفسه ويعمل عندهم السماعات ... وفي أيام المولد النبوي كان ينصب القباب من الخشب ، ويجلس في كل قبة جوقة من المغنين ومن أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهي ، وكان مظفر الدين ينزل كل ليلة إلى تلك القباب ، وفيها الآلاف من الناس من كل البلاد ، ويسمع غناء الجوق ويتفرج على الخيالات ، ويبيت في الخانقاه ويعمل السماع[4])) .

أما عن الحكم الشرعي للسماع فهو أمر مختلف عليه بين الفقهاء بين محلل ومحرم ، وفي الموضوع مؤلفات كثيرة وأوسع مصدر لذلك هو كتاب الأغاني للأصفهاني الذي تحدث عن العلماء والزهاد الذين يحبون السّماع ولا يرون به بأساً .

ومن جهة أخرى ذكر الغزالي عن عدد من الفقهاء أنهم رأوا تحريم السماع والغناء ، حتى إن الشافعي قال :

((من استكثر من الغناء فهو سفيه ترد شهادته)) .

وقال الغزالي بعد ذلك :

---

[1] ـ عرقلة الكلبي : الديوان ، ص٥٦ ، وقوله خذي نفسي هو مطلع قصيدة للشريف الرضي ، وتمام البيت : خذي نفسي ياريح من جانب الحمى فلاقي به ليلاً نسيم ربى نجد .

[2] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٤١ ، ص٣٣ .

[3] ـ العماد الأصفهاني : الخريدة طبعة ١٩٥٥م ، ص ١١١ .

[4] ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١١٦ – ١١٨ .

((ونقل أبو طالب المكي إباحة السّماع عن جماعة من الصحابة ، وقال : قد فعــل ذلــك كثير من السلف الصالح ، ولم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون الغناء في أفــضل أيــام السنة ، ومثلهم أهل المدينة إلى زماننا هذا))[١] .

وقد صنف أبو الحسن العسقلاني ، وهو من الأولياء ، كتاباً ردّ فيه على منكري السّماع ، وكذلك فعل فقهاء و آخرون .

ثم بيّن الغزالي رأيه في السماع والغناء فقال :

((إن سماع الصوت الطيب لا ينبغي أن يحرّم بل هو حلال بالنص والقياس ، وهو مثل النظر إلى المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن ... والدليل على ذلك قول الرسول الكريم لأبي موسى الأشعري مادحاً : لقد أعطيــت مزمــاراً مــن مزاميــر آل داود[٢])) .

ومن الأمور التي كانت تمتاز بها دمشق ومجتمعها ، ما يعرف الطبلخانــاه فــي القلعــة والتسابيح في الجامع الأموي .

وأصل هذه العادة ، كما ذكرنا ، أن الخاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر ، كان لها ورد تقوم به سحر كل ليلة ، فنامت ليلة عنه فأصبحت غضبى ، فأمر نور الــدين بــضرب الطبول في القلعة كل ليلة لإيقاظ المستغفرين والعبّاد[٣] .

وكيفية ذلك أنه كان يضرب في الثلث الأول من الليل ضربة واحدة على الطبول كل ربع ساعة تقريباً ، وفي الثلث الثاني تضرب ضربتان كل ربع ساعة ، وفي الثلث الثالث تضرب الطبول ثلاث ضربات كل ربع ساعة ، وقد انتشرت هذه العادة في مدن أخرى في الشام[٤] .

ثم ساهم الجامع الأموي بدوره في إيقاظ النائمين ، ومعرفة أوقات الليــل ، بمــا يعــرف بالتسابيح ، حيث يقوم المؤذنون طوال الليل بالتسبيح بأصوات شجية ، لها نغمات مخصصة ، تختلف باختلاف أثلاث الليل الثلاثة ، ولا زالت هذه العادة إلى اليوم ، لكنها اقتصرت علــى النصف ساعة التي تسبق أذان الفجر ، وذلك بعد أن أصبح الناس ينامون عندما كان يــستيقظ أجدادهم في الأيام الخالية[٥] .

---

١ ـ الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص٣٥٤ .
٢ ـ الغزالي : المصدر المتقدم ، ج٢ ، ص٣٥٥ ــ ٣٥٧ ، وقد أفاض الغزالي في أمر السماع في المصدر المذكور ، وهو يميل إلى تحليل غير البذيء انظر الصفحات : ٣٥٨ حتى ص ٤٠٢ من المصدر المذكور .
٣ ـ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدريّة ، ص٥٥ .
٤ ـ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٨١ .
٥ ـ أكرم العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ص١٢٦ .

٤ـ الدمشقيون في نزهاتهم :

يقول ابن جبير :

((دمشق جنة المشرق ... تجلّت بأزاهير الرياحين في حلل سندسية من البساتين .... قد سئمت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت إلى الظمأ ... وأحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر ... وامتدت بشرقيّها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر ، قد صدق القائل : إن كانت الجنة في الأرض ، فدمشق لاشك فيها[١])) .

وقال فيها الشاعر الصنوبري المعاصر لمرحلتنا الدراسية :

أمرّ " بدير مرّان " فأحيا   وأجعل بيت لهوي " بيت لهيا "

ويُبردُ غلتي " بردى " فسُقيا"   لأيامي على بردى ورعيا

ولي في " باب جيرون " ظباء"   أعاطيها الهوى ظبيا فظبيا

صفت دنيا دمشق لمصطفيها   فلست أريد غير دمشق دنيا[٢]

وقال فتيان الشاغوري :

دمشق في حسنها ذات العماد بلا   شكٍ ولا مرية فيها لرائيها

دمشق إن جئتها من كل ناحيةٍ   على اليفاع الذي يحوي حواشيها

حكت بساتينها بحراً جواسقها   فيه المراكب ملقاة مراسيها

أيام مشمشها لا شيء يشبهها   في الحسن كلا ، ولا في الطيب يحكيها[٣]

وقال العماد الأصفهاني أيضاً في قصيدة طويلة يصف بها المحطات الرئيسية من الرقة إلى دمشق ، ثم يصف معالمها وما كانت عليه :

متى تجد الري بـ " القريتين   خوامسُ أثّر فيها الهجير

ونحو " الجليجل " أزجي المطيّ   لقد حلّ هذا المرام الخطير

تراني أنيخ بأدنى " ضمير "   مطايا براها الوجا والضمور

وعند القطيفة المشتهاة   قطوف بها للأماني سفور

ومنها بكوري نحو " القصير "   ومنية عمري ذاك البكور

---

[١] - ابن جبير : الرحلة ، ص٢٣٤ .

[٢] - ابن شداد : تاريخ دمشق ، ص٣٣٦ .

[٣] - فتيان الشاغوري : الديوان ، ص٥٩٦ والجوسق : القصر .

و ياطيب بشــــراي مــن "جلّــق " إذا جـــاء لـــي بالنجـــاح البـــشير
وما جنة الخلـــد إلا دمـــشـــق وفـــي القلـــب شـــوقاً إليهـــا ســـعير
و الأرزة فالـــســــهم فالنيربـــان فجنـــان " مزّتهـــا " فالكفـــــور
وبـــاب الفراديـــــس فردوســـــها وســـكانها أحـــسن الخلـــق حـــــور
" بنيربـــــها " تتبـــــرا الهمـــــوم " بربوتهـــا " يتربـــى الـــــسرور
وعنـــد " المنيبـــع " عـــين الحيـــاة مـــدى الـــدهر نابعـــة مـــا تغـــــور
ومـــا أنـــس لا أنـــس العبـــــور على جـــسر جـــسرين إنـــي جـــسور
كـــم بـــتُّ ألهـــو بقـــرب الحبيـــ ـــب في " لهيا " ونـــام الغيـــــور
لمقـــرئ " مقـــرى " كقمريّهـــــا غنـــاء فـــصيح و شـــدو شهيــــر
وأشـــجار "ســـطرا" بـــدت كالـــسطو رِ نمقّهـــن البليـــغ البـــصيـــر
إلام القـــســـاوة يـــا " قاســـيون " و بـــين الـــسنا يتجلـــى " سنيـــر "[١]

وقد أكثر الشعراء المعاصرون من وصف دمشق ومحلاتها ومتنزّهاتها ، ويمكن مراجعة شعرهم في أقسام " الخريدة " الأربعة عن شعراء الشام .

ويفهم مما ذكره المؤرخون والرحالة الذين زاروا دمشق أن أهلها كانوا يولون النزهـات أهمية قصوى في حياتهم ، ويبدو ذلك واضحا في كثرة المتنزهات الطبيعية المجهّـزة لـيلا ونهارا بكل ما يلزم الإنسان من الطعام والشراب والاقامة والمساجد والمدارس والحمامات ، وكما قالوا يذهب الرجل ليقيم فيها يوماً فيقيم شهراً .

فإذا حلّ موسم زهر السفرجل ذهب الناس إلى ميدان البلكي حيث يطلقون المـاء تحـت أشجاره .

وإذا ما حل الربيع يهرع الناس إلى بستان السيرجي ، وإلى بستان المرشـدية بالقـابون التحتاني حيث يتمتع الناس برؤية زهر اللوز بهما .

وإذا ما أزف موعد " حلّ جوز القزّ " كان الناس يهرعون إلى منطقة الصوفانية أو بـين النهرين قرب الشيخ رسلان ليشاهدوا استخراج الحرير .

وإذا ما نضجت " القراصيا " كان الناس يهرعون إلى " الحواكير " في قاسيون ، وكانـت القراصيا ترسل فور نضجها إلى القاهرة ولا أثر لها اليوم في دمشق

[١] ـ العماد الأصفهاني : الخريدة ـ شعراء الشام ـ تحقيق شكري فيصل وطبع مجمع اللغة العربية ١٩٦٨ ص١٩ وقد نظم هذه القصيدة كما قال سنة ٥٧٠ هـ ـ وجسر جسرين هذا هو المعروف اليوم بجسر الغيضة جنوبي جسرين على طريق الغوطة ، وسنير : هو جبل الحرمون .

وفي أيام التين يزور الناس منطقة برزة ومنين المشهورتين بجودة التين فيهما[١] .

وفي الخريف ، عندما ينضج حب الآس ، وهو الذي يسمى بالحبلاس ، يخرج الناس إلى قاسيون حيث بستان الخميسات وشجر الآس .

وكان إقبال أهل دمشق على النزهات يدفع المرء للتساؤل عما إذا كانوا يجدون وقتاً للعمل ، مع نزهاتهم التي لا تنتهي .

وقال القزويني :

((أهل دمشق أحسن الناس خلقاً وخلقاً وزيّاً وأميلهم إلى اللهو واللعب .

ولهم في كلّ يوم عطلة الاشتغال باللهو واللعب ، وفي ذلك اليوم لا يبقى للسيّد على المملوك حِجر ، ولا للوالد على الولد ، ولا للزوج على الزوجة ، ولا للأستاذ على التلميذ .

فإذا كان أول النهار ، يطلب كل واحد من هؤلاء نفقة يومه ، فيجتمع المملوك بإخوانه ، والصبي بأقرانه من الصبيان ، والزوجة بأترابها من النساء والرجل بأصدقائه ، ويمشي الكبار إلى البساتين ، ولهم فيها قصور ومواضع طيبة ، ويذهب الناس إلى الميدان الأخضر ، والمتعيشون يوم السبت ينقلون دكاكينهم إليه ، وفيه حلق المشعبذين والمساخرة والمغنين والمصارعين ، والناس مشغولون باللهو واللعب إلى آخر النهار))[٢] .

ودخل أحد المغاربة إلى أحد القصور المنتشرة وسط غوطة دمشق ، وذلك سنة ٤٩١هـ – ١٠٩٨م فقال :

((رأيت فيه ساقية تمرّ إلى محل جلوس الضيوف ، فلم أفهم لذلك معنى ، وبعد قليل جاءت موائد الطعام تحملها الساقية فأخذها الخدم ووضعوها أمام الضيوف ، فلما فرغوا ، ألقى الخادم الأواني وما معها في الساقية الراجعة فذهب بها الماء إلى جهة الحريم من غير أن يقرب الخدم من تلك الجهة[٣])) .

ومن أشهر متنزهات دمشق :

ــ متنزه بين النهرين :

كان متنزه بين النهرين يقع شمال مقبرة الشيخ أرسلان اليوم ، فيما صار يعرف بالصوفانيّة ، وكانت مياه بردى تشرب وتقام فيه النزهات .

وذكر البدري أنه كان في متنزه بين النهرين فرجة سماوية واسعة ، فيها دور وقصور ، وسويقة فيها الباعة الذين يقدمون للرواد كل ما يخطر على بالهم ، فهناك الطباخ ، وصاحب الفرن الذي يخبز على الصاج والقطيفاني الذي يبيع " القطايف " والفقاعي الذي يبيع الفقاع ،

---

[١] ـ أكرم العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ص١٣١ .

[٢] ـ القزويني : آثار البلاد ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٦٠م ، ص ١٩١ .

[٣] ـ المقري : نفح الطيب ـ تحقيق مريم ويوسف الطويل ـ بيروت ١٤١٥هـ ، ج٢ ، ص٢٥٧ ، والنص منقول عن رحلة قام بها أبو بكر بن العربي المتوفى سنة ٥٤٣هـ ـ ١١٤٨م ـ وهو مفقود .

وهو نوع من المشروب الحلال ، والفاكهاني ، والشوّا الذي يشوي اللحم وبائع السكر والمكسّرات – النقلي " وغير ذلك .

وكان في ذلك المتنزه حمام " يشرح الصدور " وقنطرة يتوصل منها إلى جزيرة صغيرة ينقسم نهر بردى عندها قسمين ، وبهذه الجزيرة موضعان ويتوصل منها إلى زقاق الفرايين الذي يطل على منتزه بين النهرين[١] .

ـ متنزه الشرف الأعلى والشرف الأدنى :

المقصود بالشرف الأعلى هو المنطقة التي تمتد اليوم من المدرسة الفروخشاهية ـ عند قصر الضيافة ـ غربا إلى قبة الطواويس ، أو جامع الطاووسية اليوم ، شرقاً ، وسميت بالشرف لإشرافها على مرجة دمشق وميدان ابن أتابك – نور الدين الشهيد – ومتنزه الشقرا[٢] وكما هو واضح ، فقد أقيمت الأبنية في ذلك المكان ، منذ أيام السلاجقة وحتى أواخر عصر نور الدين وصلاح الدين .

وقال أحدهم في هذا الشرف :

وإن شرفت بالنيل مصر فلم يزل دمشق لها بالغوطة الشرف الأعلى[٣]

وأما الشرف الأدنى ، أي الأقل ارتفاعاً ، فهو الذي يقابل الأعلى من الجنوب ويمتد من مباني الجامعة غرباً حتى جامع تنكز شرقاً ، وكانت فيه الأسواق والملاهي والروضات وفيه مقبرة الصوفية التي دفن فيها ابن تيمية ، ثم بني عليها في العصر الحديث مبنى مشفى الغرباء ، أو الوطني القائم اليوم .

ـ متنزه المرجة أو الميدان الأخضر :

المقصود بالمرجة هنا ما كان يعرف بميدان ابن الأتابك أي نور الدين الشهيد ، ثم صار يعرف بالميدان اختصارا ويمتد من ساحة الأمويين اليوم وحتى مبنى التكية السّليمانية ، وكان في الأصل وقفا لنور الدين تأوي إليه الحيوانات الأهلية التي لم تعد تصلح للعمل .

وكان هذا الميدان متنزه الحكام والأمراء في دمشق وبعبارة أدق مكان اجتماعهم لركوب الخيل ولعب الكرة ، وبقي الحال على ذلك طوال العهد الأيوبي وعصر المماليك .

وكان نور الدين يمضي معظم وقته فيه حتى آخر حياته ، وكانت تجري فيه ألعاب الفروسية ومن أهمها رمي القبق .

والقبق هو القرع العسلي ، كان يوضع على رأس خشبية عالية وبضمنه طائر ويخصص لكل متسابق أو لاعب عمود خاص به .

---

١ - البدري : نزهة الأنام ، ص٣٧ .
٢ - البدري : المصدر المتقدم ، ص٤١ .
٣ - البدري : المصدر المتقدم ، ص٤٢ .

ثم ينطلق اللاعبون بسرعة وهم على ظهور الخيل و يرمون بالنشاب على القبق ويعدّ فائزا وفارسا جيدا ، من يصيب القبق من المرة الأولى ، وهذه اللعبة هي قمة الفروسية ، لأنها تضطر الفارس إلى الانطلاق بسرعة على الفرس ويداه مشغولتان برمي النشاب واللجام ليس بيده .

وكان الحكام وعلى رأسهم نور الدين يشجعون المقاتلين والفرسان على هذه اللعبة تدريباً لهم على القتال والدقة وإصابة الهدف(١) .

وكان ثمة لعبة أخرى يمارسها الحكام والأمراء في الميدان الأخضر وهي لعبة الكرة ، وهي ما يسمى اليوم بلعبة البولو وهي للتسلية(٢) .

وفي صبيحة يوم عيد الفطر من سنة ٥٦٩هـ - ١١٧٤م ركب السلطان نور الدين إلى الميدان الأخضر الشمالي ، لرمي القبق ومدّ سماطاً حافلا ، وفي اليوم التالي لعب بالكرة مع الأمراء ، ثم دخل القلعة ولم يخرج منها(٣) ، وهذا يدل على طبيعة اللعب بالكرة والقبق مع الأمراء في الميدان الأخضر ، ويسمى هذا الميدان أحيانا : الميدان الشمالي ، تمييزا له عن الميدان الآتي : الميدان الجنوبي .

ـ متنزه ميدان المصلى :

وهو جنوب الميدان الأخضر عند باب المصلى ، وفيه كان أهل الشام يؤدون صلاة العيد وصلاة الاستسقاء ، ويمارسون فيه في بقية العام ، الألعاب المختلفة ويتخذونه متنزها لهم ، ولذلك كثرت حوله الآثار السلجوقية والنورية ، وقد عمت تسمية هذا الميدان على الحي الجنوبي الكبير في دمشق والذي صار يعرف حتى اليوم بالميدان .

ـ متنزه دير مرّان :

وهذا الدير كان آهلاً بالسكان ، وكان فيه دير للنصارى ، وموقعه اليوم أسفل قبة سيّار حيث يطل الإنسان منه على الربوة ، وقد جُددت هذه القبة حديثاً ولا يعرف على وجه التحديد من سيّار هذا .

وقد قال الشاعر عرقلة الكلبي ، وغيره ، شعرا في هذا الدير ذكرناه عند الحديث عن الغزل ، وأوله :

دع استماعك دير سمعان فما أمرّ النوى عن دير مرّان

وهذا يؤكد أنه كان قائما في المرحلة التي ندرسها وكان آهلا بالسكان ومقصودا بالزيارة .

وقال ياقوت إنه على تل مشرف على مزارع الزعفران والرياض الحسنة(٤) .

وذكر البدري أنه في سفح دير مران " دفّ الزعفران " والدف هنا ، هو الأرض الصغيرة المعدّة للزراعة .

---

١ ـ **المقريزي : الخطط ، ج٣ ، ص٣٩٦ و ٣٧٠ ، وفيه صورة للاعبين على القبق .**

٢ ـ **المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٤٤ .**

٣ ـ **ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص٢٢٨ .**

٤ ـ **ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦٠٣ .**

وكان هذا الدير مركز الحكم والإدارة في دمشق ، بعد سقوطها بيد العباسيين ، وتغلّب المغامرين عليها لعدة قرون ، وكان حكامها لا يطمئنون إلى السكنى في قصر الإمارة قصر الخضراء .

وقد ذكر المقدسي ، الذي زار دمشق في حدود سنة ٣٧٥هـ – ٩٨٥م أن بها حصناً أقيم وهو بها ، ونظرا لأن القلعة لم تكن قد بنيت بعد ، فمن المرجح أنه يقصد قصر الإمارة في دير مران[١] .

ــ متنزه الخلخال والمنيبع :

هما متنزهان متجاوران إلى الغرب من الشرف الأدنى بين مباني الجامعة وساحة الجمارك اليوم .

والخلخال في القسم الشرقي ، وفيه حوانيت وفرن وحمام وهو مسكن الأمراء ، قال فيها الشيخ جمال الدين بن نباته :

يا حبّذا يومي بوادي جلّق ونزهتي مع الغزال الحالي
من أوّل الجبهة قبّلتُه مرتشفاً لآخر الخلخالِ

والمنيبع بجواره من جهة الغرب وكان فيه المدرسة الخاتونية التي بنتها الخاتون زمرد بنت جاولي ، كما سبق البيان ، وقد وصف البدري هذه المدرسة عندما زارها فقال :

((والمنيبع محلة وسويقة وحمام وأفران ، وفيها المدرسة الخاتونية ، وهي من أعاجيب الدهر ، يمر بصحنها نهر بانياس ، ونهر القنوات على بابها ، ولها شبابيك تطل على المرجة – الميدان الأخضر – وفيها ألواح الرخام التي لم يسمح الزمان بمثلها ، وفيها أماكن لإقامة الطلبة ، وهي من محاسن دمشق))[٢] .

ــ متنزه سطرا :

شمال مسجد الأقصاب حيث اليوم جادة عاصم وجادة الخطيب[٣] .

وكان من متنزهات دمشق المشهورة . ومن متنزّهات دمشق الأخرى ، متنزه الشيخ سعد في المزه ومتنزه اللوّان ومتنزه باب كيسان ومتنزه اليلكي في منطقة مسجد الأقصاب وغير ذلك .

أما قاسيون ، فكان يضم مجموعة من المتنزهات على امتداده الواسع من قبة النصر شمالا وحتى نهر بردى جنوبا ومن قرية برزة شرقا حتى الربوة غرباً .

---

١ ـ **المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص١٣٧ .**
٢ ـ **البدري : المصدر المتقدم ، ص٤٥ .**
٣ ـ **البدري : المصدر المتقدم ، ص١٦٣ ، وانظر مصوّر الشيخ محمد دهمان للصالحية .**

وكان في هذين المتنزّهيْن طواحين وزوايا وحمامات ومساجد . وذكر البدري أنه شـاهد في الميدان الشمالي واحدا وعشرين دكانا تبيع كل شيء للمتنزهين ، وطبقات لاقامة من يريد مدّ نزهته . ويعتقد أن مسجد كيوان الحالي ، أقيم على أنقاض مسجد قديم هناك مـن عـصر نور الدين .

وقد شبه بعضهم الميدان الشمالي بصدر الباز ، والربوة برأسه والشرفين بجناحيه[١] .

ـ متنزه الجبهة :

الجبهة أرض صغيرة قدر فدانين عليها سقائف تظللها من غير طين بين شجر الصفصاف والجوز والحور ، مفروشة بالحصير تحيط بها جداول الماء من جهاته الأربـع مـع البـرك والبحرات بالنوافير .

وهي على جنب نهر بردى وفيها حوانيت الجزارين والطباخين والأقسماوية ، والمقاصفية أصحاب المقاصف واقفون في خدمة الناس وعندهم اللحف والفرش والعبي لمن يريد أن ينام .

وفيها مسجد ومدرستان ومربط للدواب ويعلوها نهرا القنوات وبانيـاس اللـذان ينحـدر ماؤهما إلى الجبهة . أي أن هذه الجبهة تقع في منطقة كيوان اليوم .

ـ متنزه قطية :

غربي الجبهة عليه النواعير التي تدور من مياه بردى وفيه سوق و حوانيت وأمكنه لنزول الروّاد وإقامتهم ، عند المقاصفي هنا كل شيء حتى الفرش واللحف والأطبـاق والملاعـق ، وهذا ، كما يقول البدري مما لا يوجد في بلد من البلاد[٢] .

ـ متنزه النيربين :

وهو من محاسن دمشق وهو روض يجمع بين الأزهار والأنهار ، والنيرب اسم سرياني معناه الوادي .

وهذه المحلة ، محلة النيربين من أعظم المحلات وأكثرها خضرة وأحسنها ثمارا وأزهارا ، وبها سويقة وحمام يقال له حمام الزمرد وجامع بخطبة ، وهي مسكن الأعيان ، ومنها تدخل إلى أرض الربوة ، والمتّجه من الربوة إلى خانقاه الطواويس والبحصة – حيث بنـي جـامع يلبغا – يمشي بين أشجار وأثمار ومياه وظل ظليل ، لا يمكن أن يرى الشمس إلا إذا قـصد رؤيتها[٣] .

ويقع هذا المتنزه العامر في سفح قاسيون الغربي وهو قسمان :

النيرب الأعلى بين نهري تورا ويزيد ويمتد من الجسر الأبيض حتى بساتين الدّواسة غرباً

---

١ - **البدري : المصدر المتقدم ، ص٤٣ .**
٢ - **البدري : المصدر المتقدم ، ص٤٥ - ٤٦ .**
٣ - **البدري : المصدر المتقدم ، ص٤٧ .**

والنيرب الأدنى بين تورا وبردى[1] .

ووصف ابن جبير النيرب الأدنى فقال :

((النيرب قرية تتصل بالربوة ، قد غطتها البساتين ، وبها جامع لم يـر أحـسن منـه ، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون ، وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ومطهـرة لهـا عشرة أبواب يجري الماء فيها ، وبها حمام ، وأكثر قرى دمشق بها حمامات[2])) .

ومن بقايا هذا النيرب اليوم ما يعرف بحديقة تشرين الكبرى وما حولها من الحدائق .

ـ متنزه الربوة :

هو من محاسن الشام ، والربوة كالرابية ، هي المكان المرتفع عـن الأرض والمـشرف على ما حوله ، وهي مغارة لطيفة بسفح الجبل الغربي ، وفيه محراب يقال إنه مَهْدُ عيـسى عليه السلام ، وبها جامع وخطبة ومدارس وعدة مساجد ، وبها قاعات وأطباق – طوابـق – وفيها عين ماء تدعى " الملثم " ومرابط للدواب ، وبها سويقتان يقطع بينهما نهر بردى ، وبها صيادو السمك يصطادون ، والقلايون على طرف النهر يقلونه .

ويذبح فيها كل يوم ١٥ رأسا من الغنم بخلاف ما يأتيها من اللحم من المدينة .

وبها عشرة طباخين ليس بهم شغل غير الطبخ والغرف في الزبادي والصحون .

وفيها فرنان وثلاثة حوانيت برسم عمل الخبز الشوري .

وبها حمام ليس على وجه الأرض نظير له لكثرة مائه ونظافته ، وله شبابيك تُطل علـى النهر ، والأنهر من فوقه ومن تحته .

وبها المسجد الذي جدده نور الدين الشهيد والذي عمر في الربوة قصرا شاهقا وخصّصه لإقامة الفقراء ، فقال فيه التاج الكندي :

إن نـور الـدين لمـا أن رأى   فـي البـساتين قـصور الأغنيـاء

عمـر الربـوة قـصرا شـاهقا   نزهـة مطلقـة للفقـراء

وهذا القصر الذي بناه نور الدين هو على شعب جميل ، جميعه من ألواح الخشب ، سقفه : نهر يزيد وأساسه من تحته : نهر تورا والمنظر هناك من الغايات التي لا تدرك[3] .

وقبالة الربوة في الجبل الغربي ضريح العاشق والمعشوق ، وعليهما صومعتان مبيضتان ، وبينهما سبعة مقاصف ، كل مقصف فيه من الثريات والمصابيح والغطاء والفـرش مـالا

---

[1] ـ انظر المخطط الذي وضعه الشيخ محمد دهمان في كتاب : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية .
[2] ـ ابن جبير : الرحلة ، ص٢٤٩ .
[3] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢ ، ص٣٢٣ ، البدري : المصدر المتقدم ، ص٤٩ و ٥٠ .

يحتاط به الوصف ، حتى إن بعض الناس يطلع إلى الربوة ليتنزه فيها يوما فيقيم بها شهرا[١]
.

وأما ابن جبير فقد قال ، كما قال غيره : ((إن هذه الربوة كانت مأوى المسيح وأمّه ، وهي من أبدع مناظر الدنيا حسنا وجمالا وإشراقا وإتقان بناء ، واحتفال تشييد ، وشرف موضع ...

ولها شوارع دائرة ، وفيها سقاية لم يُر أحسن منها ، قد سيق إليها الماء من علوّ وماؤها ينصب على شاذروان[٢] في الجدار متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه ، لم يُر أحسن من منظره ....

وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ، ينقسم عندها الماء إلى سبعة أنهار ، يأخذ كل نهر طريقه ....

ويُشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد ، وتحتها تلك الأنهار السبعة التي تحار الأبصار في حسنها[٣] ....)) .

((وللربوة أوقاف كثيرة من بساتين وأرض بيضاء ورباع ، وهي مخصصة للإنفاق على من يأتيها من الزوار وتأمين طعامهم وفراشهم ، وكذلك للإنفاق على قومة المساجد والمدارس ، وهي خطة من أعظم الخطط[٤])) .

ويقول الشيخ محمد دهمان :

((إن ما يسمى اليوم بالربوة ليس بربوة ، وإنما هو وادٍ تتدفق فيه المياه ، و أما حقيقة الربوة فقد كان فيها وفي الجبل المشرف على هذه الأنهار ، مكان يقصده الناس للزيارة والتبرك يسمى الربوة ، وقد زال اليوم ولم يبق منه أثر إلا كتابة كوفيه منقوشة على صفحة الجبل فبقيت التسمية شائعة على الوادي الذي كانت فيه الربوة)) .

---

١ - **البدري : المصدر المتقدم ، ص٥٣ .**
٢ - **الشاذروان : جدار قصير من حجر يدعم الجدار الأصلي .**
٣ - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٤٨ .**
٤ - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٥٠ .**

ثم يقول :

((لقد كان مكتوبا في سفح الجبل أن ذلك المكان المبارك بني أيام الخليفة المستنصر الفاطمي الذي حكم أكثر من ستين عاماً ومات سنة ٤٨٧هـ .

وجاء نور الدين فجدّد مسجداً كان في الربوة يدعى مسجد الديلمي وبنى بجواره القاعة أو القصر الذي كان سقفه نهر يزيد وأسفله نهر ثورى ومنظر ذلك القصر أو القاعة من الغايات التي لا تدرك)) .

ويقول الشيخ دهمان :

((إنه كان على عهده درج يصل الربوة بقاسيون ، وهو درج طويل يسمى اليوم بالمنشار ، وقد ذهبت معظم درجاته لطول العهد به ، والصعود عليه خطر مخيف ، وقد صعدت عليه ونزلت مراراً أيام فتوتي)) .

ويقول :

((إن بقايا قصر نور الدين في الربوة قائمة في عهده ، ولكن أزيل قسم منها عند مد خط حديد دمشق – بيروت ، ثم أزيل قسم آخر عند فتح الطريق المعبد إلى بيروت ، ويبدو أن محافظة دمشق في ذلك العام ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م تنوي توسيع الطريق ، وستذهب عندها الكتابة وكل أثر تاريخي نفيس في هذه الربوة[١])) .

ـ متنزه أرزة :

وهو في سفح الصالحية الأدنى فيما يُعرف اليوم بحي الشهداء ، وكانت أرزة هذه قرية عامرة فيها مسجد ودور وفيها ضمن مسجدها قبور ثلاثة من الشهداء ، قيل إنهم من شهداء الفتح الإسلامي[٢] .

ـ متنزه بيت أبيات :

قرية في سفح قاسيون مكانها اليوم طاحونة الأشنان أسفل حي ركن الدين ، وعندما بنيت الصالحية في عهد نور الدين صارت هذه القرية تدعى بالصالحية العتيقة ، وقد اضمحل أمرها في العصور التالية .

ـ متنزه مقرى :

شرقي حي ركن الدين بين نهري يزيد وثورى ، وكان أحد الطرق المؤدية إلى قاسيون من جهة الشرق ، ومكانه اليوم المنطقة المحيطة بالمدرسة الركنية الأيوبية ، وهو من متنزهات دمشق المشهورة ، وقال فيه ابن عنين شاعر دمشق المعاصر :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة وظلك يا " مقرى " علي ظليل

---

١ ـ **محمد أحمد دهمان : في رحاب دمشق ، ص٢٢ ـ ٢٣ .**

٢ ـ **محمد دهمان : المصدر المتقدم ، ص٣١ .**

بـــلاد بهـــا الحـــصباء در وتربهـــا   عبير وأنفـــاس الـــشمال شـــمول[١]

وقد بقيت قائمة حتى دخول العثمانيين دمشق ، واليوم لم يعد باقٍ منها إلا الطاحون .

ـــ متنزه المزه :

جنوب الربوة إلى الغرب ، وهي من أنزه أرض الله وأحسنها يقصدها أربـــاب البطالـــة واللهو والطرب .

ـــ متنزه الميطور :

معنى الميطور : ماء الجبل ، وهو قرية قديمة كانت مزرعة لسليمان بن عبد الملك ، وهو إلى الجنوب الشرقي من مقرى ، وهو حول منطقة مشفى ابن النفـــيس اليـــوم مـــن شـــرقه وغربه[٢] .

وفيه أنشئت المدرسة الميطورية ، ومرّ معنا أنه كان فيه بستان للشيخه كريمة القرشـــية تحدّث فيه[٣] .

ـــ متنزهات أخرى :

ومن متنزهات دمشق الأخرى مجموعة من البساتين والرياض محصورة بين الميطـــور شمالا ومسجد الأقصاب جنوباً ومن القصّاع شرقاً وحتـــى الجـــسر الأبـــيض غربـــاً وهـــذه المتنزهات هي من الشمال إلى الجنوب :

- متنزه الدخوار الملاصق لنهر ثورى .
- متنزه جنينة الباعونية إلى الجنوب منه .
- بستان قصر اللباد إلى الجنوب من الجنينة .
- بستان حور تعلا : في منطقة العدوي الشمالية اليوم .
- بستان السيرجي : جنوب قصر اللباد .
- بستان القبة والبردان : غربي بستان السيرجي .
- بستان السن : شرقي بستان السيرجي .
- بستان العمادية : غربي بستان السيرجي .
- وبستان الديوانية : غربي بستان العمادية .
- وبستان الكرش : غربي بستان الديوانية .
- و بستان الورد : في مكان سوق ساروجا اليوم .
- و بستان المحمديات : شرقي الجسر الأبيض اليوم .

---

١ ـ ابن عنين : الديوان ، ص٦٩ ، بتحقيق خليل مردم بيك وطبع المجمع العلمي بدمشق ١٩٤٦ .
٢ ـ عن موقع الميطور انظر مصور دهمان للصالحية .
٣ ـ ياسين السّوّاس : معجم السماعات ، ص١١٦ .

هذا عن دمشق وما يحيط بها من متنزهات .

ــ المصايف :

أما مصايف دمشق وغوطتها فقد تحدثنا عنها بالتفصيل في فصل الحياة الاقتصادية ، ونذكر هنا لمحات عن هذه المصايف إتماماً للبحث .

قال الشاعر فتيان الشاغوري الدمشقي يصف بقين :

شابت ذوائب لوز بقّين فانهض بنا نشرب على العين

وقال في الزبداني :

قف بالمطيّ بساحة الزبداني لا تعسفن بها إلى عسفان

تلك المرابع لا الغوير ولا ربى نجدٍ و لاحزوى و لا العلمانِ

أمواهها راحي و بردُ نسيمها روحي ، ونبت رياضها ريحاني[1]

ويقول البدري : ((إن قرية الزبداني هي قلعة الورد ، يستخرجون منها ماء الورد ، ويرسلونه إلى القاهرة ومكة المكرمة وغيرهما . وكذلك فاكهتها تنقل إلى مصر وغيرها[2])) .

وذكر الوهراني الذي زار دمشق سنة ٥٥٣هـ - ١١٥٩م وأقام فيها حتى وفاته سنة ٥٧٥هـ - ١١٧٩م في داريّا ، وكان من المغاربة المقربين لنور الدين وصلاح الدين مصايف دمشق الغربية فقال :

((- يتردّد من حصن الربوة

- ويرتاد في عين سردا إلى وادي بردى
- و يصطبح في سوق آبل[3] ويعبق في " كروم المزابل "
- ويقيل في " عين حور " ويصطاد في " الساجور " ...
- فاشتاق إلى الجداول الساقية من " عيون عرق " [4] السامية
- وعلم أن سفره عن " السفيرة والكبرا " هي الطامة الكبرى
- وعدم الصبر والنسيان عن " دير سلوان " فقال في نفسه :

أترى الذي خلقني وبراني يعيدني إلى جنة " الزبداني " ؟

أتراه يجمع شملي في " كفر عامر " بالسادات من بني عامر ؟

---

[1] **ـ فتيان الشاغوري : الديوان ، ص٥٤٩ ، تحقيق أحمد الجندي ، وطبع مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٧٦م .**

[2] **ـ البدري : المصدر المتقدم ، ص٦٩ .**

[3] **ـ آبل : قرب دير قانون .**

[4] **ـ عيون العرق : مجموعة ينابيع على بعد ٣ كيلومتر غربي الزبداني وتعرف بعين العرق وهي معروفة لأهل الزبداني ، ويجهلها الكثيرون لصعوبة الوصول إليها ، وقد زرتها وعاينتها .**

أتراني أحرق الشيح والحوذان عند " عيون حور وبلودان[1] " ؟))

والخلاصة فقد كانت دمشق جزيرة في بحر من الخضرة من جميع جهاتها ، وكانت الحدائق والبساتين تزيد عشرات المرّات عن مساحة العمران فيها ، بعكس ما نراه اليوم .

وكان أهل دمشق يتسلون بمجموعة من الألعاب مثل ركوب الخيل والسباق والسباحة في بردى .

ومن الألعاب التي كانت سائدة عند العامة لعبة الشطرنج والنرد .

قال عرقلة :

ما اجتمع الشطرنج في مجلس   والنردُ ذات القيل والقال

إلا لعنت الشيخ نوحا ولم   أقصر من اللعن على الصولي

لأنهما لِقُبحِ ما عندهما   يُقدّمُ الشَّاهُ على الفيل[2]

وكان الناس يجتمعون في الدور أو المحلات العامة للعب بالشطرنج والنرد ، حتى إن كثيرا من الأفراد أجادوا هذه الألعاب ، ومن هؤلاء : علي بن أحمد بن الحسين القرشي ٥٥٨هـ - ١١٦٣م .

فقد ذكر ابن عساكر أن علياً المذكور كان يجيد اللعب بالشطرنج ، يُحاضر الأمراء لأجله[3] .

أما النرد فقد نظم الشاعر ابن الخياط المتوفى سنة ٥١٧هـ - ١١٢٣م قصيدة طويلة عن لعبة النرد ، وسوء حظه ، من ذلك قوله :

والنرد كالنّا ورد في مجالسها   أو كالمجوس ضمّها ماشوشها

كأنها دساكر للشرب أو   عساكر جائشةٌ جيوشها

قاتلها الله ، فلا بنوجها   ترفع بي رأساً ولا ششوها[4]

٥ـ الحمامات :

يُعد الحمام ركناً أساسياً في مدن الشرق ، ولم يكن دوره يقتصر على الاستحمام والنظافة ، بل كان كما سنرى ، يمارس دوراً اجتماعياً هاماً يتعلق بالخطبة والزواج ومعرفة أخبار المجتمع من خلال اجتماع الرجال أو النساء فيه .

---

[1] ـ أحمد أيبش : دمشق في نصوص الرحالين ـ وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٨ ، ص ٢٨٠ وهو ينقل عن كتاب " منامات الوهراني " المفقود .

[2] ـ عرقلة الكلبي : الديوان ، ص٧٧ .

[3] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٤١ ، ص٢٠٧ .

[4] ـ ابن الخياط : الديوان ، ص٣١٧ ، والناورد : القتال ، وششوها : جمع شيش .

كان الحمام يُعدّ نوعاً من النزهة للمرأة التي كانت تخرج من بيتها برفقة صويحباتها وأقاربها لتمضية ساعات طويلة بعيداً عن النظام اليومي للحياة .

وكانت حمامات دمشق تعطّر في كل يوم فتنبعث منها الروائح الزكية .

وكان المحتسب يراقب الحمامات ، ويأمر بإصلاح ما فسد منها ، ويمنع استخدام ماء اليوم السابق ليوم جديد ، وكان يعمد إلى الماء فيشمّه ، فإن بدت منه رائحة كريهة عاقب الحمامي وربما أقفل الحمام .

كما أن المحتسب يتشدد في أمر نظافة الحمامات ، فكان يأمر الحمامي بكنس الحمام وغسله وغسل الخزانات مما يترسب فيها من الطمي مرة كل شهر .

وكان يأمر الحمامي بمنع دخول أصحاب العاهات المعدية إلى الحمام ، ويراقب الروّاد بنفسه .

ومن الأوامر المشددة كانت منع التعرّي ، للرجال والنساء في الحمام ، ويُفهم مما ذكره المؤرخون أن تنفيذ هذه الأوامر على النسوان كان متعذرا لصعوبة مراقبتهن عن طريق المحتسب ، وكما سنرى فإنهن كنّ يتعرّين تماماً في الحمام ، ولاسيما في حفلات تجهيز العروس والنفاس[1] .

وسوف نذكر فيما يلي لمحة عن حمامات دمشق في المرحلة المدروسة ، وعن تقاليدها وعاداتها .

ذكر ابن عساكر أن بدمشق القديمة ضمن السور ٤٠ حماماً وخارجه ١٧ حماماً ، وذلك ما عدا حمامات الصالحية والمزة وبيت لاهية وغيرها ، مما هو ضمن دمشق اليوم .

أمّا ابن جبير فذكر أنه كان بدمشق وأرباضها قرابة ١٠٠ حمام و٤٠ مكاناً للوضوء ، وهذا يعني أن حمامات – الأرباض – أي الصالحية وغيرها كانت تزيد على أربعين حماماً .

ومعظم هذه الحمامات لم يعد لها وجود اليوم ، أو تغيّرت أسماؤها ، ولكن وبمقارنة ما ذكره ابن عساكر وابن شداد والأربلى نستطيع أن نحدّد عدداً من هذه الحمامات ما تزال إلى اليوم وهي :

– حمام القلعة : كان داخل القلعة وبقي حتى نهاية العصر العثماني كما هو الملاحظ من خلال الوثائق التاريخية .

– حمام القاضي : وبقاياه اليوم في منطقة " سيدي عامود " فيما يعرف بـ " الحريقة " أو درب الوزير كما كان يُعرف قديماً .

---

[1] - **الشيزري : نهاية الرتبة ، ص٨٧ .**

– حمام الشريف العقيقي : وهو من أشهر حمامات دمشق وأقدمها يعود تاريخه لسنة ٣٧٥هـ – ٩٨٥م ، ولا يزال إلى اليوم ويعرف بحمام الملك الظاهر .

– حمام نور الدين الشهيد : في سوق البزورية ، وهو أشهر حمامات دمشق[١] .

– حمام القصاعين : ربّما كان حمّام " الأمير علي " الذي يتردد اسمه كثيراً في الوثائق التاريخية ، وأما القصّاعين فهي التي تعرف اليوم بسوق الخضيرية ، جنوب سوق الصوف والقطن .

– حمام أبي المعالي تميم : الأرجح أنه حمّام العمري في العقيبة وذلك بالاستناد إلى ما ذكره ابن عساكر عن موقعه .

– حمام ابن زاكي : بقرب قبة طرخان ، والأرجح أنه " حمام السكاكري "المعروف حتى اليوم والقائم في منطقة العمارة " البرانية – قزازين ، لأن قبة طرخان بجواره من جهة الجنوب ، وقد صورّنا هذه القبة التي لا يكاد يعرفها أحد في دمشق – من مقابر الدحداح أو الفراديس .

– وهناك حمام ابن صدقة – في الشاغور – والأرجح أنه حمام السّروجي[٢] .

وليس قصدنا هنا ذكر الحمامات وبيان مواقعها وإنما الحديث عن دور الحمام في الحياة الاجتماعية في دمشق .

وكان الحمام يتألف من براني ووسطاني وجواني .

ويحيط بالبراني مساطب يتوسطها بركة ناهدة وفي هذا القسم يخلع الرواد ثيابهم التي تحفظ في أدراج خاصة يراقبها قيّم الحمّام وإذا كان لديهم أموال أو أشياء نفيسة يتم تسليمها إلى " المعلم " الذي لا يكون مسؤولا عن فقدها داخل الحمام ما لم تسلّم له .

أما الوسطاني ففيه ترتفع الحرارة عن البراني ، وتكون فيه أجران يستخدمها في الغالب الذين يريدون مغادرة الحمام على عجل ولاسيما في فترة الصباح .

وفي الجواني نرى الأجران والساحة والمقاصير ، وفيه يجلس الرواد معظم الوقت ، وإذا كان هؤلاء أغنياء فإنهم يحجزون مقصورة لحسابهم ، وقد يحجزون الحمام كله ، كما سنرى .

وعند الخروج يرتاح الرواد في الوسطاني ويشربون فيه الماء البارد ثم يغادرونه إلى البراني حيث يرتاحون ويتناولون المشروبات الحارة أو الباردة بحسب الفصل ، ثم يغادرون الحمام بعد دفع الأجرة " للمعلم " الذي يعرف بواسطة عمّاله حساب كل إنسان ، وما تناوله من مشروبات ، وما إذا استعان " بالمكيس " أو غيره .

---

[١] ـ **ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢ ، ص٣٨٦ وما بعد ، نيكيتا إيلسيف : وصف دمشق ١٩٥٩م ، ص ٢٧٧ ، والكتاب بالفرنسية وعنوانه : La Description de Damas .**

[٢] ـ **كيّال : منير : الحمامات الدمشقية ـ دمشق ١٩٨٦ ، ص٢٤ ، وفيه استقصاء لعدد الحمامات كما رواها ابن شداد والأربلي وغيرها .**

وغالبا ما يكون المعلم عارفا بمعظم زبائنه ، مثل الحلاق ، الذين يكونــون مــن ســكان الحارات المجاوره للحمام ، بل ويعرف آباءهم وأجدادهم وأسرهم وأخبارهم أيضاً ، ولــذلك فإنه إذا دخل أحد الغرباء الحمام " شارطه " المعلم على الأجرة سلفاً ، منعا للمشكلات[١] .

وكان يساعد المعلم مجموعة من العمال مثل البلان والمكيّس والمزيّن والاقميمي وبعض الصبيان ، ولكل واحد من هؤلاء أجرة مخصوصة تحسب عند الخروج .

وقد جرت العادة أن يكون الحمام قريبا من المسجد ، ولو ألقينا نظرة على الجامع الأموي نرى أنه محاط بأربعة حمامات هي :

- حمام نور الدين في جهة القبلة بالبزورية .
- وحمام العقيقي في جهة الغرب .
- وحمام السلسلة في جهة الشمال .
- وحمام النوفرة بجواره أسفل الدرج في الشرق كما عاينا ذلك على الأرض .

وكان الحمام يخصص الفترة من بعد الظهر حتى الغروب للنساء ، وباقي الوقت للرجال ، كما كان الحمام يقفل أبوابه في شهر رمضان المبارك وفي أيام " تعزيل " بردى .

وكان الصابون والأشنان هما مواد التنظيف الأساسية

وأخيراً فإنه كان للحمامات دور اقتصادي في حياة دمشق ودور اجتماعي أيضاً

فعن الدور الاقتصادي نذكر أن الحمامات كانت تنتج مادة البناء الرئيسية في دمشق فــي تلك الحقبة وهي مادة الرماد التي يعالج مع الكلس فيتكون منهما مادة " القصرمل " التي كانت مثل الاسمنت اليوم .

أما الفائدة الاجتماعية : فإنه كان لكل حمام أناس مهمتهم جمع النفايــات والقمامــة مــن حارات دمشق ثم نشرها في الشمس تمهيدا لحرقها في إقميم الحمام ، وبذلك كانــت دمــشق تتخلص تلقائياً من تلك النفايات .

ولم تكن الحمامات مقتصرة على المدن ، بل كان في كل قرية إسلامية حمام ، وكذلك كان في قصور السلاطين والأمراء حمامات خاصّة حتى لا يرتادوا الحمامات مع العامة .

ويفهم مما أورده المؤرخون والعلماء في ذلك العصر أنه كانت تجري في الحمام بعــض المنكرات .

من ذلك انتشار التعري على نطاق واسع ، ولاسيما بين النساء ، وذلك على الرغم مــن كثرة التنبيهات الصادرة عن المحتسب إلى معلمي الحمامات والمعلّمات .

---

١ ـ **أكرم العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ص١٢٢ .**

لذلك نرى بعض الفقهاء والعلماء قد اعتزلوا دخول الحمام تماماً ، كما فعل الشيخ إبراهيم بن محمد الأنصاري ٥٣٥هـ – ١١٤٠م الذي امتنع عن دخول الحمامات على مدى أربعين عاماً[١] .

ومنها أن بعض أصحاب الحمامات كانوا يضعون صوراً مغرية على واجهات الحمامات ، على سبيل جذب الرواد ، ولاسيما الشبان منهم ، ويقول الغزالي :

((إن هذه الصور محرّمة ، وربما كانت صورا نسائية ، وإن على من يدخل الحمام إزالة هذه الصور أو تغيير الحمام))[٢] .

ومن الأمور اللافتة للنظر ما ذكره المقريزي عن الحمامات " الميدانية " التي كانت في معسكر صلاح الدين وهو يحاصر عكا ، قال :

((كان في المعسكر عدد كبير جدا من الحمامات ، وكان أكثرها بيد المغاربة حيث يجتمع الاثنان والثلاثة منهم ، ويحفرون ذراعين في الأرض فيطلع الماء فيعملون حوضاً وحائطاً ويسترونه بحطب وحصير ، ويقطعون حطباً من البساتين التي حولهم ويسخّنون الماء في القدور ، ويغتسل الانسان في هذا الحمّام بدرهم أو أكثر[٣])) .

وفي الجانب الغربي من بلاد الشام حيث يسيطر الصليبيّون ويعيش المسلمون تحت سيطرتهم ، فإن عادة الاستحمام وبناء الحمامات قد انتشرت لدى الفرنجة انتشارا واسعاً .

والغريب أن رجال الدين عندهم كانوا يعارضون دخول الحمامات معارضة شديدة لاعتقادهم أن تجريد الجسد من الثياب مدعاة للفجور ، وعندهم أن النظافة الروحية هي الأصل ، ولا أهمية لنظافة الجسد .... وأن القذارة مظهر من مظاهر العفاف .

ولذلك فإنه عندما زار أحد المسلمين أوربا قال :

((إنه لم يشاهد في حياته أقذر من الفرنجة ، فهم لا يغتسلون إلا مرّة أو مرتين في العام ، ولا يغسلون ملابسهم بالمرة[٤])) .

وقد أقبل الفرنجة – نساء ورجالاً – على الحمامات أي إقبال ، وحتى الراهبات ، كنّ يخرجن من الأديرة إلى الحمامات العامة حيث يغتسلن مع الرجال في وقت واحد ، وكنّ يرين ذلك أمراً عادياً[٥] .

وقال أسامة بن منقذ :

---

[١] - **السيوطي : بغية الوعاة ، ج١ ، ص٤١٤ ، طبع دار الخانجي بالقاهرة سنة ٢٠٠٥م .**
[٢] - **الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص٤٣٢ .**
[٣] - **المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص١١٩ .**
[٤] - **هونكه : فضل العرب على الغرب – القاهرة ١٩٦٤م ، ص٣٥ – ٣٦ .**
[٥] - **زكي النقاش : العلاقات الاجتماعية من خلال الحروب الصليبية ، ص١٥٠ .**

((دخلت الحمام بمدينة صور ، فجلست في خلوة فيه ، فقال لي بعض غلماني : معنا في الحمام امرأة ، فلما خرجت وجلست على المصاطب ، إذا التي كانت في الحمام قد خرجت وقد لبست ثيابها ، وهي واقفة مع أبيها ، ولم أتحقق أنها امرأة ، فأرسلت أحد أتباعي للتأكد ، فرفع ثيابها ، ونظر فيها ، فقال لي أبوها : هذه ابنتي ، ماتت أمها ، وما لها من يغسّلها ، فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسها . قلت : جيد ما عملت ، هذا لك فيه ثواب))[1] .

٦ـ الأعيـاد :

ـ أعياد المسلمين :

كانت أعياد المسلمين في المرحلة المدروسة هي عيد الفطر وعيد الأضحى ، ولم نجد في المصادر المعاصرة ذكراً لاحتفالات تقام في مناسبات أخرى مثل ليلة الاسراء والمعراج ، ومنتصف شعبان وليلة القدر وأول السنة الهجرية وعيد المولد النبوي ، فهذه كلها حدثت بعد المرحلة المدروسة ، ولاسيما في عصر المماليك .

وعلى سبيل المثال ، لم يكن المسلمون في دمشق ، أوغيرها يحتفلون بعيد المولد النبوي الشريف ، وأول من أحدث الاحتفال به وبالغ في ذلك أمير أربل مظفر الدين كوكبوري ، باني جامع الجبل للحنابلة في دمشق وهو زوج ربيعة خاتون أخت صلاح الدين الأيوبي ، وقاتل معه في معركة حطين وكانت وفاته سنة ٦٣٠هـ - ١٢٣٣م .

ويقول ابن خلكان :

((إن احتفاله بالمولد النبوي يقصر عن الوصف ، وكان يحتفل به مرة ليلة التاسع من ربيع الأول ، ومرة ليلة الثاني عشر ، مراعاة للروايات وكان يدعو الناس من جميع البلدان لحضور احتفالات المولد التي كانت تبدأ من أول المحرم وتصل ذروتها يوم المولد))[2] . وكانت تلك الاحتفالات خيالية ، وكأنها من روايات ألف ليلة وليلة .

ولما زاره الحافظ ابن دحية ألف له كتاب " التنوير في مولد السراج المنير " وهو أول كتاب يوضع في المولد ، ثم توالت المؤلفات ، وانتقل الاحتفال بالمولد بعد ذلك إلى عامّة المسلمين .

ومن الأعياد التي انتشرت في بلاد الشام في المرحلة المدروسة عيد أو مناسبة يوم عاشوراء ، وكان هذا العيد كما ذكرنا في الفصل الأول من أغرب الأعياد .

فالشيعة كانوا يُسوّدون وجوههم فيه ويضربون أنفسهم ويجعلونه يوم حزن عام شامل ، ويرغمون الجميع على مشاركتهم أحزانهم ولاسيّما أهل دمشق .

---

[1] ـ أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص١٧٥ .

[2] ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١١٣ ، ومعنى كوكبوري الذئب الأزرق كما يقول ابن خلكان .

ويمكن أن نضيف إلى هذه الأعياد ، الاحتفالات التي كانت تجري لتوديع الحجاج واستقبالهم وقد تحدثنا عنها عند الحديث عن قافلة الحج الشامي .

وفي شهر رمضان المبارك ، تزداد الأنوار في الجامع الأموي ويكثر فيه القراءالذين يتلون القرآن الكريم بطريقة شجية ، كما وتزداد الدروس والمواعظ فيه ، وتوقد قناديل مئذنة العروس بالجامع عند ثبوت الشهر ، ويعتكف الناس فيه ولاسيما في العشر الأخير .

وهذه الاحتفالات لا تقتصر على الجامع ، بل تمتد إلى مساجد دمشق الأخرى الكثيرة وخوانقها وربطها ومدارسها ، وكما ذكرنا في وقف المدرسة العمرية ، فإن الطعام يزداد للطلاب في شهر رمضان المبارك ، ولاسيما الحلويات .

وفي أواخر شهر رمضان يلتمس الناس هلال شوال ويبلغون القاضي إذا رأوه ، ويجري الاحتفال بعيد الفطر حيث يقوم الناس بصنع الحلوى وتوزيعها على الأقارب والفقراء والمغاربة ، ويوزعون صدقة الفطر والكسوة على الفقراء والأيتام ، ثم يقومون بتأدية صلاة العيد في ساحة " باب المصلى " .

وبعد الصلاة يمد الأمراء " الأسمطة " فيما بينهم ، ويتبارون في أنواع الطعام والحلوى ويدعون إليها الأصدقاء والعلماء والوجهاء .

ويشارك في هذا العيد الرجال والنساء والأولاد بدون استثناء .

وفي عيد الأضحى تجري الاستعدادات نفسها ، ولكن مع دخول أمر جديد وهو الأضاحي التي تذبح في الأيام الثلاثة ، أو الأربعة من أيام العيد ، وتوزع على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والأهل والأصدقاء والجيران ، ويتهادى الناس " اللحوم " فيما بينهم ، فيعمّ دمشق جوٌ مفعم بالسرور والابتهاج .

وفي عيد الأضحى يشترك جميع المسلمين بما فيهم الدروز بهذا العيد ، خلافا لعيد الفطر .

وقد ذكرنا عند الحديث عن مذاهب السكان ، أعيادا أخرى كان يحتفل بها المسلمون : السنة والشيعة ، مثل عيد الغدير وعيد الغار وغيرهما .

ومن الأعياد العامة التي ليس لها أساس من الدين ، عيد الربيع أو النوروز كما كان يسمى ، وكان يحل في آذار من كل عام .

فقد ذكر الشاعر القيسراني مهنئاً بالنوروز :

ملك المدى يوم أغرّ محجّل   يأتي السّوابق وهو منها أوّل

يختال في عطفيه جوّ ضاحك   ويمس في طرفيه عام مقبل

جـاء الربيـع لـه بأكمـل زينـة   فأتـاك فـي خلـع العمـائم يرفـل

من أقحوان مـا جـرى ومـع الحيـا   إلا ابتـسام مـن شـقيق يخجـلُ[1]

وهذا العيد فارسي الأصل ، لكنهم كانوا يحتفلون به ويبالغون في الاحتفـال ، ولاسـيما الأكراد الذين يعدون يوم النيروز من أهم أعيادهم ، ولا يزالون حتى اليوم يحتفلون بـه فـي الهواء الطلق والبساتين والرياض ، رجالا ونساء ، ويقضون يومهم كله في ذلـك ، وكـان يذهب الكثيرون من أهل الشام لمشاهدتهم في احتفالات النيروز[2] .

ـ أعياد اليهـود :

تبدأ السنة المدنية عند اليهود في شهر تشري ويقابله تشرين الأول ، أما السنة الدينية فتبدأ بشهر نيسان الذي حوّلوا اسمه إلى أبيب بعد السبي البابلي ، ومعنى أبيب السنابل الخضراء .

ويبدأ التقويم العبري بسنة ٣٧٦٠ قبل الميلاد التي يزعمون أن الله تعالى خلق الدنيا فيها ، على ذلك فنحن نعيش اليوم سنة ٢٠٠٧م في سنة ٥٧٦٧ عبرية[3] .

وأما أعياد اليهود فهي كثيرة ، منها خمسة أعياد مشروعة ، ذكرت في التوراة ، وأعيـاد أخرى لم تذكر فيها ، وإنما ابتدعها أحبارهم .

فأما الأعياد الخمسة الشرعية فهي :

ـ **عيد رأس السنة** في أول شهر تشري ، ويسمونه عيد رأس شهر هيشا ، وهو يقابـل عيد الأضحى عند المسلمين ، ويقولون إن الله تعالى أمر إبراهيم في ذلك اليوم بـذبح ولـده إسماعيل ، ثم فداه بذبح عظيم .

---

[1] ـ **القيسراني : الديوان ، ص٣٤٢ .**

[2] ـ **القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص٤٤٥ .**

[3] ـ **أكرم العلبي : التقويم والتأريخ ـ دار المصادر ـ بيروت ١٩٨٩ ، ص٤٠ .**

ـ عيد الكبور :

أو عيد صوماريا أو يوم الغفران أو عاشوراء أو عيد الكفارة أو صوم الكبور ، ومناسبته عندهم أن الله استجاب فيه لاسترحام موسى بالعفو عنهم لعبادتهم العجل في غيابه ، ويقولون إن الله يغفر فيه للجميع ما عدا الجاحد بالربوبية والظالم لأخيه والزاني بالمحصنة ، ولا يجوز أن يقع هذا العيد أيام الجمعة أو الأحد أو الثلاثاء .

وفي ذلك العيد الصوم العظيم الذي يقتل من لم يصمه ، ومدة هذا الصوم ٢٥ ساعة تبدأ قبيل غروب الشمس من يوم ٩ تشري ونهايته عند غروب شمس يوم ١٠ تشري .

ـ عيد المظلة :

مدته سبعة أيام أولها الخامس عشر من تشري ، واليوم لسابع منها يسمى عرايا ، أي شجر الخلاف (وهو من فصيلة شجر الصفصاف) ولذلك يجلسون في هذا العيد تحت ظلال شجر الخلاف ، والزيتون والنخيل ، ومناسبته بزعمهم ذكرى نزول المن والسلوى عليهم في التيه ، لأن الله في ذلك اليوم ظلل عليهم الغمام[١] ....

ـ عيد الفصح :

أو عيد الفطر ، في ١٥ نيسان ، وهو سبعة أيام يأكلون فيها الخبز الفطير ، وينظفون بيوتهم ، ويقدمون فيه حملاً للرب لم يبلغ السنة ، ولا يكسرون عظامه ، فيأخذون من دمه ويجعلونه على مدخل كل دار من دورهم وقاية لهم من الموت ، ثم يأكلون هذا الحمل مشوياً في اليوم نفسه . ومعنى الفصح : العبور .

أما الفطير ، فإنهم يقولون إنه عندما أمرهم موسى بالخروج من مصر ، وأهلك فيه الله فرعون وجنوده ، لم يمهلهم موسى حتى يختمر عجينهم ، فأكلوا خبزهم فطيراً مع اللحم .

وكان اليهود يحتفلون بعيد الفطر بعد عيد الفصح ، ثم دمج العيدان معاً .

وفي العهد القديم صورة حية عن الاحتفال النموذجي اليهودي بعيد الفصح الذي أقامه لهم نبيّهم " يوشيا " وهو من أهم أعيادهم[٢] .

ـ عيد العنصرة أو الحصاد :

ويعرف أيضاً بعيد الأسابيع وعيد الخطاب ويكون بعد عيد الفصح بسبعة أسابيع وهو في أصله عيد زراعي ثم اتخذ طابعا دينياً إلى أن أصبح " عيد هبة الروح " وهو اليوم الذي خاطب فيه الله بني إسرائيل في طور سيناء .

---

[١] ـ الشهاب أحمد النويري : نهاية الأرب ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي لا تاريخ ، ج١ ، ص١٩٥ .

[٢] ـ قاموس الكتاب المقدس ـ بيروت ١٩٨١م ـ ط٦ ، ص ٦٧٨ ، العهد القديم أخبار الأيام الثاني ، ص ٣٥ معجم اللاهوت ـ بيروت ١٩٨٦م دار المشرق ، ص٦٠٦ .

واليهود يعظمون هذا اليوم ويأكلون فيه " القطايف " بدلاً من المن والسلوى ، ويقع يوم ٦ من شهر سيوان – حزيران – عندما تصبح الحنطة جاهزة للحصاد[١] .

وهناك عيدان محدثان هما عيد الفوز – الفوريم – ذكرى انتصارهم على وزير بختنصَّر ويصادف يوم ٥ آذار ومدته يومان

وعيد النور ، أو حنوكا أو الحنكة ومدته ثمانية أيام ويقع يوم ٢٦ كانون الأول ، ومناسبته أن أحد كهانهم قتل بعض الجبابرة في أورشليم فقاموا بتنظيف الهيكل من دمه ومعنى الحنكة : التنظيف .

وهناك عيد الحزن يوم ٩ آب ، وهو يوم ذبح فيه عدد كبير من اليهود في السبي البابلي ، وأعياد أخرى كثيرة[٢] .

ــ أعياد النصارى :

أعيادهم كثيرة ، مثل اليهود ، وأهمّها :

ــ عيد الميلاد :

وقد اختلف في سنة الميلاد بين سنة ٧٥١ و سنة ٧٥٤ من التقويم الروماني ، والرأي الأول هو الأقوى ، وقد بُدئ بالاحتفال به في القرن الخامس عشر الميلادي ، وانتشر الاحتفال به مع أول السنة الميلادية في العالم مع انتشار السيطرة الاستعمارية الغربية في العالم .

وكان الراهب أكسيجوس ، المتوفى سنة ٥٥٠م قد توصل إلى أن المسيح ولد يوم ٢٥ كانون الأول سنة ٧٥٤ رومانية ، فجعل أول كانون الثاني من تلك السنة يعادل السنة الأولى من الميلاد .

وقد جعل هذا الراهب بداية السنة الميلادية يوم البشارة في ٢٥ آذار ، وجرى الناس على ذلك سنين عديدة حتى وقع الاتفاق على أن يكون أول شهر كانون الثاني هو بداية للسنة الميلادية .

والمسيحيون الشرقيون يحتفلون بعيد الميلاد بعد ثلاثة عشر يوماً من احتفال الطوائف الغربية .

ومن الجدير بالذكر ، أنه من خلال وثائق الحروب الصليبية والمعاهدات التي كان يوقعها ملوك الفرنجة مع المسلمين نلاحظ أنهم كانوا يستخدمون تقويم الاسكندر في تأريخ تلك المعاهدات ولا يستعملون التقويم الميلادي ، الذي لم يصبح عالمياً – كما ذكرنا – إلا مع سيطرة الفرنجة على العالم في القرن التاسع عشر والعشرين[٣] .

---

[١] ـ النويري : نهاية الأرب ، ج١ ، ص١٩٥ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص٤٦٣ ، معجم اللاهوت الكتابي : ص ٥٦٨ .

[٢] ـ النويري : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٩٥ .

[٣] ـ العلبي : التقويم ، ص٦٠ ، النويري : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٩١ .

ومنها خميس العهد ، ويكون قبل عيد الفصح بثلاثة أيام ، ويسميه الناس في الشام خميس الأرز وخميس البيض ، ويسمونه في مصر خميس العدس نسبة لما يُطبخ فيه .

وكان النصارى في دمشق يحتفلون في هذا العيد في البساتين المحيطة بباب كيسان ويهرع عوام دمشق إلى ذلك المكان للفرجة عليهم وكان يطلق على المكان " طابق البرنيّات "[1] .

ــ عيد الفصح :

أو عيد القيامة ، ويعتقد النصارى أن المسيح احتفل بذبح خروف الفصح مع الحواريين يوم الخميس ، وحوكم يوم الجمعة وحكم عليه بالصلب وأنه صعد إلى السماء يوم الأحد بعد أن تناول العشاء مع اثنين من تلامذته .

ومواعيده غير ثابتة وهو ينحصر بين آذار ونيسان ، ويختلف تاريخه بين الطوائف الشرقية والغربية إلى أسبوع أو أكثر .

وفي مصر يسمّون هذا العيد عيد شم النسيم أو عيد الربيع ويحتفل فيه المسلمون والأقباط معاً .

ــ عيد الشعانين :

ومعنى الشعانين " التسبيح " ويسميه الأقباط عيد الزيتونة ويأتي بعد مضي سبعة أيام من الصوم ويخرج النصارى فيه من الكنائس إلى دورهم وهم يحملون سعف النخيل ، لأن المسيح عليه السلام ركب في ذلك اليوم حماره المدعو " يعفور " في أورشليم ودخل جبل صهيون والناس يسبحون بين يديه ، وهو يعظهم[2] .

ــ عيد الصليب :

ومناسبته عندهم أن هيلانة أم الامبراطور قسطنطين عثرت فيه على الخشبة التي كان من المقرر أن يصلب عليها المسيح مدفونة في مزبلة بالقدس ، فأخرجتها منها وغلفتها بالذهب وحملتها إلى ابنها قسطنطين الذي كان قد تنصّر وبنى القسطنطينية ، واتخذت يوم رؤية هذه الخشبة عيداً ، وجرى النصارى على ذلك[3] .

---

[1] ـ **العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ص١٢٧ .**

[2] ـ **النويري : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٩١ .**

[3] ـ **النويري : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٩٤ .**

ــ سبت النور :

وهو اليوم الذي يسبق عيد الفصح ، ويقولون إن النور يظهر على مقبرة المسيح في ذلك اليوم فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة بالقدس .

ــ عيد الغطاس :

ويقولون إن يحيى عليه السلام غطّس عيسى فيه في نهر الأردن ولما خرج من النهر اتصل به الروح القدس على شكل حمامة ، وهم يغطسون فيه أولادهم بالماء الجاري ، رغما عن شدة البرد[1] .

وثمة أعياد أخرى مثل عيد التجلي يوم ٦ آب ، وعيد العنصرة الذي حلّت فيه الروح القدس في الحواريين وتفرقت عليهم فيه لغات العالم وذهب كل إلى جهة .

وأخيراً هناك عيد جميع القديسين في أول تشرين الثاني وأعياد خاصّة بالموارنة والأرمن[2] .

٧ــ المآتم :

كانت دمشق محاطة بالمقابر من جميع الجهات ، خارج السور :

– فهناك مقبرة باب توما ، وهي أقدم مقبرة في دمشق ، وهي التي كانت الأساس لمقبرة الشيخ رسلان الباقية حتى اليوم .

ومقبرة باب شرقي ، هدمت اليوم ولم يبق منها الا بعض القبور منها قبر الصحابي أبي بن كعب .

– ومقبرة باب كيسان ، ولا أثر لها اليوم .

– ومقبرة الفراديس الباقية حتى اليوم .

– ومقبرة الباب الصغير ، وهي أكبر مقابر دمشق .

– وهناك مقبرة قبر عاتكة – الدقاقين – ومقبرة البرامكة التي تحولت إلى المستشفى الوطني .

بالإضافة إلى وجود مقابر صغيرة في الصالحية والمحلات الأخرى ، وذلك علاوة على " الترب " وهي المدافن الخاصة ، مثل تربة طغتكين في باب المصلى وتربة ابن عساكر في باب الصغير ، بالإضافة إلى القبور التي كانت قائمة في المساجد والخوانق وحتى الدور ، مثل قبة طرخان في الفراديس وتربة مجاهد الدين في مدرسته عند باب الفراديس وضريح نور الدين الشهيد في مدرسته بالخوّاصين – الخياطين اليوم – وقبر معين الدين أنر بجوار

---

[1] ـ النويري : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص١٩٣ و ١٩٧ .

[2] ـ العلبي : التقويم ، ص ٦٣ وانظر : شيخ الربوة : نخبة الدهر ، ص٣٦٧ حتى ص٣٦٩ .

المدرسة الشامية البرانية ، وضريح صلاح الدين في المدرسة العزيزية شمال الجامع الأموي .

وكان أهل دمشق يشيّعون الموتى إلى المقابر ويتزاحمون على ذلك إن كان المتوفى عالماً محبوباً أو أميراً عادلاً .

فقد ذكر ابن عساكر عند حديثه عن الشيخ نصر المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠هـ – ١٠٩٧م – أن الدمشقيين ذكروا أنهم لم يروا جنازة مثل جنازته ، وأقاموا على قبره سبع ليال يقرؤون كل يوم عشرين ختمة ، ثم قال :

((وخرجنا به من الجامع بعد الظهر فلم يمكننا دفنه قريب المغرب))[١] ، والمسافة بين الجامع ومقبرة الباب الصغير لا تزيد عن ٥٠٠ متر فقط .

وكانت جنازة " سُبيع بن قيراط " عظيمة وشهدها ابن عساكر ٥٠٥هـ – ١١١م[٢] .

وعندما توفي الشيخ عبد الوهاب الحنبلي سنة ٥٣٦هـ – ١١٤١م دُفن عند والده بمقابر الباب الصغير ، قرب قبور الشهداء من الصحابة ، وكان يوم دفنه مشهوداً من كثرة المشيعين له والباكين حوله والمؤبنين لأفعاله والمتأسفين عليه[٣] .

وذكر القلانسي عند ترجمته لأبي البيان نبأ ٥٥١هـ – ١١٥٦م صاحب الشيخ أرسلان أنه كان عفيفاً محبا للعلم والأدب ، وكان عند خروج سريره لقبره في مقابر الباب الصغير المجاور لقبور الصحابة من الشهداء رضي الله عنهم يوم مشهود من كثرة المتأسفين عليه[٤] .

وقال ابن عساكر عن جنازة ملكة بنت داود أستاذته :

((وحضرت دفنها والصلاة عليها ، وكان الجمع متوافراً[٥])) .

وذكر ابن جبير أن أهل دمشق كانوا يمشون أمام الجنازة وليس خلفها ، ويتلون القرآن الكريم بالألحان الشجية ، فإذا وصلت الجنازة إلى باب الجامع الأموي انقطعت التلاوة ، ودخلوا إلى الموضع المعدّ للصلاة عند ضريح النبي يحيى .

أما إذا كان الميت من خطباء الجامع أو المدرسين أو الأئمة أو المؤذنين فيه ، فإنهم يدخلونه الجامع دون أن يقطعوا التلاوة .

وكانوا يجتمعون للعزاء في صحن الجامع ، بإزاء باب البريد ، وهناك يجدون "الربعات" من القرآن الكريم فيقرؤون ما تيسر لهم .

---

[١] - ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١٨ ، ص٦٢ .
[٢] - ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢٠ ، ص١٤٠ .
[٣] - العليمي : المنهج الأحمد ، ج٣ ، ص١٢٦ .
[٤] - القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٥١٢ ، وقبره معروف اليوم في مقابر الباب الصغير ، وعليه لوحة كُتبت حديثاً .
[٥] - ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٧٠ ، ص١٢٧ .

وإذا وصل أحد من أعيان البلد إلى مجلس العزاء ، نادى النقباء باسمه بصوت عال ، فإذا فرغوا من القراءة قام وعاظهم واحداً واحداً ، بحسب رتبهم في المعرفة ، فوعظ وذكر ونبّه على خدع الدنيا ، وأنشد في المعنى الأشعار المناسبة ، ثم قام بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفى ، ثم يقوم الآخر إلى أن يفرغ الجميع من وعظهم[١] .

وذكر ابن عساكر نموذجاً للعزاء الذي كان يجري في الجامع الأموي فقال :

((حضرنا عزاء أمير المؤمنين المقتفى لأمر الله في الجامع الأموي بدمشق حين أتانا الخبر بموته ، فقام عبد الرحمن بن مروان الواعظ في التعزية ورثاه بأبيات مناسبة ، فألقى عليه الحاضرون ثيابهم إعجاباً بما جاء به[٢])) .

وكان بعضهم يستدعي القصّاص والوعّاظ إلى المقبرة على مدى أسبوع أو أكثر بحسب طبيعة المتوفى ، وهناك يقرؤون القرآن الكريم وأناشيد الفراق والحزن في جو مؤثر[٣] .

أما عن عزاء المرأة ، فإنه لم يكن يسمح للمرأة بتقبل العزاء من الرجال ، ولاسيما إن كانت شابة ، بل كان الرجال يعزّون الرجال ، والنساء يعزّين النساء ، وكانت الواعظات تعظ أهل الميت بما يحضرها من الوعظ .

وكانت المرأة ترتدي اللون الأزرق تعبيرا عن الحزن . ومن جهته ، كان المحتسب يراقب الجنائز ، فإن سمع صوت نائحة أو نادبة قام بتعزيرها .

ومن الذين كانوا يعظون في المآتم :

– الشيخ سلطان بن يحيى المتوفى سنة ٥٣٠هـ – ١١٣٥م[٤] .

– وعلي بن ماضي الدباغ المقرئ المتوفى سنة ٥٤٧هـ – ١١٥٢م الذي كان يقرأ بالألحان ويخطب في الأعزية ويكبر بين يدي الجنائز .

– وعبد الرحمن بن مروان الخزرجي ٥٥٩هـ – ١١٦٣م الذي قال عنه ابن عساكر : ((كان ينشد في الأسواق ، وكان في صوته شجىً ، ثم صار يعظ في الأعزية ثم وعظ في الجامع ، ورزق قبولاً ونفقت سوقه واستمرّ يعظ في الأعزية))[٥] .

– ومن النساء الواعظات : ست العجم فاطمة التي كانت تعظ في الأعزية[٦] .

وكانت مدة العزاء ثلاثة أيام بعد صلاة الفجر ، وليس بعد المغرب كما صارت العادة اليوم .

---

[١] ـ **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٦٨ .**
[٢] ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٣٥ ، ص٣٩٩ .**
[٣] ـ **ابن الجوزي : تلبيس إبليس ، ص١٢٥ .**
[٤] ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٢١ ، ص٧٠ .**
[٥] ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٣٥ ، ص٣٩٩ .**
[٦] ـ **ابن عساكر : المصدر المتقدم ، ج٧٠ ، ص٢٥ .**

وكان يجلس في العزاء أصدقاء الميت وأقاربه ومريدوه ويقضون الوقت إما بـــالوعظ أو قراءة القرآن الكريم .

وأما الأمراء ، فكان زملاؤهم – الخشداشية فيما بعد – يتصدّرون للعزاء ، كمـــا حـــصل عند وفاة شهاب الدين محمود بن بوري ، عندما جلس أخوه جمال الدين محمّد للعزاء ثلاثـــة أيام .

وكان أصدقاء الميت يرسلون الطعام لأهله ، عملاً بالسنة ، وهو ما انعكس اليوم تماماً في دمشق حيث صار أهل الميت يحضرون الطعام للمعزّين ...

وفي المقبرة يسود الصمت حتى يوارى الميت في التراب ، ولم يكن ثمة أذان عند نزوله في المقبرة ، كما نرى اليوم ، وهذا أمر حصل في العصر العثماني كما ذكر الفقهاء[1] .

وقد كانت القبور مسنّمة ، ولكن من طين وليس من رخام أو حجر .... عملا بالـــسنة ، والتسنيم فيه مخالفة لقبور أهل الكتاب المسطحة . وكان الميت يلحد في قبره ، لقولـــه عليـــه السلام : اللحد لنا ، والشقّ لغيرنا ، أي اليهود[2] .

٨ـــ قافلة الحج :

كانت قافلة الحج الشامي تنطلق من دمشق في كل عام وتضم جنسيات شتى من المسلمين مثل المغاربة والأكراد والتركمان ، بالإضافة إلى أهل الشام وغيرهم ، وكانت تستغرق نحواً من مائة يوم كاملة ، في الذهاب والإياب ، وقد تعاظم دورها في العصر المملوكي والعثماني ، ثم تراجعت مع مد الخط الحديدي الحجازي سنة ١٩٠٨م ، وكان حكام دمشق على طـــول العصور حريصين تمام الحرص على نجاح رحلة هذه القافلة المقدسة .

وذكر ابن جبير أن أهل دمشق كانوا شديدي التعظيم للحاج وتيـــسير شـــؤون الحجـــاج ، وكانوا يتمسحّون بهم عند عودتهم ويسلّمون عليهم تبركاً بهم .

وفي سنة ٥٨٠هـــ – ١١٨٤م عندما عاد الحجاج الدمشقيين ومن معهم من المغاربة خرج الناس لاستقبالهم نساء ورجالا يصافحونهم ويتمسحون بهم ، وأخرجوا الدراهم للفقراء مـــنهم ومعها الأطعمة ، وكانت النسوان يناولن الحاج الخبز ، فإذا عضّ الرغيف اختطفنه من أيديهم وبادرن لأكله تبركاً ، ودفعن له الدراهم عوضاً عنه[3] .

[1] ـ ذكر ابن عابدين أنه لا يسن الأذان عند إدخال الميت القبر كما هو المتبع في عصره ، وقد صرّح ابن حجر في فتاويه بأنه بدعة . ابن عابدين : الحاشية ، ج١ ، ص١٣٢ ، طبعة بيروت ١٩٩٨ .

[2] ـ عبد الله الموصلي : الاختيار لتعليل المختار – دار الخير – دمشق ١٩٩٨ ، ج١ ، ص١٣٢ .

[3] ـ ابن جبير : الرحلة ، ص٢٥٨ .

وكانوا في كل سنة يتوخون الوقوف يوم عرفة بجوامعهم إثر صلاة العصر مع أئمتهم وهم يلبسون لباس الإحرام وهم يدعون ويلبّون ، ولا يزالون كذلك إلى قريب المغرب وهم يبكون على حرمانهم من الحج في تلك السنة[١] .

ويفهم مما أورده القلانسي أن قافلة الحج العراقي كانت تعرّج على دمشق وينطلق معها حجاج دمشق ، فقد ذكر في حوادث سنة ٤٨٦هـ – ١٠٩٣م بأنه وردت الأخبار إلى دمشق بإبطال مسير الحاج العراقي[٢] .

وكانت القافلة تنطلق من دمشق في أواخر شوّال أو أوائل ذي القعدة وتعود في أوائل صفر في الأحوال العادية فقد ذكر القلانسي الذي كان يرصد قافلة الحج ، أن الحجاج وصلوا إلى دمشق يوم الجمعة السادس من صفر سنة ٥٥١هـ – ١١٥٦م[٣] .

وكانت القافلة التي تضم كبار الأمراء تكون كثيرة النفع للحجّاج لأنهم يحتمون بهؤلاء الأمراء ويصل إليهم برّهم ونادرا ما يتعرّض لهم الأعراب أو حكام مكة .

ففي سنة ٥٥٦هـ – ١١٦١م حج من الشام أسد الدين شيركوه والأمير زين الدين علي من العراق ، وسليم أخو وزير مصر الأول : ضرغام ، فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير ، واستغنى أهل الحجاز بسببهم ، وعاد أسد الدين سالماً ، وخرج نور الدين إلى لقائه[٤] .

ولكن يبدو أن الكوارث التي يتعرّض لها الحجاج ، والتي استمرّت حتى أواخر العصر العثماني ، كانت هي الأغلب .

ذلك أنه بالإضافة إلى صعوبة الطريق وطوله وشدّة الحرّ ، كانت القافلة تتعرّض لمضايقات شتى من العربان وغيرهم ، ثم انضم إليهم الصليبيون .

ففي سنة ٤٨٦هـ – ١٠٩٣م وهي السنة التي انقطع فيها الحج من العراق ، سار الحجاج من دمشق بصحبة أحد أمراء السلطان تاج الدولة تتش ويدعى : الأمير الخاني الذي أكّد عليه السلطان بضرورة حماية الحجاج والعناية بهم[٥] .

وفي سنة ٥٤٥هـ – ١١٥٠م ، وردت الأخبار بأن العرب خرجوا على الركب العراقي بين مكة والمدينة ، واعتدوا على الحجاج وأخذوا منهم مالا يحصى ، حتى إنه أُخذ من خاتون أخت السلطان مسعود ما قيمته ١٠٠,٠٠٠ دينار .

---

[١] - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٦٤ .**
[٢] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٠٥ .**
[٣] - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥١١ .**
[٤] - **أبو شامة : عيون الروضتين ، ج١ ، ص٢٥ .**
[٥] - **العظيمي : تاريخ حلب ، القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٢٠٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٣٧٢ .**

ومات معظم الحجاج جوعاً وعطشاً وبرداً ، وطلى بعض النساء أجسادهن بالطين طلباً للسترة ، ووصل إلى دمشق من سلم منهم ، فحكوا ما نزل بهم من المصيبة ، وأنه كان من ضمن الحجاج وجوه خراسان وعلماؤهم ونساء وبنات وأميرات .

ولقد بادر أمراء دمشق وأعيانها وعامتها إلى تقديم كامل المساعدة لهؤلاء الحجاج وأطلقوا لهم ما يكفيهم للوصول إلى بلادهم ، وذكر القلانسي أن ذلك كان في شهر المحرم[١] .

وكان الأمير مظفر الدين كوكبوري يقيم في كل سنة سبيلا للحاج ويسير معه جميع ما تدعو حاجة المسافر إليه في الطريق ، ويسير صحبته أميناً معه ، ٥٠,٠٠٠ أو ٦٠,٠٠٠ دينار ينفقها في الحرم على المحتاجين .

وله بمكة أثار جميلة ، وهو أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف ، وكلفته مبالغ كثيرة ، وعمر بالجبل مصانع للماء ، فإن الحجاج كانوا يتضررون من عدم توفر الماء ، وبنى له تربة هناك ، لكن لم يقدر له أن يدفن فيها[٢] .

وكان حكام دمشق يولون أمور الحج اهتماماً بالغاً ، وذلك على اعتبار أن عودة قافلة الحج بسلام إلى دمشق كانت تعدّ من مزايا الحاكم القوي ، تثبت عرشه ، وتُضفي عليه هالة من القدسية والاحترام .

وكان نور الدين يستقبل قافلة الحج بنفسه إذا لم يكن في الجهاد وأورد العماد الكاتب أن الملك الناصر صلاح الدين استقبل قافلة الحج الشامي يوم الاثنين ١١ صفر ٥٨٩هـ – ١١٩٣م عند وصولها إلى دمشق ، وكان ذلك قبل وفاته بأيام .

وسأل عن أحوال مكة وأميرها وأهلها ، ومقدار ما وصلهم من غلاّت مصر ، وسأل عن الفقراء والمجاورين والمساعدات التي ترسل لهم[٣] .

٩ـ الأحوال الصحّية :

ذكر ابن عساكر في ترجمته لنور الدين الشهيد أنه وقف وقوفا على المرضى والمجانين ، وأقام لهم الأطباء ، وأدرّ على الضعفاء ودور الأيتام الصدقات[٤] .

ومن خلال دراستنا المفصّلة لأوضاع المشافي والصيدليات والأطباء في دمشق ، يمكننا تسجيل الملحوظات التالية :

– كانت المشافي مخصصة أصلاً للفقراء ، والعلاج فيها مجاني وكذلك الدواء .

[١] ـ القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٤٨١ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص١٣٦ .
[٢] ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١٣٧ .
[٣] ـ العماد الأصفهاني : الفتح القسي ، ص٦٢٦ ، أبو شامة : عيون الروضتين ، ج٢ ، ص٢٨١ .
[٤] ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٥٧ ، ص١٢ .

- كان الأمراء والأغنياء يعالجون في دورهم ، حيث يزورهم الأطباء ويدفعون لهم الأجر ملفوفاً في القماش حتى لا يطلع عليه الطبيب أمام المريض ، وكان الطبيب لا يُراجع المريض فيما دفعه .

فقد ذكر عن الطبيب اليهودي أبي الفضائل بن الناقد أنه دار يوماً على المرضى الذين يعالج عيونهم ، ولما عاد أخرج قراطيس كثيرة مصرورة يفتح واحدة واحدة ، فمنها ما كان فيه الدينار ، ومنها ما كان فيه الأكثر ومنها ما فيه الدراهم وبعضها فيه الفلوس ، وهي أدنى العملة ، وقد قال :

والله لا أعرف الذي أعطاني الذهب أو الدراهم أو الكثير أو القليل[١] ، لأن الأطباء كانوا يرون تحديد الأجر أمراً يتنافى مع قدسية المهنة .

وكان الأطباء بصورة عامة يتمتعون بمزايا إنسانية عالية فقدت هذه الأيام ومنها :

- وجود الوازع الديني والانساني والمهني الذي كان يمنعهم من الاتجار بآلام الناس .

- المتابعة الدقيقة من المحتسب ونظار المشافي وصاحب الوقف الخيري الذي أوقف المشافي وما فيها من صيدليات .

- انعدام الدافع المادي عند الأطباء ومشافي الدولة ، ومعالجة الفقير قبل الغني ولو لم يملك شيئاً[٢] .

وذكر الطبيب علي بن النقاش بعض الحكم الطبية شعراً ، من ذلك قوله :

إذا وجد الشيخ في نفسه نشاطاً ، فذلك موت خفي

الست ترى أن ضوء السّراج له لهب قبل أن ينطفي[٣]

وقال الأمير أسامة بن منقذ شعراً لابن النقاش المذكور يطلب منه فيه ، إرسال " دهن البيلسان " إليه :

ركبتي تخدم المهذّب في العلم في حكمة وبيان

وهي تشكو إليه تأثير طوال العمر في ضعفها وطول الزمان

ولها حاجة إلى ما يقوّيها على مشيها من البيلسان

رغبة في الحياة من بعد طول العمر ، والموت غاية الإنسان[٤]

---

١ - ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ص٥٨٠ .
٢ - ابن أبي أصيبعة : المصدر المتقدم ، ص٥٦٤ .
٣ - ابن أبي أصيبعة : المصدر المتقدم ، ص٦٣٥ .
٤ - ابن أبي أصيبعة : المصدر المتقدم ، ص٦٣٦ .

وكان يطبق على الأطباء المهملين والمستهترين عقاب شديد يصل إلى حد الحرمان من ممارسة المهنة أو السجن بتهمة القتل الخطأ إذا تسبب في وفاة مريض بإهماله ، أو دفع الدية لورثة المتوفي .

وكان عدد من الأطباء ، كما سنرى يتقنون الموسيقى وفنونها وربما استخدموها في علاج بعض الأمراض .

وكان الأطباء ينشرون الثقافة الصحية العامة بين الناس عن طريق النصائح والإرشادات الطبية الموجّهة للأطباء والمرضى على حدّ سواء .

فقد ذكر الطبيب علي بن خليفة ، رئيس أطباء البيمارستان النوري بدمشق مجموعة من هذه الإرشادات العامّة ، منها :

- الأمراض ، مثل الإنسان ، لها أعمار .
- والعلاج لايشفي إلا بمساعدة الأقدار .
- وأكثر صناعة الطب : حدس وتخمين ، وليس فيها يقين .
- وأساسها القياس والتجربة ، لا حبُّ الغلبة .
- من يعمل بموجب القياس والتجربة عن المحتال لجمع المال وعلّو المرتبة .
- إذا كنت طبيباً فاجتهد أن تعمل بحسب ما تعلمه علماً يقينياً فإن لم تجد ، فاجتهد أن تقترب من اليقين ما استطعت[1] .

وقال الشاعر فتيان الشاغوري يهجو نصراً الطبيب :

(نصر) طبيب ، ولكن لم يعد أحداً إلا وساق إليه طبّه الأجلا
كم قائل قال : لولاه ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سُبُلا[2]

وهجا أحدهم الطبيب اليهودي سلامة بن رحمون الملقب بأبي الخير فقال :

إنّ أبا الخير على جهله يخف في كفته الفاضل
عليله المسكين من شؤمه في بحر هلك ماله ساحل
ثلاثة تدخل في دفعة : طلعته ، والنعش ، والغاسل

وقال آخر في أبي الخير المذكور :

لأبي الخير في العلا ج يد ما تقصر
كل من يستطبه بعد يومين يقبر

---

[1] - ابن أبي أصيبعة : المصدر المتقدم ، ص٧٤٣ .
[2] - فتيان الشاغوري : الديوان بتحقيق أحمد الجندي – دمشق – مجمع اللغة العربية ١٩٧٦م ، ص٥٨٥ .

والـــــذي غـــــاب عنكـــــــم وشـــــــــهدناه أكثـــــــــــــر[1]

ومن قصص الطب التي كانت تروى في المجالس أن الطبيـب هبــة الله بــن أفــراييم الإسرائيلي ، كان جالساً في حانوته يعالج الناس ، فمرت به جنازة ، فصاح بأهلها : إن الذي تحملونه حي لم يمت ، فأخذوا النعش إلى الحمّام ، وهنالك عالجه هبة الله بالماء الحار والدلك الشديد ، فعاش ، ثم قال لأهله : إن قدمي صاحبكم كانتا قائمتين وتلك علامة الحيّ ، لأن قدم الميت تكون عادة مسترخية منبسطة ، فأدركت أن صاحبكم حيّ[2] .

وذكر الجوبري أن ثمة طائفة من أطباء الطريق ، منهم من يتعاطى تحضير العقــاقير ، ومنهم من يُركّب الأدوية ، ومنهم من يتعاطى تركيب المعاجين أو السفوفات أو الترياق .

والذين يتكلمون على العقاقير منهم فضلاء وسادات ولهم معرفة بجميع النباتات ومنافعهــا ومضارها ، وهم يعرفون الأعشاب بالنظر وليس عن طريق الكتب كما هو حــال الحكمــاء والطبائعيين الذين يعرفون الأعشاب من الكتب لا النظر .

وكان يوجد بين هذه الطائفة من لاخلاق لهم ممّن يتلاعبون على الناس بأدوية مزعومــة خادعة[3] .

يقول الجوبري :

((إن هناك طائفة من اليهود ، ممن يتعاطى الطب من يستدرجون المريض ، ويعطونــه مادة منوّمة تؤدي إلى وفاته ويكون ذلك بالاتفاق مع زوجة المريض أو أقربائه ، ثم يقــبض الطبيب مكافأته على ذلك من الورثة ... وفيهم من إذا عزم على شفاء المريض أعطــاه دواء يسارع في شفائه . وبالمقابل ، إذا لم يرغب ذلك الطبيب بشفاء المريض لهذا الــسبب أو ذاك يعطيه دواء يهيج أمراضه ، ولا يزال يخرجه من مرض ويدخله في مرض حتى يــستنزف ماله كله . ومنهم من يركب دواء إذا قدمته المرأة لزوجها يبقى مسلوبا لا يعلم ما يقال له ولا ما هو فيه ، ويبقى كذلك مدة طويلة[4])) .

وسنتحدث فيما يلي عن مشافي دمشق موضحين دورها الإنساني الذي أنشئت من أجلــه وهو مساعدة الفقراء .

فقد كان في دمشق في المرحلة التي ندرسها عدداً من دور الشفاء التي أطلق عليها اســم البيمارستانات ، التي كان لها نظام دقيق في الإقامة والمعالجة ، وكانت تقوم بــدور إنــساني

1 - **ابن أبي أصيبعة : المصدر المتقدم ، ص٥٦٧ .**
2 - **ابن أبي أصيبعة : المصدر المتقدم ، ص٥٧٧ .**
3 - **الجوبري : المختار في كشف الأسرار ، ص١١٧ .**
4 - **الجوبري : المصدر المتقدم ، ص٥٤ .**

راقٍ جعل منها حديث المؤرخين والرحالة والغرباء على ما كانت عليه أمور الطب في ذلــك العهد من تواضع وبساطة .

وهذه المشافي كانت تشمل البيمارستان القديم وبيمارستان نور الــدين ، وأمــاكن إقامــة المجانين ومرضى الجذام ، وغير ذلك ، ثم زادت هذه بيمارستاناً جديــداً هــو البيمارســتان القيمري في الصالحية .

وقد زار ابن جبير في رحلته مستشفى المجانين بدمشق وقال إن لهم أنواعاً من العــلاج ، وإنهم عندما زارهم كانوا مقيّدين بالسلاسل ويعاملون معاملة حسنة وقال إن هذه البيمارستانات من مفاخر الإسلام[١] .

أما البيمارستان القديم أو الدقاقي كما كان يعرف فيقع على يمــين الخــارج مــن البــاب الجنوبي للجامع الأموي ، حيث الصاغة ، وقد نسب بعضهم بناءه إلى معاوية وابنه يزيــد ، وذكره القلانسي في حوادث سنة ٣٦٣هـــ – ٩٧٤م باسم البيمارستان العتيق[٢] ، وربما كان هذا المشفى من عصر ما قبل الإسلام ، جدده الخليفة الوليد بن عبد الملك .

والثابت أن هذه البيمارستان من أقدم المشافي في العالم الإسلامي ، ثم تراجعت أحواله في القرن الخامس الهجري فقام حاكم دمشق دُقاق بن تتش بترميمه وتوسيعه وتجديــد أوقافــه ، فنسب إليه وصار يقال : البيمارستان الدقاقي ، وكان ذلك في حدود سنة ٤٩٥هـــ – ١١٠٢م .

وقد ذهب المؤرخ المستشرق " إيلسيف " إلى هذا الرأي وسماه دار الشفاء[٣] .

وقال ابن جبير أنه كان بدمشق بيمارستان قديم وحديث والحــديث أحفلهمــا بالمرضــى والأطباء وأكبرهما ، وله مثل الجديد أطباء وفيه مرضى ، والأطباء يبكرون إليه ويتفقــدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان مــنهم ، وهذا البيمارستان هو غربي الجامع[٤] . وقد تحوّل هذا البيمارستان فيما بعد إلى مرافق عامة للجامع الأموي ، وهو كذلك إلى اليوم ، كما شاهدت .

ويبدو أن تجديده وإعادة بنائه في ذلك العام كان بسبب الهجمة الصليبيّة علــى الــشام ، وحاجة الدولة إلى مستشفى عام يعالج فيه المرضى والجرحى .

وأما البيمارستان النوري فقد بناه السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فــي العام الذي دخل فيه إلى دمشق ٥٤٩هـــ – ١١٥٤م كما هو مدوّن على لوحة فــي الايــوان

---

[١] - **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٥٦ .**
[٢] - **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص١٢ .**
[٣] - **العلبي : خطط دمشق ، ص٢٥٩ ، ومصادره .**
[٤] - **ابن جبير : المصدر المتقدم ، ص٢٥٥ .**

الشرقي ، وكان واحداً من مفاخر دمشق العمرانية والاجتماعية للدور البارز الذي قام به جرّاء الاهتمام الكامل بطريقة المعالجة فيه أكثر من الاهتمام بعمارته وحجارته[١] .

وقد ذكر القلقشندي من الوصايا التي توجّه لناظر البيمارستان : ((فليباشر ذلك على عادة مباشرته الحسنة ، مثابراً على حسن معالجة المضرور الذي لا تقدر يده عليها ، ضابطا أموال البيمارستان متقدماً إلى الخدّام والقومة بحسن الخدمة للعاجز والضعيف ملزماً لهم بجودة الخدمة ليلا ونهارا ، متقدما إلى أرباب وظائف المعالجة ببذل النصيحة ، وليتفقد الأحوال بنفسه ، ليعلم أهل المكان أنّ وراءهم من يقابلهم على التقصير ... ولتكن تقوى الله هي الأصل والسبب الأقوى فليجعلها ذخيرةٌ له إلى يوم المعاد[٢])) .

هذا عن الوصايا النظرية ، وأما من الناحية العملية وهو ما يهمنا هنا ، ونعني بذلك دور هذا البيمارستان في مجتمع دمشق ، فقد ذكر المؤرخون والرحالة ما يغني عن البيان ، وقدموا وصفاً " على الطبيعة " لما كان يجري في البيمارستان بكل دقة .

فقد ذكر ابن أبي أصيبعة في ترجمة الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم الباهلي أنه ((اشتغل على والده بصناعة الطب حتى صار من أكابر الأطباء ، وكان نور الدين يُجلّه ويحترمه ، وعندما أنشأ البيمارستان الكبير ، جعل أمر الطب فيه إليه ، فكان يدور على المرضى ، ويتفقد أحوالهم ، ويعتبر أمورهم ولا يتوانى عن ذلك ، وبين يديه المشارفون والقوّام لخدمة المرضى ، فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه . وكان بعد فراغه يطلع إلى القلعة حيث يتفقد المرضى من القادة والأمراء ، ثم يعود للبيمارستان ويجلس في الإيوان الكبير وجميعه مفروش ويحضر الاشتغال[٣])) .

وكان نور الدين قد وقف على البيمارستان جملة وافرة من الكتب الطبية ، فكان جماعة من الأطباء يقعدون بين يدي الطبيب أبي المجد ، ثم تجري مباحثات علمية وطبية ، ويُقرئ الطلاب لمدة ثلاث ساعات حتى الغروب ، ثم يعود إلى داره ، وكانت وفاته بعد نور الدين بعام واحد أي سنة ٥٧٠هـ - ١١٧٥م[٤] .

وممن خدم في هذا البيمارستان أيام نور الدين الطبيب علي بن عيسى النقاش أبو المهذب ، وكان أوحد زمانه في صناعة الطب ، وكان يعالج نور الدين ، فعينه في البيمارستان وبقي فيه عدة سنين ، وكانت له صداقة مع الأمير أسامة بن منقذ[٥] كما ذكرنا .

---

[١] ـ **صلاح الدين المنجد : بيمارستان نور الدين ـ دمشق ١٩٤٦ ، ص٣٩ .**
[٢] ـ **القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٢ ، ص٨٣ .**
[٣] ـ **ابن أبي أصيبعة : المصدر المتقدم ، ص٦٢٨ .**
[٤] ـ **الصلاح الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٤ ، ص٢٤ .**
[٥] ـ **ابن أبي أصيبعة : المصدر المتقدم ، ص٦٣٦ .**

وقال ابن جبير إن مخصصات هذا البيمارستان كانت ١٥ دينارا في اليوم ، والخدمة فيه على غرار الخدمة في البيمارستان العتيق لكن هذا أوسع والمرضى فيه أكثر ، وهذه البيمارستانات من مفاخر الإسلام[١] .

وقد ذكر ابن كثير أن من شروط وقف هذا البيمارستان أنه على الفقراء والمساكين ، وإذا لم توجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا يمنع منه من هم بحاجتها ولو كانوا أغنياء .

ومن شروطه الأخرى أنه من جاء مستوصفاً فلا يمنع من شرابه ، ويقال إنه لم تخمد ناره منذ بنائه حتى عصر ابن كثيرسنة ٧٧٠هـ – ١٣٦٨م[٢] .

وقال ابن قاضي شهبة إنه لم تخمد ناره منذ عصر ابن كثير حتى عصره في القرن التاسع الهجري إلا عندما جاء تيمورلنك[٣] .

وفي مدخل البيمارستان كتابة عن تأسيسه وشروطه جاء فيها :

((ومن شروط وقفه الذي أشهد به على نفسه أنه وقف البيمارستان المعروف باسمه ، وجعله مقرّاً لتداوي الفقراء والمنقطعين من ضَعفةِ المسلمين الذين يرجى برؤهم ، وهو يستعدي إلى الله تعالى على من يساعد في تغيير مصارف وقفه وإخراجها عما شرط ..[٤])) .

وكان في البيمارستان أقسام للرجال والنساء وقاعات للأمراض المختلفة ، وقاعة للكحالة وهي أمراض العين .

والبيمارستان كما ذكرنا مخصص أصلاً للفقراء ، حيث يعالجون مجاناً وتقدم لهم الأدوية و الأشربة والأطعمة المناسبة ، مع الاهتمام التام بالنظافة وانتظام العمل ، حتى إن السلطان قلاوون الألفي أبدى إعجابه الشديد به وبنظامه وقدم له دواء من البيمارستان كان شفاء له من القولنج ، فنذر إن هو أصبح سلطاناً أن يبني في القاهرة بيمارستاناً لا نظير له في الإسلام ، فكان البيمارستان المنصوري المشهور ، وكانت زيارته للبيمارستان النوري سنة ٦٧٥هـ – ١٢٧٦م .

وقد طرأت على هذا البيمارستان أحوال كثيرة ، لكنه كان يؤدي دوره الهام في معالجة المرضى في دمشق على مدى أكثر من سبعة قرون كاملة .

وفي سنة ١٣١٧هـ – ١٨٩٩م ، توقف هذا البيمارستان عن العمل بعد بناء المشفى الحميدي في البرامكة والذي عرف يومها بمشفى الغرباء ، ويعرف اليوم بالمشفى الوطني .

---

[١] - **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٥٦ .**
[٢] - **ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٦ ، ص٤٨٦ .**
[٣] - **ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ، ص٣٧ .**
[٤] - **صلاح الدين المنجد : بيمارستان نور الدين ، ص٣٧ .**

ولنور الدين بيمارستان مشهور آخر في محلة الجلوم الكبرى في حلب لا يزال إلى اليوم[1] .

ومن أهم الأمور في هذا البيمارستان ، وجميع البيمارستانات الإسلامية الأخرى مراقبة الأطباء واختبار معلوماتهم وسماع الشكاوى بحقهم .

فقد كان المحتسب يأخذ على الأطباء عهد أبقراط الذي أخذه على سائر الأطباء ، ويحلّفهم ألا يعطوا لأحد من المرضى دواءً مضرّاً ولا يركبوا له سُماً ، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل .

وكان يأمرهم بغض أبصارهم عن النساء عند دخولهم عليهن في البيمارستان ولا يفشوا أسرار المرضى .

وكان المحتسب يمتحن الأطباء بما ذكره حنين بن اسحاق في كتابه المعروف بـ : محنة الطبيب .

وأما الكحالون – أطباء العيون – فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن اسحاق وهو : المقالات العشرة في العين ، فإذا نجح الطبيب في الامتحان ، أذن له المحتسب بمداواة الناس .

وأما المجبرون – أطباء العظام – فكانوا يمتحنون بسؤالهم عن عدد عظام الإنسان وهي ٢٤٨ عظماً ، وصورة كل عظم وشكله .

وأما الجرّاحون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس في الطب ، مع معرفة أعضاء الإنسان والتشريح وما في جسم الإنسان من العروق والشرايين والأعصاب ، كما كان المحتسب يراقب أدوات الأطباء للتأكد من صلاحيتها للعمل[2] .

ومن الأمور الطريفة : أن الغزالي ذكر الطريقة التي كانت متبعة لتسهيل الولادة في حال تعسّرها ، وقال إنها كانت مجرّبة ومفعولها أكيد ، وهو أن يكتب على قطعتين من القماش المربعان التاليان :

ب	ط	د
ز	هـ	ج
و	أ	ح

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

وتنظر إليهما الحامل ثم تضعهما تحت قدميها ، فتتم الولادة في الحال[3] .

وبطبيعة الحال ، فإن هذه المشافي كانت لمعالجة حالات محدودة من المرضى من عامة الناس ، ممن يرجى شفاؤه كما ذكر ، وقد لا حظنا أن الأغنياء كانوا يعالجون في دورهم أو في القلعة .

---

[1] ـ كامل الغزي : نهر الذهب ـ حلب ١٩٩٢م ، ج٢ ، ص٥٣ .
[2] ـ عمر كحالة : الحضارة العربية الإسلامية ـ دمشق ١٩٧٢ ، ج٥ ، ص١١٠ .
[3] ـ محمد الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج٥ ، ص٦٠ ، وهذه الطريقة لا علاقة للطب والشرع بها .

ولكن عندما كانت الأوبئة تجتاح دمشق كان الناس يلجؤون إلى دكاكين العطارين من واقع إلمامهم بمبادئ العلاج بالأعشاب ، أو لثقتهم بالعطارين الذين كانوا يمارسون مهمة الطبيب والصيدلي في آن معاً ، ولاسيما في الحالات الوبائية العامة .

ففي تشرين الثاني سنة ٥٤٧هـ – ١١٥٢م ، تغيّر الهواء والماء في دمشق ، وعرض لأهلها الحمّى والسّعال ، فعمّ الكبير والصغير ، حتى وقع الزحام على حوانيت العطارين لتحصيل الدواء .

وحكى الحاكي أن بعض العطارين باع ٣٨٠ وصفّة من العطارة في يوم واحد .

وهذا المرض يقيم في الإنسان أسبوعا ، إما أن يموت في نهايته أو يشفى ، وصعب أمر المغسلين والحفارين ، واحتيج إليهم لكثرة الموتى[١] .

وفي ربيع الآخر سنة ٥٤٩هـ – ١١٥٤م ثار في دمشق مرض الحميات ، منه ما يطول ومنه ما يقصر وأعقبه موت في الشيوخ والشباب والصبيان[٢] .

ومن المناسب أن نعرض هنا جانباً من أمور الطب كما كانت عند الصليبيين ، أيام كان البيمارستان النوري والعتيق يعالجان الناس بالأسلوب العلمي والإنساني الراقي كما قدمنا ، للمقارنة والعبرة .

وقد ذكر الأمير أسامة بن منقذ أن صديقه حاكم طبرية الصليبي وصديق الأمير معين الدين أنر المدعو : (كليام دبور) قال له :

((كان عندنا في بلادنا فارس كبير فمرض وأشرف على الموت ، فجئنا به إلى قسّ كبير من قسوسنا ليعالجه ، ونحن موقنون أنه إذا وضع يده عليه عوفي . فلما رآه قال : أعطوني شمعاً ، فأحضرنا له الشمع فليّنه ووضعه في أنف الفارس فمات . فقلنا له : لقد مات !!! قال : نعم ، كان يتعذب ، فسددت أنفه حتى يموت ويستريح[٣])) .

ثم قال :

((ومرضت امرأة عندهم ، فأرسل إليهم عمي طبيباً نصرانيا يُدعى ثابت ، فعاد وقال : جاؤوا بطبيب إفرنجي وقال لي : أنت ما تعرف تداويها ، ثم قال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعر رأسها فحلقوه ، فلم تشف . فقال : لقد دخل الشيطان في رأسها ، ثم أخذ موسى وشقّ رأسها صليباً ، ووضع عليه الملح فماتت من وقتها ، فقلت لهم : هل بقيت لكم إلي حاجة . قالوا : لا ، قال : فجئت وتعلمت من طبّهم ما لا أعرفه[٤] ....)) .

---

١ - **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٤٩٤ .**
٢ - **القلانسي : المصدر المتقدم ، ص٥٠٨ .**
٣ - **ابن منقذ : الاعتبار ، ص١٧١ .**
٤ - **ابن منقذ : المصدر المتقدم ، ص١٧٠ .**

١٠-المنحرفون والشطّار :

المنحرفون والمنحرفات هم فئة من العامّة سلكوا طريقاً رأوا أنهـا الأسـهل والأقـصر للوصول إلى ما يطمحون إليه من اللذة السريعة والسعادة المنشودة بأيسر سبيل غير عـابثين بقيود المجتمع وتقاليده ، ولم يكن هؤلاء حكراً على دمشق وحدها ، بل كانوا موجودين فـي جميع المجتمعات منذ آلاف السنين ، وما زالوا على حالتهم هذه حتى اليوم في دمشق وغيرها من المدن .

ونقصد بهؤلاء تحديداً بنات الهـوى ، وأصـحاب الـشذوذ ، والـسكارى والحـشاشين والمغامرين ومن إليهم .

ونظراً لعدم اهتمام المؤرخين بأخبار هذه الفئة إلا قليلاً ، فقد وجدنا في دواوين الـشعراء إشارات إلى هذه الفئة ولاسيما المجاهرين بالمعاصي .

فقد ذكر الشاعر ابن الخياط أنه كان بطرابلس يهودي فاسق يقال له " المـورد " وكـان يعيش فيها بين سنة ٤٨٠هـ - ٥٠٠هـ / ١٠٨٧م - ١١٠٦م ، وبحسب رواية الـشاعر ، فإنه كان زير نساء يغوي نساء المسلمين وأولادهم ، فاستعدى الشاعر عليه صاحب طرابلس وقاضيها جلال الملك عليّ ابن عمّار يحذره من هذا المورد الذي أغوى البنات والبنين :

ألا مـن مبلـغ عنـي عليّـاً وقـاه الله صـرف النائبـات
أصـغ لبثّـك الإسـلام شـكوى تلـين لهـا قلـوب القاسـيات
و"للمـورد " الملعـون ورد سـوى أبنـائهم بعـد البنـات
يبيـت مجـاهراً بالفـسق فـيهم فتحـسبه يطالـب بـالتّراتِ[١]
بأيـة حجـة أم أي حكـم أحـل لـه سـفاح المـسلمات
فقـد مـلأ الـبلاد لـه حـديث يـردّد بـين أفـواه الـرواة[٢]

وفيما يتعلق بالنساء " المتحررات " واللواتي كُنَّ يُسمّين في دمـشق بالمغـاني والبغايـا والقيان ، فإن المؤرخين الرسمين تجاهلوا ذكرهن جرياً على عاداتهم بعدم إفراد تراجم لهـذه

---

[١] ـ الترات : الثأر ، أي كأنه يريد الثأر من المسلمين .
[٢] ـ ابن الخياط : الديوان ، ص٤١ حتى ص٤٣ ، والقصيدة طويلة .

الفئة وتوابعها من المغنيين والموسيقيين ومن يرونه " منحرفاً " أو " متحرراً " من عادات المجتمع وقيمه وتقاليده .

وهذا لايعني أن تلك الفئة لم تكن موجودة ، ذلك أن ابن شداد ذكر أنه كان في حيّ العقيبة بدمشق خان يعرف بخان الزنجاري ، وهو قديم ، وكان به كل مكروه من القيان وغيره ، فعمد الملك الأشرف الأيوبي موسى ، إلى شرائه وهدمه ثم بنى مكانه " جامع التوبة " وهو باقٍ إلى اليوم[١] .

وقول ابن شداد إن الخان قديم يعني أنه كان موجوداً في أواخر المرحلة التاريخية التي ندرسها .

ويبدو أن خطيب الجامع ، كان يشرب الخمر ، والقيم عليه كان يغني بالجفانة ، فنظم الشاعر ابن عُنين قصيدة وجهها إلى الملك الأشرف قال فيها على لسان الجامع :

يا مليكاً ملأ الرحـ	ـمن بالعدل زمانه
جامع التوبة قد	حمّلني منه أمانة
قال : قل للملك الأشـ	ـرف ، أعلى الله شانه
لي إمام واسطي	يعشق الخمر ديانه
والذي قد كان من	قبلُ يغني بالجفانة
فأعدني النمط الأوّ	لَ ، واستبق ضمانهْ[٢]

والبيت الأخير يشير بوضوح إلى ما يعرف بضمان المغاني وقد ذكر المقريزي هذا الأمر بوضوح ، فقال :

– إنه كان على كل مغنية قطيعة تحملها إلى الضامنة – وهي التي تضمن المغاني مقابل مبالغ معلومة .

– فإن باتت المغنية في غير بيتها ، قدّمت المال للضامنة التي كان لها أعوان يتفقدون كل ليلة دور المغاني ويخبرونها بأسماء " الغائبات " عن دورهنّ .

– والمشكلة أنه إذا دفعت الغانية ما عليها من رسوم جاز لها التجاهر بما تفعل من الزنا وشرب الخمر دون أن يجرؤ أحدٌ على منعها[٣] .

وذكرنا أن نور الدين ألغى رسم الخمور في أواخر حياته ، أي أنه كان منتشراً في أيامه .

---

[١] - **ابن شداد : تاريخ دمشق ، ص٨٧ .**
[٢] - **ابن شداد : المصدر المتقدم – الصفحة نفسها .**
[٣] - **المقريزي : السلوك ، ج٣ ، ص٢٦٦ ، والخطط ، ج١ ، ص٢٨٦ .**

ويبدو أن " المغاني في دمشق " من سكان خان الزنجاري وبالتحديد " بنات الخطـا " قـد نقلن إلى قيسارية ابن الصقر التاجر في حارة البغيل جنوب جامع التوبة .

ثم نقلن إلى منطقة " الشرف الأعلى " بجوار جـامع الطاووسـية ، وكمـا يقـول ابـن طولون :

((نقلوا الناس من منازلهم واسكنوا بنات الخطا[١])) .

وقال ابن الأبار المتوفى سنة ٥٢٣هـ – ١١٢٩م في واحدة من بنات الهوى بدمـشق ، كانت تقيم في الدرب الذي يقيم فيه وهو درب ابن الصامت :

فـي درب صـامت ...[٢] قد أشـبعت كـل المدينـه

ولهـا أخ فـي رأسـه قـرن ، ولا صـاري الـسفينة

يرضـى بمـا ترضـى بـه و يبـع عنبلهـا بتينـه[٣]

ومن أخبار النساء المنحرفات في دمشق ما ذُكر أن منهن من تضع ما يسمّى بالعلفة مـن بزر الخس والخشخاش وبزر البصل ، ثم تدقه ، فإذا وضعته في أي طعام نام من يأكله لفوره .

وكان منهن من تتزين وتخرج إلى الأسواق ، فإذا رأت إنسانا غريباً ، أو عليه علامـات اليسار ، جرّته إلى بعض الأزقة ثم قالت له :

إن زوجي قد تزوّج علي ، وأنا أريد أن أغيظه ، وأنا أجيء معك إلى أي مكان ، وليست هذه عادتي ، وما لي في الأمر يد ، ولكني شديدة الغيرة وأريد أن أغيظ زوجي ، ثم تتبـاكى وتنتحب فيأخذها الرجل إلى داره فتقدم له الضيافة التي تحملها فينام في الحال فتسلبه ما معه وتخرج .

وإن كان الرجل غريباً أخذته إلى مكان تعرفه هي وسيّدها الذي تشتغل لحسابه وتقدم لـه الطعام وتسلبه ما يملك وتخرج[٤] .

وذكر الجوبري نماذج من حيل النساء وجسارتهن ، فقال : ((إنه كان مع أصحابه فـي مجلس أنس ولهو وكانت معهم بعض النساء ، فاستدعى الجوبري امرأة يعرفها وقومه لتسمر معهم وتبيت عندهم ، فلم تلبث أن دخلت عليهم المجلس فجلست على الصفّة تخلع نعلها فلمّـا خلعت فردة رأت زوجها ضمن الحاضرين في المجلس ، فلم تتغيـر ولا ارتـدت ولا تـأثر وجهها ، وبادرت بخفها إلى زوجها تضربه به حتى غاب عن رشده ، ثم جرته مـن لحيتـه

---

١ - **محمد بن طولون : مفاكهة الخلان – القاهرة ١٩٦٢ م ، ج١ ، ص٢٠ .**

٢ - **وردت هنا كلمة بذيئة نتنزه عن ذكرها .**

٣ - **العماد الأصفهاني : خريدة القصر – قسم شعراء الشام – طبعة ١٩٥٥ ، ص٢٦٣ .**

٤ - **الجوبري : المختار من كشف الأسرار ، ص١٤٣ .**

وخرجت به من المجلس وهي تضربه وتشتمه وتقول إنها دخلت كل المجالس المشبوهة في البلد ، وهي تبحث عنه ، وهو قاعد هنا مع الغواني والفسّاق وأرادت أخذه إلى القاضي بالجرم المشهود ، فترجاها القوم وتوسلوا إليها ، فاشترطت أن يحلف لها زوجها بالطلاق أنه لا يعود إلى هذا المكان فحلف لها ، وعندما طلب منها مرافقته إلى البيت قالت : ما أدخل لك اليوم بيتاً ولا الليلة وأنا ذاهبة إلى أختي لأنام عندها عقوبة لك ولخيانتك .

فأعطاها زوجها نقوداً وانصرف إلى داره وهي تشتمه وتلعنه وتندب حظّها الذي أوقعها فيه . ثم قضت اليوم والليلة في ذلك المجلس بعد أن اشترت للحاضرين ما يأكلونه مع الشراب[1])) .

وقال :

((كان لي صاحب من أهل دمشق ، تعرّف على امرأة متزوجة يغيب زوجها طوال النهار ، فكان يجيئها كل يوم ظهراً وينصرف عصراً وكانت في السابعة عشرة من عمرها .

وفي أحد الأيام وبعد أن أمضى معها ثلاثة شهور ، شاهدت زوجها يدخل من باب الدرب والرجل عندها فوثبت ووثب الرجل فقالت : اقعد واسكت ، وعمدت بسرعة إلى مسمارين في الجدار فعقدت عليهما ملحفة وقالت للرجل : اجلس خلفها ، فجاء زوجها فقال لها : من عندك ؟ فقالت : بنت خالتي ضربها زوجها وجاءت إلى عندي ، وماعندي شيء أطعمها ، فذهب زوجها يأتي بالطعام فانطلق الرجل يريد الباب فمنعته وقالت لابد أن تأكل معنا .

وعاد زوجها ووضع الطعام ، وهي تناول الرجل من تحت الملحفة ولم تكتف بذلك ، بل أصرّت على توصيل ابنة خالتها إلى بيتها والمبيت معها ، ولما غادر زوجها البيت خرجت مع الرجل وباتت عنده في داره)) .

ثم يقول : ((وتزوجت بعد ذلك بنتاً في السادسة عشرة قالت لي الخاطبة إن أباها رجل إمام ، وأمها لم تخرج من دار أبيها منذ أربعين سنة ، والبنت لا تعرف يمينها من شمالها ... فأقمت معها ستة شهور ، وجئت ذات يوم إلى البيت فوجدت ملحفة معلّقة في زاوية البيت ، فقلت من عندك ؟ قالت : بنت أختي جاءت تزورني ، فرفعت الملحفة فإذا تحتها رجل قاعد ، فقلت له : إذا كنت أنت بنت أختها فأنا كنت بنت خالتها ... ثم أنزلته وتركتها ، وحلفت ألا أتزوج بعدها[2] ...)) .

والقصص المماثلة كثيرة ، أوردنا نماذج منها لمعرفة جميع جوانب المجتمع في دمشق .

---

[1] - **الجوبري : المصدر المتقدم ، ص ١٨١ ، والقصص فيه كثيرة عاشها المؤلف في دمشق وغيرها .**

[2] - **الجوبري : المصدر المتقدم ، ص١٨٣ .**

وكان في دمشق طائفة من الشطار والحرافيش ، كانوا يسمون بالساسانيين . وكانت لهم قصص طريفة تكمل صورة المجتمع الدمشقي ، نذكر هنا بعضاً منها .

فقد ذكر الجوبري ((أنه رأى سنة ٦١٣هـ – ١٢١٦م رجلاً من المشعوذين قد أخذ قرداً وعلّمه السلام على الناس والصلاة والتسبيح والبكاء ...

فإذا كان يوم جمعة جاء به إلى المسجد وبسط له سجّادة عند المحراب بعد أن يكون قد ألبسه فاخر الثياب ، والقرد يسلّم على الناس في الطريق وداخل المسجد .

وكلما سأل الناس عن حال هذا القرد قال لهم صاحبه :

إنه ابن ملك من ملوك الهند ، خان زوجته فمسخته قرداً وحلفت ألا تعيده إنساناً إلا بمائة ألف دينار ، وقد جمعت له تسعون ألف دينار ، وبقي عليه عشرة آلاف .

فأقبل الناس عليه وتبرّعوا لصاحبه بالمال ، والقرد في هذه الأثناء يبكي بدموع غزيرة ، وهو يغطي وجهه بمنديل ، فإذا انتهى صاحبه من بلد ، حمله إلى بلد آخر وهكذا ، والناس يصدّقونه فيما يقول لما يرونه من نجابة القرد وحسن ثيابه وأدبه .

وهذه الطائفة تعرف ببني ساسان ، والساساني هو رئيس الشحاذين ، وهو المعتزل الفقير ، والساسانيّون كانوا ممن يحصلون على رزقهم بالحيل والشعوذة[1])) .

وذكر الجوبري أيضاً أنه رأى واحداً منهم جاء إلى المسجد الجامع يوم الجمعة ، ومعه كيس فيه جواهر وقال للخطيب : إنه فقير مفلس لا مال له ، وهو يحتاج إلى المساعدة ، وإنه وهو في طريقه إلى المسجد رأى كيس الجواهر ، وإنه لم يستحل أن يأخذ منه شيئاً على شدة فقره وحاجته . فأكبر الخطيب شهامته ، وطلب من المصلّين مساعدته ، فانهالت عليه الدراهم والدنانير فأخذها وانصرف وكانت أكثر من مائتي دينار .

وعلى أثره جاءت عجوز تبكي وقالت إنها أضاعت مجوهراتها وذكرت عددها ولون الكيس الذي كانت فيه ، فأعطاها الخطيب الكيس .

ثم تبيّن بعد ذلك أن هذه المرأة هي حماة الفقير وأن الأمر بينهما مدبّر[2])) .

وجاء إلى دمشق بعض العجم فأخذ دنانير من ذهب وبردها ثم طحنها ، ثم عجنها بالتراب وباعها إلى أحد العطارين بخمسة دراهم وزعم أنها تسمّى : " طبرمك " وهي تنفع من السموم والأخلاط .

ثم تقرب من السلطان وأقنعه أنه يستطيع تركيب معدن الذهب بشرط ألا يستخدمه السلطان إلا في الجهاد ، وطلب من السلطان مجموعة من العقاقير من ضمنها الطبرمك وذهب معهم

---

[1] - **الجوبري : المصدر المتقدم ، ص٦٣ .**
[2] - **الجوبري : المصدر المتقدم ، ص٦٣ ، وذكر أنه شاهد هذه الحادثة سنة ٦١٦ هـ .**

إلى العطار فاشتراه منه بعشرة دراهم فأخذه وأذابه على النار بحضور السلطان فخرجت منه سبيكة من الذهب .

وعندما نفذ الطبرمك قال العجمي للسلطان إن هذا الطبرمك موجود في جبل في خراسان ، فزوّده السلطان بستين جملاً محمّلة وكتب له الكتب ليأتي بالطبرمك من خراسان ، وانتظر السلطان طويلاً ، لكن هذا العجمي خرج ولم يعد[1])) .

وأما الغزل المذكّر ، فقد كان موجوداً وله أهله .

قال الشاعر القيسراني يتغزّل بغلام صرّاف يهودي :

ظبي بسوق الصرف من أجله ... مهرت في الصرف وفي النقد
ماكنت في صدّي له طامعاً ... لو لم يكن إبليس من جندي
يقول والدنيا في كفّه ... من عنده ؟ قلت له : عندي
وكلمتني عينه بالرضا ... وانعقد الوعد على الوعد[2]

وقال في غلام من لبنان :

بالسفح من لبنان لي ... قمر منازله القلوب
حملت تحيته الشما ... ل ، فردّها عني الجنوب
لم أنس ليلة قال لي ... لما رأى جسدي يذوب
بالله قل لي يا فتى : ... ما تشتكي ؟ قلت الطبيب[3]

ويقول عرقلة الكلبي في أحد الغلمان الأتراك :

يا بدر دجى يحمله غصن أراك ... ما أعجب ما يحلّ بي حين أراك
لا تقتل بالصدود صباً يهواك ... ما للأعراب طاقة بالأتراك[4]

وقال ابن منير الطرابلسي يتغزّل بغلام :

قف قليلاً لأسألك ... من من الأفق أنزلك ؟
صرت في الأرض ماشيا ... بعد ما كنت في الفلك
أيّ شرعٍ أباح طر ... فك ، إتلاف ما ملك[5] ؟

---

[1] ـ الجوبري : المصدر المتقدم ، ص ٨٠ ـ ٨٣ ، وقد اختصرنا القصة كثيرا .
[2] ـ القيسراني : المصدر المتقدم ، ص١٨٥ .
[3] ـ القيسراني : المصدر المتقدم ، ص١١٥ .
[4] ـ عرقلة الكلبي : الديوان ، ص١٠٩ .
[5] ـ ابن منير الطرابلسي : الديوان ، ص٥١ .

وقال الشاعر ابن الساعاتي في مغنٍ ومغنّية حسناوان :

وغـــزال غازلتـــه ظبيّـــــة   لهمـــا فـــي كـــل قلـــب شـــرك

أطلعـــا كأســـين فـــي كفهمـــــا   مـــلء كـــلّ ذهـــب مُنـــسبك

فهـــي بـــدر ، وهـــو شـــمس وهمـــا   كوكبـــا ســـعد ونحـــن الفلـــك[1]

وذكر الجوبري أنه حضر سماعاً في مدينة أنطاكية عملــه بعــض التجــار مــن أهــل الإسكندرية ، وكان المغني صبيّ في الخامسة عشرة يغني على الدفوف والشبابة ، وقد فــتن أهل البلد بحسنه وحسن غنائه ، وكان يتقاضى مائه درهم سلطاني عن عمله في كل ســماع ...ثم ذكر أموراً منكرة لا نستطيع ذكرها ، تجزم بوجود طائفة من المنحرفين في المجتمــع الدمشقي في الحقبة التي ندرسها ، شأنها شأن جميع العصور في جميع البلدان[2] .

أما عن الخمارات والخمور ، فكانت هي الأخرى موجودة في دمشق ، بــدليل أن نــور الدين أمر بإبطالها ، فقال فيه الشاعر ابن صدقة متحاملاً عليه :

أنهيت عن شرب الخمور وأنــت مــن   كـــأس المظـــالم طـــافح مخمـــور

عطّلت كاسات المـــدام تعففـــــاً   وعليـــك كاســـات الحـــرام تـــدور[3]

وقال الشاعر عرقلة الكلبي سنة ٥٦٧هـ – ١١٧١م :

أدر يـــــا طلعـــــة البـــــرد   علينـــا أنجـــم الخمـــــــر

علـــــى فتانـــــه العينـــــين   والخـــــدّين والثغـــــــر

كـــذا فـــي ليلـــة الجمعـــة   بـــل فـــي ليلـــة القـــــدر

مـــع الفتيـــان فـــي الحـــا   نـــات بـــين الطبـــل والزمـــر[4]

[1] ـ ابن الساعاتي : الديوان ج١ ، ص٢٢٩ .
[2] ـ الجوبري : المختار من كشف الأسرار ، ص١٦١ .
[3] ـ أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٥٥ .
[4] ـ عرقلة : المصدر المتقدم ، ص٤٦ .

وقال :

لا راحة لي بغير شرب الراح   من ذي هيف يطوف بالأقداح

يبدو كالصبح وهي كالمصباح   سكران الطرف ذو فؤاد صاح[١]

وكان الناس يقصدون الكنائس والأديرة ، ولاسيما ما كان منها حول دمشق لمشاهدة أعياد النصارى واحتفالاتهم ، وللفرجة على نسائهم والتغزل بهنّ ، وهو ما يعرف بأدب الديارات الذي وضعت فيه مؤلفات كثيرة .

١١-الجريمة والعقاب :

عرف العالم على امتداد رقعته وتاريخه طرقاً شتى لإزهاق الأرواح تختلف بحسب طبيعة المقتول والقاتل ومدى الخطر الذي يشكله الأول على الثاني .

وكانت الأهواء وحظوظ النفس تلعب دوراً مهماً للغاية في اختيار طريقة الإعدام .

ومن هذه الأنواع نذكر :

الضرب بالسيف ، وهذه الطريقة الأكثر شيوعاً في العالم الاسلامي وفي دمشق ، وأحياناً يُحرق الجسد بعد قطع الرأس أو يلقى إلى الحيوانات كما حصل عندما أعدم الوزير المزدقاني في دمشق سنة ٥٢٣هـ - ١١٢٩م .

وهنالك الصلب ، وهو أن يثبت المتهم على لوح من الخشب ، ويعلق في مكان ظاهر حتى يموت ، وقد يقتل أولا ، ثم يصلب بعد ذلك وهذا النوع من العقاب شرع بحق الذين يقطعون الطرق ويقتلون المسافرين وينشرون الخوف والهلع في النفوس ، ولذلك كان يطبق بحق كبار المتهمين من ذوي الجرائم الكبرى ، كما حصل سنة ٥٢٣هـ - ١١٢٩م ، عندما صلب " شاذي الخام " مع نفر من أعوانه على سور دمشق[٢] .

ومن طرق الإعدام الناعمة التي انتشرت في الحقبة التي ندرسها انتشارا واسعا ، القتل بالسمّ ، وقد تأثر المسلمون فيها بالفرنجة الذين برعوا رجالاً ونساءً في تحضير السموم الفتّاكة ، وممن قتل بهذه الطريقة الأمير السلجوقي : دقاق بن تتش .

- وهناك القتل خنقا بالوتر حفاظا على دم المقتول وكرامته !!! .
- وهناك القتل شنقاً .
- وهناك القتل بإلقاء المتهم إلى الحيوانات المفترسة .
- أو تسليط الأفاعي السامة والعقارب عليه .
- أو إدخاله إلى الحمام ومنعه من الخروج منه حتى الموت .

---

[١] - **عرقلة : المصدر المتقدم ، ص١١٠ .**
[٢] - **القلانسي : تاريخ دمشق ، ص٣٥٥ .**

– أو إطعامه طعاما مالحا ومنع الماء عنه حتى يموت .

– أو منعه من الطعام أصلاً حتى يموت .

– أو تغريقه في المياه العميقة ، وهذه الطريقة كانت مخصصة في الغالب للنساء .

– أو قطع شرايينه حتى يموت .

– أو توسيطه ، والتوسيط هو أن يوضع المتهم على ظهره ويثبت بلوح من الخشب معدّ لذلك ، ثم ضربه بالسيف في وسطه فيقطع نصفين ، وكانت هذه الطريقة تطبق بحق قطاع الطرق بالدرجة الأولى ، وقد انتشرت انتشارا واسعا في عصر المماليك .

– وهنالك الإعدام على الخازوق ، وهو شر الأنواع .

وعندما جاء الفرنجة عرفت عنهم أنواع جديدة ومذهلة من القتل منها :

– الضرب بالعصي حتى يموت المتهم ، ثم شنقه وهو ميت .

– والإعدام حرقاً بالنار والمتهم حيّ .

– والإعدام بواسطة سلخ جلد المتهم وهو حي حتى يموت .

– والإعدام بتقطيع المتهم قطعا قطعا وكأنه خروف .

– أما المحكومون بالسجن فكانوا يسجنون في القلعة إذا كانوا خطرين على البلد ، أو في السجون الأخرى خارج القلعة وهي سجون للرجال وأخرى للنساء .

وذكر القلانسي أن صاحب المعزّ ، أمر بسلخ جلد أبي المنجا النابلسي وهو حي ، فسلخ وحشي جلده تبناً وصُلبَ[1] .

١٢– ملامح المجتمع الجديد :

نعني بالمجتمع الجديد هنا المجتمع الشرقي – الغربي أو الإسلامي – الصليبي الذي كان قائماً في المناطق التي سيطر عليها الفرنجة في الساحل السوري .

ذلك أن الحروب الصليبية كانت أكبر لقاء جماعي في التاريخ بين المشرق والمغرب .

فقبل تلك الحروب ، كان اللقاء والاتصال بالغرب مقصوراً على حجاج بيت المقدس والتجار والطلبة والرحالة ، ومن إليهم .

ولكنه عندما جاء الصليبيون إلى المشرق كانوا كما قال بعضهم : إنه كأنّ أوربا اقتلعت وجاءت إلى الشرق . فقد جاؤوا ليقيموا ، ولذلك جاء معهم الخدام والعبيد والأتباع والرحالة والشعراء والأدباء بالإضافة إلى النساء والأولاد والمغامرين .

ولم يعش هؤلاء بمعزل عن المسلمين ، بل عاشوا بجوارهم وبين ظهرانيهم ، وكانت الاتصالات بين المعسكرين لا تنقطع بغض النظر عن الحروب بينهم كما ذكرنا في الحياة

[1] - ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص١٧٢ – ١٧٥ ، وقد تم جمع هذه المعلومات من خلال العديد من المصادر .

الاقتصادية ، وقد اطلع المسلمون على عادات الصليبيين وأخلاقهم وطريقة حياتهم ، فاقتبسوا بعضها ، واستهجنوا بعضها ، وقد زوّدنا أسامة بن منقذ بصور طريفة من حياة الصليبيين ، تركت آثارها في مجتمع دمشق .

وبالمقابل أثر المسلمون بالصليبيين في نواحٍ عديدة ، وذلك لم يتم بسرعة ، وإنما بدأ ينتشر ويؤثر بعد انقضاء السنوات الأولى من الغزو الصليبي ، ومن المؤكد أن السنوات الأولى من هذا الغزو كانت مرعبه سوداء بسبب سيطرة رجال الدين من الصليبيين على مجريات الحرب ودعوتهم الصريحة إلى إبادة المسلمين . وسنعرض فيما يلي صورة المجتمع الصليبي ونظرته إلى المسلمين في بدايات الحروب الصليبية ، ثم نعرض لعادات هذا المجتمع والتأثرات المتبادلة بين الفريقين أو ما يمكن تسميته تجاوزاً بالمجتمع الإسلامي – الصليبي – كما صار بعد عقود من الغزو الصليبي .

يقول البابا أوربان الثاني مسعر الحروب الصليبية :

((إن مهد عقيدتنا وموطن ربّنا وأم الخلاص ، يستولي عليه الآن شعب بدون ربّ ، إنه ابن لجارية مصرية ، وهو يفرض شروطاً قاسية على الأبناء والأسرى و المرأة الحرّة حيث إن العلاقات قد انعكست . إن ما كتب هو : اطرد هذه الجارية وابنها . لقد اضطهد عرق السراسنة – العرب – الشرير التابع للمعتقدات الخرافية النجسة في الأماكن المقدسة حيث ارتكزت أقدام ربنا ... ولقد دخلت الكلاب إلى الأراضي المقدسة وجرى تدنيس المقدسات))[1] .

بهذه الأفكار والخلفيات والحقد الدفين ، عبّر البابا أوربان الثاني في خطابه في المجمع الكنسي الذي انعقد في كلير مونت في حدود سنة ٤٨٨هـ – ١٠٩٥م عن نظرة الصليبيين الحقيقية تجاه المسلمين والعرب .

– فالرسول عليه السلام : هو ابن لجارية مصرية هي هاجر أم إسماعيل

– وأبناء الجارية – يعني العرب – يتحكمون في أبناء الستّ يعني الأوربيين والصليبيين .

ومن عقائدهم الثابتة : اطرد الجارية وابنها ، أي عدم الاعتراف نهائيا بذرية سيدنا إسماعيل والعرب والمسلمين الذين ما هم إلا سراسنة وهو اللفظ الذي كان يطلقه الغربيون على المسلمين منذ انتشر الإسلام .

---
[1] - سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، ص١٧٠ .

وكانت تصرفات الصليبيين في المشرق منطلقة من تعاليم البابا وبطرس الناسك ، وكان الجميع يتبارون في تنفيذ المجازر الجماعية أو الإساءة المتعمدة للرسول العربي الكريم ، مما يذكرنا بما هو حاصل في هذه الأيام .

فعندما سقطت القدس وأقيمت فيها المجازر الجماعية المرعبة ، قال وليم الصوري ، رئيس أساقفة صور ورجل الدين الذي أنيط به نشر المحبة والسلام بين البشر ، قال عن يوم سقوط القدس وما جرى فيها :

((إن هذا اليوم يوم مقدس ، وسيكون اليوم الذي يجب أن يروى فيه كلّ ما قد تنبأ به الرسول وذلك في سبيل مجد المسيحيّة وعظمتها)) .

وذكر ابن العديم ، أن الصليبيين عندما حاصروا حلب سنة ٥١٨هـ - ١١٢٤م بقيادة بلدوين ملك القدس وكبير القوم ما نصّه :

((وأقاموا على حلب يزاحفونها ، وقطعوا الشجر وخرّبوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور المسلمين ، وأخذوا توابيتهم إلى الخيم ، وأحرقوا الموتى بأكفانهم ، وجعلوا التوابيت أوعية لطعامهم وسلبوا الأكفان وعمدوا إلى الموتى فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم مقابل المسلمين وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمّد ، وآخر يقول : هذا عليّكم ، وأخذ أحدهم مصحفاً من بعض المشاهد وقال : يا مسلمون ، أبصروا كتابكم ، ثم ثقبه وشدّه بخطين ، وجعله في مؤخرة البرذون يروث عليه ، وكلما أبصر الروث على المصحف صفق بيديه وضحك زهواً وعجباً ....))[١] .

ومن جهة أخرى ، ذكرت المصادر أسماء قادة ومسؤولين مسلمين ، وصفوا بأنهم أصدقاء للصليبيين .

فقد ذكر وليم الصّوري أن خليفة مصر ، وكما وصفه ((الكافر الأقوى بين جميع الحكام الكفرة)) أرسل إلى الصليبيين عندما كانوا يحاصرون أنطاكية وفداً رسمياً من مصر وقال إنه سرّ كثيراً بالانتصارات التي حققها الصليبيون وبالهزائم التي مني بها قلج أرسلان وسقوط نيقية ، ورأى الخليفة أن خسائر الأتراك مكسب له ، ولذلك أرسل عناصر من أفراد أسرته ليتقدموا بالرجاء إلى القادة لمواصلة حصار أنطاكية .

ويقول وليم :

((كان المندوبون مفوّضون في طمأنة المسيحيين إلى أن الخليفة سيساعدهم بالدعم العسكري والموارد ، بل طلبوا عقد معاهدة صداقة مع الصليبيين ، ولذلك استقبلهم قادة

---

[١] ـ **ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٣٢٤ .**

الصليبيين بالضيافة اللائقة ، وسمحوا لهم بحضور مداولات متكررة معهم ليحـصلوا علـى فرصة لتسليم رسالتهم))[١] .

ثم أرسل الصليبيون وفداً إلى القاهرة مع الوفد المذكور وردّ المصريون بإرسال وفد جديد إلى الصليبيين ، لكن هذا الوفد الجديد ، كان زاهداً في موضوع مساعدة الصليبيين وذلك بعد تحطيم قوة الأتراك وظهور الصليبيين كأكبر قوة في المنطقة ، ولذلك زهد هؤلاء في صداقة الفاطميين ....))[٢] .

ووصف وليم المذكور ، الأمير معين الدين أنر بأنه كان محبا للصليبيين على الرغم مـن أن إحدى بناته كانت زوجا لنور الدين والأخرى كانت زوجا لمجير الدين[٣] .

ومن جهة أخرى ، وعلى الرغم من استمرار الحروب والعداء المتبادل بـين المـسلمين والصليبيين ، فإنه كانت تنمو صداقات إسلامية في معسكر الصليبيين الذين تـأثروا بعـادات المسلمين وبشجاعة فرسانهم ، فكانوا يستقبلونهم في بلادهم كأصدقاء أو فرسان شرفاء ، ولم يكونوا يغدرون بهم كما كانوا يفعلون مع الحكام المسلمين .

ولقد رأينا نماذج ممّا يمكن أن نسميه بملامح المجتمع الجديـد فـي الـشرق والمجتمـع الإسلامي – الصليبي ، وتأثر كل طرف في فصل الحياة الاقتصادية ، ونذكر هنا لمحات من هذا التقارب بين المجتمعين .

يقول الأمير أسامة :

((ومن الإفرنج قوم عاشروا المسلمين ، فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم . فمن ذلك أنى أرسلت صاحباً إلى إنطاكية التي كان صاحبها " تادرس " صديقاً لي ، فدعا صاحبي إلى مائدة أحد الإفرنج من الفرسان القدامى ، فأحضر مائدة حسنة ، فتوقف صاحبي عن الأكـل ، فقال له الفارس : كُلّ طيب النفس ، فأنا ما آكل من طعام الإفرنج ، ولي طباخات مـصريات ما آكل إلا من طبيخهن ، ولا يدخل داري لحم خنزير[٤])) .

ويقول :

((دخلت إلى المسجد الأقصى ، وقد جعله الصليبيون كنيسة وكان في جانبه مسجد صغير ، وفي المسجد فرسان الداوية ، وهم أصدقائي ، فكانوا يخلون لي المسجد الـصغير فأصـلي فيه[٥])) .

وذكر أبو شامة أن الصّوفية كانوا يدخلون ديار القدس للزيارة[١] .

---

[١] ـ سهيل زكار : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٢٩٧ ـ ٢٩٨ .
[٢] ـ سهيل زكار : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٣٩٤ .
[٣] ـ سهيل زكار : المصدر المتقدم ، ج١ ، ص٧٤٤ .
[٤] ـ أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص١٨٠ .
[٥] ـ أسامة بن منقفذ : المصدر المتقدم ، ص١٧٢ .

ولا ندري ماذا كانوا يزورون إذا كان المسجد الأقصى صار كنيسة للفرنجة منذ سنة ٤٩٢ هـ – ١٠٩٩م – حتى حرره صلاح الدين في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ – ١١٨٧م وأعاده مسجداً للمسلمين كما كان ، ووضع فيه المنبر الذي صنعه نور الدين[٢] .

وذكر ابن جبير ما يوضح الصورة التي ذكرناها ، فقال :

((ونزلنا بضيعة من ضياع عكا ، ورئيسها من المسلمين ، وهو معين من جهة الفرنج على من فيها من المسلمين ، فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة عظيمة .

ودخلنا مدينة عكا في أيلول ٥٨٠هـ – ١١٨٤م وحملنا إلى الديوان ، وهو خان معد لنزول القافلة ، وأمام بابه مصاطب مفروشة ، فيها كتّاب الدواوين من النصارى ، وهم يكتبون بالعربية ويتحدثون بها ، ويلقب الواحد منهم بالصاحب وعوملنا برفق ولطف وتودد ، ونزلنا في بيت اكتريناه من نصرانية بإزاء البحر .

وكانت مساجد عكا قد حولها الصليبيون إلى كنائس ، وبقي فيها مكان صغير ، اتخذ مسجداً يجتمع فيه الغرباء لإقامة الصلاة ، وهناك مسجد يجتمع فيه المسلمون والكفار ، عند عين البقر[٣] ....)) .

وذكر أسامة بن منقذ أنه كان يتردد إلى ملك الفرنج – فولك الخامس – ملك القدس ، في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري ، وذلك ليدٍ كانت لوالده على بغدوين والد زوجة فولك المذكور ، فكان الفرنج يسوقون إليه أسراهم من المسلمين ليشتريهم .

وكان سكان ضياع عكا كلهم من المسلمين ، إذا وصل إليهم الأسير أخفوه وأوصلوه إلى بلاد المسلمين .

وهذا يدل على تراجع الهمجية الصليبية أمام الحضارة العربية الإسلامية التي شاهدوها في الشرق ، وهو من باب تأثير المغلوبين بالغالبين .

ومن جهة أخرى ، ومع توالي الأيام ، أخذ الصليبيون يتعرفون على عادات أهل الشام ونظام حياتهم اليومية ، فاقتبسوا منهم أنواع المأكولات الشامية والمشروبات ، وطرق البناء الفخمة .

وقد نقلوا عن أهل الشام استعمال السكر وصنعه ، وكذلك البهارات والفطائر والمعجنات والصابون والأفاوية والتمر هندي والذرة الشامية والعطور الدمشقية .

---

[١] ـ **أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٦٣ .**
[٢] ـ **العماد الأصفهاني : الفتح القسي ، ص١٣٧ .**
[٣] ـ **ابن جبير : الرحلة ، ص٢٧٥ ، أسامة بن منقذ : المصدر المتقدم ، ص١٠٦ .**

وتعلموا بناء البيوت الشرقية الفخمة ، ذات الأروقة المكشوفة والأبهاء الواسـعة والميـاه الجارية المتدفقة من البحيرات التي صارت جزءاً من تصميم القاعات والغـرف الواسـعة ، بحيث يسمع خرير المياه من هذه الدور الواسعة .

واستعانوا بمهارة الدمشقيين لزخرفة دورهم وقصورهم بالزجاج الملوّن والفسيفساء ، كما لبسوا الثياب الشرقية الواسعة ، أسوة بأهل الشام .

وعمد بعضهم إلى تغطية الجدران بالرخام الملوّن وتمويهها بالذهب والمينـا ، وتجميلهـا بالنقوش الزاهية ، حتى غدت منازل الصليبيين ولاسيما النبلاء منهم ، نموذجا للبيت الدمشقي العريق .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعدّاه إلى استخدام أنواع المفروشات المحلية من الطنافس والستائر والفرش والأواني الخزفية والنحاسية المحفورة والمطعّمة ، بالإضافة إلى الأطبـاق والأواني الخزفية والنحاسية والسجّاد والأثاث الشرقي ، ولم ينسوا بناء الحمامات داخل دورهم وهو ما لم يكونوا يعرفونه من قبل ، كما ذكر عند الحديث عن الحمّامات[١] .

[١] ـ زكي النقاش : العلاقات الاجتماعية : الصفحات : ١٤٦ ـ ١٤٨ـ١٥٣ .

الخـــاتـمــــــــــة

والآن ، وبعد أن أتينا على ذكر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في دمشق خلال نحو مئة عام ، ما هي النتائج التي توصلنا إليها ، وما هو الجديد في هذه الدراســة ، ومــاذا قدَّمت للتاريخ العربي الإسلامي ؟

لا يوجد فيما نعلم حتى اليوم ، كتاب واحد تحــدَّث عــن تــاريخ دمــشق الاقتــصادي والاجتماعي في المرحلة الواقعة بين ٤٦٨هــ و ٥٦٩هــ ، وإنما توجـد مؤلفــات تناولــت جوانب من هذه المرحلة ولم تأت عليها كلها .

وبما أنه تقلّب على دمشق في هذه المرحلة أمراء وسلاطين وحكومات مختلفة بدءاً مــن الفاطميين وانتهاءً بنور الدين ، فإننا استطعنا بتتبع الأحداث ومقارنة بعضها ببعض الوصــول إلى الحقائق التالية التي لم تكن واضحة في الأذهان من قبل :

أولاً : لقد استطاعت دمشق أن تقود بنجاح الأمة العربية والإسلامية إلى تلك الانتصارات المتوالية على الفرنجة والتي دُشّنت بملحمة حطين الكبرى ، الأمر الذي جعل دمشق مهــوى أفئدة المسلمين وقلعة الصمود والتصدي في أسوأ مرحلة من تاريخ العرب والإسلام ، مرحلة الغزو الصليبي الشامل والمدمّر للمشرق الإسلامي .

ثانياً : ولقد كان شعار دمشق ، حكومة وشعباً في تصدّيها لتلك الحملات الصليبية الشرسة والوحشية قوله تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّــةً** ﴾ [التوبــة : ٣٦] ، ولذلك تحولت دمشق إلى مدينة للجهاد يتقاطر عليها المجاهدون من المغرب والمــشرق مــن العرب والأكراد والتركمان ، وذلك ردّاً على الحشود الصليبية التي كانت تضم مقــاتلين مــن جميع أنحاء أوربا من القسطنطينية حتى لندن .

وكان مما ساعد دمشق على ذلك أن قرارها كان نابعاً منها ، وأن النــاس كافــة حكامــاً ومحكومين كانوا يشاركون في التخطيط والإعداد لخوض الحرب .

وكانت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية بما تملك من قوّة هائلة بعيدة تماماً عن المشاركة في القتال ، ومثلها الدولة الفاطمية التي هُزمت في جميع المعارك التي خاضتها مع الفرنجــة وذلك لعدم تقبُّل الشام ، ومعها مصر ، لطبيعة تلك الدولة وأفكارها ، وهذا ما دفع حكام دمشق ومن ورائهم أهل الشام إلى الاستبسال في القتال وعدم انتظار الترياق من العراق .

ثالثاً : ومن الأمور اللافتة للنظر أنه على الرغم من وقوف بعض الأقليــات كالموارنــة والأرمن بصورة علنية مع الفرنجة وارتماء الأولين في أحضانهم ، فإن المرحلة التي ندرسها لم تشهد أي نوع من عمليات القتل أو الانتقام من أحد من هذه الأقليات ، بل كان مــنهم مــن اليهود والنصارى علماء وأدباء وشعراء وأطبّاء يعيشون مع إخوانهم بكل أمان واطمئنــان ،

وهو ما يعكس قدراً كبيراً من الحكمة والوعي بين الناس عامة حكاماً ومحكومين ، وهو ما لا نجده الآن في البلاد التي ابتليت بالغزو الصليبي الجديد .

رابعاً : وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد استطاعت دمشق أن تحقق إنجـازات اقتـصادية شاملة في الزراعة والصناعة والتجارة وهو ما جعل الفرنجة يعيدون حساباتهم نحو المـشرق ويقتبسون الكثير من حضارته وعاداته ، وظهرت في ذلك العصر منجزات عمرانيـة كبيـرة تمثلت في المشافي والمدارس والخوانق والمساجد والقصور والمتنزهات ، مما تحـدَّث عنـه الرحالة والمؤرخون طويلاً وأبدوا إعجابهم به عرباً وعجماً .

خامساً : ورغم ظروف الحرب ونفقاتها ، فقد كانت في دمشق رعاية صـحّية مجّانيـة للفقراء من المرضى ، يقوم بها أطباء نذروا أنفسهم لخدمة الناس لا لسلبهم أموالهم والاتجـار بآلامهم .

ولعلّ من أطرف ما يذكر في هذا المجال ، وهو ممَّا لم نعهد له مثيلاً من قبل ، أن أحـد الأطباء عندما كان يعالج الناس في بيوتهم ، كان يُعطي المريض وأهله قرطاساً ليـضع فيـه الأجرة ، ثم يختم القرطاس دون أن يطلع على ما دفعه المريض ، وذلك حفظاً لكرامة الفقراء من المرضى ، وعندما كان يعود إلى داره يفتح القراطيس فيجد فيها الفلوس النحاسية والدنانير الذهبية دون أن يعلم مصدر كلٍّ منها ، وهو قمَّة الذوق والإنسانية .

سادساً : وكما هو الحال في كل زمان ومكان فقد كان في دمشق نساء مجاهدات وعالمات وحاكمات ، كما كان فيها نساء منحرفات ومتحررات كانت لهنَّ مـع أزواجهـنّ وعـشّاقهن قصص ربما لا نجد في هذه الأيام مثيلاً لها .

سابعاً : ومن الملاحظ أن تكوين الشام ومصر الإداري كما أصبح في عصر الأيـوبيين والمماليك ، يعود في أصوله إلى عصر نور الدين الذي أرسى قواعد الحكم وكـان النمـوذج الذي يحتذى أمام الحكام الذين خلفوه وأمام أهل الشام ومصر .

ثامناً : وأخيراً ، وإن من أهم ما توصلنا إليه في هذه الدراسة أنه كانت بدمشق دار للعدل ، تنصف الضعيف من القوي والمحكوم من الحاكم ، وتمنع طغيان أعوان الحكام الذين هم شرّ الناس في كل زمان ومكان ، وهو ما حفظ كرامة الناس وجعلها يلتفُّون حول حكامهم ويتفانون في الدفاع عن البلد الذي يحفظ دينهم وكرامتهم وحرِّيتهم .

والحمد لله رب العالمين

مصادر ومراجع البحث

ــ ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء – بيروت – دار الحياة – لا تاريخ .

ــ ابن الأثير : الكامل في التاريخ بتحقيق الدكتور عمر عبد السلام التدمري – دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٩٧م .

ــ ابن البيطار : تحفة ابن البيطار – القاهرة ١٩٩٢ م – دار الفضيلة .

ــ ابن الجوزي : المنتظم – تحقيق محمد عطا ومصطفى عطا – دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢م .

ــ ابن الجوزي : تلبيس إبليس – القاهرة – المطبعة المحمدية ١٣٦٨هـ .

ــ ابن الجوزي : مختصر لقط المنافع – دار المأمون – دمشق ١٩٨٧م .

ــ ابن الخياط : الديوان – تحقيق خليل مردم بيك – دمشق ١٩٥٨م .

ــ ابن الساعاتي : الديوان – تحقيق أنيس المقدسي – بيروت ١٩٣٨م .

ــ ابن الطوير : نزهة المقلتين في أخبار الدولتين ، تحقيق أيمن فؤاد السيد – شتوتغارت ١٩٩٢م .

ــ ابن القلانسي حمزة بن علي التميمي : ذيل تاريخ دمشق ٣٦٠- ٥٥٥هـ بتحقيق الدكتور سهيل زكار – دار حسان – دمشق ١٩٨٣ .

ــ ابن بطوطة : الرحلة – الرباط ١٩٩٧م .

ــ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٢ م – ١٦ج .

ــ ابن جبير : الرحلة – دار صادر – بيروت ١٩٥٩ .

ــ ابن خلكان : وفيات الأعيان – تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت ١٩٦٨ .

ــ ابن رجب الحنبلي : الذيل على طبقات الحنابلة ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن العثيمين – مكتبة العبيكان – الرياض ١٤٢٥هـ .

ــ ابن سعد : الطبقات الكبرى – بيروت ١٤١٠هـ .

ــ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة – قسم – تحقيق سامي الدهان .

ـ ابن شداد : الأعلاق الخطيرة – قسم دمشق و لبنان وفلسطين ، بتحقيق سامي الدهان ونشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق .
ـ ابن طولون : القلائد الجوهرية – تحقيق الشيخ محمّد دهمان ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ، ط ٢ سنة ١٩٨٠م .
ـ ابن عابدين : الحاشية – طبعة بيروت ١٩٩٨م .
ـ ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور – تحقيق مراد كامل – القاهرة ١٩٦١م .
ـ ابن عبد الهادي : نزهة الرفاق – تحقيق صلاح الخيمي – دمشق ١٩٨٨م .
ـ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق علي شيري – دارُ الفكر – بيروت ١٩٩٥م .
ـ ابن عساكر : تبيين كذب المفتري فيما ينسب إلى الإمام الأشعري بيروت ١٩٨٤م .
ـ ابن عنين : الديوان ص ٦٩ ، بتحقيق خليل مردم بيك وطبع المجمع العلمي بدمشق ١٩٤٦م .
ـ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار – أبو ظبي ٢٠٠٣م .
ـ ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية . تحقيق محمود الزايد – دار الكتاب الجديد – بيروت ١٩٧١م .
ـ ابن قطلوبغا : الطبقات السنية في تراجم الحنفية – دار القلم دمشق ١٤١٣هـ .
ـ ابن كثير : البداية والنهاية – تحقيق الدكتور عبد الله التركي ، دار عالم الكتب ، الرياض ٢٠٠٣ م الطبعة الثانية .
ـ ابن منير الطرابلسي : الديوان – تحقيق عمر عبد السلام التدمري – المكتبة العصرية في بيروت وصيدا – ط٢ – ٢٠٠٥م .
ـ ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب – تحقيق الدكتور جمال الدين الشياح – القاهرة ١٩٥٣م .
ـ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر – بيروت – لا تاريخ .

ــ أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين بتحقيق الأستاذ إبراهيم الزيبق ، ونشر مؤسسة الرسالة ١٩٩٧م .
ــ أبو يعلى الفراء : طبقات الحنابلة – تحقيق عبد الرحمن العيثمي – الرياض ١٤٢٥هـ .
ــ أحمد الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب – بغداد ١٩٧٨م .
ــ أحمد أيبش : دمشق في نصوص الرحالين – وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٨م .
ــ أحمد إيبش : رحلة الفارس دارفيو – دار المأمون دمشق .
ــ أسامة بن منقذ : الاعتبار – تحقيق فيليب حتّي – جامعة برنستون سنة ١٩٣٠م .
ــ أسامة بن منقذ : الديوان .
ــ أسد رستم : الروم – بيروت ١٩٥٦م .
ــ أسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية – ٥ مجلدات – بيروت ١٩٨٧م .
ــ أسعد بن مماتي : قوانين الدواوين ، طبع القاهرة سنة ١٢٩٩هـ .
ــ الإدريسي : نزهت المشتاق – طبعة بيروت ١٩٨٩م .
ــ الأصفهاني : خريدة القصر ، طبعة ١٩٥٥ قسم الشام .
ــ أمينة البيطار : موقف أمراء العرب بالشام من الفاطميين دمشق ١٩٨٠م .
ــ الأنطاكي يحيى بن سعيد : تاريخ الأنطاكي – وتحقيق عمر عبد السلام تدمري ــ طرابلس – لبنان ١٩٩٠م .
ــ البدري : نزهة الأنام في محاسن الشام – دار الرائد العربي – بيروت ١٩٨٠م .
ــ البديري : حوادث دمشق اليومية : تحقيق أحمد عزت عبد الكريم ، دمشق ١٩٥٩م .
ــ البكري : المسالك والممالك – الدار العربية للكتاب ١٩٩٢م .
ــ بطرس البستاني : دائرة المعارف – بيروت – لا تاريخ .
ــ بنيامين التطيلي : الرحلة ، ترجمة عزرا حدّاد ، تحقيق عبد الرحمن الشيخ ، الإمارات – أبو ظبي – المجمع الثقافي سنة ٢٠٠٢م .

ـ تقي الدين المقريزي : السلوك ، بتحقيق محمد مصطفى زيادة – القاهرة ١٩٥٧م .
ـ جعفر بن علي الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة – بيروت ١٩٩٩م .
ـ الحافظ المزّي : تهذيب الكمال – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٣هـ .
ـ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية – القاهرة ١٩٨١م .
ـ الدبس يوسف : الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصّل – بيروت ١٩٩٤م .
ـ الدمياطي : المستفاد من ذيل تاريخ بغداد – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٨م .
ـ الذهبي : المختصر من تاريخ بغداد – بيروت ١٩٨٥م .
ـ الذهبي : تاريخ الإسلام – تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٩٤م .
ـ الذهبي : سير أعلام النبلاء – مؤسسة الرسالة – دمشق ١٩٨٢م .
ـ الذهبي : معجم شيوخ الذهبي – تحقيق روحية السّيوفي – بيروت ١٤١٠هـ .
ـ الربعي أبو الحسن علي بن محمد : فضائل دمشق والشام بتحقيق الدكتور صلاح المنجد وطبع المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٥٠م .
ـ الريحاوي عبد القادر : قصور الحكام في دمشق . مجلة الحوليات السورية ، العدد ٢٢ .
ـ الزركلي : الأعلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط١٢ ، ١٩٩٧م .
ـ رائف نجم وآخرون : كنوز القدس – عمان ١٤٠٣هـ .
ـ زكي النقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية – بيروت – ١٩٥٨م .
ـ زيغريد هونكه : فضل العرب على الغرب – القاهرة ١٩٦٤م .
ـ زين الدين المناوي : الطبقات الصغرى – بيروت ١٩٩٩م .

ـ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان – صفحات نشرها الدكتور سهيل زكار في كتابه عن الحروب الصليبية .
ـ السبكي : طبقات الشافعية ، بتحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي الطبعة الثانية ، دار هجر ، القاهرة ١٩٩٢م .
ـ ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية – تعريب السيد الباز العريني – بيروت ، دار الثقافة ط٢ – ١٩٨٠م .
ـ ستيفن ريدر و ياسين السواس ومأمون صاغرجي : معجم السماعات الدمشقية ، وفيه تتبع الباحثون السماعات الموجودة في المكتبة العمرية ، والتي نقلت مخطوطاتها إلى مكتبةالأسد ، والكتاب طبع في المعهد العلمي الفرنسي العربي B O . E. بدمشق سنة ١٩٩٦م .
ـ سمير عبده : المسيحيون السوريون خلال ألفي عام ، دمشق سنة ٢٠٠٠م .
ـ سهيل زكار : إمارة حلب – دار الكتاب العربي – دمشق ١٩٨٨م .
ـ سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية ، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار – صنّفه باللاتينية وليم الصوري رئيس أساقفة صور ، ونقله إلى العربية وقدم له الدكتور سهيل زكار ، دار الفكر – الطبعة الأولى .
ـ السيد الباز العريني : والي المدينة ، ملحق بكتاب الشيزري نهاية الرتبة .
ـ السيوطي : بغية الوعاة ، طبع دار الخانجي بالقاهرة سنة ٢٠٠٥م .
ـ الشهاب أحمد النويري : نهاية الأرب – وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، لا تاريخ .
ـ الشيخ محمد دهمان : في رحاب دمشق ، دار الفكر بدمشق ١٩٨١م .
ـ الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، طبعة مصورة في دار الثقافة في بيروت سنة ١٩٨١ م عن طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة التي حققها الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والسيد الباز العريني .
ـ شيخ الربوة : نخبة الدهر – دار إحياء التراث العربي في بيروت ١٩٨٨م .

ـ الصابي غرس النعمة : عيون التواريخ رواية سبط ابـن الجـوزي – رسـالة ماجستير – تحقيق سميحة أبو الفضل ، بإشراف الدكتور سهيل زكـار – جامعـة دمشق – كلية الآداب سنة ١٩٨٧م .
ـ صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات – طبعة ألمانيا وتحقيق إحسان عبـاس ١٩٨٢م .
ـ صلاح الدين الصفدي : أمراء دمشق في الإسلام ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، وطبع المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٥م .
ـ صلاح الدين الصفدي : تحفة ذوي الألباب فيمن حكـم دمـشق مـن الخلفـاء والملوك والنوّاب ، تحقيق إحسان خلوصي وزهير حمـدان ، منـشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٩٢م .
ـ صلاح الدين المنجد : بيمارستان نور الدين – دمشق ١٩٤٦م .
ـ صلاح الدين المنجد : خطط دمشق – بيروت ١٩٤٩م .
ـ صلاح الدين المنجد : وقف القاضي أسعد بن المنجا الحنبلي – بيروت ١٩٤٩م .
ـ الضبي : بغية الملتمس – بيروت ١٤١٠هـ .
ـ العظيمي : محمد بن علي : تاريخ حلب – تحقيق إبراهيم زعـرور – دمـشق ١٩٨٤م .
ـ عباس أبو صالح : تاريخ الموحدين – بيروت ١٩٨٠م .
ـ عبد الرحيم الجوبري : المختار من كشف الأسرار .
ـ عبد الله الموصلي : الاختيار لتعليل المختار – دار الخير – دمشق ١٩٩٨م .
ـ عرقلة الكلبي : الديوان – تحقيق أحمد الجندي – طبع مجمـع اللغـة العربيـة بدمشق ١٩٧٠م .
ـ العلبي : التقويم والتأريخ – دار المصادر – بيروت ١٩٨٩م .
ـ العلبي : خطط دمشق – دار الطباع – دمشق ١٩٨٩م .
ـ العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين : – الشركة المتحدة – دمـشق ١٩٨٢م .

ـ العماد الأصفهاني : الخريدة – شعراء الشام – تحقيق شكري فيصل وطبع مجمع اللغة العربية ١٩٦٨م .
ـ العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي – تحقيق رمضان ششن – بيروت ١٩٧١م .
ـ العماد الأصفهاني : خريدة القصر – دمشق ١٩٥٥ م – قسم الشام – تحقيق الدكتور شكري فيصل – طبع المجمع العلمي العربي .
ـ العهد القديم : أخبار الأيام الثاني .
ـ علي الربعي : فضائل الشام ودمشق – تحقيق صلاح الدين المنجد – دمشق المجمع العلمي العربي ١٩٥٠م .
ـ علي الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات – دمشق ١٩٥٣م طبع المعهد العلمي الفرنسي بعناية جانين سورديل .
ـ عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية – بيروت ١٩٨٠م .
ـ عمر كحالة : الحضارة العربية الإسلامية – دمشق ١٩٧٢م .
ـ غريغوريوس العبري : تاريخ مختصر الدول – بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٨م .
ـ الغزالي : إحياء علوم الدين – تحقيق عبد الله الخالدي – دار الأرقم بيروت ١٩٩٨م .
ـ الغزالي : المنقذ من الضلال – القاهرة ١٣٧١هـ .
ـ الغزالي : فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة – تحقيق محمود بيجو – دمشق ١٤١٣هـ .
ـ الفارقي أحمد بن يوسف : تاريخ الفارقي – تحقيق بدوي عبد اللطيف – دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٧م .
ـ فتيان الشاغوري : الديوان بتحقيق أحمد الجندي – دمشق – مجمع اللغة العربية ١٩٧٦م .
ـ فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين – بيروت ١٩٨٣م .
ـ قاسم السامرائي : الطباعة العربية دبي ١٩٩٦م .

ـ القاضي عياض : ترتيب المدارك – طرابلس ليبيا ١٣٨٨هـ .
ـ قاموس الكتاب المقدس – بيروت ١٩٨١ م – ط٦ .
ـ قتيبة الشهابي : نقود الشام – وزارة الثقافة بدمشق سنة ٢٠٠٠م .
ـ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن – دمشق ١٤١٥هـ .
ـ قطب الدين اليونيني : ذيل مرآة الزمان – حيدر آباد بالهند ١٩٦٠م .
ـ القزويني : آثار البلاد – دار صادر – بيروت ١٩٦٠م .
ـ القزويني : عجائب المخلوقات – جزءان – دار الألباب ، بيروت – لا تاريخ .
ـ القلقشندي : صبح الأعشى ، تحقيق محمد شمس الدين – بيروت ١٩٨٧م .
ـ كارل واتزنجر : الآثار الإسلامية في دمشق – تعريب قاسم طوير ، دمشق وزارة الثقافة .
ـ كامل الغزي : نهر الذهب – حلب ١٩٩٢م .
ـ كمال الدين ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ٣ مجلدات – حلب ٢٠٠٦م .
ـ مجموعة مؤلفين : متحف دمشق الوطني – دمشق ١٩٦٩م .
ـ مجير الدين الحنبلي : المنهج الأحمد – تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط – دار صادر بيروت ١٩٩٧م .
ـ محمد وصفي زكريا : جولة أثرية في ربوع سوريا – دار الفكر – دمشق ١٩٨٤م .
ـ محمد العروسي : الحروب الصليبية – دار الغرب الاسلامي في بيروت ١٩٩٢ م
ـ محمد باقر الحسيني : العملة الإسلامية – بغداد ١٩٦٦م .
ـ محمد بن طولون : إعلام الورى ، بتحقيق الشيخ محمد دهمان دمشق ١٩٦٤م .
ـ محمد بن طولون : الثغر البسام في معرفة قضاة الشام – تحقيق صلاح الدين المنجد – دمشق ١٩٥٦م .
ـ محمد بن طولون : مفاكهة الخلان – القاهرة ١٩٦٢م .

ـ محمد بن محرز الوهراني – ٥٧٥هـ – رقعتُهُ عن مساجد دمشق بتحقيق صلاح الدين المنجد ، مجمع اللغة العربية – دمشق ١٩٦٥م .
ـ محمد بن نصر القيسراني : ديوانه – تحقيق الدكتور عادل جابر – الزرقا – الأردن ١٩٩١م .
ـ محمد دهمان : تهذيب تاريخ ابن عساكر – بيروت دار المسيرة ١٩٧٩م .
ـ محمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية – بيروت ، دار الفكر ١٩٩٣م .
ـ محمد كرد علي : غوطة دمشق – دار الفكر بدمشق ، ١٩٨٤م .
ـ مركز الوثائق التاريخية بدمشق – السجل ١– السجل ١٨ – السجل ٦٣– السجل ٥١ – السجل ١٦٨– السجل ٩٠٤ .
ـ مروان المدور : الأرمن عبر التاريخ – بيروت ١٩٨٢م .
ـ المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري – مركز الدراسات العسكرية – الطبعة الأولى دمشق ١٩٩٢م .
ـ معجم اللاهوت – بيروت ١٩٨٦ م دار المشرق .
ـ المقري التلمساني : نفح الطيب – تحقيق مريم ويوسف الطويل – بيروت ١٤١٥هـ .
ـ المقريزي : خطط القاهرة – تحقيق أيمن السيد – لندن ٢٠٠٢م .
ـ المنجد : صلاح الدين : المشرق في نظر المغاربة – دار الكتاب الجديد – بيروت ١٩٦٣م .
ـ الموسوعة الإسلامية المعرّبة – دار المعرفة – بيروت ، لا تاريخ .
ـ الموسوعة العربية العالمية : الرياض ١٩٩٦م .
ـ ملكة أبيض : ذكرى ابن عساكر – وزارة الثقافة – دمشق ١٣٩٩هـ بمناسبة مرور (٩٠٠) سنة على وفاة ابن عساكر .
ـ منير كيّال : الحمامات الدمشقية – دمشق ١٩٨٦م .
ـ ميخائيل جميعان : المؤثرات الثقافية الشرفية على الحضارة الغربية – لا مكان ولا زمان للطبع .

ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، إعداد إبراهيم شمس الدين ، بيــروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٩٩٠م .

ـ ناصر خسرو : الرحلة ص ٥٣ – الرياض ١٩٨٣م .

ـ نيكتيا إيليسف والدكتور عبد القادر الريحاوي : خطط دمشق ضمن كتاب ابــن عساكر بمناسبة مرور ١٠٠٠ سنة على ولادة ابن عساكر ، وزارة الثقافة بدمشق سنة ١٣٩٩هـ .

ـ نيكيتا إيلسيف : وصف دمشق ١٩٥٩ م ، والكتاب بالفرنسية وعنوانــه : La Description de Damas .

ـ يوسف النبهاني : جامع كرامات الأولياء – بيروت ١٩٨٣م .